

المحتويات

٥.....	مُتَكَلِّمًا
٧.....	• الشبهة الأولى.....
	الزعم أن عقيدة الإسلام سبب تأخر المسلمين
١٢.....	• الشبهة الثانية.....
	ادعاء أن العقيدة الإسلامية أقرت نزعة التواكل والقعود عن العمل
٢٢.....	• الشبهة الثالثة.....
	الزعم أن الإسلام يُؤلي الإيمان اهتماماً وعناية أكثر من العمل
٣٢.....	• الشبهة الرابعة.....
	ادعاء أن التمسك بالعقيدة الإسلامية رجعية
٣٦.....	• الشبهة الخامسة.....
	ادعاء تأثر العقيدة الإسلامية بعقائد البلاد المفتوحة
٤٠.....	• الشبهة السادسة.....
	ادعاء التماثل بين مفهوم التقوى في الإسلام والرهينة في النصرانية
٤٨.....	• الشبهة السابعة.....
	ادعاء أن الإسلام لم يأت بجديد في عقيدة التوحيد
٥١.....	• الشبهة الثامنة.....
	الزعم أن القرآن يقرُّ عقيدة الفداء النصرانية
٥٤.....	• الشبهة التاسعة.....
	ادعاء اقتباس الإسلام من بعض النساطرة

• الشبهة العاشرة ٦٤

ادعاء التعارض بين العقيدة الإسلامية ومعطيات العلم والفلسفة

• الشبهة الحادية عشرة ٧١

الزعم أن الإسلام يلقي العقل ويخضعه للنصوص الدينية

• الشبهة الثانية عشرة ٨١

ادعاء مناقضة العقل للإيمان في الإسلام

• الشبهة الثالثة عشرة ٨٨

ادعاء التناقض في العقيدة الإسلامية

• الشبهة الرابعة عشرة ٩٤

ادعاء جفاء العبادات في الإسلام ونفي الروحانية عنها

• الشبهة الخامسة عشرة ١٠٦

الزعم أن تقديس الحجر الأسود عبادة وثنية

• الشبهة السادسة عشرة ١١١

استنكار إخفاء المسلم عقيدته خشية الأذى

• الشبهة السابعة عشرة ١١٤

اتهام الإسلام بالكهنوت والوساطة بين العبد وربّه

• الشبهة الثامنة عشرة ١١٩

دعوى معاداة الإسلام لمخالفه وتعصبه ضد العقائد الأخرى

• الشبهة التاسعة عشرة ١٣٥

الاستدلال بشيوع الإلحاد على خطأ العقيدة الإسلامية

• الشبهة العشرون ١٣٨

الزعم أن القرآن الكريم يؤكد فكرة الحلول والاتحاد

- الشبهة الحادية والعشرون ١٤٢
ادعاء أن الله ﷻ كائنٌ في كل مكان بذاته
- الشبهة الثانية والعشرون ١٤٦
إنكار وجود الله تعالى
- الشبهة الثالثة والعشرون ٢٠٣
ادعاء قَدَمَ العالم
- الشبهة الرابعة والعشرون ٢٠٦
إنكار ثبوت عقيدة التوحيد في الشرائع السماوية
- الشبهة الخامسة والعشرون ٢١٣
دعوى اختلاف تصور الإله عند المسلمين عنه لدى سائر الأنبياء
- الشبهة السادسة والعشرون ٢١٧
زعم منافاة العدل الإلهي لمغفرة ذنوب الصائمين
- الشبهة السابعة والعشرون ٢٢٤
الزعم أن تعذيب العصاة يوم القيامة ينافي الرحمة الإلهية
- الشبهة الثامنة والعشرون ٢٢٤
الزعم أن التوبة والغفران لا قيمة لهما إذا كانت جهنم موعداً للناس أجمعين
- الشبهة التاسعة والعشرون ٢٢٨
الزعم أن القرآن مخلوق
- الشبهة الثلاثون ٢٣٤
الفهم الخاطئ لنسبة الإضلال إلى الله تعالى
- الشبهة الحادية والثلاثون ٢٣٦
ادعاء أن إمهال الله ﷻ العصاة إغراء لهم بالمعصية

- الشبهة الثانية والثلاثون ٢٤٠

ادعاء أن خروج آدم من الجنة كان عقاباً لذريته

- الشبهة الثالثة والثلاثون ٢٤٢

إسناد صفات النقص إلى الله ﷻ

- الشبهة الرابعة والثلاثون ٢٤٥

ادعاء وصف الله تعالى بالمكر والخداع

- الشبهة الخامسة والثلاثون ٢٤٧

ادعاء نسبة صفات الحوادث إلى الله ﷻ

- الشبهة السادسة والثلاثون ٢٥٢

ادعاء أن تحويل القبلة دليل على التناقض في فعل الله ﷻ

- الشبهة السابعة والثلاثون ٢٥٤

ادعاء نسبة الجهل إلى الله ﷻ في الإسلام

- الشبهة الثامنة والثلاثون ٢٥٨

ادعاء تناقض الصفات الإلهية في العقيدة الإسلامية

- الشبهة التاسعة والثلاثون ٢٦٠

الزعم أن الأخلاق الإسلامية لا تكفي لبناء مجتمع فاضل

- المصادر والمراجع ٢٧١



مُقَدِّمَةٌ

العقيدة الإسلامية هي التصور الشامل الذي يقدم للمؤمن فكرته عن الكون والإنسان والحياة؛ ولما كانت العقيدة بهذه الشمولية كان الخلل الاعتقادي منسحباً على جملة ما انبنى عليه - هذا الخلل - من سلوك وقيم ومفاهيم، ومن ثمَّ كانت هذه العقيدة مرّية لثُهم كثيرة تردُّ عليها من جهات شتى، حتى إذا ضعفت في منطق الذهن، أو في منهج العلم، أو في مشاعر الوجدان لم يبق وجه لاستبقاء ما أسسته في الحياة من تشريعات ونظم، أو لاعتبار ما أحدثته في التاريخ من مدنية وحضارة.

وبدا بذلك أن تنقية هذه العقيدة، وحسن التّأني في عرضها على غير المسلمين، والدفع عنها في وجه من يشيرون أوهاماً عن حقائقها، بدا أن ذلك كله يجب أن يقدم على ما سواه، كما تتقدم الأصول على الفروع، أو كما تتقدم الفكرة على العمل.

من أجل ذلك عولجت - فيما سيأتي - قضايا هي - على تعددها - مشدودة إلى أصل جامع ومعنى شامل، هو القدرة الذاتية لهذا التصور الإسلامي على هداية النفس وطمأنة الضمير، وقدرته - من هنا - على قيادة الحياة ورفعها وترقيتها:

- فمن هذه القضايا ما يتصل بترسيخ الأصل الكبير للتدين، وهو الوجدانية الخالصة لله ﷻ في ذاته وصفاته وأفعاله.
- ومنها ما يتصل بأصالة المعتقد الإسلامي، وأنه غير مقتبس مما كانت تخوض فيه الفلسفات والديانات المبدّلة من حوله.
- ومنها مناقشة كلام يلاّك عن مسئولية الإسلام عن تأخر المسلمين وتخلّفهم، وأنه لم يعد يصلح في عصر التحرّر الذهني والفكر العلمي.

وقد يسوغ أن نُجمل ما انتهت إليه هذه المناقشات في عدة حقائق، وهي:

- أن قضية الألوهية لم تزل بداهة في نظر العقل والعلم والضمير، كما لم تزل النّحلة المادية مذهباً بديئاً في التاريخ، يشهد بذلك عليها تاريخها القديم والحديث، ولم ينفعها أن تزيت برداء العلم بعدما تبين أن الكثرة المطلقة من العلماء التجريبيين هم ممن يقرون بالألوهية ولا يجحدونها.
- وأن الخلط بين الإسلام وواقع المسلمين لا يقوم على وعي سليم بالإسلام، ولا بذلك الواقع نفسه ومسبباته؛ فلذلك لم تكن الدعاوي من هذا القبيل غير تزييف لحقائق هذا الدين، وشهادة عليه بقول زور.
- وأن العقيدة الإسلامية كانت بمَعزَل عن العقائد التي جاورتها في الجزيرة، وأنها لم تثبت شيئاً مما كانت تُشيعه تلك العقائد في شأن الألوهية والسمعيات من أساطير، إلا أن يكون حقّاً بقي من وحي سماوي بدّله أتباعه.

ولسنا - بذلك - ننفي أن طوائف من المسلمين - من بعد - أخذت عن البلاد المفتوحة طرفاً من عقائد أهلها، لكن ذلك يُعزى إلى تلك الطوائف ذاتها، لا إلى الإسلام ولا إلى جمهرة المسلمين وسوادهم الأعظم.

وبعد، فإننا لنترجو أن يخلص للقارئ المسلم من هذا العمل حقيقة أن عقيدته هذه يثبت جدارتها الأمر الواقع وأثرها في التاريخ قبل أن تثبت ذلك الدلائل الجدلية والتدقيقات العقلية، وأنها كانت الحق في الذهن البحت أيام كان النظر العقلي الخالص شغلاً للعقول الكبيرة، ثم كانت الحق في منطق العلم حين صار إليه أمر الفصل بين الحق والخرافة، وظهر أن الإسلام - على هذا وذاك - هو الأصل الثابت، كشجرة طيبة فروعها في أيدي الناس، وأصلها عند الله الكريم.



التفصيل:

الشبهة الأولى

أولا. كلما تمسك المسلمون بعقيدتهم؛ تقدموا. وكلما فرطوا فيها؛ تأخروا:

الزعم أن عقيدة الإسلام سبب تأخر المسلمين (*)

مضمون الشبهة:

لا شك أن هؤلاء لا ينكرون أن المسلمين كانت لهم فتوحات واسعة، وأنهم أسسوا دولة عظيمة، فكيف أمكنهم تأسيسها وحفظها قرونًا عديدة وهم يدينون بعقائد جامدة توجب على المؤمنين بها الموت والشلل؟! ولا يخفى أن القيام ببناء إمبراطورية يقتضي أصولًا وقواعد تقام عليها، وحواظ تحفظ بها، فكيف ساع للعرب ذلك وهم مصابون بالموت والشلل؛ بسبب عقائدهم الجامدة؟! ع

يزعم بعض المشككين أن عقيدة الإسلام جامدة تعوق المسلمين عن التقدم؛ فهي تتحكم في كل مناحي حياتهم اليومية، حتى تحولت الأمة الإسلامية إلى أمة مريضة مشلولة تأتي في ذيل الركب الحضاري للإنسانية؛ بسبب تمسك المسلمين بعقيدتهم المتحجرة.

وجوه إبطال الشبهة:

ولكن هل تحكَّم العقائد الإسلامية في كل ناحية من نواحي حياة المسلم على إطلاقها يُعَدُّ عيبًا في ذاته؟ بالطبع لا؛ لأن هذا الوصف نفسه ينطبق على علم الأخلاق، وعلى دستور الآداب، فتعيرهم للإسلام بهذا الوصف وحده لا يُغني شيئًا من القدح فيه.

(١) كيف يسوغ في العقل أن يؤسس المسلمون إمبراطورية^(١) عظيمة وهم يدينون بعقيدة متحجرة.

إن الأمة العربية عاشت آلافًا من السنين على الحالة القبلية، ثم انقلبت في سنين معدودة - بفضل الإسلام - إلى أمة شديدة التماسك قوية الترابط، فنهضت نهضة قوية تبني لنفسها إمبراطورية لا تشبهها في السعة وترامي الأطراف إمبراطورية في العالم على مدى التاريخ، واستطاعت أن تحتفظ بها قرونًا طويلة.

(٢) دخول الملايين في الإسلام، وتوالي انتشاره في جميع أنحاء الأرض، دليل حي على سمو عقيدته.

إن أمة كانت على تلك الحال من التفكك، ثم آلت إلى ما آلت إليه في سنين معدودة، وتغلّبت على أمم كانت على جانب عظيم من النظام الاجتماعي المدني لا يُعقل أن تكون قد وصلت إلى هذا المستوى الرفيع وهي مجردة من أصول قوية ومبادئ قويمه.

(٣) المنصفون من مفكري الغرب وفلاسفته يشهدون للإسلام بسمو عقائده، وشرف مقاصده، وبُعد غاياته، وكفايته التامة لحاجات العالم الإنساني.

(٤) آيات القرآن التي بين أيدينا تؤكد خلاف ما يذهبون إليه من سير في الأرض، ونظر وتدبر وتأمل وتفكير، وإعمال للعقل، ومحاربة للظن والوهم.

(٥) الإسلام دين العمل والاجتهاد والإتقان، لا التواكل والتكاسل.

(*) حقائق إسلامية في مواجهة حملات التشكيك، د. محمود حدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

١. الإمبراطورية: دولة كبيرة المساحة، كثيرة العدد، عظيمة القوة.

ثانيًا. دخول الملايين في الإسلام دليل على سمو عقائده:

هل دخول مئات الملايين في هذا الدين، وتوالي انتشاره في جميع أنحاء الأرض متغلبًا - دون أي إغراءات مادية أو معنوية - على جميع الملل المنافسة التي ينفق دعائها وممولوها الأموال الضخمة لدخول الناس فيها حتى ولو عن غير اقتناع، هل كل هذا نتيجة تعاليم جامدة لا تدع لأصحابها متنفسًا في الحياة، وتصيبهم بالشلل والموت؟!

وإن ساء هؤلاء أن يقولوا جُزأفًا^(١): إن الذين دخلوا في الإسلام طوائف من أمم ليست على درجة من الثقافة تجعلها تميز بين الغث^(٢) والسمين^(٣)، قلنا: فما ظنكم بالأوروبيين وقد دخل فيه الآلاف منهم؟

ثالثًا. المنصفون من مفكري الغرب يشهدون بتقدمية الإسلام:

إن المنصفين من مفكري الغرب يعرفون فضل الإسلام ويُقدِّرونه قدره، ومنهم طائفة من كبار الفلاسفة والمفكرين من أمثال: كارلايل، وجوته، ولامارتين وبرنارد شو، وسديو، وغوستاف لوبون، وجارودي، وعدد كبير لا يُحصى^(٤) قد شهد للإسلام بسمو العقائد، وصحة الأصول، وشرف المقاصد، ونبل الغايات، والكفاية التامة بحاجات العالم الإنساني الروحية والمادية في كل زمان ومكان. قال موريس

١. جُزأفًا: دون تبصُّر ولا رويَّة.

٢. الغث: الرَّدِيء.

٣. السمين: الجيد.

٤. انظر: المنصفون للإسلام في الغرب، رجب البناء، دار المعارف، مصر، ٢٠٠٥م، ص ١٠٣ وما بعدها.

بوكاي: إنه أصيب بدهشة بالغة عندما تفرغ لدراسة القرآن باللغة العربية، فاكتشف إشارات وحقائق علمية لم يكن يتوقع أن يجدها في كتاب ديني أنزل منذ أربعة عشر قرنًا، وقال أيضًا: إن القرآن ليس في آياته إشارة واحدة يمكن نقضها في ضوء مناهج وقوانين العلم الحديث.

وقال جارودي: "إن القرآن يرفع شأن العلماء، ويشجع على طلب العلم..."، كما يؤكد أن المسلمين أسَّسوا نهضة علمية كبرى شملت جميع العلوم، ويقول أيضًا: "إن الإسلام قوة روحية عظيمة للإصلاح والتقدم في المستقبل كما كان دائمًا"، ويرى جارودي أن وضع المرأة في الإسلام هو الوضع الأمثل؛ فقد رفع الظلم عنها، وساوى بينها وبين الرجل في الحقوق والواجبات، وصان المرأة وحافظ على كرامتها، ويقول: إن الاقتصاد الإسلامي يقوم على مبادئ؛ مثل: التوازن في توزيع الدخل، وتحريم الاحتكار^(٥)، وجعل الملكية الفردية لصالح الفرد والجماعة، واعتبار السوق وسيلة وليس غاية.

ويقول ماركوس فولاند: "إنه ليس في الإسلام شيء متأصل في كيانات المجتمعات الإسلامية يجعلها عاجزة عن الأداء الاقتصادي بمفاهيمه الحديثة، والإسلام في حقيقته يحفز المؤمنين به على الإيجابية. والأمير تشارلز يقرر أن المشكلة ليست فقط في وجود قدر كبير من سوء الفهم في الغرب لطبيعة الإسلام، ولكن هناك

٥. الاحتكار: هو تحكُّم بائع واحد في بيع سلعة - أو خدمة - أو تحكُّم مشترٍ واحد في شرائها، فيسيطر على السعر وعلى الكمية المتداولة، فهناك احتكار في البيع، واحتكار في الشراء، وهو نقيض المنافسة.

أيضاً قدرٌ كبيرٌ من الجهل بفضل الثقافة والحضارة الإسلامية على الغرب...".

ويقول المستشرق ليوبولد فايس: "هناك سببٌ واحد للانحلال الاجتماعي والثقافي الذي أصاب المسلمين، وهو ابتعادهم عن روح الإسلام". أما المستشرق الفرنسي دومينيك شوفاليه فيؤكد على أن قوة الإسلام تكمن في أنه يمتلك برنامجاً أخلاقياً. ويقول هوفمان: إن الإسلام ينهى بشدة عن تتبع عورات الناس... ولكنه يشجع على التعطش للمعرفة والفضول العلمي، فالقرآن يدعو في آيات كثيرة إلى استخدام العقل وإلى التفكير والتدبر^(١).

وهناك الكثير من شهادات العلماء والمفكرين الغربيين وغيرهم تشيد بحضارة الإسلام وتفوق نظمه^(٢).

رابعاً. القرآن يؤكد خلاف ما يذهبون إليه :

وإن تمادى هؤلاء في الجحود والإنكار بعد ذلك كله، فإن كتاب الله - القرآن الكريم - ماثل بين أيديهم يستطيعون من خلاله الاطلاع عليه لمعرفة المعاني السامية التي يتضمنها، وهي المعاني التي تأمر المسلم بالنظر والتفكير، والأخذ بطرق العلم، والابتعاد عن الجمود وتقليد القدماء من الآباء والأجداد.

العقائد الإسلامية ليست جامدة بالمفهوم السيئ لكلمة الجمود؛ أي: التحجر القائم على التصادم مع العقل والمنطق، ولكنها تتميز بالثبات، والثبات هنا

صفة إيجابية وليس صفة سلبية؛ فحقائق الأديان ومبادئ الفلسفات ينبغي أن تكون مستقرة وثابتة، ومسلّمة وبديهية، وإلا تحول كل شيء فيها إلى أفكار مطروحة للنقاش، ولافتقد تاريخ الفكر الإنساني المرتكزات والقواعد والحقائق.

ولذلك كانت عقيدة الإسلام، عقيدة ثابتة مستقرة، لا تقبل التغيير أو التطوير، أو الزيادة أو النقصان، وليس لأحد - مهما علا قدره - أن يغير تلك العقيدة أو يضيف إليها أو يحور فيها، فكل ذلك إن تم فهو مردود على صاحبه، يقول النبي ﷺ: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌ"^(٣)؛ أي: مردود على صاحبه.

بل إننا نجد القرآن يستنكر الدس في الدين والزيادة عليه، والادعاء على الله، يقول الله تعالى: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكُتُبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كُتِبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾^(٤) (البقرة).

ومن ثم لم تكن العقيدة الإسلامية نهياً للمجتمع الدينية التي ظهرت في الأديان الأخرى، تقول فيها رأيها، فتضيف أو تحذف حسب الأهواء والأغراض والمتغيرات التي لا تتوقف عند حد.

لقد كان التاريخ خير شاهد على ما أصاب العقائد الدينية السابقة للإسلام من تغيير وتبديل؛ فعقيدة التوحيد التي كانت في عصر السيد المسيح عيسى عليه السلام

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٢٥٥٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (٤٥٨٩).

١. المنصفون للإسلام في الغرب، رجب البناء، مرجع سابق، ص ٢٢١ وما بعدها.

٢. النظم: جمع نظام، وهو المنهج أو المبدأ.

وحواريه ليست هي نفس العقيدة التي أصابتها يد التحريف في عصور تالية، وبخاصة بعد مجمع نيقية الكنيسي سنة ٣٢٥م، وهو الذي تم فيه تقنين طبيعة جديدة للتوحيد بإضافة السيد المسيح عليه السلام ليصبح إلهًا مع الله، ثم لم تلبث الكنيسة أن تضيف بعد ذلك بنصف قرن - تقريبًا - عنصرًا ثالثًا، ليظهر الثالوث المقدس: الأب، والابن، والروح القدس، وذلك في مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١م، وذلك بفعل عدد من الأسباب الفكرية والسياسية والاجتماعية التي كانت تعيشها الكنيسة وقتئذٍ.

أما العقائد الإسلامية التي تعد هي التصور الرباني الكلي الثابت الذي تدور الحياة حوله، كما تدور الإلكترونيات^(١) في الذرة^(٢) حول نواتها، فقد ظلت ثابتة في قيمها وأصولها دون أن يطراً عليها تطور أو تغير.

وهذا الثبات لا يعني تجميد حركة الفكر والحياة، وإنما يسمح بالحركة، بل يدفع إليها دفعًا، لكنها الحركة داخل نظام مستقر، وأطر^(٣) ثابتة، وهذا بخلاف المذاهب والأنظمة البشرية، وربما الدينية الأخرى التي تتطور وتتغير من وقت لآخر، ومع حرص الإسلام الشديد على صيانة العقيدة، وأصولها من أيدي العابثين ودعاة التطوير والتغيير، فإنه لم يمنع من الاستفادة من

١. الإلكترونيات: جمع إلكترون، وهو جزء من الذرة دقيق جدًا، ذو شحنة كهربائية سالبة.

٢. الذرة: أصغر جزء في عنصر ما يصح أن يدخل في التفاعلات الكيميائية، والتي تؤلف الأجسام المركبة، وتتكون الذرة من نواة تحتوي النيوترون والبروتون، ومن الإلكترون الذي يدور حول النواة.

٣. الأطر: جمع الإطار، وهو النطاق أو الهيكل العام.

الخبرات العقلية، والعلمية، والفكرية في نصره عقائده الدينية وتقديمها بالصورة اللائقة والمناسبة لكل عصر وللروح العلمية السائدة فيه، ولا شك أن الوسائل المتاحة في عصرنا تختلف كثيرًا عما كان في عصور مضت، ومن ثم فليس هناك من حرج في تطوير تلك الوسائل والاستفادة من الإمكانيات الحديثة؛ لبيان وتثبيت دعائمها وتأكيد صحتها.

أما القول بأن العقيدة الإسلامية تكبل الفكر وتَحْجُر على التفكير الحر والإبداع، فهو قول ينفيه الموقف القرآني الداعي في كثير من آياته إلى السير في الأرض، والنظر والتأمل والتفكير، وإعمال العقل^(٤)، ومحاربة الظن والوهم والتقليد الأعمى والادعاء بلا دليل، كما ينفيه الواقع المزدهر الذي عاشته الأمة الإسلامية في عصورها الذهبية التي استمرت قرونًا كثيرة كانت فيها حواضرهم وعواصمهم مراكز الثقافة والنور والعلم والحضارة للعالم كله، وذلك يوم أن طُبّق الإسلام عقيدةً وشرعةً، وحضارة وثقافة.

ومن ثم فمن الظلم للإسلام القول بأن عقائده هي التي أصابت الأمة بالشلل والضعف والتخلف الحضاري، بل الأمر على عكس ذلك؛ فالأمة لم تضعف ولم تتخلف إلا بعد أن تخلت عن أهم عنصر من عناصر قوتها وعزتها وحضارتها، فالإسلام - بعقيدته وشريعته، بفكره وسلوكه، بحضارته وتسامحه - هو الذي أسس النهضة في عصرها الأول، وهو وحده اليوم القادر على إحياء تلك النهضة من جديد.

(٤) في "مزية الإسلام الكبرى في إعمال العقل" طالع: الوجه الأول، والوجه الثاني؛ من الشبهة السابعة، من الجزء الخامس (النظم الحضارية).

خامساً. الإسلام دين العمل والاجتهاد لا التواكل والتكاسل:

لم يدعُ دين إلى العمل ويحث عليه بكل سبيل كما صنع الإسلام؛ فإن الفعل "عمل" ذكر في القرآن ١٩ مرة، وبصيغة "عملوا" ذكر ٧٣ مرة، والفعل المضارع "أعمل" ذكر ٤ مرات، والمضارع "تعمل" ذكر مرتين، و"تعملون" ذكر ٨٣ مرة، وذكر الفعل "نعمل" ٦ مرات، والفعل "يعمل" ١٤ مرة، و"يعملون" ٥٦ مرة، وفعل الأمر "اعمل" ذكر مرتين، و"اعملوا" ٩ مرات، و"عمل" ٩ مرات، و"عملًا" ٨ مرات، و"عملك" مرة واحدة، و"عملكم" ٤ مرات، و"عمله" ٥ مرات، و"عملهم" مرتين، و"عملي" مرة واحدة، وكل من "أعمال" و"أعمالًا" مرة واحدة، و"أعمالكم" ٩ مرات، و"أعمالنا" ٣ مرات، و"أعمالهم" ٢٧ مرة، و"عامل" ٤ مرات و"عاملون" ٤ مرات، و"العاملين" ٤ مرات^(١).

هذا بالإضافة إلى المواد الأخرى التي تفيد معنى العمل، مثل: فَعَلَ: ومشتقاتها، وكسب واكتسب، فكيف يصفون كتابًا يمتلئ بهذا الحشد الهائل من الحديث عن العمل، وأغلبه مَقْرُون بوصف الصلاح، كيف يصفونه بأنه يدعو أتباعه إلى التواكل؟!

أما السُّنة فما أكثر الأحاديث التي حضت على العمل، وبشرت العاملين بالمغفرة والثوبة؛ ومنها:

• قول رسول الله ﷺ: "ما أكل أحد قط طعامًا خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل

من عمل يده"^(٢).

- "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يُتْقِنَه"^(٣).
- "ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام" - يعني: الأيام العشر من ذي الحجة - قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله. قال: "ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء"^(٤).

• والعمل الصالح يتسع لكل خير يعمل به المسلم في دنياه؛ فقد قام النبي ﷺ بالعمل، وشارك أصحابه في أعمالهم، حيث عمل في التجارة، وحفر الخندق مع أصحابه، وعمل بالرعي في طفولته، ولم يرض لنفسه أن يكون مخدومًا، وشارك أهله في خدمتهم، وأعان الخادم، وقد حثَّ على طلب الرزق بقوله ﷺ: "لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بجزمة حطَب على ظهره فيبيعهها فيَكْفَّ الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه"^(٥).

إن الإسلام بعيد كل البعد عن التواكل، والمتواكلون لا يُعْبَرُونَ عن الإسلام وتعاليمه، ولو علَّم الإسلام

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده (١٩٦٦).

٣. صحيح: أخرجه أبو يعلى في مسنده (٣٤٩ / ٧)، مسند عائشة رضي الله عنها (٤٣٨٦)، والطبراني في المعجم الوسيط (١ / ٢٧٥)، برقم (٨٩٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١١١٣).

٤. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، من مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (١٩٦٨)، وأبو داود في سننه، كتاب الصوم، باب في صوم العشر (٢٤٤٠)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢١٣٠).

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة (١٤٠٢)، وفي مواضع أخرى.

١. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، ص ٤٨٣: ٤٨٨.

أتباعه التواكل لما فتحوا الممالك وملكوا الدنيا، ولا أقاموا حضارة وأنشئوا مُدُنًا وترسانات وسُفُنًا، ولا برعوا في علوم الدنيا والدين، ولا علّموا البشرية العلوم والصناعات والعمران!

• وفي الحديث: "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خِفافًا^(١)، وتروح بَطَانًا"^{(٢)(٣)}. ولم يقل: يرزق الطير وهي نائمة في عشها، بل نبه على ضرورة السعي والاجتهاد، ثم اليقين وترك النتائج على الله، طالما أفرغ الإنسان وسعه ولم يقصر في شيء^(٤).

الخلاصة:

• إن العقل الصحيح لا يستسيغ أن يؤسس المسلمون إمبراطورية تدوم قرونًا طويلة، وهي حاكمة للعالم وتعد أروع حضارة عرفها التاريخ الإنساني - لا يستسيغ أن يصنعوا ذلك كله وهم يدينون بعقائد جامدة تعوق الفكر والتقدم.

١. خِفافًا: جائعة.

٢. بَطَانًا: شَبَعَى ممتلئة البطون.

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسنده العشرة المبشرين بالجنة، مسند عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٢٠٥)، والترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب في التوكل على الله (٢٣٤٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣١٠).

٤. انظر: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٣ م. المسيحية: نشأتها وتطورها، شارل جينبير، ترجمة: د. عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، ط ٤، ١٩٩٦ م. دراسات في العقيدة الإسلامية، د. عبد الحميد مدكور، دار الهاني، القاهرة، مجموعة محاضرات أُلقيت على طلاب كلية دار العلوم، جامعة القاهرة. حقائق إسلامية في مواجهة حملات التشكيك، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق.

• إن هذا السيل الجرار من الملايين المتدفقة الذين يدخلون الإسلام كل يوم، وعدم ارتداد أحد منهم عن الإسلام لشيء فيه، هو أكبر دليل على سمو تعاليم الإسلام وعقائده.

• إن الدراسة العميقة للإسلام جعلت المحايدين من الدارسين يشهدون برقي تعاليمه وتقدمها.

• إن الناظر لمنهج الإسلام الذي رسمه القرآن الكريم والسنة النبوية يجد تشريعات تفوق كل ما عرفه البشر من دساتير وقوانين في جميع مجالات الحياة وشؤونها.

• الإسلام دين العمل والاجتهاد وليس دين التواكل، ونصوص الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة في الحُصْص على العمل من أجل الكسب الحلال وذم التواكل لا حصر لها، وتاريخ الأمة الإسلامية وحضارتها يشهدان بذلك.



الشبهة الثانية

ادعاء أن العقيدة الإسلامية أقرت نزعة التواكل

والقعود عن العمل (*)

مضمون الشبهة:

يدّعي بعض المغالطين أن العقيدة الإسلامية تدعو إلى التواكل والسلبية والتقصير في العمل وعدم الأخذ بالأسباب، ويستدلون على ذلك بما حدث للخليل

(*) في الطريق إلى الله: التوكل، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٥ م.

الإسلام أقرّ التواكل أو دعا إليه.

التفصيل:

أولاً. الإسلام يدعو للتوكل، وينهى عن التواكل والسلبية:

التوكل عبادة من أفضل عبادات القلوب، وخُلِقَ من أعظم أخلاق الإيمان، وهو منزلة من منازل الدين كما يقول الإمام الغزالي، بل إن التوكل هو نصف الدين، كما يقول ابن القيم، ونصفه الآخر هو الإنابة، وذلك مصداق قوله تبارك وتعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْ وَإِلَيْهِ

أُنِيبُ﴾ (٨٨) (هود).

وحقيقة التوكل تعني: الاعتماد المطلق على الله ﷻ في جميع الأمور، من جلب منافع ودفع مَضَارٍّ، بعد الاجتهاد وبذل الوسع والأخذ بالأسباب، والتوكل عبادة عظيمة، لا يجوز صرفها لغير الله تعالى، وقد كثر كلام أعداء الإسلام عن التوكل، وادّعوا أن الإسلام يدعو للتواكل والركود وترك العمل، وهذا كلام غير صحيح، ومخالف لما ورد في آيات عديدة من آيات القرآن الكريم، وكذلك العديد من الأحاديث النبوية الشريفة.

ويصعب في هذا المجال حصر الآيات القرآنية التي تحدثت عن التوكل، ويمكن التمثيل لها بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٣١) (هود)، وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بُذُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾ (٥٨) (الفرقان)، وقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْغَنِيِّ

إبراهيم عليه السلام عندما أُلقي في النار، وجاءه جبريل وقال له: ألك حاجة؟ فأجاب إبراهيم: أما إليك فلا، فاعتبروا كلام نبي الله إبراهيم عليه السلام إعراضاً عن الأخذ بالأسباب. واستدلوا أيضاً بموقف إبراهيم الخليل مع زوجته هاجر، عندما تركها هي وطفلها الرضيع في قلب الصحراء دون راعٍ أو أنيس. كما يستدلون بقول رسول الله ﷺ: "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خفاصاً وتروح بطاناً" (١).

وجوه إبطال الشبهة:

(١) الإسلام يدعو للتوكل؛ أي: الارتكان لقضاء الله، مع الأخذ بالأسباب، وينهى عن التواكل والسلبية.

(٢) سيرة الأنبياء والرسل والصحابة والتابعين مليئة بالمواقف التي تؤكد توكلهم لا تواكلهم، وهم القدوة والمثل.

(٣) أهمية التوكل على الله ﷻ والحاجة إليه في مواجهة الحياة، ومنزلته من العقيدة والإيمان والسلوك، وثمار ذلك.

(٤) التوكل - الذي هو عبادة قلبية مفروضة - لا ينافي العمل، والأخذ بالأسباب أصلٌ فيه، والقدح في الأسباب قدح في الشريعة.

(٥) ليس فيما ساقه هؤلاء ما يصح شأهراً على أن

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند عمر بن الخطاب (٢٠٥)، والترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب في التوكل على الله (٢٣٤٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣١٠).

الرَّحِيمِ ﴿١٧﴾ (الشعراء)، وقوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ (النمل)، وقوله تبارك تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران)، وقوله تبارك تعالى: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (النساء).

كل هذه الآيات وغيرها أمر من الله ﷻ لرسوله ﷺ أن يتوكل عليه دون غيره، وكانت دعوته ﷻ للمؤمنين أيضًا أن يتوكلوا عليه سبحانه في كل وقت، وذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١١) (إبراهيم)، وقد جاء على لسان الرسل جميعًا قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (١٢) (إبراهيم)، والآيات التي تتحدث عن التوكل على الله ﷻ كثيرة في كتاب الله العزيز.

والتوكل على الله تعالى لا يعني ترك العمل وعدم الأخذ بالأسباب لقضاء حوائج الناس، بل التوكل الصحيح هو ما كان اعتمادًا عليه ﷻ مع الأخذ بالأسباب التي خلقها الله تعالى لكل عمل؛ لكي يقع على وجهه الصحيح، ومن يقرأ القرآن الكريم يجد أن مادة "عمل" وردت في القرآن الكريم ما يقرب من ٣٥٠ مرة، كلها دعوة إلى العمل، والأخذ بأسباب النجاح والتفوق؛ حتى يتحقق التوكل الصحيح على الله ﷻ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّانَ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة)، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ

نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (النحل)، وقال الله تعالى: ﴿لِيُثِلَّ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ (الصفات)، وهناك غير ذلك العديد من الآيات التي تؤكد ضرورة العمل مع التوكل؛ لأن عملاً بلا توكل على الله نقص في الدين، وتوكلًا بلا عمل نقص في العقل، فهما وجهان لعملة واحدة.

وإذا نظرنا في سنة الرسول ﷺ وجدنا فيها العديد من الأحاديث التي تدعو إلى التوكل على الله، وترك التواكل المذموم الذي هو اعتماد على الله ﷻ دون أخذ بالأسباب، فهذا ليس توكلًا صحيحًا، وكان مما قاله النبي ﷺ في هذا:

• ورد في حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب من هذه الأمة أنهم: "هم الذين لا يَسْتَرْقُونَ، ولا يَتَطَيَّرُونَ، ولا يَكْتُمُونَ، وعلى ربهم يتوكلون" (١).

• قال رسول الله ﷺ: "اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت" (٢).

• قال ﷺ: "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خُمَصًا وتروح بَطَانًا".

• قال رسول الله ﷺ: "إذا خرج الرجل من بيته

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب من لم يرق (٥٤٢٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب (٥٥٠).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب التهجد، باب التهجد بالليل وقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ فَتَحَ جَدَّيْهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ (الإسراء: ٧٩) (١٠٦٩)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (١٨٤٤).

وهنا يصرخ بهم هود عليه السلام صرخته المدوية، صرخة المؤمن الواثق بربه، المتوكل عليه سبحانه، الساخر من حقهم وغفلتهم وكفرهم، المتحدي لهم ولأوثانهم، كما حكى القرآن: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ ربي وَرَبِّكُمْ مَنِ دَابَّةٌ إِلَّا هُوَ أَخِذْ يُنَاصِصِيهَا إِن ربي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (هود).

وأما إبراهيم عليه السلام فقد وقف أمام عناد أبيه وقومه وقفة المؤمن الواثق المطمئن، فأخذ يُحاجج قومه باللين والرفق والحجة والبرهان، فما وجد إلا رءوساً وقلوباً تمكّن منها الشرك؛ حيث تعلق أولئك الوثنيون بأصنامهم وأجنادهم التي تهاوت واحداً واحداً تحت مطارق إبراهيم، عندئذ أجمعوا أمرهم، ومكروا مكرمهم، وأوقدوا ناراً عظيمة، وحلوا إبراهيم عليه السلام على المنجنيق^(٢) مقيداً ليقذفوه من بعيد، واجتمع الملائكة ينظرون، فلما أيقن إبراهيم من إلقاتهم إياه في النار، ما أصابه الجزع ولا اعتراه الخوف، وإنما قال كلمته العظيمة: "حسبي الله ونعم الوكيل"^(٣).

وهي كلمة لا يقوها إلا المؤمنون، ولا يلهج بها إلا الصادقون المتوكلون على الله، فلما توكل على الله كفاه ولما صدق مع الله تعالى أنقذه عليه السلام ونجاه: ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦) ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (٧) (الأنبياء).

وأما إمام المتوكلين محمد ﷺ فسيرته مملأى بنماذج من توكله وعظيم يقينه بالله تعالى؛ فقد خرج مهاجراً مع

فقال: بسم الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، يُقال له حينئذ: هُدَيْتَ، وَكُفَيْتَ، وَوُقِيتَ، فَتَتَنَحَّى له الشياطين، فيقول له شيطان آخر: "كيف لك برجل قد هُدِي وَكُفِي وَوُقِي"^(١)؟

وأحاديث الرسول ﷺ في هذا الجانب كثيرة، وكلها تؤكد ضرورة الاعتماد على الله ﷻ لقضاء الحاجات مع العمل، والأخذ بالأسباب، فكيف يدعي هؤلاء أن الإسلام دين التوكل وترك العمل؟!

ثانياً. سيرة الأنبياء والرسل والصحابة والتابعين تؤكد على توكلهم لا توكلهم:

لقد عرض القرآن الكريم نماذج عظيمة مذهلة لتوكل الأنبياء الكرام - عليهم السلام - وهم يواجهون أقوامهم السائرين في غيهم، التائهين في ضلالهم وفجورهم، فهذا هود عليه السلام نذر نفسه للرسالة التي حُمِّل إياها والأمانة التي كلف بها، فانبرى لقومه داعياً ناصحاً، ومحدراً لهم ومشفقاً عليهم، فما وجد منهم غير الكفر والفجور والسخرية والتهكم والسب الغليظ، بل إنهم ليزعمون أن آلهتهم وأوثانهم قد أصابته بشيء من عقابها، وأذاقته لعنة من لعنتها، قال الله تعالى: ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٣) ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا يُسْوِقُ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ بِاللَّهِ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٥٤) (هود).

١. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب ما يقول الرجل إذا خرج من بيته (٥٠٩٧)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب الأذكار (٨٢٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٩).

٢. المنجنيق: آلة قديمة من آلات الحصار، كانت تُرمى بها حجارة ثقيلة أو كتل نارية على الأسوار فتهدمها.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة آل عمران (٤٢٨٨).

ثالثاً. أهمية التوكل على الله تعالى والحاجة إليه في مواجهة الحياة:

إن التوكل الصحيح على الله ﷻ كفيل بتصحيح أوضاعنا، وانتشالنا من تخلفنا وجهلنا، وتحقيق النصر على الحاقدين من خصوم وأعداء التصور الإسلامي في الحياة والمجتمع، فالله ﷻ يقول: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق: ٣)، فالحاكم المسلم محتاج إلى صدق التوكل على الله تعالى وهو يواجه التحديات المحيطة به وبالمسلمين من كل جانب، والأخطار المحدقة من كل اتجاه، وهو محتاج إلى صدق التوكل على الله، وهو يواجه جموع الأعداء بكل مكرهم وكيدهم، ومحتاج إلى صدق التوكل على الله وهو يواجه المرجفين في الأرض، والمنافقين المندسين في صفوف المؤمنين، يزينون الباطل ويمكرون المكر الخبيث، فإن النصر إنما ينزل من السماء بصدق التوكل وحرارة الدعاء، لا بكثرة عدد ولا عُدَّة وحدهما: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَرْهَتْكُمْ فَلَئِنْ تَعَنَّيْنَا عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِعَاقِبَتِهَا ثُمَّ لَمَسْتُم مَدِيرِينَ﴾ (التوبة).

والتوكل على الله يحتاج إليه العالم الرباني حين يُحتاج إلى كلمته العادلة الفاصلة في الأمور والأحداث، وعند حلول الفتن والنكبات^(٤)، ويحتاج إلى التوكل على الله حين تَشْرُبُ أعناق الأمة منتظرة فتاويه في دقائق الأمور وعظائمها؛ فيقول كلمة الحق لا يخشى في الله لومة لائم.

٤. النكبات: جمع النكبة، وهي المصيبة.

أبي بكر ﷺ فدخلوا الغار مختبئين وحام المشركون حول باب الغار، ووقفوا على بابه تكاد قلوبهم تميز من الغيظ على محمد وصاحبه، فخشي الصديق ﷺ على رسول الله ﷺ أن يُمسَّ بأذى، فقال: يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدمه لأبصرنا، فقال ﷺ بكل هدوء واطمئنان، وبلغه المتوكل على ربه، المعتمد على مولاه: "ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما"^(١)؟

وفي حمراء الأسد^(٢) - في السنة الثالثة للهجرة بعد غزوة أحد مباشرة - جمع المشركون جموعهم لقتال النبي ﷺ وأصحابه، فخرج ﷺ وأصحابه بكل عزيمة وإصرار لمواجهة الجموع المتربصة، متوكلين على الله وحده، طالبين المدد منه سبحانه: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (٧٦) ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى دِفْئِهِمْ فَبَدَّلَ اللَّهُ صَفَهُمْ صُفًى وَأَسْوَاهُمْ أَصْفًى وَفَضَّلَهُمْ عَلَى الْأَعْيَانِ كُلِّهَا إِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٧٧) (آل عمران).

قال ابن عباس ﷺ: "حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قال له الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم"^(٣).

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم (٣٤٥٣)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ (٦٣١٩).
٢. حمراء الأسد: مكان على بُعد ثمانية أميال من المدينة.
٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة آل عمران (٤٢٨٧).

® في "الوط بين التوكل والتواكل" طالع: الشبهة التاسعة والعشرين، من الجزء التاسع (الأنبياء والرسول ١). وفي "يوسف بين التوكل والتواكل" طالع: الشبهة الثامنة والثلاثين، من الجزء التاسع (الأنبياء والرسول ١).

وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣١﴾ (الزمر).

رابعاً. مفهوم التوكل وصلته بالأخذ بالأسباب:

لا بد من الأخذ بالأسباب فقد أمر الله تبارك وتعالى الرسول ﷺ باستكمال العدة فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال)، وقال ﷺ: ﴿فَقِنِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفَ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ (النساء)، وقال ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيَتْهُمْ فَتُفَاتِحُوا وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأنفال)، ثم بعد ذلك قد تنحرق كل الأسباب للمتوكلين على الله، فالتار صارت بقدرة الله برداً وسلاماً على إبراهيم، والبحر - الذي هو مَكْمَن الخوف - صار سبب نجاة موسى ومن آمن معه، ولكن لا يصح ترك الأخذ بالأسباب بزعم التوكل، كما لا ينبغي التعويل على الحول والطول أو الركون إلى الأسباب، فخالق الأسباب قادر على تعطيلها، وشبيه بما حدث من نبي الله موسى ما كان من رسول الله ﷺ يوم الهجرة، عندما قال أبو بكر ؓ: لو نظر أحد المشركين تحت قدميه لرأنا، فقال له النبي ﷺ: "ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما" (١)؟

وهذا الذي عناه ﷺ بقوله: ﴿إِلَّا تَضُرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَاقِبَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة).

والأخذ بالأسباب هو هُدي سيد المتوكلين على الله ﷺ في يوم الهجرة وغيره؛ إذ القدح في الأسباب قدح في التشريع، والاعتقاد في الأسباب مع الغفلة عن خالق الأسباب ومُسببها قدح في التوحيد، وقد فسر العلماء التوكل فقالوا: ليكن عملك هنا ونظرك في السماء، وفي الحديث عن أنس بن مالك ؓ قال: قال رجل: يا رسول الله، أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال: "اعقلها وتوكل" (٢).

مواقف الناس من الأسباب على أربعة أقسام:

١. الالتفات إلى الأسباب بالكلية، واعتقاد القلب والجوارح عليها من غير نظر إلى مُسببها: وذلك كنظرة الماديين والعقلانيين الذين وقعوا في الشرك؛ لأنهم أثبتوا موجدًا مع الله مستقلاً بالضر والنفع، وهذا باطل مخالف للكتاب والسنة والإجماع، كما أن الأسباب قد تتخلف عن مسبباتها - بإذن الله - كما يشهد لذلك الواقع.
٢. الإعراض عن الأسباب بالكلية والاعتقاد على

٢. حسن: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرفائق والورع (٢٥١٧)، وحسنه الألباني في تخريج مشكلة الفقر (٢٢).

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة ؓ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم (٣٤٥٣)، وفي مواضع أخرى.

التوكل وحده: وهؤلاء المعرضون لا يرون تحقيق التوكل إلا في ترك الأسباب بالكلية؛ فتركوا التكسب والعمل والاحتراز والاحتياط والتزود في السفر والطعام؛ لأنهم يرون ذلك كله منافياً للتوكل، ولهم شبه ضعيفة أجاب عنها العلماء المحققون؛ كمحمد بن الحسن الشيباني في كتابه "الاكتساب في الرزق المستطاب"، والخلال في كتابه "الحث على التجارة والصناعة والعمل"، والهارث المحاسبي في كتابه "المكاسب"، وابن الجوزي، وابن تيمية، وابن القيم، وابن مفلح، وابن رجب... وغيرهم، كما أن الإعراض عن الكسب بدعوى التوكل له آفات^(١) ومفاسد يصعب حصرها، وهذا الإعراض حَكَم عليه العلماء بأنه قَدَح في الشرع.

٣. نفي تأثير الأسباب بالكلية، وقد وصف العلماء هذا القول بأنه مكابرة للحس، وهؤلاء يرون أن الله لم يخلق شيئاً سبباً، ولا جعل في الأسباب قوى وطبائع تؤثر، وغرضهم الرد على القدرية النفاة، وهذا الموقف مخالف للكتاب والسنة، ومخالف - كذلك - للحس السليم.

٤. قيام الجوارح بالأسباب واعتماد القلب على الله مسبب الأسباب ﷻ، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، وهو الحق الذي دل عليه الشرع والعقل، وهو الوسط في كل مذهب، فأثبتت للأسباب تأثيراً في مسبباتها، لكن لا بذاتها، بل بما أودعه الله فيها من القوى الموجبة، وهي تحت مشيئته وقدرته، فإن شاء منع اقتضاءها، وإن شاء جعلها مقتضية لأحكامها، فهم -

١. الآفات: جمع الآفة، وهي كل ما يُصيب شيئاً فيفسده.

أي: أهل السنة والجماعة - يوجبون الأخذ بالأسباب ويعتقدون عدم منافاتها للتوكل؛ بل إن التوكل من أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار، ويرون ضرورة الأخذ بالأسباب مع عدم الاعتماد عليها، ويكون التوكل - بالقلب - على الخالق سبحانه مع اتباع الأسباب في ظاهر الحال فقط، والأخذ بالأسباب ثم الاعتماد على الله ﷻ هو ما يشير إليه قوله ﷻ حاكياً عن يعقوب عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَجِدْ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَمَكُمُ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ٧﴾ (يوسف). وفي جانب الرزق قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ١٥﴾ (الملك).

قال ابن القيم في "مدارج السالكين": "لا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل، ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية". والسبب الذي أمر العبد به أمر إيجاب أو أمر استحباب هو عبادة الله ﷻ وطاعته له ولرسوله، والله فرض على العباد أن يعبدوه ويتوكلوا عليه، فقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ٨﴾ (هود: ١٢٣)، وقال: ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ٨﴾ (الزمل)، وقال: ﴿فَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْعُوا فِي الْأَمْوَالِ الَّتِي آتَيْنَاهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْزُقُونَ ١٠﴾ (الزمل)، وقال: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ١١﴾ (البقرة: ٢٨٢)، وقال: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ١٢﴾ (الزمل: ١٢)، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغَ أَمْرَهُ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ

شَيْءٍ قَدَرًا ﴿٢﴾ (الطلاق)، والمقصود أن الله تعالى لم يأمر بالتوكل فقط، بل أمر مع التوكل بعبادته وتقواه التي تتضمن فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه. فمن ظن أنه يرضي ربه بالتوكل دون فعل ما أمره به كان ضالاً، كما أن من ظن أنه يقوم بما يرضي الله عليه دون التوكل عليه كان ضالاً، وأن من ظن أن التوكل يغني عن الأسباب المأمور بها فهو ضال، وهذا كمن ظن أنه يتوكل على ما قدر عليه من السعادة والشقاوة دون أن يفعل ما أمره الله به، فإن كانت الأسباب مقدورة له وهو مأمور بها فعلمها مع التوكل على الله كما يؤدي الفرائض، وكما يجاهد العدو ويحمل السلاح ويلبس لأمة الحرب^(١) ولا يكتفي في دفع العدو، بمجرد توكله دون أن يفعل ما أمر به من الجهاد؛ فالواجب على العبد أن يفعل السبب المأمور به ويتوكل على الله فيما يخرج عن قدرته، مثل الذي يشق الأرض ويلقي الحب، ويتوكل على الله تعالى في إنزال المطر وإنبات الزرع ودفع المؤذيات عنه، ومن ترك الأسباب المأمور بها فهو عاجز مفرط مذموم. قال الحسن: التوكل لا ينافي السعي في الأسباب، قال الله تبارك و تعالى: ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ (النساء: ٧١)، وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: ٦٠).

ومن الأدلة على ارتباط التوكل بالأخذ بالأسباب من القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ (النساء: ٧١)، وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ

١. لأمة الحرب: عُدتها.

بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفال: ٦٠)، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الجمعة)، وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ (الأنفال: ١٦)، وقوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَهِمْ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وقوله تعالى: ﴿وَهَرَىٰ إِلَيْكَ يُجَنِّعُ النَّخْلَةَ﴾ (مريم: ٢٥)، وقوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ﴾ (النساء: ٧٨)، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَنَّهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ (الأنبياء: ٨٠).

وعن أنس بن مالك ؓ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ على ناقة له، فقال: يا رسول الله، أدعها وأتوكل؟ فقال: اعقلها وتوكل^(٢).

وعن عمر ؓ عن النبي ﷺ قال: "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خفاصاً وتروح بطائناً"^(٣).

والمعنى: أن التوكل الصحيح هو تفويض الأمر إلى الله ﷻ، والثقة بحسن النظر فيما أمر به، فلو أن المسلمين يتوكلون على الله ﷻ في كل شئونهم لرزقهم كالطير تماماً، ولكن بعضهم يعتمد على قوته وحذره ويحلف بالباطل وكل هذا خلاف التوكل. وعن المقدام بن معديكرب عن النبي ﷺ قال: "ما أكل أحد

٢. حسن: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥١٧)، وحسنه الألباني في تخريج مشكاة الفقر (٢٢).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند عمر بن الخطاب ؓ (٢٠٥)، والترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب في التوكل على الله (٢٣٤٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣١٠).

خامساً. ضعف الاستدلال على التواكل بقصة إبراهيم عليه السلام:

إنَّ المواقف التي استدلت بها أصحاب هذه الشبهة لإثبات أن الإسلام يُقَرُّ التواكل ويدعو إليه، هذه المواقف دليل ضد هؤلاء لا لهم؛ فعندما قال إبراهيم عليه السلام لجبريل أمين وحي السماء: "أما إليك فلا" فإن هذه الكلمة دليل على شدة الإيمان ورسوخه في القلب، ورغم هذا فقد أخذ إبراهيم بالأسباب أولاً، ولم يدخر وسعاً لكي يهدي قومه إلى طريق الله، وعندما تعذَّر عليه ذلك ترك أمرهم لله، وقدم لهم دليلاً عملياً على قوة الإيمان، فلم يخف من إلقائه في النار، وقَبِل قضاء الله بكل ثبات؛ لأن الله معه ولن يضيعه.

وبهذا يتبين أن الاستشهاد بهذه القصة على أن الإسلام أقر نزعة التواكل أو دعا إليها هو أبعد شيء عن سياقها على تقدير صحتها، فكيف وهذه القصة هي برمتها غير ثابتة عند المحدثين ونقطة الأخبار.

كذلك موقف إبراهيم عليه السلام مع زوجته هاجر؛ فعندما تركها إبراهيم هي وطفلها إسماعيل عليه السلام كان هذا بأمر من الله تعالى، وعندما علمت هاجر أن هذا الفعل من قِبَل الله تعالى، وأمر منه قالت: لن يضيعنا، ورغم هذا الإيمان الشديد منها، أخذت تسعى لكي تروي عطشها وعطش صغيرها الرضيع الذي بكى من شدة العطش، وكانت المعجزة الكبرى وهي انفجار بئر زمزم من تحت قدم الصغير؛ ليكون آية للناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

هذا البئر لم يتفجر إلا بعد أن أخذت هاجر بالأسباب، وبحث عن الماء في كل مكان، وصار

طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده^(١).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ ينفق على أهله نفقة ستتهم من هذا المال، ثم يأخذ ما بقي فيجعله يجعل مال الله، فعمل رسول الله ﷺ بذلك حياته^(٢).

ولقي عمر بن الخطاب ناساً من أهل اليمن، فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكلون، فقال أنتم المتكلمون، إنما المتوكل الذي يلقي حبه في الأرض ويتوكل على الله. وقوله: المتكلمون، يعني: على أموال الناس^(٣).

وفي ذلك الرد البليغ على من يتركون الأسباب تقاعساً بدعوى التوكل، ولو صدقوا لأحسنوا العمل. أما التواكل فهو ترك الكسب والطمع في المخلوقين، والاعتماد عليهم بالتخلي عن الأسباب التي وضعها الله ﷻ، والانقطاع عن السعي والتقاعد عن العمل وانتظار النتائج من الخلق أو القدر، أو الاتكال على الله أن يخرج له العوائد، والتواكل انتفاء همة وعدم مروءة؛ لأنه إبطال حكمة الله التي أحكمها في الدنيا من ترتب المسببات على الأسباب^(٤).

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده (١٩٦٦).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث بني النضير (٣٨٠٩)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب حكم الفتي (٤٦٧٧).

٣. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التوكل (١٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٢١٥).

٤. في "دعوة السلف الصالح إلى الأخذ بالأسباب" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية والأربعين، من الجزء الرابع (التاريخ الإسلامي ٢).

السعي بين الصفا والمروة من فرائض الحج؛ لكي يتذكر الناس موقف هاجر المتوكلة على الله تعالى.

وحديث الرسول الذي يقول فيه: "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خفاصًا، وتروح بطانًا" هو حديث يبين حقيقة التوكل الصحيح، فالرسول لم يقل: توكّلوا على الله فقط، ولكنه ﷺ قال: حق توكله، والتوكل الحق يكون بطريق الأخذ بالأسباب والعمل، وترك النتائج على الله تعالى، كما أنه ﷺ إنما أثبت الطير غُدُوًا ورواحًا، وجعل ذلك سببًا في رزق الله إياها، ولم يقل: إنها مكثت في عشها؛ ثم رزقها الله ما رزقها على نحو ما يريد هؤلاء أن يفهموا، وأحاديث النبي ﷺ في هذا الجانب كثيرة، وقد قدّمنا - فيما سلف - طائفة منها^(١).

الخلاصة:

- التوكل على الله ﷻ عبادة قلبية مفروضة، وهو حقيقة لا يتم الإيثار إلا بها، وقد أكدها القرآن والسنة جميعًا، كما صورتها أفعال النبي ﷺ وسيرته تصويرًا صادقًا ترك أثره في سير الصحابة والتابعين من بعده.
- وهؤلاء جميعًا إنما وقفوا على حقيقة التوكل التي لا تعني - من أي وجه - القعود عن العمل والانقطاع عن الأخذ بالأسباب؛ اتكالا على الله تبارك وتعالى، ورأوا أن ذلك هو التواكل الذي طالما حذّر منه النبي ﷺ.
- ليس في قصة إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار ما

يسوغ أن يستدل به على طرح الأسباب، بل هذه القصة - تدل على ضد ذلك، وأما قصته عليه السلام حين ترك زوجه بواذ غير ذي زرع فليس فيها ما يشهد على ترك الأسباب، بل هي من شواهد كمال توكله وركونه إلى جناب ربه ﷻ.



الشبهة الثالثة

الزعم أن الإسلام يؤلّي الإيمان اهتماماً وعناية أكثر من العمل (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن الإسلام يُعنى بالإيمان ويهتم به أكثر من عنايته واهتمامه بالعمل، ويستدلون على هذا بأن الإسلام جعل الإيمان بالله ورسوله شرطاً لقبول العمل الصالح والفوز بالجنة، كما أن الإسلام كثيراً ما ينذر أولئك الذين لا يقبلون دعوة النبي ﷺ بعذاب النار في الآخرة، وكثيراً ما يُكفّر مَنْ لا يؤمن بالنبي ﷺ وبرسالته وإن حَسَنَ سلوكه وصَلَحَت أعماله.

وجوه إبطال الشبهة:

(١) إن الكثرة المطلقة من الآيات التي ذُكر فيها الإيمان في القرآن الكريم إنما اقترن فيها الإيمان بالعمل الصالح، وهو ما جعل العمل داخلاً في مسمى الإيمان عند كثير من علماء المسلمين.

(٢) اعتنى الإسلام بشأن العمل حتى جعله قيمة

١. في الطريق إلى الله: التوكل، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، صفحات متفرقات. موقع صيد الفوائد، الشبكة الإسلامية.

(*) قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل، بيروت، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.

عُلْيَا تَتَشَكَّلُ مِنْ خِلَالِهَا سَائِرُ الْمَبَادِئِ وَالْقِيمِ.

(٣) وَجَّهَ الْإِسْلَامُ الْإِنْسَانَ إِلَى أَنْ يَبْذُلَ طاقته في التعامل مع الطبيعة، وتعاليمه في ذلك كثيرة ظاهرة.

(٤) الْإِيمَانُ بِاللَّهِ ﷻ شَرَطٌ قَبُولِ الْعَمَلِ، وَعَلَى هَذَا مضت الأديان كلها لا الإسلام وحده.

التفصيل:

أولاً. اقتران الإيمان بالعمل الصالح كثيراً في القرآن الكريم:

إن الناظر في آيات التنزيل العزيز يجد بين يديه تلازماً لافتاً بين الإيمان والعمل الصالح، حتى ما يكاد يذكران إلا مُقَرَّرَيْنِ معاً، وذلك في مثل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۝١٦﴾ (مريم)، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝١٥﴾ (الروم)، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ. وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (التغابن: ٩).

كما نجد شرط الإيمان لاحقاً لهذا العمل الصالح في الآيات التي تبدأ بذكر من يعملون الصالحات؛ تأكيداً لسلامة النية والقصد فيه، وهو ابتغاء وجه الله تعالى به ديناً وعبودية وإسلاماً لله الحق، وذلك في مثل قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ۝﴾ (النساء: ١٢٤). وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلُمًا وَلَا هَضْمًا ۝﴾ (طه).

كما نجد بعض الآيات الكريمة التي تبدأ بذكر من

يؤمنون بدلالة لفظ آخر غير الإيمان - نجد فيها قاعدة هذا التلازم المتكامل بين الإيمان والعمل الصالح بنفس وضوحها في الآيات السابقة، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٢٠﴾ (نصت). فالذين قالوا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ هم المؤمنون ولا ريب، أما قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ فهذا يعني الشرط اللازم لصحة الإيمان، أي: الذين استقاموا إلى ربهم بهذا "العمل الصالح" الذي يكون سكوناً في أنفسهم، تنزل بها ملائكة الله عليهم ومعها البشرى بهذه الجنة التي وعد الله بها المتقين المحسنين.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ۝﴾ (نصت: ٣٠)، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٥﴾ (الأعراف)، ذلك أن التقوى هي آية الإيمان باتقاء واجتناب كل ما نهى الله عنه من المنكر، ولذلك جاء شرط الإصلاح بعد التقوى في قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحَ ۝﴾ لازماً؛ لتعزيز هذا الانتهاء عن المنكر بالعمل الصالح الذي يكون في طاعة الله وهو "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" (١).

دخول العمل بالجوارح في مسمى الإيمان:

إن الإيمان الحق في العقيدة الإسلامية اعتقاد وقول

١. مع القرآن الكريم: رؤية مستنيرة لحقائق الإيمان والحياة، كتاب يصدر عن "المقاولون العرب"، القاهرة، ط ١، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م، العدد السادس، ص ٥٦: ٥٩.

ويقول أيضًا: ﴿وَيَزِدَادُ الَّذِينَ آمَنُوا ابْنَانًا﴾ (المدر: ٣١)، وإذا علمنا أن الإيمان يزيد بالأعمال الصالحة، كما رأينا - فهو بالبداهة ينقص بالفترة والمعاصي.

يقول الشيخ حافظ بن أحمد: "وعلى هذا إجماع الأئمة المعتد بإجماعهم أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، وإذا كان ينقص بالفترة عن الذكر، فلأن ينقص بفعل المعاصي من باب أولى" (٤).

ثانيًا. اعتنى الإسلام بالعمل فجعله قيمة عليا تتشكل من خلالها كافة المبادئ والقيم:

إن الإسلام أعطى للعمل أولوية كبيرة، وجعل له قيمًا عليا هي التي تُشكّل ما عداها من القيم الأخرى في أي مجتمع أو دولة، بمعنى آخر: إن هناك قيمًا عديدة لها وجودها وحركيتها، ولكن تُشكّل من خلال القيمة العليا التي تبسط نفوذها على ما عداها من القيم (٥).

ولهذا أُبرزت الحرية كقيمة عليا في المجتمع الغربي، وليس معنى هذا أن المجتمع الغربي ليس لديه قيم أخرى، فإن لديه قيم العدالة والمساواة والعمل وكل القيم، ولكنها تبرز من خلال الحرية وتشكل بها، وكذلك في المجتمع الشرقي هناك قيمة المساواة كقيمة عليا.

ونأتي إلى الإسلام الذي جعل من العمل قيمة عليا، تتفرع من خلاله عدّة مبادئ وقيم أخرى؛ مثل: الحرية

وعمل، والدليل على دخول الأعمال في مسمى الإيمان قول الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ (البقرة: ١٤٣)، أي: صلاتكم إلى المسجد؛ كما فسرهُ ابن عباس - رضي الله عنهما - وقول الله ﷻ: ﴿لَيْسَ الْإِيمَانُ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْإِيمَانَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآلَمَ بِنُفْسِهِ وَآلَمَ بِكُتُبِهِ وَآلَمَ بِالنَّبِيِّينَ وَآلَمَ بِالْمَلَائِكَةِ وَآلَمَ بِالسَّائِلِينَ وَآلَمَ بِالْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَآلَمَ بِالسَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة)، وفسر أبو بكر الصديق ﷺ البر بالإيمان، فدخل في مسمى الإيمان أعمال القلب والجوارح، والدليل من السنة قول رسول الله ﷺ: "الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة، أفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى" (١) عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان (٢).

وخير دليل على ارتباط وتلازم الإيمان والعمل الصالح - أن الإيمان يزيد بالأعمال الصالحة، وينقص بالمعاصي؛ إذ يقول ﷺ: "أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم" (٣).

ويقول تعالى: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ (الفتح: ٤)،

١. إماطة الأذى: تَنْجِيته وإبعاده.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان (١٦٢).

٣. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الرضاع، باب حق المرأة على زوجها (١١٦٢)، وابن حبان في صحيحه، كتاب النكاح، باب معاش الزوجين (٤١٧٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٣٢).

٤. عقيدة أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، مكتبة فياض، المنصورة، ٢٠٠٥م، ص ٩: ١١.

٥. نظرية القيم، د. حامد ربيع، نهضة الشرق، القاهرة، ١٩٧٤م، ص ١: ٣ بتصرف يسير.

يَرَهُ ۖ ﴿٨﴾ (الزلزلة). حتى إن الإيمان اقترن في آيات قرآنية عديدة بالعمل الصالح: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (العصر: ٣).

وهذا العمل الصالح المقترن بالإيمان يجاوز في أثره الحياة الدنيا إلى حيث ينفع صاحبه في الحياة الآخرة، فقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له" (٣).

أي أنه يجب أن يعمل الإنسان أعمالاً ينتفع بها بعد موته؛ إما من تربية ذرية صالحة، أو علوم نافعة، أو صدقات جارية.

وإذا رأينا الرسول ﷺ يقول: "اغتنم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك، وشبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك" (٤) لعرفنا أننا يجب أن ننتهز الشباب والصحة والحياة للعمل الجاد والمثمر بعيداً عن إغراء المال وضياع الزمان (٥).

خصائص العمل في الإسلام:

١. التوازن بين العمل للدنيا والآخرة:

لقد أكد القرآن والسنة على أنه لا ينبغي الاهتمام

والعدالة والمساواة؛ لذلك فقد قدس الإسلام العمل وحض عليه، ونهى عن الكسل وحذر من عواقبه، والله تعالى ورسوله ﷺ وكافة المؤمنين هم الذين سيراغبون أعمالنا، يقول الله ﷻ: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرِّي اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ، وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة: ١٠٥).

إن العمل في مفهومه كما يشمل الأعمال البدنية من زراعة وتجارة وصناعة، مثلاً... إلخ، يشمل أيضاً الأعمال القلبية، كالغضب والرضا، والحب والكراهية والحق، وحب الخير للناس.. إلى غير ذلك مما يقع في الشريعة الإسلامية تحت مسؤولية الإنسان ويستحق من أجله الثواب والعقاب، كما يتضمن مفهوم العمل في الإسلام، كذلك الأعمال الفكرية والعقلية، مثل أعمال التخطيط والتصميم، ومثل التأمل والتفكير في ملكوت السماوات والأرض (١).

كما يعتبر الإسلام النية في تقويمه للعمل، فإذا كانت النية في العمل خيرة كان العمل خيراً، وإن كانت النية سيئة كان العمل بالطبع شراً، وقد قال رسول الله ﷺ في الحديث: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى" (٢).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (٤٣١٠).

٤. صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الرقاق (٧٨٤٦)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في الزهد وقصر الأمل (١٠٢٤٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٧٧).

٥. العمل في رمضان، مقال لعبد الرحيم فودة، مجلة الأزهر، القاهرة، عدد رمضان ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٣ م، ص ٢.

١. العمل في الإسلام، مقال د. محمد عبد الرحمن بيسار، مجلة الوعي الإسلامي، الكويت، عدد شعبان ١٣٩٥ هـ، أكتوبر ١٩٧٥ م، ص ٣١.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: "إنما الأعمال بالنية" (٥٠٣٦).

بالجانب الدنيوي وإهمال الجانب الأخروي، فإذا عملت لدنياك من أجل دينك ووطنك ونفسك وأسرتك، فلا يؤثر ذلك في أخلاقك وعقيدتك وعملك للدار الآخرة، فإن عملك في الدنيا للدنيا يصبح واجباً شرعياً، والقواعد الأصولية تحدد أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب؛ ولذلك فالعمل للدنيا مع العمل للآخرة فريضة إسلامية^(١).

وقد قال الله تعالى: ﴿فَامشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ وَإِنَّهُ الشُّورُ^(١٥) (الملك)، فمطلوبُ التوازن بين العمل للدنيا وللآخرة، لماذا؟ لأن الدنيا مزرعة الآخرة والناس فيها ثلاث أصناف: صنف شغله معاشه عن معاده فهو هالك، وصنف شغله معاده عن معاشه فهو فائز ولكنه مقصر؛ لتركه فضيلة السعي في طلب الرزق بالكسب الشريف، وصنف معتدل، وهو من شغله معاده ومعاشه فعمل لكليهما، وهو الذي ينبغي للمؤمن^(٢).

٢. على طالب الرزق أن يطلب حلاله:

إن النبيين والمرسلين قد أتوا بشريعة تعلن أن على طالب الرزق أن يطلب حلاله؛ فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (المؤمنون).

كما قال النبي ﷺ لكعب بن عُجْرَةَ ﷺ في عقاب الكسب الآثم: "... يا كعب بن عجرة، إنه لا يدخل

١. من أمجاد الرسالة المحمدية، د. مصطفى الحديدي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، سلسلة: دراسات في الإسلام، رقم ١٦٨، مارس ١٩٧٥م، ص ٦٧.
٢. المرجع السابق، ص ٧٢.

الجنة لحم نَبَتَ من سحت، النار أولى به"^(٣). وقوله ﷺ في الكسب الحرام وسوء عاقبته أن صاحبه يُعاقب عليه، ولو أنفق في وجوه البر: "من أصاب مالا من مائمه فوصل به رَحِمًا، أو تصدَّق به، أو أنفق في سبيل الله، جمع الله ذلك كله ثم قذفه في النار"^{(٤)(٥)}.

٣. السعي الدائب المستمر لطلب الرزق:

إن السعي لطلب الرزق - أي: العمل للدنيا - فريضة على كل مسلم لكي ينفع نفسه وأهله ووطنه، فقد جاء عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ قال: "على كل مسلم صدقة"، قالوا: يا نبي الله، فمن لم يجد؟ قال: "يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق"، قالوا: فإن لم يجد؟ فقال: "يُعِين ذا الحاجة الملهوف"، قالوا: فإن لم يجد؟ قال: "فليعمل بالمعروف أو ليمسك عن الشر، فإنها له صدقة"^(٦).

وهذا الحديث يعطينا منهجاً في السعي الدائب لطلب الرزق للتصدق، أو عمل الخير وفعله دائماً وباستمرار^(٧)، ويعطينا الحديث صورة عن تبصير المسلم بأنواع من العمل قد لا ينتبه إليها ولا يعرف

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - (١٤٤٨١)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي والترهيب (٨٦٧).

٤. حسن: أخرجه أبو داود في المراسيل (١٣١)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي والترهيب (١٧٢١).

٥. من أمجاد الرسالة المحمدية، د. مصطفى الحديدي، مرجع سابق، ص ٧١.

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب على كل مسلم صدقة، ... (١٣٧٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على ... (٢٣٨٠).

٧. وظيفة المسلم في مجتمعه، مقال لأبي الوفا الراغي، مجلة الأزهر، القاهرة، عدد يناير ١٩٧٦م، ص ١٥.

مكانها في نظر الإسلام.

كذلك يحدد هذا الحديث الشريف الصحيح المنهج إلى السعي الدائب في ثلاثة أمور:

- الحث على العمل حتى لا يكون المسلم عالة على غيره، لا ينفع نفسه ولا ينفع الناس.
- أن ينتفع بما يجمع، فلا يحرم نفسه ولا أهله مما أفاء الله عليه، فذلك شر المنازل عند الله.
- أن ينفع الناس معه، ولا يستأثر بالتمتع به هو وأهله دون إخوانه المسلمين^(١).

ثالثاً. وجه الإسلام الإنسان لأن يبذل كل طاقته في التفاعل مع قوى الطبيعة:

لقد وجه الإسلام الإنسان لأن يبذل طاقته في معالجة طاقات الكون حتى ينال منها ما يحفظ عليه حياته، وحيوته، وطاقته؛ لينفق ذلك كله في عمارة الكون.

وببارك الإيمان الطاقات العاملة، فيكرم الإنسان بالعمل ويدفعه إلى النظر في الكون؛ فيجعل تأمله وتدبره، والعلم بنواميسه^(٢) والعمل للإفادة من طاقاته سياحة قدسية، وعبادة خاشعة، فيقول الحق: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الجمعة)، وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك).

وهكذا يطلق الدين قوى الإنسان في أقصى حالاتها

وأنقاها لتعمل مع قوى الطبيعة، تعمل بعد أن نقاها الإيمان من اليأس، والتكبر، والبَطَر^(٣)، والغرور.

وهكذا تأتي العقيدة الإسلامية تعزيزاً للسعي الإنساني في سبيل الحرية، وتأتي إطلاقاً لقوى الإنسانية في أوسع مداها، وتسخيراً للقوى الكونية في شتى أسبابها، مع سد المسارات التي تبدد هذه القوى.

إن العمل - والعمل الدائب الجاد - في هذا الكون العظيم الرائع هو عبادة الإسلام، ولقد كتب الله على نفسه أن يمد مخلوقاته بأسباب الحياة المعقولة: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (هود: ٦). ولكن كيف؟ إن الله ﷻ أودع موارد الرزق في الكون وأسباب الكسب في الإنسان^(٤).

إن الله ﷻ أعطى الإنسان طاقة تُفَجِّر ما فطر في الكون من طاقات، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ (الأعراف). وقال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ (الحج: ١٧).

وتتركز فكرة الإسلام عن العمل في أن الإيمان لا يقعد بالمرء عن طلب الرزق، والتوكل على الله لا يعني أن السماء تمطر ذهباً أو فضة، إن الإيمان في المفهوم الإسلامي يزيد المؤمن بالله عملاً في كون الله ابتغاء فضل الله؛ ولذلك فإن طلب الرزق عبادة، وعمارة

٣. البَطَر: الطغيان.

٤. الإسلام في معركتي البناء والنصر، محمد علم الدين، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، سلسلة: دراسات في الإسلام، العدد ١٧٣، أغسطس ٧٥، ص ٤٨: ٥٠.

١. المرجع السابق، ص ٦١.

٢. النواميس: جمع: الناموس، وهو الشريعة أو القانون.

الأرض عبادة، والإيمان لا يقوم إلا بكليهما معاً^(١).

وتتزين فلسفة العمل في الإسلام فتظهر في أحسن صورة لها عندما يرى الله العمل ويشجع على إتقانه فيقول الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الكهف)، وضمن الله تبارك وتعالى الأجر للعاملين فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (التوبة)، كما جاء عن السيدة عائشة - رضي الله عنها - قول الرسول ﷺ: "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه"^(٢). فالعمل الدائب والمثابرة عليه مما يساعد على مضاعفة الإنتاج؛ ولذلك حث الإسلام على إتقان العمل والمثابرة عليه وتحمل أعبائه ومشاقه^(٣).

وجزاء إتقان العمل هو تحقيق الرفاهية للعاملين، ولغيرهم من أفراد أمتهم وتحريرهم من كل قيد ظالم أو استغلال مستبد، أما جزاء إتقان العمل في الآخرة، فهو المثوبة من الله بإجزال العطاء.

تعاليم الإسلام بشأن الحث على العمل:

إن إتقان العامل لعمله أهم وسيلة من وسائل الإنتاج، وعامل من أهم عوامل الازدهار، ويعتبر العامل في الوقت نفسه غاية للعمل تعود عليه ثمرته،

١. انظر: الإسلام في المعركة ضد الجوع، عطية صقر، ص ٢٧: ٢٩.

٢. حسن: أخرجه أبو يعلى في مسنده، مسند عائشة رضي الله عنها (٤٣٨٦)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في الأمانات وما يجب من أدائها إلى أهلها (٥٣١٣)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٨٨٠).

٣. العمل في الإسلام، مقال منشور، د. محمد عبد الرحمن بيصار، مرجع سابق، ص ٣٢.

وينعم بخيره بما ينتفع به من خدمات يقدمها إليه المجتمع في مختلف شئون حياته: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (فصلت).

وقد دعا الإسلام إلى زيادة الإنتاج، لذا فقد استعاذ النبي ﷺ من العجز والكسل؛ حيث قال: "اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل والهرم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات"^(٤).

والمصطفى ﷺ لا يستعيز بالله إلا من عظيم سيئ الأثر في حياة الأمة^(٥). ونتحدث عن مجالات وصول الإنسان المسلم بالعمل إلى الرخاء:

١. الدين يطلق كل طاقات الإنسان إلى العمل والإنتاج^(٦)، وفي هذا تتعدد النواحي التي عني بها الإسلام:

فهو يوصي المؤمن بأن يستعيز من العجز والكسل ومن كل معوقات العمل، مادية ونفسية، كما جاء في الحديث.

طاقة الإنسان البدنية لا بد أن تُطلق وتستغل في مجالها النافع له ولمجتمعه، فرسول الإسلام محمد ﷺ يقول: "ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما يتعوذ من الجبن (٢٦٦٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من العجز والكسل وغيره (٧٠٤٨).

٥. العمل في الإسلام، مقال د. محمد عبد الرحمن بيصار، مرجع سابق، ص ٣١.

٦. الإسلام في المعركة ضد الجوع، عطية صقر، مرجع سابق، ص ٢٣: ٢٥.

عمل يده^(١).

وطاقة الإنسان العقلية قد رفع الإسلام شأنها على نحو لافت، وقد خلدها القرآن الكريم في سياحة هادية خلال ملك الله العريض منذ أول آياته نزولاً وحتى الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨).

رأس المال النقدي الذي يتجمع نتيجة الجهد الإنساني المبذول لا يرضى الإسلام بحبسه عن التداول، فإنه يبغض ذلك؛ لأنه يتكدس في أيدي فئة قليلة من الناس، الذين يكتزون الثروات في الخزائن.

كل هذه طاقات يباركها الإيمان الذي يجعل المؤمن أثبت قدماً وأصلب عوداً وأطول نفساً في جهاده المقدس، لا يلتصق بالأرض ولا يشمخ في السماء، لا يطغيه الفرح ولا تفجعه المصيبة، إن أصابته السراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته الضراء صبر فكان خيراً له.

٢. الإسلام والاستفادة من كل الإمكانيات لزيادة

الإنتاج:

لقد فتح القرآن الكريم عقول المؤمنين على الكون الكبير ليقروا كتابه، ويتدبروا أسرارهم، ويستلهموا حكمته في الزراعة والري ثم بقية المجالات فقد قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَبَعَرَةٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْنَبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَحِيدٍ وَفَضْلٌ لِّبَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْكُلِّ إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الرعد). وقال الله تبارك وتعالى: ﴿أَمَّنْ

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده (١٩٦٦).

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرُ هِمًّا لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ (النمل).

بل يدفع الإسلام عجلة الإنتاج بكل قوة إلى آخر لحظة من الزمان؛ ففي حديث الرسول ﷺ: "إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة^(٢)، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل"^(٣). وهكذا يأمر الإسلام بغرس فسيلة النخل التي لا تثمر إلا بعد سنين، ولو كانت الدنيا بأسرها توشك أن تزول، وقد قال الرسول ﷺ: "ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة"^(٤). فعلى المؤمن أن يواجه الكون بكل طاقاته، بإيمانه وعقله وجهده^(٥).

٣. حقوق العامل وواجباته:

لقد رأينا أن الإسلام يُطالب العامل بإتقان العمل ويحذره من الإهمال، لكنه بجانب ذلك حرص كل

٢. الفسيلة: النخلة الصغيرة.

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك (١٣٠٠٤)، والبخاري في الأدب المفرد، باب اصطناع المال (٤٧٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس (٢١٩٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع (٤٠٥٥).

٥. الإسلام في المعركة ضد الجوع، عطية صقر، مرجع سابق، ص ٣١: ٣٣.

بالعدل والترفق به، وعدم إرهاقه في العمل، وذلك في مثل قوله ﷺ: "إخوانكم خولكم"^(٤)، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم"^{(٥)(٦)}.

كما أن الدين الإسلامي يفرض على المجتمع أن يراعي طاقات أفرادها، فيتعهد الإنسان بالتعليم والتدريب والتوجيه بما يرفع كفايته الفنية والإنتاجية، فطلب العلم فريضة، وهو حق للفرد وواجب عليه، والدولة تلتزم بتهيئة كل سبيل إليه.

رابعاً. الإيمان شرط لقبول العمل الصالح والجزاء عليه في الآخرة:

إنه مهما عمل الإنسان من أعمال الخير فلن تُقبل منه ولن يُجازى عليها في الآخرة بالثواب والنعيم المقيم في جنات الرضوان إلا إذا مات مؤمناً بالله وحده لا شريك له وبدعوة نبيه ﷺ، حتى لو أتى بأعظم الأعمال الصالحة، وإنما هو يجازى على أعماله الصالحة في الحياة الدنيا، ولا يبخسه الله شيئاً، ولا يظلم ربك أحداً. ولو افترضنا احتمالية العلاقة بين الإيمان والعمل من الاقتران وعدمه، فنحن أمام الأمور الأربعة التالية:

• إيمان وعمل.

الحرص على حماية العامل من كل ظلم يقع عليه، كما حرص على رعايته، والعناية به صحياً وتدريباً وفكرياً وتثقيفياً؛ فقد أوجب الإسلام:

حق العامل في أن يأخذ أجره، ففي الحديث القدسي عن رب العزة تبارك وتعالى يقول فيه: "ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة.. ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يُعطه أجره"^{(١)(٢)}.

بل أوجب الإسلام على صاحب العمل أن يفي للعامل بحقه كاملاً غير منقوص قَور الفراغ منه مباشرة، فيقول النبي ﷺ: "أعطوا الأجير أجره قبل أن يجفَّ عرقه"^(٣).

كما كتب الإمام علي عليه السلام إلى أحد ولاته يقول له: "أسخ على عمالك الأرزاق، فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو خانوا أمانتك".

ولم يرَ الإسلام في العَمال أنهم مجرد تروس ماكينات أو آلات للإنتاج، فهم ليسوا دواليب تُدَّرُّ الثروة والنفع على كواهلهم لحساب غيرهم، فقد قرر حقوق الإنسانية كاملة للعامل، واهتم بالحفاظ على كرامته، فقد أمر الرسول باحترام إنسانية العامل ومعاملته

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب إثم من باع حرًا (٢١١٤).

٢. نظرية تقويم الفرد وتنظيم المجتمع في الإسلام، محمد موسى عثمان، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، سلسلة البحوث الإسلامية، أغسطس ١٩٨٠م.

٣. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الرهون، باب أجر الأجراء (٢٤٤٣)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٨٧٧).

٤. الحَوَل: جمع الخائل، وهو الخادم.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها (٣٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل، وإلباسه مما يلبس (٤٤٠٥).

٦. العمل في الإسلام، مقال د. محمد عبد الرحمن بيبصار، مرجع سابق، ص ٣٣.

• إيمان بلا عمل.

• عمل بلا إيمان.

• لا عمل ولا إيمان.

والإسلام لا يُقَرَّر من ذلك كله إلا الأمر الأول، وهو وجوب اقتران العمل بالإيمان؛ حتى يجازى عليه الإنسان في الآخرة ويقبل منه، أما الإيمان بلا عمل فهو شيء لعله لا يتصور رأساً؛ لأن العمل الصالح هو ثمرة الإيمان الموجود في القلب، ولا يصح أن يدعي أحد أن الإيمان قد وَقَرَّ^(١) في قلبه، ثم لا يظهر أثر ذلك على سلوكه وأعماله، بل يكون ادعاؤه باطلاً مجرداً من الحقيقة، أما العمل بلا إيمان فهذا هو حال الذين لم يؤمنوا بها جاء به خاتم الأنبياء، وهؤلاء يجزون على أعمالهم الصالحة في الدنيا، أي: ينالون ثوابهم في الحياة الدنيا، فأولئك قوم عَجَلَتْ لهم حسناتهم في الدنيا، لكن في الآخرة ليس لهم أجر ولا ثواب؛ لأن أعمالهم افتقدت شرط القبول وهو الإيمان، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (الفرقان)، أما عن عدم العمل وعدم الإيمان، فهذا ما لم يقل به أحد ولا هو مقبول في العقول ولا في النفوس.

وليس الإسلام بدعاً في ذلك، بل هو عام في العقائد والأديان السابقة للإسلام؛ فإن المشركين، مثلاً، اعتبروا الرسول ﷺ صابئاً لمجرد كفره بعقائدهم، ولم يبالوا بحسن معاملته لهم، فهل الإسلام سيقبل منهم العمل الصالح دون أن يؤمنوا بأول أركانه وأهمها وهو "شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله"، إن الذي يأخذونه على الإسلام يجده صاحب كل ملة حقاً

١. وَقَرَّ: ثبت وبقي.

له، والإسلام ليس استثناء من هذه القاعدة.

إن الإيمان بالله ورسوله هو الذي يوجه العمل والسلوك التوجيه الصحيح، ويكسبه البقاء والدوام؛ لأنه ليس مرتبطاً بمكاسب عاجلة يزول بزوالها، ولكنه مرتبط بالأبقى والأخلد، وهو وجه الله وابتغاء رضوانه ولقائه: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ، فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف)، والعمل القويم من غير رصيد إيماني سراب خادع، ﴿كَرَاهٍ يَقِيعَةً﴾ (النور: ٣٩).

إن التصورات الدينية بعمامة تجعل جنة الآخرة قصراً على معتنقي هذه التصورات في الدنيا، لا يشذ عن هذا مذهب أو فرقة، وليس ما نراه من تدافع ونزاع بين أصحاب الديانات المختلفة، والفلسفات والآراء الفكرية المختلفة إلا مظهرًا لاعتقاد أن الحقيقة واحدة، وأن الذين هُدُوا إليها هم أهل الحق في الدنيا وأهل النجاة في الآخرة، وليس الإسلام بدعاً في شيء من ذلك كله.

الخلاصة:

- الإيمان والعمل مترابطان متلازمان، وقد اهتم الإسلام بهما على السواء، أما ما يتخذه المشككون ذريعة للزعم أن الإسلام يُعنى بالإيمان أكثر من العمل، من كون الإسلام لا يقبل من لا يؤمنون بالله ورسوله، وإن كان سلوكهم قويمًا، فأى ملة تقبل من لا يؤمنون بعقائدها، وإن كان سلوكهم قويمًا! فمهما حَسُنَ عمل الإنسان فلن يدخل في الإسلام إلا بالإيمان بالله ورسوله، وإن كان عمله محموداً ويجازى عليه في الدنيا.
- الإيمان بمعناه الشامل في الإسلام يتضمن التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل

بالجوارح، وهذه الأركان لا ينفصل بعضها عن بعض، وهي بجملتها تصوّر الإيـان الإسلامي السليم.

• اعتنى الإسلام بالعمل فجعله قيمة عليا تتشكل من خلالها كافة المبادئ والقيم، وذلك يظهر في جملة التعاليم التي وجّه الإسلام إليها أتباعه.

• وجه الإسلام الإنسان لأن يبذل طاقته في التفاعل مع قوى الطبيعة، ليستخرج كنوزها، ويكتشف أسرار الله فيها، وجعل هذا سبباً للنجاة من العذاب والفوز بثواب الله ما دام قائماً على إيمان صادق.



الشبهة الرابعة

ادعاء أن التمسك بالعقيدة الإسلامية رجعية(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أن التمسك بالعقيدة الإسلامية رجعية، وأن الوقوف على ذلك نوع من الجمود والتخلف الحضاري، وأنه تعصب للموروثات القديمة، ويستدلون على ذلك بحال المسلمين الآن وواقعهم الأليم.

وجوه إبطال الشبهة:

(١) العقيدة هي الجانب الغيبي الذي يُطلبُ الإيـان

(*) دراسات في العقيدة الإسلامية، د. محمد أحمد الخطيب، د. محمد عوض الهزايمة، دار عمار، عمّان، ط ٥، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م. القرآن وصحوة العقل، د. محمد محمد داود، دار المنار، القاهرة، ٢٠٠٤م. أصول العقيدة الإسلامية: دراسات وبحوث، د. محمد سلامة أبو خليفة، دار الهاني، القاهرة، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

به؛ إيماناً لا يرقى إليه الشك، ولها آثار واضحة في حياة المسلمين.

(٢) العقيدة الإسلامية عقيدة ثابتة واقعية إيجابية، تتمشى مع واقع الإنسان ومتطلبات وجوده، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦).

(٣) تمتاز العقيدة الإسلامية بالشمول والتوازن والوسطية، وبذلك تقضي على التعصب وتبطل دوافعه.

التفصيل:

أولاً. معنى العقيدة وأثرها في حياة المسلمين:

أصل العقيدة في اللغة: من عَقَدَ الحبل، والبيع؛ أي: شَدَّه، والعَقْد: العهد، قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (المائدة: ١).

ومعناها: الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده، وتعريفها في الاصطلاح: "الجانب النظري الذي يطلب الإيـان به - أولاً قبل كل شيء - إيماناً لا يرقى إليه شك، ولا تؤثر فيه شبهة، ومن طبيعتها تضافر النصوص الواضحة على تقريرها، وإجماع المسلمين عليها من يوم أن ابتدأت الدعوة".

ومصدر العقيدة هو النص الديني الصحيح، المدعوم بالموافقة العقلية، والانسجام مع الفكرة الإنسانية؛ فضلاً عن الإجماع الإسلامي العام - منذ الجيل الأول وإلى يومنا هذا - على الأصول والكتليات الكبرى المتفق عليها، فيما يتعلق بتلك العقيدة^(١).

وللعقيدة الإسلامية آثار واضحة في حياة المسلمين

١. دراسات في العقيدة الإسلامية، د. محمد أحمد الخطيب، و محمد عوض الهزايمة، مرجع سابق، ص ٩ وما بعدها.

أَلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ (المنافقون: ٨). والعقيدة الإسلامية تُطمئن الإنسان المسلم على رزقه وأجله، وقد تجلّت هذه الطمأنينة في مواقف كثيرة، كموقف ابن تيمية؛ حيث قال ابن تيمية لمن زجّ به من الحكام في السجن: "ماذا تصنعون بي؟ إن قُتِلْتِ شهادة، وإن سجنني خلوة، وإن نُفِي سياحة".

وخبيب بن عدي حين قال:
وَلَسْتُ أَبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا

على أيّ جنّب كان في الله مَضَرِي

والعقيدة هي التي تحرّر الإنسان في روحه وعقله، وتعطيه المجال الأرحب ليفكر ويبدع.

• تغرس في نفس الإنسان المسلم الاستقامة: تظهر آثار العقيدة الإسلامية الصحيحة عندما يلتزم المسلم بها؛ لأنه يستشعر تلك الصلة الدائمة مع خالقه، فيستحي أن ينحرف، ويحاول تطهير نفسه وشعوره وجوارحه من الآثام، فتصبح نفسه عند الالتزام بالعقيدة حساسة تحس بلسع المنكر والإثم حينها تستمع إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْهُ بِهِ فَسُخِّمَ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١١﴾﴾ (ق).

• تغرس في الإنسان روح التضحية والبذل والعطاء: تجعل العقيدة الإسلامية الإنسان يستخلص أعزّ ما يملك من النفس أو المال أو الولد في سبيل الله، ولعلنا نذكر كلمة خالد بن الوليد لملك الروم: "أتيتكم بقوم يحبون الموت حبكم الحياة"^(٣)! وهي العقيدة الإسلامية

إذا كانت ماثلة في أذهانهم، حاضرة في نفوسهم، حيّة في قلوبهم. ومن آثارها أنها:

• تحرر الإنسان من عبودية غير الله وهذا يستوجب من الإنسان المسلم التحرر من كل ولاء لغير الله، والتمرد على كل قانون غير شرع الله، وهذا توجيه الخالق ﷻ ينبض بكل هذه المعاني؛ حيث قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ (القصص: ٨٨).

وقد وصف القرآن الكريم محمدًا ﷺ - وهو حامل لأوسع الرسالات وأعمها - بالعبودية لله في مقام الرفعة، فقال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ (الإسراء: ١).

• تحرر العقل من الأوهام والخرافات وتحفره على التفكير الصحيح: لقد اتجهت العقيدة إلى العقل، وعملت على تحريره من التقليد الأعمى، والخضوع للأفكار والعقائد والعادات الموروثة، وأقام الإسلام عقيدته على اليقين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾﴾ (النجم).

كما اتجهت إلى تحرير العقل من الأساطير^(٢) والخرافات والأوهام والجهل والسلبية، قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (يونس: ١٠١).

• الشعور بالعزة والكرامة والحرية: يستمد المسلم هذا الشعور من عزة الله تعالى؛ حيث قال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ

١. المرجع السابق، ص ١٢.

٢. الأساطير: جمع أسطورة، وهي الخرافة أو الحديث الملفق الذي لا أصل له.

٣. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦ / ٥٤٨)، كتاب التاريخ (٣٣٧٢٩).

التي أخرجت حظلة في ليلة عرسه إلى صفوف المجاهدين يوم أحد ليرتفع شهيداً في سبيل الله.

والعقيدة الإسلامية هي التي جعلت امرأة من بني ذبيان تقول عندما أخبرت باستشهاد زوجها وأخيها وأبيها: ماذا صنع رسول الله ﷺ؟ فقالوا: هو بخير، فقالت: أرؤنيه حتى أنظر إليه، فأشاروا لها إليه، حتى إذا رأيته قالت: كل مصيبة بعدك يا رسول الله جَلَلٌ (١)(٢).

• تكسب الإنسان روح الانضباط والمسئولية: تؤدي العقيدة الإسلامية بالإنسان إلى أن يضبط سلوكه وفق أوامر الله وتوجيهاته، فتجعله سيداً لنفسه، لا عبداً لشهواته، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۚ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۚ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۚ﴾ (١٠) ﴿الشمس﴾.

• كما تجعله كذلك نجس بالمسئولية؛ لأنه مُستخلف وصاحب رسالة عليه أن يقوم بواجبها، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾ (البقرة: ٣٠)، فما على الإنسان المسلم عند الإحساس بذلك إلا أن يضبط سلوكه، ويستشعر المسئولية حتى يؤدي رسالته، رسالة الخلافة في الأرض (رسالة الإسلام).

• تبعث السعادة والطمأنينة، والأمن والراحة في نفس الإنسان المسلم: في ظلال عقيدة الإسلام، يتذوق الإنسان طعم السعادة، التي يتمناها كل الناس،

ويسعون إليها بكل جهد، واتباع شتى الأساليب، وفي ظلها يتعد عن الندم على ما فات، والقلق على ما هو آت، ولتحقيق هذه السعادة عليه الإقبال على كتاب الله تعالى، والعمل بما فيه من أوامر ونواه، كل ذلك ليضمن السعادة في الدارين: الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧) ﴿النحل﴾.

والعقيدة الإسلامية تجعل الإنسان المسلم يعلم كل العلم أن المآب إلى الله ﷻ وأن ليس للإنسان إلا عمله، قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۚ وَأَن سَعِيَّهٖ سَوْفَ يُرَىٰ ۚ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ۚ وَأَن إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ۚ﴾ (٤٢) ﴿النجم﴾ (٣).

ثانياً. العقيدة الإسلامية عقيدة ثابتة مستقرة:

إن هذه العقيدة هي التصور الرباني الكلي الثابت الذي تدور الحياة حوله، وهذا التصور مع ثباته في قيمه وأصوله، لا يعني تجميد حركة الفكر والحياة، وإنما يسمح بالحركة، بل يدفع إليها دفعاً، لكنها الحركة داخل نظام مستقر وأطر ثابتة.

فلم يمنع الإسلام من الاستفادة بالخبرات العقلية، والعلمية، والفكرية في نصرة العقائد الدينية، وتقديمها بالصورة اللائقة والمناسبة لكل عصر، لمخاطبة الإنسان في كل عصر بما يناسب عقله وإدراكه.

وعقيدة الإسلام عقيدة واقعية تتعامل مع المسلم

١. الجَلَلُ: الأمر الهين.
٢. أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، باب ما جرى بعد انقضاء العرب وذهاب المشركين في أمر القتل (١١٩٣).

٣. دراسات في العقيدة الإسلامية، د. محمد أحمد الخطيب، ومحمد عوض الهزايمة، مرجع سابق، ص ١٥.

الديني والأخروي، فبينت بحق حقيقة كل منهما، قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (القصص: ٧٧).

الإسلام بعد ذلك عقيدة وسطية تحل بوسطيتها لغز المنادين أن لا إله والحياة مادة، ولغز المنادين بأكثر من إله لهذا الكون، فهي - كما يقرر د. محمد داود في مقال ضمنه كتاب "الإسلام وصحوة العقل" - لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، فلا آلهة متعددة ولا إله معدوم، بل هي تنادي برب واحد، وهذا هو أساس التوحيد، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ (٤)﴾ (الإخلاص) (١).

وقد أبطل الإسلام كل دوافع التعصب وقضى عليها، ودعا إلى التسامح والتعاطف والتراحم والرفق، قال رسول الله ﷺ: "ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا نُزِعَ من شيء إلا شانه" (٢). وقد حارب الإسلام كل دوافع التعصب، ومنها الجهل، والاستسلام للعادات الضالة والتقاليد الفاسدة، والظلم والقهر وغياب العدالة، وسوء الفهم وقلة الوعي بالآخر، وكل ما يوقع الإنسان في التعصب.

وقدراته المحدودة، فلم تكلفه شططاً، ولم تعنته، ولم تأمره أن يعتقد محالاً، أو أن يؤمن بما لا يتوافق مع العقل، بل إن العقائد الإسلامية كلها جاءت لتعبر عن احتياجات النفس الإنسانية الواقعية للإيمان، فالإنسان يحتاج إلى الإيمان بالله وبوحدانيته؛ حيث نجد أن عقيدة التوحيد تتوافق مع نزوع النفس الإنسانية نحو الوحدة لما فيها من معاني السلام الداخلي، والأمان النفسي، والإنسان بحاجة إلى الإيمان باليوم الآخر؛ حيث تتحقق معاني العدالة التي قد يجدها مهدرة في حياته الدنيا.

والعقيدة الإسلامية عقيدة إيجابية؛ ذلك أنها تربط بين قلوب معتنقيها برابط الإيمان والمحبة والتراحم، وهو رابط لا يعدله أي رابط آخر، من جنس أو لغة أو قومية أو مصلحة مشتركة، فهذه العلاقات تظل سطحية لا تقوى أمام المحن والهزات الاجتماعية والاقتصادية، أما معاني الأخوة في العقيدة والوحدة الإيمانية فتحول الكثرة إلى وحدة، والأثرة إلى إيثار، والفرقة إلى اجتماع، فوجودها سبب في علو المجتمعات والأمم، فهي ليست خيالية يصعب تطبيقها، ولا تطلب من الإنسان فوق طاقته، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ

نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦).

ثالثاً. تمتاز العقيدة الإسلامية بنظرتها الشمولية والمتوازنة للكون والحياة والإنسان:

فقد عرّفت الإنسان تعريفاً كاملاً؛ أصله ونشأته وأطواره، وحياته وموته، وحياته بعد الموت، وما يرافق ذلك؛ حتى يقر به القرار، إما إلى الجنة وإما إلى النار، وكذلك تطرقت للكون أصله وظواهره والغاية منه، وامتاز هذا التطرق بتوازن في التعريف للحياة بشقيها:

١. المرجع السابق، ص ١٦: ٢٣ بتصرف. وانظر: القرآن وصحوة العقل، د. محمد محمد داود، مرجع سابق.

® في "شمولية العقيدة في الإسلام" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الرابعة، من الجزء السابع عشر (مرونة التشريع الإسلامي).

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق (٦٧٦٧).

الخلاصة:

• العقيدة الإسلامية هي التصور الإسلامي عن الكون والحياة والإنسان الذي يدين به المسلمون، وإنها - بما تشتمل عليه من معان سامية - لجديرة بأن تحرر الوعي الإنساني من سطوة الأوهام والأساطير، وتردّه إلى فكرة سهلة بسيطة لا لبس فيها ولا تعقيد.

• ومن سمات هذه العقيدة أنها عقيدة واقعية؛ فهي - لذلك - تعالج مشكلات الإنسان علاجاً قريباً يلائم قدرته ومشاعره، ولا يكلفه ما لا يطيق اعتقاده من الحالات والأحكام الممتنعة التي لا يسيغها عقله، وهي في جملة ذلك بمنأى عن التفريعات الذهنية وطرائق الجدل في عرض العقيدة.

• وهذه العقيدة - بعد ما تقدم - تنظر إلى الكون والحياة والإنسان نظرة شاملة متوازنة، وهو ما أضفى عليها طابع الوسطية التي تنبذ التعصّب وتقتلع جذوره البعيدة.



الشبهة الخامسة

ادعاء تآثر العقيدة الإسلامية بعقائد

البلاد المفتوحة (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض الحاقدين أن العقيدة الإسلامية تأثرت بثقافات وديانات البلاد التي فتحها المسلمون، وأنها لم

(*) الإسلام في تصورات الغرب، د. محمود حمدي زقزوق، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

تفوّ على مقاومة هذه الموروثات التي كانت سائدة في ربوع تلك الأقطار؛ مما أنتج عقيدة مشوّهة مرقّعة بالبدع والخرافات والأساطير.

وجها إبطال الشبهة:

(١) العقيدة الإسلامية عقيدة واضحة، وهي عقيدة الفطرة، وهي عقيدة وسطى ثابتة بالدليل والبرهان.

(٢) لم تتأثر عقيدة المسلمين بموروثات وأساطير الأقطار التي فتحوها؛ لأنهم فتحوا هذه البلاد ليحرروا أهلها من الأساطير والأوهام والضلال.

التفصيل:

أولاً. العقيدة الإسلامية عقيدة واضحة فطرية وثابتة بالدليل والبرهان:

إن من يدعي أن العقيدة الإسلامية ليست بالقوة الكافية لصدّ تأثير الأساطير والموروثات الدينية التي كانت سائدة في البلاد والأقطار التي فتحوها، فإنه يجهل طبيعة تلك العقيدة الغراء وخصائصها، وما حمله على هذا الادعاء إلا جهله بعقيدة التوحيد التي تناهض وتناقض كل عقائد الشرك في جميع صوره، فكيف هي تناقض الشرك والإلحاد ثم تتأثر بهما؟ ثم كيف تستمر صافية كما هي طوال هذه القرون المديدة عبر التاريخ، ثم يقال: إنها عقيدة ضعيفة تتأثر بالموروثات الدينية من حولها؟ أليست هذه العقيدة التي بين أيدينا هي عقيدة التوحيد التي أنزلت على محمد ﷺ لم يتغير منها شيء؟ فكيف يُدعى أنها يمكن أن تتأثر بغيرها من العقائد المُحرّفة الفاسدة؟ وكيف تنتشر هذا الانتشار السريع قديماً وحديثاً وتسيطر على قلوب العباد ونفوسهم، ثم يأتي مدّعٍ ويقول: إنها عقيدة ضعيفة يمكن أن تتأثر

بغيرها من الموروثات الدينية للبلاد التي فتحها المسلمون؟

ولو افترضنا - جدلاً - أن عقيدة التوحيد يمكن أن تتأثر بغيرها، فما هو الجديد الذي جدَّ عليها وتأثرت به ولم يكن موجوداً فيها، ولم ينبه عليه العلماء الذين جعلهم الله حراس العقيدة وحماها فينفون عنها كل زيغ وضلال وينقونها من كل بدعة وفساد؟

من أجل هذا بقيت عقيدة التوحيد نقية صافية خالصة حتى يومنا هذا، وذلك يعود لسببين:

أولهما: أن الله تعالى قيَّض لهذه العقيدة من العلماء من يصححها وفق منهج الكتاب والسنة كلما عظم الخطب أو اشتدت المحنة، كما حدث في محنة خلق القرآن وغيرها.

ثانيهما: عقيدة الإسلام تنفرد عن غيرها من العقائد بخصائص عديدة لا تتوافر لغيرها من العقائد فهي:

• **عقيدة واضحة:** بسيطة لا تعقيد فيها ولا غموض، تتلخص في أن وراء هذا العالم البديع المنسق المحكم رباً واحداً خلقه ونظمه، وقدر كل شيء فيه تقديراً، وهذا الإله أو الرب ليس له شريك ولا شبيه ولا صاحبة ولا ولد: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٍ قَلْبُونَ﴾ (البقرة).

وهذه عقيدة واضحة مقبولة، فالعقل دائماً يطلب الترابط والوحدة وراء التنوع والكثرة، ويريد أن يرجع الأشياء دوماً إلى سبب واحد، فليس في عقيدة التوحيد ما في عقائد التثليث^(١) أو الثنوية ونحوها من الغموض

١. التثليث: عند النصارى: القول بوجود ثلاثة أقانيم في الذات الإلهية: الآب والابن والروح القدس.

والتعقيد الذي يعتمد دائماً على الكلمة الماثورة عند غير المسلمين: "اعتقد وأنت أعمى"، وهي عقيدة الفطرة ليست غريبة عنها ولا مناقضة لها، بل هي منطبقة عليها انطباق المفتاح المحدد على قفله المحكم، وهذا هو صحيح القرآن الكريم قال تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم). وصرح الحديث النبوي: "كل مولود يولد على الفطرة - أي الإسلام - فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"^(٢). فدل هذا الحديث على أن الإسلام هو فطرة الله، فلا يحتاج إلى تأثير من الأبوين، أما الأديان الأخرى من يهودية ونصرانية ومجوسية فهي من تلقين الآباء والأمهات.

• **عقيدة ثابتة:** لا تقبل الزيادة والنقصان، ولا التحريف والتبديل، فليس لحاكم من الحكام، أو مجمع من المجمع العلمية، أو مؤتمر من المؤتمرات الدينية، أن يضيف إليها أو يحوِّر فيها، وكل شيء مضاف أو محوَّر مردود على صاحبه، والنبى ﷺ يقول: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ"^(٣). أي: مردود عليه، والقرآن يقول مستنكراً: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (١٣١٩)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٦٩٢٦).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٢٥٥٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (٤٥٨٩).

لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴿٢١﴾ (الشورى: ٢١). وعلى هذا فكل البدع والأساطير والخرافات التي دُسَّت في بعض كتب المسلمين، أو أُشيعت بين عامتهم باطلة مردودة لا يقرها الإسلام، ولا تؤخذ حجة عليه.

• عقيدة مبرهنة: لا تكتفي من تقرير قضايها بالإلزام المجرد والتكليف الصارم، ولا تقول كما تقول بعض العقائد الأخرى: "اعتقد وأنت أعمى"، أو: "آمن ثم اعلم"، أو: "أغمض عينيك ثم اتبعني"، أو: "الجهالة أم التقوى"، بل يقول كتابها صراحة: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ ۚ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ (البقرة)، ولا يقول من علمائها ما قاله أحد القديسين الفلاسفة المسيحيين: "أو من بهذا لأنه محال!" بل يقول علماء العقيدة الإسلامية: إن إسلام المقلد لا يُقبل. وكذلك لا تكتفي بمخاطبة القلب والوجدان، والاعتماد عليهما أساسًا للاعتقاد، بل تُتبع قضايها بالحجة الدامغة، والبرهان الناصع، والتعليل الواضح، الذي يملك أزيمة العقول، ويأخذ الطريق إلى القلوب، ويقول علمائها: إن النقل الصحيح لا يخالف العقل الصريح، فنرى القرآن في قضية الألوهية يقيم الأدلة في الكون ومن النفس ومن التاريخ على وجود الله وعلى وحدانيته وكماله. وفي قضية البعث يقيم الأدلة على إمكانه بخلق الإنسان أول مرة، وخلق السماوات والأرض، وإحياء الأرض بعد موتها، ويدلل كذلك على حكمته بالعدالة الإلهية في إثابة المحسن وعقوبة المسيء: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ ﴿٢١﴾﴾ (النجم).

• عقيدة وسط لا إفراط فيها ولا تفريط: فهي وسط بين من ينكرون كل ما وراء الطبيعة مما لا تصل إليه حواسهم، وبين الذين يثبتون للعالم أكثر من إله، بل إنهم يحلون روح الإله في الملوك والحكام! بل يحلون في بعض الحيوانات والنبات، مثل: الأبقار والأشجار! فقد رفضت الإنكار الملحد، كما رفضت أيضًا التحديد الجاهل، والإشراك الغافل، وأثبتت للعالم إلهًا واحدًا، لا إله إلا هو: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَنْفَعُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ يَدْعُو مَلَكَوٓتَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ (المؤمنون).

وهي عقيدة وسط في صفات الإله تعالى، فليس فيها الغلو في التجريد الذي جعل صفات الإله مجرد صفات سلبية لا تعطي معنى، ولا توحى بخوف أو رجاء - كما فعلت الفلسفة اليونانية - فكل ما وصفت به الإله أنه ليس بكذا وليس بكذا... من غير أن تقول: ما صفات هذا الإله الإيجابية؟ وما أثرها في هذا العالم؟ ويقابل هذا أنها خلت من التشبيه والتجسيم الذي وقعت فيه عقائد أخرى، كاليهودية التي جعلت الخالق كأحد المخلوقين من الناس، ووصفته بالنوم والتعب والراحة، والتحيز والمحابة والقسوة وجعلته يلتقي ببعض الأنبياء - عليهم السلام - فيصارعه فيغلبه ويصرعه، فلم يتمكن الرب من الإفلات منه حتى أنعم عليه بلقب جديد!

ثانيًا. كيف تتأثر عقيدة المسلمين بموروثات وأساطير البلاد التي فتحوها، وهم ما فتحوا هذه البلاد إلا ليحرروا أهلها من هذه الأساطير والأوهام؟

وإذا كان المسلمون الأوائل أمام تحدٍّ وهم يجوبون العالم شرقه وغربه فاتحين، فهو تحدّي تخليص العالم من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد، وردّ كرامة الإنسان إليه. والذي يوضح هذا ويبينه أوضح بيان قولُ ربعي بن عامر رضي الله عنه في ردّه على ملك الفرس قائلاً: "إننا ابتعنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جُور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة"^(١).

والقرآن الكريم نزل على فترة من الرسل، اختلط فيها الباطل بالحق بين معتنقي اليهودية والنصرانية، فلم يكن بُدَّ من تصحيح المسار الإنساني الديني بالقرآن الكريم الدائم والناسخ لبعض ما سبقه من الشرائع المخالفة له، فلقد جمع القرآن بين صفحاته كل العقائد السابقة مبيّنًا الحق منها والباطل، فصَحَّحَ العقيدة، وكان ذلك من أجل خير الإنسانية عامة وبلاد العرب خاصة؛ حيث تكثرت فيها الملل والديانات المتناحرة، وفي سبيل ذلك أخذ القرآن ينوِّع أسلوبه من الأسلوب الذي يناسب العامي، أي الأسلوب المحسوس البحت المجسم، إلى الأسلوب الذي يجمع بين المحسوس والمعقول الذي يخاطب أواسط الناس في الطبيعة العقلية، والذين لهم ملكات تؤهلهم لفهم المعقول ولكن بالتعاقب مع المحسوس، ثم إلى الفئة الثالثة وهم

أولو الألباب، وما يتناسب معهم من أدلة عقلية خالية من الحس، وهذه الفئة أعلى من سابقتها في الملكات العقلية.

فلم يكن ظهور الإسلام في الجزيرة العربية أثرًا مفاجئًا، بل كانت هناك مقدمات ممهدة له، هيأت النفوس لاستقباله؛ فقد انتهت العرب إلى حال شديدة من الفساد والضلال، الأمر الذي دفع بفريق منهم ومن أهل الكتاب إلى البحث عن دين أو معتقد بجوار المعتقدات السائدة التي أهمها عبادة الأوثان، ولقد عالج القرآن الكريم كل هذا من خلال:

١. إثبات وجود الخالق ﷻ على وجه مستمد من دليل الحس، لا يبيِّد عما يشاهدونه من كائنات الطبيعة الحية كالأنعام التي يزعمونها، والصامتة كالجبال التي من حولهم؛ فينبئ بذلك حواسهم وأذهانهم جميعًا في غير تعقيد ولا جدال، على نحو ما نجده في قول الله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۖ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۖ﴾ (١٨) ﴿الغاشية﴾.

٢. والقرآن الكريم يُجَلِّصُ فكرة الألوهية من أي شرك وضلال، فبعد أن أثبت القرآن الكريم أن هناك خالقًا هو إله هذا الكون، بدأ في تنقية فكرة الألوهية، وفي سبيل ذلك تحدث عن معبودات لا تتصف بصفة الحياة؛ كالشمس في قصة سبأ، وقد حكى الله تعالى عن الهدهد قوله: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۚ﴾ (٢٣) ﴿جَدَّثَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۚ﴾ (٢٤) ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ

١. انظر: العقيدة الإسلامية وأثرها في حماية الفرد والمجتمع، د. فتحي إبراهيم منصور، دار البيان، القاهرة، ٢٠٠٦ م.

البلاد ليحرروا أهلها من هذه الأساطير، ولقد أكرم الله من دخل في الإسلام بالتخلص من تلك الأساطير والأوهام بمجرد دخولهم في الإسلام.



الشبهة السادسة

**ادعاء التماثل بين مفهوم التقوى في الإسلام
والرهبة في النصرانية(*)**

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن الرهبانية في بعض الأديان تعني التقوى في الإسلام، فالسمو في الآخرة في زعمهم لا يتحقق مع وجود هذا الجسد اللعين، ويتساءلون: إن كان هذا هو شأن الدين الإسلامي، فلماذا يتدخل في شئون الحكم ويحرص على الأمور الدنيوية؟!

وجوه إبطال الشبهة:

- (١) الإسلام ليس مجرد دين روحي، بل هو منهج حياة يسمو بالسلوك والأخلاق، ويتسم بالشمول، والعالمية، والصفاء الروحي.
- (٢) ليس في الإسلام رهبة، ولكنه دين الوسطية عبادةً وتشريعاً، وهناك فرق بين وسطية الإسلام وإفراط الرهبة وتطرفها.
- (٣) لا ينبغي أن نخلط بين الإسلام نفسه وما ظهر في تاريخه من بعض أصحاب المذاهب والأفكار

(*) مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ط ٢، ٢٠٠٤م.

﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ (النمل)، حيث يستنكر القرآن عبادة الشمس في هذه الآيات، وقد هدم القرآن الكريم عبادة الكواكب، كما ورد في قصة سيدنا إبراهيم مع قومه، إلى جانب اهتمام القرآن بإبطال عبادة الأصنام التي كانت منتشرة في جزيرة العرب، وكانوا لا يعدلون بها، فكانوا كلما اعتنقوا ديناً سرعان ما عادوا إليها، ولذلك تصدى القرآن الكريم للرد على تلك العبادة في أكثر من موضع^(١).

وبهذا البيان اتضح أن عقيدة المسلمين لم تتأثر بموروثات وعقائد وأساطير البلاد التي فتحوها، بل إن هذا الفتح كان لتحرير أهل هذه البلاد من تلك الأساطير والأوهام، وكتب التاريخ الصحيحة تحتوي على ما يعضد هذه الحقيقة ويثبتها.

الخلاصة:

- للعقيدة الإسلامية مزايا عديدة لا تتوافر لغيرها من العقائد، فهي عقيدة واضحة بسيطة لا تعقيد فيها ولا غموض، كذلك هي عقيدة الفطرة، ليست غريبة عنها ولا مناقضة لها، كما أنها عقيدة ثابتة محدودة لا تقبل الزيادة ولا النقصان، ولا التحريف ولا التبديل، فليس لأحد - مهما كان - أن يضيف إليها أو يُحوّل فيها، وهي عقيدة مبرهنة لا تكتفي في تقرير قضاياها بالإلزام المجرد والتكليف الصارم، وإنما تأتي بالبرهان على ذلك، وهي أيضاً عقيدة وسط بلا إفراط ولا تفريط.

- لذلك لم تتأثر العقيدة الإسلامية بموروثات وعقائد وأساطير البلاد التي فتحوها، ولكنهم فتحوا

١. المرجع السابق، ص ٢٠، ٢١ بتصرف.

المنحرفة التي لم تلتزم تعاليمه.

التفصيل :

أولاً. الدين الإسلامي منهج حياة متكامل الجوانب:

إِنَّ الإسلام بعقيدته الشاملة قد عرض لكل جوانب الحياة، فكان له دور على المستوى الفكري، والخلقي، والاجتماعي، والتعبدى، والعملى - فهو نظام شامل، يشمل كل مناحي الحياة، فهو دين ودولة، حكومة وأمة، علم وقضاء، ثقافة وقانون، قوة وعدالة، خلق ورحمة، جيش وفكرة، جهاد ودعوة، مادة وثروة، كسب وغنى، كما أنه عقيدة صادقة، وعبادة صحيحة سواء بسواء: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام)، فالإسلام يضع الأسس الاعتقادية لإنسان يعيش في الدنيا بنواحيها المختلفة، من سياسة، واقتصاد، واجتماع، وعمل .. وعينه تتطلع إلى الآخرة، لهذا كان التصور الإسلامى في مجال العقيدة هو التصور الوحيد الشامل الذي يكفل للإنسان توفير جميع احتياجاته على الأرض، وتطلعات نفسه نحو العالم^(١).

وقد أحسن العقد حين قال: إن الإسلام هو العقيدة المثلى للإنسان، منفردًا أو مجتمعًا، وعاملاً لروحه أو عاملاً لجسده، وناظرًا إلى دنياه أو ناظرًا إلى آخرته، مسالماً أو محاربًا، ومعطيًا حق نفسه أو معطيًا حق حاكمه وحكومته، فلا يكون مسلمًا وهو يطلب الآخرة دون الدنيا، ولا يكون مسلمًا وهو يطلب الدنيا دون

١. انظر: أصول العقيدة الإسلامية، د. محمد سلامة أبو خليفة، مرجع سابق، ص ٢٤ وما بعدها.

الأخيرة، ولا يكون مسلماً لأنه روح تنكر الجسد، أو لأنه جسد ينكر الروح، أو لأنه يصحب إسلامه في حالة ويدعه في حالة، ولكنما هو مسلم بعقيدته كلها مجتمعة لديه، في جميع حالاته، سواء تفرد وحده أو جمعته بالناس أو أصر الاجتماع^(٢).

والعبادة في الإسلام هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال، الباطنة والظاهرة؛ فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانات، وبر الوالدين وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد الكافرين والمنافقين، والإحسان إلى الجار واليتيم، والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله ﷺ وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله (٣).

ولما كان الدين الإسلامي مشتملاً على مناحي الحياة بأسرها، والعبادة فيه تناولت كل حركات الإنسان المسلم وسكناته، فإن العقيدة الإسلامية قد تناولت كل القضايا الكبرى في هذا الوجود، والتي شغلت الفكر الإنساني ولا تزال تشغله وتلح عليه بالسؤال، وتتطلب الجواب الحاسم الذي يُخرج الإنسان من الضياع والشك والحرارة، ويتشله من متاهات الفلسفات

٢. مدخل المعرفة الإسلام: مقوماته.. خصائصه.. أهدافه..
مصادره. د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٣،
١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، ص١٥٦، ١٥٧.
٣. المرجع السابق، ص٦٨.

والنَّحْل المتضاربة قديماً وحديثاً، وهي: قضية الألوهية، قضية الكون، قضية الإنسان، قضية النبوة، قضية المصير.

فإذا كانت بعض العقائد تُعنى بقضية الإنسان دون قضية الألوهية والتوحيد، أو بقضية الألوهية دون قضية النبوة والرسالة، أو بقضية النبوة دون قضية الجزاء الأخروي، فإن عقيدة الإسلام قد عُنِيَتْ بهذه القضايا كلها، وقالت فيها كلمتها، بوضوح شامل، وشمول واضح.

فهي - العقيدة الإسلامية - توصف بالشمولية؛ لأنها لا تجزئ الإنسان بين إلهين اثنين: إله الخير والنور، وإله الشر والظلام، كما هو عند المجوس، أو بين الله والشیطان، الذي سُمِّي في الأناجيل باسم: رئيس هذا العالم أو إله هذا الدهر، وانقسم العالم بينه وبين الله، فله مملكة الدنيا والله السماء، فيوشك أن يكون عمله في نظر المسيحية مضارعاً أو مضاهئاً لعمل "أهريمان"، إله الظلام في المجوسية.

وتوصف بالشمولية أيضاً؛ لأنها لا تعتمد في ثبوتها على الوجدان أو الشعور وحده، كما هو شأن الفلسفات الإشرافية والمذاهب الصوفية، وكما هو شأن المسيحية التي ترفض تدخل العقل في العقيدة رفضاً باتاً، بحيث لا تُؤخذ إلا بالتسليم المطلق، على حد قولهم: اعتقد وأنت أعمى، وهي كذلك لا تعتمد على العقل وحده، كما هو شأن جل الفلسفات البشرية، التي تعتمد على العقل - اعتماداً كلياً - في معرفة الله وحل ألغاز الوجود. وإنما تعتمد على الفكر والشعور معاً، أو العقل والقلب جميعاً، باعتبارهما أداتين متكاملتين من أدوات

المعرفة الإنسانية والوعى الإنساني، إن الإيمان الإسلامي الصحيح هو الذي ينبعث من ضياء العقل وحرارة القلب، وبذلك يُؤتي أكله في الحياة. وهي - العقيدة الإسلامية - عقيدة شاملة؛ لأنها لا تقبل التجزئة، ولا بد أن تؤخذ كلها بكل محتوياتها دون إنكار، أو حتى شك، في أي جزء منها، فمن آمن بتسعة وتسعين جزءاً، وكفر بجزء واحد لم يعد مسلماً، فالإسلام يقتضي أن يسلم الإنسان قياده لله، ويؤمن بكل ما جاء من عنده ^(١) ⑧.

ثمرات التقوى في الإسلام:

١. تزكية النفس:

فلإيمان بالله ﷻ وبما أمر به أثر في النفس البشرية، يجعلها ترفع عن كل ما هو دنيء، وكل ما هو من قبيل الرذيلة، ويجعل النفس تخلق في آفاق السماء؛ لأنها لم تخلق لتركن إلى الأرض.

والعقيدة الإسلامية تزكي النفس، وتهذبها وتخليها من كل الرذائل، وتخليها بكل الفضائل، ولذلك جاءت الفرائض الإسلامية بأسرها ابتداءً بالشهادة التي تطهر قلب الإنسان من كل خضوع لما هو دون الله ﷻ من آلهة مزعومة، والصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر،

١. المرجع السابق، ص ١٥٧، ١٥٨.

⑧ في "شمولية العقيدة في الإسلام" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الرابعة، من الجزء السابع عشر (مرونة التشريع الإسلامي). وفي "شمولية الإسلام لكل جوانب الحياة" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الرابعة، من الجزء السابع عشر (مرونة التشريع الإسلامي). والوجه الثاني، من الشبهة الرابعة، من الجزء الخامس (النظم الحضارية). وفي "بعد النصرانية عن واقع الحياة" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الرابعة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

إيمانه بالله تبارك وتعالى وباليوم الآخر موقفَ الموازنة بين رغبات نفسه ومتطلبات دينه، بين ما تدفعه إليه شهوته وما يأمره به ربه، بين ما يميله عليه الهوى وما يميله عليه الواجب، بين متعة اليوم وحساب الغد، أو بين لذة عاجلة في دنيا فانية وحساب عسير ينتظره في آخرته.

وهذه الموازنة والمساءلة جدير بها أن تخلع عنه زير العبودية للهوى والشهوات، وأن ترتفع به إلى أفق أعلى من البهيمية والأنانية، أفق الإنسانية المتحررة التي تصرف بوعياها وإرادتها، لا بوحى بطنها وفرجها وغريزتها الحيوانية^(٢).

ثانياً. ليس في الإسلام رهينة، ولكنه دين الوسطية في العبادات والشعائر:

الإنسان المسلم ليس راهباً، بل هو إنسان عمل وإنتاج للحياة، يُعطى كما يأخذ منها، ويعد عمارتها هدفاً من أهداف خلقه واستخلافه في الأرض: ﴿يَقُومُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١)؛ أي: طلب إليكم عمارتها، والأصل في الطلب الوجوب، وعماراة الأرض لا تنافي العبادة، بل هي - إذا استقامت على أمر الله تبارك وتعالى، وانضبطت بتعاليم شرعه - تصبح عبادة وقربة إلى الله تعالى^(٣).

ووضَّح الرسول ﷺ أن: "ما من مسلم يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً، فيأكل منه إنسان، أو طير، أو

وهي صلة بين العبد وربّه ينقطع فيها العبد عن كل شيء سوى الله تعالى، ويصعد بروحانيته، إلى أفاق السماء ليبعد عن هذه الأرض، فأَي سَمُو بعد ذلك؟ وكذلك الزكاة أيضاً هي تزكية للنفس وطهارة للقلب من البخل والشحّ، وكذلك فإن الحج غفران للذنوب ورفعة للأرواح، وتدريب على المراقبة في طاعة الله ﷻ ثم كانت الغاية من الصوم، هي التقوى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة، ١٨٣) وإلى آخر ذلك من الفرائض الإلهية، التي شرعت كلها من أجل الارتقاء بالجانب الروحي للإنسان بالدرجة الأولى.

وقد نبّه النبي ﷺ إلى أثر الإيمان بالله على النفس الإنسانية، فقال: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً"^(١)، وفي هذه المدرسة الروحية تخرّج أصحاب رسول الله ﷺ بإخلاصهم وأخلاقهم النبيلة، التي كانت نتيجتها هذا المجتمع الصالح، والنموذج المثالي الفاضل، الذي لا نظير له في التاريخ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة).

٢. التحرر من عبودية الأنانية والشهوات:

فهذه العقيدة الربانية، حين تستقر في أعماق النفس، تحرر الإنسان من عبوديته لأنانيته وشهوات نفسه ولذات جسده، ومن الخضوع والاستسلام لمطالبه المادية ورغباته الشخصية؛ وذلك أن الإنسان الرباني يوقفه

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً (١٦٠).

٢. مدخل لمعرفة الإسلام: مقوماته.. خصائصه.. أهدافه..

مصادره، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص ١٣٦.

٣. المرجع السابق، ص ٧٣: ٧٩ تصرف.

بهيمة إلا كان له به صدقة" (١)، وقال ﷺ: "إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفلح" (٢).

وهذه هي الفسيلة التي لا تنتج إلا بعد عشرات السنين، إلا أن النبي ﷺ حثَّ على غرسها، سواء كان فيها نفع مرجو أم لم يكن.

والإنسان مُطالب بالعمل، فهو عبادة وجهاد مقدَّس، ومن المعلوم عندنا - نحن المسلمين، بل في كل المَلَل والنَحَل - أن الإنسان جسم وروح، وللجسم حظ ومتعة، وللروح حظ ومتعة، والإسلام يراعي الإنسان كله: جسمه، وروحه، وعقله، فهو في كثير من نصوصه يرفع عن الإنسان الحرج في التمتع بملاذ الجسم المعتدلة، ويأمره بالطيبات في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه، وفي حاجة نفسه من الزوجة والمال والولد، وينكر أشد الإنكار على من حرم على نفسه شيئاً من ذلك مع القدرة عليه (٣).

والتقوى في الإسلام لا تعني بآية حال الرهبانية المعروفة في المسيحية وغيرها، فالتقوى - لغة واصطلاحاً - يتَّجه معناها نحو الخوف من الله والحرص على امتثال أمره واجتناب نواهيه، ومن ثم فالحكم على معنى التقوى في الإسلام بأنه هو الرهبانية

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس (٢١٩٥)، مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع (٤٠٥٥).

٢. انظر: منهج القرآن في بناء المجتمع، الشيخ محمود شلتوت.

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك، والبخاري في الأدب المفرد، باب اصطناع المال (٤٧٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩).

المسيحية حكم بلا دليل، ودعوى بلا برهان، فإن المعاني العامة التي تضمنتها آيات القرآن وأقوال النبي محمد ﷺ فيما يتعلق بمفهوم التقوى، وصفات المتقين تؤكد تأكيداً واضحاً على أن التقوى قيمة لا يمكن تحقيقها من خلال العزلة والانسحاب من الحياة الاجتماعية العامة، فكيف يصبح الإنسان تقياً وهو يعيش وحده يعني نفسه من فرص الاختبار الحقيقي لدينه وأمانته؟! كيف للمرء أن يدعي أنه صادق دون أن يخوض التجربة الحقيقية التي يقارن فيها بين المنافع الكثيرة العاجلة للكذب، والمضار الكثيرة المتوقعة من وراء الصدق؟! الكثرة المتوقعة من وراء الصدق؟! الكثرة المتوقعة من وراء الصدق؟!

كيف للمرء أن يدعي أنه زاهد في الحياة دون أن تكون لديه الفرصة المناسبة للتمتع بمباهجها فيؤثر الآخرة ونعيمها على الدنيا ومتاعها؟! أما الفقير العاجز الذي لا يجد شيئاً من ذلك فلا يمكن أن يطلق على نفسه لقب الزاهد.

إن المعدن النفيس لا نستطيع الحكم على أصالته ونفاسته ما لم نعرضه للمحنة والابتلاء: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَسِرُونَ﴾ (٢٧) (الأنفال).

أما القول بأن السمو الروحي لا يمكن أن يتحقق أو يتصور مع وجود الجسد بشهواته، فذلك زعم يحتاج إلى برهان؛ فالإنسان المخاطب بالتكليف الإلهي هو هذا الكيان المتكامل المكون من الجسد والروح، والتكاليف الشرعية لا يمكن لها أن تتحقق بروح دون جسد، ومن ثم فالدعوة إلى التخلص من الجسد وتعذيبه ينطوي على مبالغة ومعاودة للقانون الإلهي الفطري.

عن ستي فليس مني" (٤).

بل إن المرأة التي تُعَدُّ شيطاناً في نظر الرهبنة المسيحية كانت أحد الأشياء المحببة لقلب النبي ﷺ؛ إذ يقول: "حُبَّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ، وَالطَّيِّبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ" (٥).

فهذه هي نظرة الإسلام للمرأة باعتبارها نصف هذا المجتمع، والسكن الذي يأوي إليه الرجل بعدما يناله عنقُ النهار.

وكانت من المشاكل المستعصية على الكنيسة مشكلة زواج رجال الدين من غير الرهبان، وكانت الكنيسة من زمن بعيد تعارض زواج رجال الدين بحجة أن القس المتزوج يضع ولاءه لزوجته وأبنائه في منزلة أعلى بالنسبة للكنيسة، "وأنه سيحاول أن ينقل كرسيه أو مرتبته لأحد أبنائه، يضاف إلى هذا - كما هو مقرر عندهم - أن القس يجب أن يكون خالصاً لله وبني البشر، وأن مستواه الأخلاقي يجب أن يكون أعلى من مستوى أخلاق الشعب، وأن يكون على مستوى المكانة التي لا بد منها لاكتساب ثقة الناس وإجلالهم إياه، وذلك بإيجاب التَّبَتُّل على رجال الدين وتطبيق المتزوجين منهم، وكان بهذا الأمر أثر امتد إلى القرن السادس عشر، وانتهت بنجاح الكنيسة في منع رجال

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (٤٧٧٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تآقت نفسه إليه ووجد مؤنة (٣٤٦٩).

٥. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك (١٢٣١٥)، والنسائي في المجتبى، كتاب عشرة النساء، باب حُبِّ النساء (٣٩٣٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٠٩).

ثم هناك فرق بين التقوى في الإسلام بوسطيتها، وطُهرها ونقاها، وبين رهبانية المسيحية بإفراطها وتزمتها؛ ومن ذلك:

• العزوبة: من أهم شروط الرهبنة في العقيدة المسيحية أن يكون الراهب عَزَبًا؛ إذ لا معنى للرهبنة مع وجود زوجة، ومعلوم أن المسيح ﷺ لم يتزوج، ومن ثم تمسك هؤلاء المدَّعون بتلك الخصيصة في عيسى، وأقاموا على ذلك مذهبهم في الرهبنة.

وأما التقوى في الإسلام فلا تمنع من الزواج مطلقاً، بل حث عليه الإسلام حثاً أكيداً، قال تعالى: ﴿وَمَنْ ءَايَتْهُ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لَسْتُمْ بِأَيَّامٍ وَلَاحِقَةٍ لَكُمْ مِنْهُنَّ مَوَدَّةٌ وَرَحْمَةٌ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١١) (الروم).

وأكد ذلك رسول الله ﷺ في غير حديث، فقال ﷺ: "يا معشر الشباب، مَنْ استطاع منكم الباءة" (١) فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء" (٢) (٣).

ولما جاءه ثلاثة رجال يحكون له ﷺ حالتهم من الورع والتقوى، أو قل: الرهبنة والتزُّمت، فقال أحدهم للنبي ﷺ: إني أصوم ولا أفطر، وقال الآخر: أما أنا فأقوم ولا أرقد، وقال الثالث: وأما أنا فلا أتزوج النساء، فقال لهم النبي ﷺ: "أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأرقد، وأتزوج النساء، وهذه سُنَّتِي، ومن رَغِبَ

١. الباءة: النكاح.

٢. الوجاء: الحماية.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب من لم يستطع الباءة فليصم (٤٧٧٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تآقت نفسه إليه (٣٤٦٦).

الدين من الزواج. وإذا كان هذا هو الحال مع رجال الدين من غير الرهبان، فكيف تكون الحال مع الرهبان أنفسهم^(١)؟

• أمر آخر من شروط الرهبة عند النصارى وهو التجرد الكامل من الدنيا، وقطع النظر عن كل ما فيها، والاكتفاء من الرزق بالكفاف، وبذكل المطالب الجسدية حتى الضروريات الإنسانية منها: كالملبس والمأكل والنظافة والتنزه عن النجاسات، فإذا كانت المسيحية المحرفة تأمر الأفراد العاديين باحتقار الحياة، بل تعد ذلك من أولى الواجبات، فكيف تكون الحال مع الرهبان الزاهدين في الدنيا؟

أما الإسلام فلم يذم الدنيا ذمًا مطلقًا، ولكنه ذم منها ما يشغل الإنسان عن الغاية التي خُلق من أجلها، وهي عبادة الله ﷻ لأنه خلق كل شيء للإنسان وخلق الإنسان لعبادته ﷻ، فلا يتصور أن يشغل عن هذه الغاية السامية، بحطام لا بد أن يزول.

وأما الدنيا من حيث كونها دنيا؛ فقد أمر الله ﷻ الإنسان بتعميرها: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١)؛ أي: طلب إليكم تعميرها، والأصل في الطلب من الله ﷻ الوجوب، وقد أمر النبي ﷺ بعمارة الأرض كذلك، وقد تقدّم حديث: "ما من مسلم يغرس غرسًا...". وحديث: "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة...". وكانت سيرة النبي ﷺ شاهدًا عظيمًا على ذلك؛ إذ إنه عمل في رعي الغنم وفي التجارة. وفي

المقام الثالث تأتي سيرة الصحابة الكرام، فنجد أبا بكر يعمل تاجرًا، وكذلك أبا عبيدة وعثمان وغيرهم.

• وأما مبدأ الاكتفاء بالكفاف من الرزق عند الرهبان النصارى، فهو مبدأ منبوذ أيضًا؛ لأن الإسلام دين المعالي ودين السيادة، وليس دين الأديرة أو المساجد فحسب، وإن كانت المساجد هي أولى الدعائم التي يقوم عليها الإسلام، لكنه دين الأستاذية والقيادة، كما قال الرسول الأعظم ﷺ: "اليد العليا خير وأحب إلى الله من اليد السفلى"^(٢).

وقال سعد بن أبي وقاص: كان رسول الله ﷺ يَعودني عام حَجَّة الوداع من وجع اشتد بي، فقلت: إني قد بلغ بي من الوجع، وأنا ذو مال ولا يرثني إلا ابنة، أفأتصدق بثُلثي مالي؟ قال: "لا"، قلت: بالشرط؟ فقال: "لا"، ثم قال: "الثلث والثلث كبير - أو كثير - إنك أن تَذَر ورَثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفّفون الناس، وإنك لن تُتَفِق نفقة تبغني بها وجه الله إلا أَجَزْتَ بها، حتى ما تجعل في فيّ امرأتك"^(٣).

• وآخر هذه المبادئ وأشدّها على النفس هو مبدأ إهمال الذات في أخصّ الحاجات الإنسانية الضرورية؛ كالملبس أو المأكل أو النظافة، وهذا المبدأ بارز جدًا في الرهبة النصرانية، ولكن الإسلام قد نهى عن ذلك المبدأ نهيًا تامًا، فقال الله ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى (١٣٦١)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى (٢٤٣٣).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب رثى النبي ﷺ خزيمة بن سعد (١٢٣٣)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث (٤٢٩٦).

١. مقال منشور بموقع سفر الحوالي على شبكة المعلومات.

® في "مقاصد الزواج في الإسلام" طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الأولى، من الجزء التاسع عشر (أحكام الأسرة).

أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿٣٢﴾ (الأعراف: ٣٢).

والله تعالى جميل يحب الجمال، وأكثر الناس حرصاً
على النظافة والجمال هم أقربهم لله ﷻ، وكان أكثرهم
حرصاً على ذلك الرسول ﷺ، حتى قال: "من كان له
شعر فليكرمه"^(١)، فلماذا تهتمون الإسلام بالرهبة؟

كذلك من شروط الرهبة العبادة الدائمة، صلاة
شبه دائمة، فإذا انتهى العابد من الصلاة ذهب إلى
الترايم والترايل وسائر الطقوس، فلا يكاد ينتهي من
عبادة حتى يذهب إلى الأخرى، فإذا انتهى به الأمر إلى
مبته راح إليه منهوك الجسد يتخطفه النوم وهو في
طريقه إلى فراشه.

إن الإسلام دين الوسطية الوحيد في العبادة
والشعائر من بين سائر الأديان والنحل التي منها ما
طلب الجانب الرباني - جانب العبادة والنسك والتأله -
فشغل بفلسفتها وواجباتها؛ كالبودية - مثلاً - التي
اقتصرت فروضها على الجانب الأخلاقي الإنساني
وحده، ومنها ما طلب من أتباعه التفرغ للعبادة
والانقطاع عن الحياة والإنتاج كالرهبانية المسيحية.

ولعل أبرز دليل نذكره هنا الآيات الآمرة بالصلاة
وهي أعظم الشعائر الإسلامية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا
تَوَدَّعْتُمْ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا
الْبَيْعَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾﴾ (الجمعة)،
فهذا هو شأن المسلم مع الدين والحياة، حتى

في يوم الجمعة: بيع وعمل للدنيا قبل الصلاة، ثم
سعي إلى ذكر الله وإلى الصلاة، وترك للبيع والشراء،
وما أشبهه من مشاغل الدنيا، ثم انتشار في الأرض
وابتغاء الرزق من جديد بعد انقضاء الصلاة، مع عدم
الغفلة عن ذكر الله كثيراً في كل حال، فهو أساس
الفلاح والنجاح^(٢).

ثالثاً. الخلط بين الإسلام وانحرافات بعض متبعيه:

لعل الذي حدا بهؤلاء المدّعين إلى القول بالرهبة في
الإسلام هو ما ظهر في بلاد الإسلام من المغالين
والمتواكلين، فبعض هؤلاء اعتقد أن الصلاة والصوم
والحج والزكاة عبادات العوام من الناس، وأمّا هم
فيسمون أنفسهم الخاصة، فعبادتهم عبادة خاصة وإن
تشابهت في ظاهرها، وإذا كانت العبادة في الإسلام
لتزكية النفس وتطهير المجتمع، فإن العبادة عندهم
لربط القلب بالله ليتلقّى عنه ﷻ مباشرة - حسب
زعمهم - ثم الفناء فيه، ولا يهم هذا الفريق أن تحالف
شريعته شريعة الإسلام؛ فالخشيش والخمر واختلاط
النساء بالرجال في الموالد وحلقات الذكر، كل ذلك لا
يهم فإنه تلقى تلك الشريعة - في زعمهم - عن الله ﷻ.

والعجب أن من مبادئهم التجرد عن الدنيا وهجر
المال والأولاد، وتعذيب النفس والبدن بالسهر الطويل
وعدم التزوج؛ لأن اتخاذ مثل هذه الأشياء، يعد سلوكاً

٢. مدخل لمعرفة الإسلام، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق،
ص ١٦٤، ١٦٥.

⑧ في "موقف الإسلام من الرهبانية والكهانة" طالع: الوجه
الرابع، من الشبهة الرابعة والعشرين، من الجزء السابع (الإيمان
والتدين).

١. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الترجل، باب في
إصلاح الشعر (٤١٦٥)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود
(٧٧٠).

وكذلك السمو بالنفس لتنتشلها من الركون إلى الأرض إلى التحليق في فضاء السماء.

• التقوى توقّف الإنسان موقف الموازنة بين رغبات نفسه ومتطلبات دينه، بين ما تدفعه إليه شهواته وما تملّيه عليه أوامر ربه، بين ما يميل إليه بهواه وما يفرضه عليه الواجب، بين متعة اليوم وحساب الغد، بين لذة عاجلة في دنيا فانية وحساب عسير ينتظره في آخريته، وهذه الموازنة جدير بها أن تخلع عنه العبودية للهوى والشهوات.

• الإسلام دعا إلى عمارة الأرض، ولم يرض للمسلم الرهينة ولا مجافاة الحياة؛ لأنه جاء لتعمير الكون والعمل للآخرة معاً.

• للرهبانية شروط وأسباب لم يتحقق منها واحد في التقوى الإسلامية، ومن ثم فلا علاقة بين التقوى والرهبنة، ولا ينبغي أن نخلط بين ما جاء به الإسلام نفسه وما ظهر في تاريخه من مذاهب انحرفت عن تعاليمه، وخضعت لتأثير عقائد أخرى.



الشبهة السابعة

ادّعاء أن الإسلام لم يأت بجديد في عقيدة التوحيد (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن العرب قبل الإسلام كانوا يعرفون التوحيد، ولم يأت به الإسلام كما يدعي المسلمون، ويستدلون على ذلك بجمع الآلهة في الكعبة؛

(*) هل القرآن معصوم؟ عبد الله عبد الفادي، موقع إسلاميات.

سلبياً - في نظرهم - يؤدي إلى الفساد واختلال اليقين. والظاهر أن تلك المبادئ جاءت من تأثير الفلسفات اليونانية والمذاهب الرهبانية النصرانية. وقد حملت هذه الطائفة من المسلمين المشككين في الإسلام، أو قل إن شئت استغل المشككون هذه الفرصة ليطعنوا في الإسلام بها، زاعمين أن الإسلام دين رهينة، وأن التقوى في الإسلام - في زعمهم - ما هي إلا نسخة ثانية من الرهينة النصرانية. ولكن الإسلام بمنأى عن كل هذه الخزعبلات، فإنه جاء بمنهج حياة متكامل، وطريق يرسم الخطى للسير إلى الدار الآخرة رسماً دقيقاً محدداً، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام)، وقال: ﴿وَالْيُتُمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَقَوْمِ أَغْبِدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ (هود).

الخلاصة:

• الإسلام منهج حياة أو نظام شامل، يشمل كل مناحي الحياة؛ فهو دين ودولة، أو حكومة وأمة، وهو علم وقضاء، أو ثقافة وقانون، وهو قوة وعدالة، أو خلق ورحمة، وهو جيش وفكرة، أو جهاد ودعوة، وهو مادة وثروة، أو كسب وغنى، كما أنه عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء.

• إن الغاية الكبرى من الفرائض الإسلامية هي تزكية النفس من الشح والبخل والحقد والضغينة،

® في "أثر التصوف الفلسفي في تعريف العقيدة" طالع أيضاً: الوجه الرابع، من الشبهة التاسعة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

ذلك، فإن الكفار على عهد النبي ﷺ كانوا يتعجبون من جعل الآلهة إلهًا واحدًا وما ذلك إلا لغرابته على عقولهم وبُعده عنها، بل إن أحدًا في هذا الزمان لم يكن يقول بتوحيد الآلهة، وقد كشف القرآن عن حرص هؤلاء على عبادة آلهتهم: ﴿وَجَاءُوا أَن جَاءَهُمْ مُّذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكُفْرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ ۖ﴾ (٤) ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۖ﴾ (٥) ﴿وَأَنطَلَقُ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَن آمِسُوا وَأَصِيرُوا عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۖ﴾ (٦) ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِهَةٍ الْأَخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَخْلَقَ ۖ﴾ (٧) ﴿(ص)﴾.

ثانيًا. معاندة قريش ودلائلها على موقفهم من التوحيد:

إن البيت الحرام عند العرب في الجاهلية كان مُجتمعا لهم يَفِد إليه جميع ما تفرق من قبائلهم في صحراء الجزيرة؛ فلذلك نصبوا حول الكعبة جملة ما تقدّسه القبائل، ثم صنوف التماثيل والأوثان، وذلك أكد على ميلهم إلى إرضاء نزعة التعدّد، لا على أنهم شرعوا ينزعون إلى ما يشبه التوحيد على الوجه الذي جاء به الإسلام.

على أن الإسلام صريح في أن دعوة التوحيد هي فحوى ما بعث به الأنبياء جميعًا، فهي دعوة أصلية في الأمم التي سبقت إليهما دعوة الأنبياء، فمعرفة العرب لأصل قضية التوحيد في جانب الألوهية - على تقدير وجود هذه المعرفة - لا يقدر في الإسلام من أي وجه، لا سيما وهؤلاء العرب قد بقيت فيهم بقية من دين إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام.

وعدم مبادرة قريش إلى الإيمان بدعوة رسول الله ﷺ أكبر دليل على كذب تلك الدعوى، وإذا كان

ما يدل على تطعّ العرب إلى عبادة إله واحد، وعلى هذا لا يكون للإسلام فضلٌ في الدعوة إلى عبادة إله واحد.

وجهاً إبطال الشبهة:

- (١) الواقع يخالف دعوى تطعّ العرب إلى التوحيد في تلك الجاهلية، والدليل على ذلك احتفاظ العرب لكل إله منها باسمه الخاص وصورته الخاصة.
- (٢) عدم مبادرة قريش إلى الإيمان بدعوة النبي ﷺ أكبر دليل على كذب تلك الدعوى، بل على العكس من ذلك عارضوا تلك الدعوة ووقفوا لها بالمرصاد.

التفصيل:

أولاً. جمع الآلهة في مكان واحد ليس دليل توحيد:

الواقع يخالف دعوى تطعّ العرب إلى التوحيد في تلك الفترة فيما يتعلق بجمع الآلهة في الكعبة كدليل على ميلهم للتوحيد، فذلك مما يخالفه الواقع الملموس في تلك الفترة التاريخية، أفيمكن أن يغفل المؤرخون عن شيء كهذا، ولا سيما إبان الدعوة الإسلامية؟! لعلّ العكس - في ذلك - هو الصحيح؛ فلم يُؤثر عنهم إلا أن أصنام العرب كانت معظّمة لدى العرب كافة، ولو كان العرب حقًا يتطلعون إلى توحيد الآلهة ألا يُوقع ذلك بينهم التنازع والشقاق في أمر من يعبدونه من هذه الآلهة؟! فهل سمع أحد عن هذا التنازع وذاك الشقاق؟!.

ثم هناك حجة أخرى: أليس احتفاظ العرب لكل إله منها باسمه الخاص وصورته الخاصة دليلًا محسوسًا على أن فكرة إلغاء عبادتها والانصراف إلى عبادة الله وحده قول متهافت وضعيف؟! إن الأمر على خلاف

سُبْحَنَهُ، وَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ (يونس).

وعلى الرغم من أن دعوة الإسلام إلى التوحيد جاءت متوافقة مع البقية الباقية من دعوة الخليل إبراهيم عليه السلام إلى عبادة الله الواحد الأحد، التي تمثلت في قلة من الحنفاء الذين نبذوا عبادة الأصنام؛ كأمية بن أبي الصلت، وزهير بن أبي سلمى، وقُيس بن ساعدة، وأكثم بن صيفي، وزيد بن عمرو بن نفيل الذي ما برح يكرر بين أهل مكة: "إلهي هو إله إبراهيم، وديني هو دين إبراهيم"، وذلك فضلاً عن اتفاق تلك الدعوة الإسلامية إلى التوحيد مع أصل الديانة اليهودية والمسيحية إلى عبادة الله الواحد الأحد - على رغم ذلك كله فإن تلك الدعوة لقيت صدوداً كبيراً من عبدة الأصنام الذين قامت حياتهم وتجارهم على هذا النمط من الحياة الدينية والاجتماعية.

لقد سجّل القرآن الكريم في كثير من آياته المواقف الحادة المعادية التي اتخذها المشركون من عقيدة التوحيد والدعوة إليها، فهي في رأيهم عقيدة تستحق التعجب والاستنكار؛ فكيف تصبح الآلهة الكثيرة إلهاً واحداً: ﴿وَعِجْبُ أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكُفْرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾ ﴿٤﴾ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ (ص)، ومن ثم قابلوها باستكبار شديد: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ (الصافات)، فضلاً عن الاشتزاز والإعراض والعناد والإصرار على الشرك وعبادة الأصنام، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ (الزمر)، وقوله

الأمر كما يقولون، فلماذا لم يكونوا أسرع الناس إليه؟! إذ إن ذلك - في موافقته لما كانوا يتطلعون إليه - كان بمقدوره أن يُطْمَئِنِّهِمْ إلى صاحب الدين الجديد الذي جاء ليحقق حلمًا كانوا يتطلعون إليه على حد زعمهم؟!!

لقد أحاط كفار مكة الكعبة المشرفة بالعشرات من أصنامهم وأوثانهم المختلفة حتى وصل عدد تلك الأصنام والأوثان إلى أكثر من ثلاثمائة وستين صنماً ووثناً، ومنها الأصنام الكبيرة؛ كهبل واللات والعزى ومناة ووُدٍّ ومناف وسعد وقُرح ونسر وقيس وإساف ونائلة.. فضلاً عن غيرها من الأصنام والأوثان المعبودة في خارج مكة، كما هو الحال في الطائف ويثرب؛ فنجد نخلة وقضاعة وسعد ودومة الجندل وغيرها. ومن ثم كان غالبية سكان الجزيرة يؤمنون بآلهة كثيرة، ويتوجهون إليها بالتضرع والعبادة والطلب والدعاء، وذلك على الرغم من إيمانهم بالله تعالى رباً وخالقاً، زاعمين أن الطريق إلى الله لن يكون موصلاً إلا من طريق تلك الأصنام التي دعوها آلهة مع الله أو بنات الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ (النحل)، فهم يعبدون الأصنام تقرباً إلى الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ﴾ ﴿٢﴾ (الزمر)، ويرونهم شفعاءهم عند الله ﷻ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَسْتَبْشِرُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ

الشبهة الثامنة

الزعم أن القرآن يقرُّ عقيدة الفداء النصرانية (*) (٢٠)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أن العقيدة الإسلامية تُقرُّ عقيدة الصلب والفداء النصرانية، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَدِيتُهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ (١٠٧) (الصافات).

وجهاً لإبطال الشبهة:

(١) عقيدة الفداء النصرانية غير مقبولة عقلاً، والقرآن الكريم ينفي قتل عيسى عليه السلام أو صلبه.

(٢) إن فداء الله ﷻ لسيدنا إسماعيل بذبح عظيم هو فداءً جزاءً على طاعة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - لله، وليس فداءً تكفيراً عن خطيئة ارتكبت.

التفصيل:

أولاً. موقف القرآن من عقيدة الصلب النصرانية:

تقرر المسيحية أن عيسى عليه السلام ظل مصلوباً حتى مات، وأنه تحمل الآلام ليمسح بدمه خطيئة آدم التي ارتكبها في الجنة بأكله من الشجرة المحرمة؛ فكيف قبل الإله وهو ابن الإله - بزعمهم - أن يصلب ويعذب هكذا؟ أليس للإله قدرة يدفع بها عن نفسه؟

وقد جاء في القرآن الكريم - غير مرة - أن آدم تاب

(*) مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٥ م. محاور الالتقاء ومحاور الافتراق بين المسيحية والإسلام، غسان سليم سالم، دار الطليعة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٤ م.

® في "عقيدة الصلب والفداء" طالع: الشبهة الثالثة والتسعين، من الجزء العاشر (الأنبياء والرسول ٢).

تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصَرِّفُونَ﴾ (٦) (الزمر)، ﴿وَأَنطَلَقَ لَمَّا مَنَّهُمْ أَن أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ (٦) (ص).

ومن خلال تلك الصورة التي رسمتها نصوص القرآن الكريم، وكذلك الواقع الديني والاعتقادي لعبدة الأصنام في جزيرة العرب في عصر النبوة ونزول الوحي يتضح استحالة القول بأن العرب كانوا يميلون من خلال جمع الأصنام في الكعبة نحو فكرة التوحيد، ويتطلعون بذلك إلى عبادة الله وحده.

الخلاصة:

• الأمر الواقع في زمن البعثة النبوية أن العرب كانوا آخذين بفكر التعدد في جانب الألوهية، وكانوا يصرفون إلى هذه الآلهة العديدة صنوف العبادات والمناسك، وألواناً من التقديس والتعظيم، وهذا هو قلب العبودية وجوهرها؛ ومن ثم لم تنفعهم دعواهم أنهم إنما يعبدونها لتقربهم إلى الله رُفْقَى^(١)، فذلك القول المتناقض الذي يصل إلى توحيد الله تعالى باتخاذ شركاء له.

• موقف عرب الجاهلية من دعوة النبي ﷺ إلى التوحيد يحدّد - في وضوح، أن الكثرة المطلقة منهم كانت بمعزل عن الوجدانية والنزوع إليها أو التفكير فيها، وإذن لم تَلَقِ الدعوة الإسلامية ما لاقته من عنف وصدود.



إلى الله ﷻ من خطيئته، فتاب الله تعالى عليه، وذلك كما وكَزَ (١) موسى ﷺ رجلاً مصرياً ففَضَى عليه، ثم قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١١) (القصص).

وباب التوبة مفتوح دائماً لكل مذنب، وهذه رحمة الله ﷻ وإذا كان المسيح من أبناء آدم، فما مسئوليته عن خطيئة لأبي البشر جميعاً؟ ولماذا يكون عيسى ﷺ هو الذي يمحوها من بين ملايين البشر؟

وإذا كان عيسى ابن الله، فما ذنب ابن الله حتى يقتل نفسه لخطيئة ارتكبها واحد من مخلوقاته أو مخلوقات أبيه كما يزعمون؟ وتقصُّ الأناجيل أن عيسى ﷺ لم يكن يريد أن يُقتل، وأنه دافع عن نفسه أمام بيلاطس، وأن محاكمته كانت على ادعائه أنه ملك اليهود - حسبما وثَّي به أعداؤه - فلو أنه كان قد صُلب ليمسح خطيئة آدم لقدَّم نفسه طائِعاً دون محاكمة، ولما دافع عن نفسه وطلب النجاة!

ثم إنا نجده قبل ذلك مع تلاميذه بيت خائفاً وجلاً أن يقبض عليه جند الرومان، بل ويعاتبهم على أنه يسهر وينامون، ونجده يتنقل من مكان إلى مكان؛ كي يخدعهم ويفلت منهم، ولو أنه كان يريد محو خطيئة آدم ما تردد، ولا تهيّب الصلب أو حاول الإفلات منه؛ لأنه إنما جاء بإرادته لهذا العمل المزعوم.

ومن المغالطة الواضحة القول بأن الله ﷻ لم يتب على آدم؛ لأن الله هو الثواب الرحيم، ولكن بعض هؤلاء أصرَّ على إلصاق الخطيئة بآدم وغلَق باب التوبة أمامه، ثم تهادوا فجعلوا حبل الخطيئة معلقاً في أعناق

ذريته إلى مجيء المسيح ﷺ؛ كي يُصَلَّب من أجل غفران هذه الخطيئة وفداء البشرية.

وكتبهم ذاتها تعلن بأن كل من صلب على خشبة فهو ملعون[®]!! وقد نفى القرآن أن يكون المسيح ﷺ قد صلب أو قتل، بل رفعه الله إليه، وبين القرآن أن هناك حادث صلب قد وقع، ولكن لم يقع للمسيح، بل لشبيه له آخر. قال تعالى: ﴿وَمَا قَنُولُهُ وَمَا صَلْبُوهُ وَلَكِنَّ شُبُهَهَ هُمُ﴾ (النساء: ١٥٧).

وإذا كان حادث صلب المسيح وقتله - في حد ذاته - أسطورة لم تقع أصلاً، فإن ما يترتب عليه من قولهم: ابن الله الفادي، أو المُخَلَّص لأبناء آدم من خطيئة أبيهم، هو أسطورة وخرافة لا تصح ولا تعقل، ولا أساس لها.

إلى جانب أنها - عقيدة الفداء - تنفي المسؤولية الشخصية، فكيف يرتضيها الله ﷻ لكي تكون سبباً في التعامل مع البشر؟ إن هذا الاعتقاد الخاطئ يتناقض مع قوله تعالى: ﴿أَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وَزَرَ آخَرَىٰ﴾ (٢٨) ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ (٢٩) (النجم).

لا ريب أن فكرة الصلب، والفداء لا تخضع لمنطق، ولا يقبلها عقل، فهل من المعقول أن يحب الله البشر الخطاة أكثر من حبه للمسيح البار، فيضحى به من أجلهم؟! وهل من العدل أن يعذبه ويقتله من أجل ذنب لم يقترفه؟

لقد نفى القرآن الكريم مسألة الصلب في قول الله

® في "بطلان عقيدة الصلب والفداء بنصوص الإنجيل" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثالثة والتسعين، من الجزء العاشر (الأنبياء والرسول ٢).

تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ١٥٧﴾
بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٥٨﴾ (النساء).

ثانياً. فداء إسماعيل وما يرشد إليه :

إن استدلال بعضهم بقول الله تعالى: ﴿وَقَدَّيْنَتْهُ يَذْبَحُ عَظِيمٌ ١٠٧﴾ (الصافات) على إقرار القرآن الكريم لعقيدة الفداء النصرانية لهو استدلال خاطئ، فالنصارى يرون - في عقيدتهم - أن المسيح قدم نفسه فداء للبشرية من خطيئتها الموروثة من لدن آدم، فلم لا يكون فداء إسماعيل - الذي سبق فداء المسيح المزعوم - تكفيراً للبشرية عن خطيئتها الموروثة من لدن آدم؟! ولماذا اختص المسيح ﷺ بذلك إن كان هناك إقرار بعقيدة الفداء؟

إن القرآن الكريم يقرر أن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره - يوم القيامة وربما في الدنيا أيضاً - وأن من يعمل مثقال ذرة شراً يره - يوم القيامة وربما في الدنيا أيضاً، كما يقرر أنه لا تزر وازرةٌ وزر أخرى.

وبهذه التوجيهات الصائبة الحكيمة رفع الإسلام عن كاهل البشر عبء الخطيئة الأولى، رابطاً مصير الإنسان الفرد بمدى إيمانه بالله ﷻ وتسليمه له، وبعمله صالحاً كان أو غير صالح، وبالتماسه الغفران من الله بالصدقة، والزكاة، وتقديم الأضحيات من الحيوانات بحسب ما تقره الشريعة.

إن فداء إسماعيل بذبح عظيم هو مكافأة من الله ﷻ للنبيين الكريمين الخليل إبراهيم وإسماعيل - عليهما

السلام - على صبرهما واستسلامهما لأمر الله ﷻ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسَلَمَا وَلَكُهُ لِلْجَيْنِ ١٠٣﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَّيِبْهُمَا ١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ١٠٥﴾ (الصافات)؛ فقد اجتازا - عليهما السلام - الابتلاء بصبر واستسلام واحتساب، فأثبتنا معاً بهذا أنهما مسلمان حقاً. فما أبعد الفارق بين هذا الحدث الذي سجله القرآن الكريم؛ ليكون نموذجاً لإسلام الوجه لله والصبر على البلاء واجتياز المحن، وبين عقيدة الفداء النصرانية التي لا يقبلها عقل ولا يقرها دين^(١).

الخلاصة:

- إن عقيدة الفداء - عند المسيحيين - لا يقبلها عقل، ولا يقرها دين، ولقد حاول القائلون بمبدأ الخطيئة والتكفير أن يجدوا حلاً منطقياً للجمع بين عدل الله ومحبه؛ فخرجوا بفكرة الإنسان السماوي الذي يموت - بلا ذنب اقترفه - ليحمل عن الناس آثامهم، وهذا أمر لا يقبله عقل سليم سوي. ولقد نفى الإسلام واقعة قتل المسيح وصلبه من أساسها، قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ (النساء: ١٥٧)، فلا يعقل أن ينفي الحدث من أصله، ثم يثبت نتيجته أو المترتب عليه وهو الفداء المزعوم عند المسيحيين.

- إن فداء الله تعالى إسماعيل ﷻ بذبح عظيم جاء مكافأة من الله ﷻ لإبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - على صبرهما واستسلامهما لأمر الله، فما أبعد الفارق بين

١. انظر: المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، د. عبد المنعم فؤاد، مكتبة العبيكان، الرياض، ط ١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م. رد مفتريات على الإسلام، د. عبد الجليل شليبي، دار القلم، الكويت، ط ١، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

هذا الحدث الذي سجله القرآن الكريم؛ ليكون نموذجاً لإسلام الوجه لله تعالى، وبين عقيدة الفداء النصرانية التي لا يقبلها عقل ولا يقرها دين؟!!



الشبهة التاسعة

ادعاء اقتباس الإسلام من بعض النساطرة (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن العقيدة الإسلامية قد استوحاها الرسول ﷺ من النساطرة الذين كانوا مقيمين بشبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، وأن الراهب بحيرا النسطوري الذي قابل محمداً ﷺ في إحدى الرحلات هو الذي لقّنه القرآن الكريم، وتعاليم الإسلام التي لم يلبث محمد ﷺ أن زعمها وحياً يوحى إليه من السماء.

وجوه إبطال الشبهة:

- (١) النسطورية - في بدايتها - كانت دعوة للرجوع إلى المسيحية الحقة التي جاء بها المسيح، ثم انحرفت النسطورية بعد ذلك عن تعاليم مؤسسها نسطور.
- (٢) كان رسول الله ﷺ أمياً، لا يقرأ ولا يكتب، كما أنه لم يكن يخالط أهل الكتاب، وكان ينهى عن مشابهتهم أو سؤالهم.

(*) شبهات المعترضين ومفرياتهم حول صدق نبوة محمد ورسالته، ماهر عبد الوهاب محمد حجاج، الاتحاد الأخوي، القاهرة، ١٩٩٨ م. دفاع عن السنة، د. محمد محمد أبو شهبه، مكتبة السنة، القاهرة، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م.

(٣) القرآن الكريم بما اشتمل عليه من وجوه الإعجاز يسمو عن أن يكون من قول البشر.

(٤) قصة لقاء النبي ﷺ ببحيرا الراهب في رحلته إلى الشام ليس فيها ما يشير إلى أخذه ﷺ عنه شيئاً يمس دعوته.

(٥) ليس ما عرفه بحيرا من أمر النبوة في محمد ﷺ إلا جانباً مما كان يردده أهل الكتاب في جزيرة العرب عن قرب النبي الخاتم.

(٦) إن ظهور النبي ﷺ تصديق للأنبياء السابقين وشهادة لنبواتهم بالصدق، ولو لم يظهر محمد بن عبدالله بالنبوة والرسالة ما وصلتنا أخبار غيره من الأنبياء.

التفصيل:

أولاً. انحراف النسطورية عن تعاليم المسيح:

تُعزى النسطورية إلى بَطْرِيرْك^(١) القسطنطينية نسطور الذي يعتقد أن المسيح الذي ظهر بين الناس لم يكن إلهاً بحال من الأحوال، ولكنه مبارك بما وهبه الله من آيات وتقديس؛ ولذلك جاء في تاريخ الأمة القبطية عن نَحْلَتِهِ ما نصّه: "أما هَرَطُقة نسطور هذه فلم تكن كغيرها نشأت عن اختلاف في عقائد وضعها الآباء والأخبار، بل هي جوهرية تختص بأعظم موضوعات الإيمان والأركان في الدين المسيحي؛ ذلك أن نسطور ذهب إلى أن ربنا يسوع المسيح لم يكن إلهاً في حد ذاته، بل هو إنسان مملوء من البركة والنعمة، أو هو مُلْهِم من الله، فلم يرتكب خطيئة، وما أتى أمراً إذاً".

على هذا التخريج يكون نسطور لا يعتقد بالوهمية

١. البَطْرِيرْك أو البَطْرِيرْك: لقب يُطلق في المسيحية على رئيس رؤساء الأساقفة على أقطار معينة أو في طائفة من الطوائف.

لأن نسطور - كما قررت صاحبة كتاب "تاريخ الأمة القبطية"، وكما قرر ابن البطريق - لا يرى أن الأَقْنُومَ^(٢) الثاني مازج المسيح قط، بل يرى أن بنوة المسيح بالموهبة والمحبة لا بالحقيقة، واستنبطنا كما استنبط غيرنا أنه يرى أن المسيح خالٍ من العنصر الإلهي خلُواً تاماً، وهو يصرح بأن مريم ولدت الإنسان فقط، بينما غيره يقرر أنها ولدت الإله والإنسان، وهذا اختلاف جوهري في الحقيقة والمعنى، لا في الشكل واللفظ، وإذا كان النسطوريون في هذا الزمان قد قالوا بامتزاج اللاهوت في الناسوت^(٣) كما يقول غيرهم، فقد انحرفوا عن مقالة نسطور^(٤)، وصاروا مثل الملكيّة^(٥) واليعقوبية^(٦)، إلا أنهم اختلفوا في كيفية الاتحاد، وفي الذي وقع عليه الاتحاد.

وقد انتشرت هذه النسطورية المحرّفة في بلاد المشرق، وكانت أرض العرب مأوى لأصحاب الديانات الذين فرّوا من الاضطهاد، فاتخذوها مستقرّاً ومقاماً، فهي مأوى الديانات التي نبتت في غير أرض

المسيح، وإن كان يعتقد أنه فوق الناس وليس مثلهم، ولقد جهر بهذا الرأي ونادى به، وهو رئيس لكنيسة القسطنطينية، ولها مكانتها، ولكن خالفه غيره من الأساقفة، فكان أسقف روما يلعنه برأيه المخالف له، مع ما عند نسطور فيما رآه من بينات وأدلة. ولقد بلغت مقالة نسطور بطريرك الإسكندرية وجرت المراسلات بين أسقف الإسكندرية وأساقفة أنطاكية ورومة وبيت المقدس، فاتفقوا على عقد مجمع أفسُس للنظر في هذا الرأي، وإعلام صاحبه بالتبرؤ منه ولعنه إن أصر على رأيه، ودَعَوْه لسمع حكمهم في رأيه، ويظهر أنه عرفه قبل أن يجتمع المجمع، وأنهم مصرون على ما أعلنوه، كما أنه مُصِرٌّ على رأيه، فلم يجد كبير فائدة في المجمع فلم يحضر لا هو ولا بطريرك أنطاكية.

وهذا يتبين أن النسطورية تعتبر محاولة للرجوع إلى أصل النصرانية الحقّة التي جاء بها المسيح، بعد أن ضلت عنها أغلب طوائف النصارى، ولا عجب فالنصرانية ملة تباينت واختلفت في ربها ومعبودها

يقول الإمام ابن القيم: وأما خبر ما عندكم أنتم فلا نعلم عن أمة أشدّ اختلافاً في معبودها ونبينا ودينها منكم، فلو سألت الرجل وامرأته وابنته وأمه وأباه عن دينهم لأجابك كل منهم بغير جواب الآخر، ولو اجتمع عشرة منهم يتذكرون الدين ليفرقوا على أحد عشر مذهباً^(١).

لكن النسطوريين قد انحرفوا عن مبادئ نسطور؛

٢. الأَقْنُوم: الأصل، وهو ركن من أركان الثالوث الأقدس عند النصارى الذي يجمع: الآب والابن وروح القدس، والجمع: أقانيم.

٣. اللاهوت والناسوت: اللاهوت: الألوهية في مقابل الناسوت لطبيعة الإنسان، وعلم اللاهوت علم يبحث عن العقائد المتعلقة بالله، ورباً أُطْلِقَ الأول على الروح، والثاني على البدن، أو أُطْلِقَ الأول على العالم العلوي، والثاني على العالم السفلي.

٤. انظر: محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٣، د. ت.

٥. الملكيّة: طائفة من النصارى لُقّبوا بذلك لاتباعهم الملك.

٦. اليعقوبية: فرقة من النصارى، وهم أتباع يعقوب البرازعي، يقولون باتحاد اللاهوت والناسوت، ويُعرفون بأصحاب الطبيعة الواحدة.

١. انظر: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن القيم الجوزية، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ (الأعراف). ففي هذه الآية تَوَجَّه الخطابُ إلى النبي الأمي ليأمره بإعلان الدعوة إلى الناس جميعاً... وهي الرسالة الأخيرة، ومن ثم حملها النبي الأمي الذي لم يدخل على فطرته الصافية إلا تعليم الله، فلم تُسَبَّ هذه الفطرة شائبة من تعليم الأرض، ومن أفكار الناس، ليحمل رسالة الفطرة إلى فطرة الناس جميعاً^(٢).

قال محمد بن جرير الطبري: إن الأمي عند العرب هو الذي لا يكتب نسبة إلى أمه؛ لأن الكتابة كانت في الرجال دون النساء، فنسب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلى أمه في جهله بالكتابة دون أبيه كما ذكرنا عن النبي من قوله: "إنا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لا نكتب ولا نحسب"^(٣) وقد فُسِّرَ هذا الوصف في سورة العنكبوت بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ (العنكبوت).

أي: ما كنت يا محمد تقرأ قبل القرآن كتاباً ولا تقدر على ذلك؛ لأنك أمي لا تقرأ ولا تكتب، ﴿وَمَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾؛ أي: ولا تكتبه؛ لأنك لا تقدر على الكتابة. قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمداً ﷺ لا يخط ولا يقرأ، فنزلت هذه الآية. قال النحاس: وذلك دليل على نبوته؛ لأنه لا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب، ولم يكن بمكة أهل كتاب، فجاءهم

العرب عندما اضطهدوا في ديارهم ونزل بهم البلاء، فكما أَوَّت اليهودية إلى أرض العرب أَوَّت النصرانية إليها عندما كانت مضطهدة من الرومان، وقد لجأت النصرانية إلى أرض نجران، ويظهر أنهم كانوا من النصاري الذين فروا من حكم القياصرة الذين اضطهدوهم، ويظهر كذلك أنهم كانوا في ابتداء أمرهم موحدين حتى غشيت الوثنية تلك الديانات السماوية بالتثليث وادعاء الألوهية لعيسى ابن مريم وأمه والروح القدس^(١).

ثانياً. أمية النبي ﷺ وموقفه من الأخذ عن أهل الكتاب:

لقد كان رسول الله ﷺ أمياً لم يقرأ كتاباً، ولا اكتسب علماً، وقد وردت كلمة "أُمِّي" بلفظها المفرد مرتين في القرآن الكريم، وكلتاها وصف للرسول بالأمية التي تعني عدم القراءة والكتابة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُونًا عِنْدَهُمْ فِي الْوَرْدَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٧٠﴾ (الأعراف)، وجاء في السورة ذاتها: ﴿قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْتِي بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ ۖ وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ

٢. دعوة أهل الكتاب إلى دين رب العباد، د. سعيد عبد العظيم، دار العقيدة، القاهرة، د. ت.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ: "لا نكتب ولا نحسب" (١٨١٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال (٢٥٦٣).

١. خاتم النبیین ﷺ، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ج ١، ص ٤٠ بتصرف.

بأخبار الأنبياء والأمم، ﴿إِذَا لَازَ تَابَ أَلْمُبْطِلُونَ﴾؛ أي: لو كنت تقدر على التلاوة والخط لقالوا: لعله وجد ما يتلوه علينا من كتب الله السابقة أو من الكتب المدونة في أخبار الأمم، فلما كنت أمياً لا تقرأ ولا تكتب لم يكن هناك موضع للريبة ولا محل للشك أبداً، وسماهم "مبطلين"؛ لأن ارتياهم - على تقدير أنه يقرأ ويكتب - ظلم منهم؛ لظهور نزاهته ووضوح معجزاته ^(١).

إن سياق النص يتحدث عن إيمان بعض أهل الكتاب بالقرآن، على حين يكفر به المشركون الذين أنزل الله الكتاب على نبيهم، غير مقدرين لهذه المنة الضخمة، ولا مكتفين بهذا الفضل المتمثل في تنزيل الكتاب على رسول منهم يخاطبهم به، ولم يكن يتلو من قبله كتاباً، ولا يخطه يمينه، فتكون هناك أدنى شبهة في أنه من عمله وتأليفه ^(٢). فرسول الله عَلم الأولين والآخرين من غير تعلم ولا اكتساب، فكان ذلك أبلغ في معجزاته وأعظم في فضائله ^(٣).

نهيّه ﷺ عن مخالطة أهل الكتاب والأخذ عنهم:

ذكرنا أن النبي ﷺ ما كان يخاطب أهل الكتاب؛ فضلاً عن أنه لم يكن بمكة أهل كتاب، وكان النبي ﷺ ينهى أصحابه عن مشابهة أهل الكتاب في المدينة أو التآسي بهم أو حتى سؤالهم، وكان حريصاً على أن يظهر المسلم

بشخصية متميزة مستقلة بعيدة عن مشابهة أهل الكتاب، قال ﷺ: "لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء؛ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، فإنكم إما أن تصدقوا بباطل أو تكذبوا بحق. والله، لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حلَّ له إلا أن يتبعني" ^(٤).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء؛ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، فتكذبوا بحق وتصدقوا بباطل، وإنه ليس من أحد من أهل الكتاب إلا في قلبه تالية تدعوه إلى الله وكتابه ^(٥).

وقال ﷺ: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم" ^(٦).

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب، فقرأه على النبي ﷺ، فغضب فقال: "أَمْتَهُوْكَ" ^(٧) فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني" ^(٨).

فالثابت أن رسول الله ﷺ ما كان يخاطب أهل

٣. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر رضي الله عنه (١٤٦٧٢)، وحسنه الألباني في الإرواء (١٥٨٩).

٤. أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب أهل الكتاب، باب مسألة أهل الكتاب (١٠١٦٣).

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة البقرة (٤٢١٥)، وفي مواضع أخرى.

٦. المتهووك: المتحير أو المتردد أو الساقط.

٧. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر رضي الله عنه (١٥١٩٥)، وحسنه الألباني في الإرواء (١٥٨٩).

١. فتح القدير، الشوكاني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣م، ج ٤، ص ٢٩٥.

٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط ١٣، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ج ٥، ص ٢٧٤٦.

③ في "أمية النبي ودلالاتها على أن القرآن وحي من عند الله" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة والعشرين، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

إليها بمنطقه وفطرته وبقايا ديانة إبراهيم عليه السلام، وكأنهم يُلمّحون إلى ما كان من شأن زيد بن نفيل وورقة بن نوفل، غافلين عن أنه كان يكره اللات والعزى وهو في الثانية عشرة من عمره، وقد ثبت ذلك في أخبار بحيرا الراهب، كما سيأتي بيانه.

وثانيهما: ادعاء أن القرآن أخذ أخبار النبيين وقصصهم من التوراة والإنجيل، وأن العلم بهذا تلقى، وليس بوحى من الله تعالى، مع أنه من الثابت أن قصص الأنبياء في القرآن هو الصدق الذي لا يُمتَرى فيه، وغيره فيه الفساد والضلال؛ كخبر سُكْر لوط ومواقعة ابنتيه، وكزنا داود بامرأة قائد جيشه، فهي أكاذيب ليست في القرآن الكريم ^(٣).

ثالثاً. إعجاز القرآن وسُموه عن أن يكون قول بشر:

أنزل الله على نبيه القرآن الكريم، وهو نبي أمي لا يقرأ ولا يكتب، فسمعه كل من قرأ وكتب، ومن قال الشعر من أصحاب المعلقات أو غيرهم ممن اشتهر وعُرف بالشعر والفصاحة والبلاغة، فأطرق وأدرك أن هذا الكلام ليس من صنع البشر، وليس بمقدور أحد أن يأتي بمثله مهما أوتي من قوة الكلام ^(٤).

فقد سمعوا عنه ما أدهشهم وسلب لُبَّهم، ما هو

٣. المرجع السابق، ص ٢٦٢ بتصرف.

④ في "نفي تلقّي النبي القرآن عن اليهود والنصارى" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الأولى، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم). وفي "عدم ادعاء أهل الكتاب زمن النبي أنه يأخذ عنهم، ودلالة ذلك" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية عشرة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

٤. انظر: دعوة أهل الكتاب إلى دين رب العباد، د. سعيد عبد العظيم، مرجع سابق.

الكتاب، وكان يأمر أصحابه بعدم التشبه بهم أو الأخذ عنهم؛ لأنهم حرفوا الكتب التي أنزلت عليهم، فكيف يزعم هؤلاء أن رسول الله ﷺ أخذ عنهم وتعلم منهم وهو الذي يأمر أصحابه بتجنبهم؟!

ثم كيف يزعمون ذلك وما جاء به رسول الله كان يختلف تمامًا عما هو بين أيديهم من الكتب السماوية التي تلحق صفات النقص بالله والأنبياء، وتقول بإله مع الله وهو المسيح كما يزعم النصارى؟ وثبت أيضًا - كما ذكرنا - أن رسول الله كان أميًا، كيف يأخذ عنهم - أي: النصارى - عقيدته وهو أمّيٌّ على فرض أن هناك فئة نستورية باقية على دين المسيح؟!

"إن النبي ﷺ لم يُعرف أنه كانت له عناية خاصة بتاريخ النصارى ولا بأخبار اليهود ولا بشيء من ذلك، بل عنايته في مطلع حياته بكسب الرزق، وفي شبابه الأول بالتجارة، ثم بعد أن توفر له الرزق انصرف إلى العبادة والتحنُّث ^(١) الليلي والشهور، وفي كل أحواله كان كثير التأمل، يتعرّف الخالق من خلقه والمنشئ مما أنشأه" ^(٢).

ولكن كُتِّب الغرب يدعون أن محمدًا ﷺ كان قبل البعثة يتتبع أخبار اليهود، ويستمع إلى ما يحدث به أخبار اليهود، ورهبان النصارى، وهم يرمون بهذا الرأي إلى أمرين:

أحدهما: إثبات أن محمدًا ﷺ ما وصل إلى ترك الأوثان إلا بتعاليم اليهود والنصارى وأنه ما وصل

١. التَّحْنُثُ: التَّعَبُّدُ.

٢. خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٦٢ بتصرف.

بلادة وغباوة.... قالوا لنبيهم حين مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم: "اجعل لنا إلها كما لهم آلهة" فحُصُوا من الإعجاز بما يصلون إليه بداية حواسهم، والعرب أصح الناس أفهامًا وأحدهم أذهانًا... فحُصُوا من معجزة القرآن بما تجول فيه أفهامهم، وتصل إليه أذهانهم، فيدركونه بالفطنة دون البديهة، وبالرؤية دون المبادرة، لتكون كل أمة مخصوصة بما يشاكل طبعها، ويوافق فهمه.

الثالث: أن معجز القرآن أبقى على الأعصار، وأشر في الأقطار من معجز يختص بحاضره ويندرس بانقراض عصره، ومادام إعجازه فهو أحج، وبالاختصاص أحق^(٢).

والقرآن مُعْجَز من وجوه كثيرة نسوق هنا طائفة منها:

• تأليفه العجيب وأسلوبه الغريب في المطالع والمقاطع والفواصل، مع اشتماله على دقائق البيان، وحقائق العرفان، وحسن العبارة، ولطف الإشارة، وسلامة التركيب، وسلاسة الترتيب.

• ما أخبر به عن القرون السالفة والأمم الهالكة، وقد علم أن النبي ﷺ كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب ولا اشتغل بمدرسة مع العلماء ولا مجالسة مع الفضلاء، بل تربى بين قوم كانوا يعبدون الأصنام ولا يعرفون الكتاب، وكانوا عارين عن العلوم العقلية أيضًا، ولم يغب عن قومه غيبة يمكن له التعلم فيها من غيرهم. والمواضع التي خالف فيها القرآن كتب أهل الكتاب؛ كقصة صلب المسيح ﷺ وغيرها، فهذه المخالفة

بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة، وهو ما عبر عنه الوليد بن المغيرة يوم قال لقومه من بني مخزوم: "والله لقد سمعت من محمد أنفًا كلامًا ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه". فمن أين جاء به محمد ﷺ؟.

وقد تحداهم القرآن أن يأتوا بسورة من مثله فيما استطاعوا وفشلوا جميعًا، وهم أمة البيان والفصاحة، وحول إعجاز القرآن يقول الماوردي: "والقرآن أول معجز دعا به محمد ﷺ إلى نبوته فصعد فيه برسالته، وخص بإعجازه من جميع رسله، وإن كان كلامًا ملفوظًا وقولًا محفوظًا؛ لثلاثة أسباب صار بهن من أخص إعجازه وأظهر آياته:

الأول: أن معجز كل رسول موافق للأغلب من أحوال عصره، والشائع المنتشر في ناس دهره؛ لأن موسى ﷺ حين بُعث في عصر السحرة خُصَّ من فلق البحر^(١) يبسًا، وقَلَب العصا حيَّة، ما بهر كل ساحر، وأذل كل كافر، وبُعث عيسى ﷺ في زمن الطب، فحُصَّ من إبراء الرَّمْي - أصحاب العاهات المستديمة - وإحياء الموتى ما أدهش كل طبيب، وأذهل كل لبيب، ولما بعث محمد ﷺ في عصر الفصاحة والبلاغة خُصَّ بالقرآن في إيجازه وإعجازه بما عجز عنه الفصحاء، وأذعن له البلغاء، وتبلد فيه الشعراء؛ ليكون العجز فيه أقهر، والتقصير فيه أظهر.

الثاني: أن المعجز في كل قوم بحسب أفهامهم، وعلى قدر عقولهم وأذهانهم، وكان من قوم موسى وعيسى

١. فلق البحر: شقّه.

٢. أعلام النبوة، المارودي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م، ص ٩٧: ٩٩.

• الخشية التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماع القرآن والهيبة التي تعري تاليه^(٢)®.

رابعاً. تهافت المزاعم حول بشرية القرآن:

إنه لما أدهش القرآن عقول هؤلاء، ولما كانت لديهم الرغبة لنفيه ونفي إعجازه عن النبي ﷺ، حاولوا أن يذهبوا به بعيداً عن وحي السماء، فدارت الافتراضات حول هذا القرآن، من أين استقاه محمد ﷺ؟

فقد افترض بعضهم أن يكون أحد من الناس قد علم رسول الله ﷺ القرآن الكريم؛ فقالوا: لقد علمه غلام رومي أعجمي يشتغل في مكة حدّاداً، ففند القرآن الكريم أقوالهم: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (النحل)، وحين أُسْقِطَ في أيديهم قالوا: ﴿أَسْطِيراً الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (الفرقان).

وقالوا أيضاً: إن محمداً علمه ورقة بن نوفل، فجاء القرآن الكريم يضرب بأقوالهم عُرْضَ الحائط، ويُسْفَهُ أعلامهم بتحديه لهم أن يأتوا بمثله، ولو اجتمعوا له، وتساهل معهم لعلمه بعجزهم، فتحداهم بعشر سور مثله، ولو كانت مفتريات فعجزوا عنها، فتحداهم أن يأتوا بسورة واحدة، فقال الله تعالى: ﴿وَلَن كُنْتُمْ فِي

قصية، إما لعدم كون بعض هذه الكتب أصلية؛ كالطورا والإنجيل المشهورين، وإما لعدم كونها إلهامية. ويدل على ما ذكرت قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَمُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (النمل).

• ما فيه من كشف أسرار المنافقين حيث كانوا يتواطئون في السر على أنواع كثيرة من المكر والكيد، وكان الله يطلع رسوله على تلك الأحوال حالاً فحالاً ويخبره عنها على سبيل التفصيل، وكذا ما فيه من كشف حال اليهود وضمايرهم.

• جمعه لمعارف جزئية وعلوم كلية لم تعهدها العرب عامة ولا محمد ﷺ خاصة، من علم الشرائع، والتنبيه على طرق الحجج العقلية، والسير والمواعظ والحكم، وأخبار الدار الآخرة ومحاسن الآداب والشيم، وتحقيق الكلام.

• كونه بريئاً عن الاختلاف والتفاوت مع أنه كتاب كبير مشتمل على أنواع كثيرة من العلوم.

• كونه معجزة باقية متلوة في كل مكان مع تكفل الله بحفظه، بخلاف معجزات الأنبياء التي انقضت بانقضاء أوقاتها، وهذه المعجزة باقية على ما كانت عليه من وقت النزول إلى زماننا هذا.

• أن قارئه لا يسأمه، وسامعه لا يملج^(١)، بل تكرراره يوجب زيادة محبته، وغيره من الكلام يمل مع التكرار والترديد.

• كونه جامعاً بين الدليل ومدلوله.

• سهولة حفظه لتعليمه.

١. يملج: يستكرهه ويرفضه ويستقبحه.

٢. انظر: إظهار الحق، رحمة الله بن خليل الهندي، دار الحرمين للطباعة، مصر، ط ٢، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م، ج ٣، ص ٧٥٥: ٨٢١.

® في "وجوه الإعجاز في القرآن الكريم" طالع: الوجه التاسع، من الشبهة الأولى، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم).

رَبِّ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ (البقرة)، فعجزوا وفشلوا جميعاً؛ خطبائهم وشعراؤهم، وهم أمة الفصاحة والبلاغة والبيان، وحين تم عجزهم أعلن القرآن الكريم هذه الحقيقة النهائية، ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الإسراء) (١).

ومن مزاعمهم أيضاً أن بحيرا الراهب النسطوري هو الذي أملاه عليه، وهو الذي أقنعه بنبوته، وعلمه أكثر ما كان يعلم من القصص والأخبار وغيرها، وهذا بالطبع زعم باطل لا يقوم على تصوّر واضح لرحلة النبي ﷺ إلى الشام.

وأصل ذلك أن رسول الله ﷺ حين بلغ سن المراهقة وشبَّ عن الطَّوق (٢)، كان لا بد أن يتجه إلى مرتزق قومه وهو التجارة، فخرج محمد ﷺ مع عمه للتجارة بالشام، فحلَّت القافلة بأرض مدينة بُصْرَى، وبصري كانت موطناً لصوامع الرهبان، يقيمون بها، منصرفين إلى عبادتهم، فكان لهم مع الرهبنة والزهادة علم بالكتاب وإشاراته وتبشيرات. وقد كان ببصري راهب في صومعة اسمه بحيرا، وكان على علم بالكتاب، وكان نزلاء هذه الصومعة ذوي علم بالتوراة والإنجيل،

١. انظر: دعوة أهل الكتاب إلى دين رب العباد، د. سعيد عبد العظيم، مرجع سابق.
٢. شبَّ عن الطَّوق: كَبُرَ واعتمد على نفسه، أو بلغ مبلغ الرجال.

يتوارثون ذلك العلم كابراً عن كابر (٣).

خرج بحيرا من صومعته للقاء القافلة التي كان فيها رسول الله ﷺ مع عمه، وكان لا يخرج من صومعته، وما خرج إلا لما رأى الأمارات والبشارات التي تلوح بوجود نبي من بين هؤلاء؛ أي: في تلك القافلة، فقد رأى غمامة تُظِلُّهم تسير حيث يسرون وتقف حيث يقفون، وأنهم إذا آووا إلى فيء شجرة، رأى أغصانها تهصّر (٤) وتميل حتى تُظِلَّ واحداً منهم.

ورأى غير ذلك من الأمارات الدالة على أنه المذكور في الإنجيل، فأعد للقوم وليمة ودعاهم إليها واشترط على ألا يتخلف منهم أحد فأجابوه، وتخلف رسول الله لحداثة سنّه، فلما رآهم لم ير العلامات والأمارات التي دعاهم لثبيت منها، فطلب منهم أن يحضروا هذا الغلام فأحضره، فأخذ بحيرا يلحظه لحظاً شديداً، وينظر إلى أشياء من جسده، وقد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا، سأله بحيرا بحق اللات والعزى أن يجيبه عما يسأله، فكره النبي ﷺ سؤاله باللات والعزى وأنكر عليه ذلك؛ لأنه ما أبغض شيئاً قط بغضهما، وجعل بحيرا يسأله عن رحلته وهيبته وأموره ورسول الله ﷺ يخبره، ويقول ابن اسحاق: فوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته. ثم نظر إلى ظهره، فرأى خاتم النبوة بين كتفيه، فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب، فقال: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني! قال بحيرا: ما هو ابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً. قال أبو طالب: هو ابن أخي. قال: فما

٣. كابرًا عن كابر: أبًا عن جد.

٤. تهصّر: تتدلَّى.

فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به، قال: صدقت. ارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر من اليهود، فوالله، لئن رأوه وعرفوا ما عرفت لَيَبْغُنَّهُ شَرًّا، فإنه كائن لابن أخيك شأن عظيم فأسرع به إلى بلاده^(١).

وزعم المستشرقون أن بحيرا قد علّم النبي ﷺ الديانة، وأنه هو الذي كان يلقي الرسول السور الواردة في القرآن!

وهو زعم - لا شك - باطل؛ فإن الرسول ﷺ عندما قابل الراهب بحيرا في بُضْرَى بجوار الشام كان ذلك عام ٥٨٢م، وهذه كانت أول مرة في حياته ﷺ وآخر مرة. ولكن بداية نزول الوحي بالقرآن كانت عام ٦١٠م؛ أي: بعد أربعين عامًا من ولادة الرسول ﷺ؛ أي: إن الوحي نزل على الرسول بسور القرآن بعد ثمانية وعشرين عامًا من مقابلة الراهب بحيرا النصراني.

فلا سبيل - إذن - إلى أن يلقي الراهب بحيرا القرآن للنبي وهو يبعد عنه مئات الأميال، ولم يقابله إلا مرة واحدة في حياته، وبعد هذه الرحلة عاد الرسول ﷺ إلى مكة ومضى بها من ٥٨٢م حتى ٦٢١م، ثم بعد ذلك هاجر إلى المدينة ومكث بها حتى ٦٣٢م وهو العام الذي توفي فيه.

إذن فالنبي ﷺ لم يلتق الراهب بحيرا إلا مرة واحدة وعمره اثنا عشر عامًا، فكيف يصل الخيال بالمستشرقين - وخاصة المستشرق هوارت - إلى هذا الحد ليقولوا: إن بحيرا علّم الديانة للرسول، وذكر له بعض السور القرآنية، إنه كلام لا يصدقه عاقل ودون أي سند من

١. خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج ١، ص ١٢٨.

التاريخ، ولا دليل عليه^(٢).

والمعروف أن النبي ﷺ - بعد ذلك كله - لم يرغب عن قومه غيبة يمكن له التعلم فيها من غيرهم، فكيف يأخذ عن بحيرا وهو بعيد عنه آلاف الأميال، ولم يلتق به ثانية؟! كما أن المرة التي التقاه فيها النبي ﷺ كانت في صغره، وهو طفل، ولمدة لا تتجاوز استراحة المسافر! فهذه هي حقيقة المقابلة بين الرسول ﷺ وبين الراهب بحيرا، كما تذكرها كتب السيرة النبوية فمن أين لهم الزعم بأن بحيرا كان يلقي النبي ﷺ القرآن؟! ولو فرضنا جدلاً صحة ما ذهبوا إليه، فلماذا سكّ

عنه اليهود والنصارى. وقد بيّن القرآن زيفهم وضلالهم وكفرهم، وكذلك تحريفهم للكتب المنزلة من عند الله؟! لو كان الأمر كذلك لكان لهم مع رسول الله ﷺ وقفة أخرى، ولأعلنوا على الملأ تكذيبه في الوحي، ولأذاعوا أن بحيرا هو الذي كان يعلمه القرآن والقصص، وهذا ما لم يحدث منهم.

ثم كيف يلقي بحيرا الراهب النصراني تلك النصوص التي تقلع العقيدة النصرانية من جذورها وتثبت كفرهم وضلالهم، فهل يعينه على بني قومه ودينه؟ ولم^(٣)؟

خامساً. شيوخ بشارات أهل الكتاب بالنبي ﷺ في جزيرة العرب:

إن التبشير بالنبي محمد ﷺ أمر ثابت يَبَيِّن لا ينكره إلا

٢. محمد ﷺ والخناجر المسمومة الموجهة إليه، د. نبيل لوقا بباوي، دار البباوي للنشر، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٢٣: ٥١ بتصرف.

® في "إلهية القرآن الكريم" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية والثمانين، من الجزء الثاني عشر (عصمة القرآن الكريم). والشبهة الأولى، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم).

جاحد، وقد نصّ الأنبياء - عليهم السلام - على نبوة محمد ﷺ ورسالته، وأنه أفضل النبيين والمرسلين، ونصوا على اسمه ونعته وحليته، وأرضه وبلده، وجهيل سيرته، وصلاح أمته، وسعادة ملته، وأنه من ولد إسماعيل عليه السلام وأن دعوته تدوم إلى قيام الساعة، فمن لم يعتقد وقوع هذا كله لزم الطعن على هؤلاء الأنبياء كلهم، صلى الله عليهم أجمعين^(١).

وقد راجت في البلاد العربية، وخصوصاً حول مكة المكرمة والمدينة المنورة، أقوالٌ تذكر أن نبياً يبعث في هذا الزمان، وروّج ذلك النصارى الذين كانوا منبشرين في الجزيرة العربية، ويقيم كثير منهم في أطرافها وكانوا يتناقلونها من الشام في رحلتهم إليها تجاراً؛ إذ يرون الرهبان منبشرين في الأديرة ويلتقون بهم الفئنة بعد الفئنة^(٢).

واليهود في المدينة كانوا يذكرون ذلك مُتحدّين به الوثنيين الذين يجاورونهم، وكانوا يستفتحون به على المشركين؛ زاعمين أنه سينصرهم على هؤلاء المشركين ويؤيد دينهم، ويأخذون ذلك من إشارات كتبهم التي كانت مفسرة عندهم، حتى صارت علماً توارثوه عن أسلافهم، وهو في مطوي التركة التي أخذوها عنهم، مع أن اليهود عرّفوا بأنهم يكتمون ما أنزل الله تبارك وتعالى عليهم ليكون العلم حكراً عليهم، ويمكنهم من أن يكذبوا على الناس مدعين أنهم أبناء الله تبارك وتعالى وأحبّؤه، مع هذا يتناثر من أقوالهم ما يدل على

أن نبياً من أبناء عمهم إسماعيل عليه السلام سيبعث في ذلك الزمان.

وإذا كانت الأثرة هي التي حملتهم على كتمان ما أنزل الله تبارك وتعالى عن غيرهم، فالأثرة أيضاً هي التي حملتهم على التحدث بخبر النبي المنتظر المكتوب عندهم في التوراة؛ لأنهم كانوا في حرب مع الأوس والخزرج الذين يجاورونهم، فكانوا يذكرون أمر النبي لهم، لا ليعلنوا الحقائق، ولكن ليتغلبوا عليهم، بما يسمى في عصرنا الحالي: "الحرب النفسية"^(٣) التي تقارن الحرب المادية، لينالوا الفوز والغلب، وليتم لهم التعالي عليهم وعلى غيرهم، وإعلان الاستهانة بهم، ولإنذارهم بأن المستقبل معهم، وفي ذلك إلقاء بالرعب في قلوبهم، ولقد كانت نجران مملوءة بالنصارى الذين كان ينبعث من بينهم صوت قوي يخبر بأن نبياً قد آن أوانه، والناس يعيشون في زمانه... ولقد سرت فكرة التنبؤ برسول قريب زمانه إلى قريش وما حول مكة المكرمة^(٤).

فالبشائر بأن نبياً سيبعث كانت تتردد - إذن - في البلاد العربية، وكان هذا الأمر يجري على ألسنة بعض العرب، كما يروى عن قس بن ساعدة الإيادي أنه ذكر في إحدى خطبه أن نبياً قد أدركهم زمانه، وأن أوانه، والبلاد العربية، وخصوصاً الحجاز، كانت يتجاوب فيها ذكر احتمال رسول مبعوث، تذاكره كثيرون ممن كانت لهم دراسات للديانات.

٣. الحرب النفسية: محاولة التأثير على معنويات العدو في أوقات الحرب.

٤. خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٤٨: ٢٦١.

١. انظر: الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، القرافي، تحقيق:

د. بكر زكي عوض، دار ابن الجوزي، القاهرة، ٢٠٠٤ م.

٢. الفئنة بعد الفئنة: من حين لآخر.

الخلاصة:

الشبهة العاشرة

ادعاء التعارض بين العقيدة الإسلامية

ومعطيات العلم والفلسفة (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض الجاهلين أن هناك تعارضاً بين الفكر الإسلامي الذي يقوم على الإيمان بالحقائق الغيبية وبين معطيات العلم التجريبي الحديث ومناهج الفلسفة الوضعية المادية المعاصرة، ويقولون: إن هذا الفكر الإسلامي لا يصلح لأن يكون منهج حياة يتبناه الناس في حياتهم العامة؛ نظراً لتناقضه وتعارضه مع معطيات العلم والفلسفة التي يؤمن بها العالم في العصر الحديث.

وجهاً يبطل الشبهة:

(١) القرآن والسنة ينصان على أهمية طلب العلم والمكانة التي يحتلها العلماء في المجتمع المسلم.
(٢) العلاقة بين الفكر الإسلامي وبين معطيات العلم التجريبي الحديث علاقة انسجام واطراد لا تناقض وتضاد، والفكر الإسلامي لا يعارض شيئاً من نتائج العلوم التجريبية، ولا يضره أن يصادم مبادئ الفلسفات المادية المعاصرة، وهي في جملتها قاصرة في نظرتها إلى الوجود والحياة.

التفصيل:

أولاً. القرآن والسنة ينصان على أهمية العلم والمكانة التي يحتلها العلماء في المجتمع:

حفلت آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية

• زعم الحاقدون أن محمداً ﷺ قد أخذ عقيدته عن النساطرة وهي فرقة مسيحية رحلت إلى شبه جزيرة العرب قبل مبعثه، وعلى رأس من تلقى منهم محمد هو الراهب النسطوري بحيرا، والحقيقة أن هذا زعم باطل؛ لأن النسطورية في أواخرها قد انحرفت عن تعاليم المسيحية وآل أمرها إلى ما آل إليه غيرها من الفرق الأخرى التي قالت بالوهية المسيح، ومعلوم أن رسول الله ﷺ قد أتى بعقيدة تهدم عقيدة النصارى، من: صلب، وتثليث، وألوهية غير الله، فكيف تلقى عنهم؟! ومعلوم أيضاً أن رسول الله ﷺ كان أمياً ما قرأ

• ولم يثبت أنه غاب عن قومه غيبة يمكن له التعلم فيها من غيرهم، فضلاً عن أنه ما كان يخالط أهل الكتاب؛ لأن مكة لم يكن بها أهل كتاب، ونهى أصحابه عن التشبه بهم أو التأسي أو السؤال والأخذ عنهم، لئلا جاورهم بالمدينة.

• قد أتى رسول الله بأعظم معجزة هي القرآن، وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فما استطاعوا، وفيه من وجوه الإعجاز التي لم تزل تتجدد إلى اليوم ما يقطع بأنه ليس من قول البشر.

• إن النبي ﷺ لم يلتق الراهب بحيرا إلا مرة واحدة في صغره وطفولته، وهو في الثانية عشرة من عمره، ولمدة لا تتجاوز استراحة المسافر، فكيف يتلقى منه القرآن والعقيدة؟!



(*) الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، ط ٦، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م.

الشريفة بالتأكيد على فضل العلم والعلماء، وبالتالي الحث على طلب العلم والتنويه بالمكانة العالية التي وضع العلماء فيها دون غيرهم من طوائف البشر، وما هذا إلا لأنهم يحملون سراج النور الذي يضيء للبشرية طريقها، وإن معطيات العلم الحقيقية لا تتعارض مع الدين والفكر الإسلامي في أي ناحية من نواحيه، وقد يكفي أن الكلمات التي تدل على العلم كثيرة في القرآن الكريم، وقد ورد فيه مشتقات الجذور الآتية على وجه التمثيل (نظر، عقل، ذكر، دبر... إلخ)، فكثيراً ما يرد في القرآن: يعقلون، يذكرون، يعلمون، يتدبرون، انظروا، وغيرها الكثير الذي ينفي شبهة التعارض بين الفكر الإسلامي والعلم التجريبي.

وقد جاء في محكم التنزيل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُرِيهِمْ قِسْطَ آهْلِ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل)، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ أَنْتُجُومَ لِنَهْدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام)، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْسِكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ (الأنعام)، وقال تعالى: ﴿أَمَنْ هُوَ قَتِيلٌ أَنْاءَ الْبَلِّ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَخْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر)، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ الْأَمْثَلُ نَصْرِيهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت)، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ

أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة)، وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران).

ولو ذهبنا نحصي الآيات التي تحدثت في هذا الجانب فلن نستطيع أن نحصيها لكثرتها في مثل هذا المقام، وقد تبين من خلال الآيات السابقة مدى أهمية العلم، لدرجة أن الله ﷻ ذكره بعد نفسه ﷻ وبعد الملائكة مباشرة في دليل واضح الدلالة على أهمية العلم، فأين إنكار الفكر الإسلامي لمعطيات العلم الحديث؟! والسنة المطهرة مليئة بالأحاديث التي تحض على العلم وتحث عليه، من ذلك ما قاله ﷺ: "العلماء ورثة الأنبياء" (١). وسنة النبي ﷺ الفعلية توضح ذلك أيضًا؛ ففي غزوة بدر جعل النبي ﷺ فداء المشركين الأسرى أن يعلم كل أسير عشرة من أبناء الصحابة القراءة والكتابة ولم يطلب منهم مالا، كان هذا من قبل النبي ﷺ؛ لإدراكه مدى أهمية العلم في بناء الحضارات والشعوب، وفي كل هذا ردُّ على من ادعى أن الإسلام يعارض العلم ولم يهتم به الاهتمام الأمثل. ومن الآثار الدالة على أهمية العلم في السنة المطهرة، ما جاء عن النبي ﷺ: "طلب العلم فريضة على كل مسلم" (٢).

١. صحيح: أخرجه أبو دوداد في سنته، كتاب العلم، باب الحث على العلم (٣٦٤٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٩٧).

٢. صحيح: أخرجه أبو يعلى في مسنده (٥٢٢٣) برقم (٢٨٣٧)، والطبراني في المعجم الوسط (١ / ٧) برقم (٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩١٣).

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: "إن الله أوحى إليه: أنه من سلك مسلكاً في طلب العلم سهَّلَ له طريق الجنة، ومن سَلَبَتْ كريمته أثبته عليهما الجنة، وَفُضِّلَ في عِلْمٍ خَيْرٌ من فضل في عبادة، وَمَلَكَ الدين الورع"^(١). وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "صاحب العلم يستغفر له كل شيء، حتى الحوت في البحر"^(٢). وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "سيأتيكم أقوام يطلبون العلم، فإذا رأيتموهم فقولوا لهم: مرحباً بوصية رسول الله، واقتنوهم"، قلت للحكم: ما اقتنوهم؟ قال: علِّمُوهم"^(٣). وقد دعا رسول الله ﷺ لأهل العلم، فقال: "نَصَّرَ الله امرأً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره، فَرُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه"^(٤). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من جاء مسجدي هذا لم يأتِه إلا خير يتعلمه، أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله، ومن جاء لغير ذلك فهو

١. صحيح: أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٥٣) باب في المطاعم والمشارب (٥٧٥١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٢٧).

٢. صحيح: أخرجه أبو يعلى في مسنده كما في إتحاف الخيرة المهرة للبوصيري (١/ ٤٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٥٣).

٣. حسن: أخرجه ابن ماجه في سننه، المقدمة، باب الوصاة بطلبة العلم (٢٤٧)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٠١).

٤. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب فضل نشر العلم (٣٦٦٢)، والترمذي في سننه، كتاب العلم، باب الحث على تبليغ السماع (٢٦٥٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٠٤).

بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره"^(٥).

والأحاديث في هذا الصدد كثيرة، فضلاً عن الآثار الواردة عن السلف من الصحابة والتابعين وغيرهم. ومن جملة ذلك يتبين أن الإسلام بعقائده وتشريعاته لا يناقض العلم، بل هو الداعي إليه والآخذ بزمام المبادرة الحقيقية نحو الاتجاه العلمي من أول يوم نزل فيه الوحي: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّيْلَ لَمَّا خَلَّوْا﴾ (العلق)، وليس أدل على ذلك من هذه الحركة العلمية الضخمة التي قام بها المسلمون بتوجيهات القرآن الكريم وتوجيهات الرسول ﷺ، وأبرز ما فيها تحويل العلم من نظريات إلى منهج تجريبي قائم على المشاهدة والملاحظة والتجربة، وتحويله من النظرة الذاتية التي كانت تمثلها الفلسفة إلى النظرة الموضوعية.

إن الذين يدَّعون أن الإسلام يناقض العلم أناسٌ قد أعظموا الفرية، وربما لم يقرءوا التاريخ أو أغفلوا - عن قصد وسوء نية - تلك الحركة الحضارية الإسلامية التي امتدت في جميع نواحي الحياة، تلك الحضارة الروحية المادية في ذات الوقت لا تفصل بين مطالب الروح ومطالب الجسد، ولا تفصل بين الدنيا والآخرة، تلك الحضارة التي عاشت قروناً مديدة وأزمنة عديدة هي رائدة التقدم وقائدة الفكر المستنير في العالم أجمع، حين تمسكت الأمة بدينها وتحقق معنى "الأمة" في واقع الأرض، الأمة التي تلتقي على العقيدة في الله قبل أن تلتقي على الأرض واللغة والجنس والمصالح، والتي

٥. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٨٤).

جعلت المسلم ينتقل في بلاد العالم الإسلامي من المحيط إلى المحيط، فلا يحس بالغربة في أي بلد من بلاد المسلمين، رغم اختلاف الحكومات وتطاحناتها في كثير من الأحيان.

ليس هذا فحسب، بل إن أثر الإيمان الحق لم يقف عند المسلمين فقط، بل تعداهم إلى بقية أمم الأرض وشعوبها، حينما كانت أوروبا في عصورها المظلمة واقعة في الجهالة العلمية التي حرص عليها حكام شعوبها كما حرصت عليها الكنيسة؛ وذلك لكي يظل سلطانها الرهيب قائمًا في قلوب الناس وأرواحهم، وكانت واقعة تحت وطأة الإقطاع ممزقة لا رباط بينها - وإن كانت كلها مسيحية - لأن السيد الإقطاعي يمثل في إقطاعيته السلطان المطلق، فهو السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية في وقت واحد، وواقعة من جهة أخرى تحت سطوة البابوية التي تستعبد أرواح الناس وأفكارهم وتأكل جهدهم كما تأكل أموالهم بالباطل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة).

وبينما أوروبا في حالتها هذه، إذ التقت بالإسلام الذي يحيط بها من كل جانب، التقت به سلمًا في الأندلس، والشمال الإفريقي وصقلية، والتقت به حربًا عبر الحروب الصليبية التي استغرقت حوالي قرنين من الزمان، ثم كان من نتيجة ذلك تلك الآثار في أوروبا:

• أخذت أوروبا العلوم الإسلامية كلها، وبصفة خاصة المنهج التجريبي في البحث العلمي وأقامت

نهضتها العلمية الحاضرة عليه.

• أخذت معنى "الأمة" التي يربطها رباط واحد وتحكمها شريعة واحدة، ولكنها لم تستطع إقامتها على أساس العقيدة؛ لفساد العقيدة عندهم وفساد القائمين عليها من الكهنوت، فأقاموها على شكل قوميات، وهذا هو الأساس الذي قامت عليه دول الغرب الحالية.

• حاولت إصلاح الفساد العقدي والكنسي في حركات كالفين ومارتن لوتر وغيرهما، وإن كانت لم تحقق إلا إصلاحات جزئية في داخل الفساد الشامل؛ وذلك لأنها رفضت الإسلام ابتداءً وهو الطريق الوحيد للإصلاح الحقيقي.

• أخذت نظام الجامعات الإسلامية وأنشأت جامعاتها على غرارها.

• قامت فيها حركة فروسية تحاول أن تقلد ما وجدوه عند المسلمين من الشهامة والنجدة والأخلاق العالية.

• تأثرت أوروبا بالنظم المعمارية الإسلامية وقلدتها في بعض مبانيها، خذ مثالًا بسيطًا على ذلك: إدخال الحمامات في البيوت وتنظيف الأبدان بالاستحمام، ولم تكن أوروبا تمارسه حتى التقت المسلمين.

• بدأت فكرة "الديساتير" التي تشمل أسسًا واضحة للحكم غير هوى الحكام وشهواتهم الشخصية واقتبست أوروبا كثيرًا من الفقه الإسلامي، ومما يذكر في هذا الصدد أن القانون المدني الفرنسي مأخوذ معظمه من فقه مالك؛ لأنه كان أقرب المذاهب إليهم في الشمال الإفريقي.

• استفادت أوروبا من الكشوف الجغرافية والخرائط الإسلامية فبدأت تسيح في الأرض على هدي هذه الخرائط.

وباختصار، فإن أوروبا أخذت بذور نهضتها الحالية كلها من الإسلام، وإن كانت جمدت أثر الإسلام والمسلمين في حياتها، ورفضت في عصبية جاهلية أن تعتنق الإسلام^(١).

يقول موريس بوكاي: "إن الباحث يشعر بالدهشة عندما يكتشف أن القرآن ليس فيه كلمة واحدة تتعارض مع قوانين العلم الحديث". ويقول أيضًا: "إن القرآن ليس في آياته إشارة واحدة يمكن نقضها في ضوء مناهج وقوانين العلم الحديث"... وغير ذلك من شهادات العلماء التي لا نستطيع حصرها، والتي تؤكد على دلالة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم أمثال: أناماري شميل، والبروفسير فريد هاليداي، والمفكر الألماني د. مراد ويلفريد هوفمان، وباول شمتر، والراهبة كارين أرمسترونج... وغيرهم كثير^(٢).

بل إننا نسأل هؤلاء المدّعين أن ثابِت العقيدة الإسلامية تتعارض مع معطيات العلم الحديث - نسألهم كيف ذلك والقرآن الكريم مليء بالإعجاز العلمي الذي يكتشفه العلماء كل يوم؟ لقد توصل العلم أخيرًا إلى إثبات الحقائق العلمية التي أشارت إليها بعض الآيات القرآنية من قبل كبار العلماء غير المسلمين... ولقد أجرى الشيخ الزنداني محاورة علمية

على أربعة عشر من رواد العلوم المعاصرة في شتى الآفاق، كان الغرض منها معرفة الحقائق العلمية التي أشارت إليها بعض الآيات القرآنية، مع بيان أن دين الإسلام حث على العلم والمعرفة، وأنه لا يمكن أن يقع صدام بين الوحي وحقائق العلم التجريبي^(٣).

ثانيًا. لا تعارض بين الفكر الإسلامي ومعطيات العلم، ولا يضره أن يصادم مبادئ الفلسفات المادية:

والعلم التجريبي لا ينكر وجود الله ﷻ بخلاف الفلسفة المادية، ولكنه يقتصر على عالم المحسوس دون عالم الغيب، ويترك عالم الغيب لما هو أعلى من العقل البشري ومن التجربة العملية؛ لذلك فإن علماء التجربة يؤمنون بأن هناك حقائق يصعب على العقل البشري إدراكها، منها حقيقة الحياة، هذا ما أكد عليه كاميل فلامريون حين قال: "لقد عجز العلماء عن حل مسألة استمرار الوجود ودوامه، فهم يُقرُّون بضرورة وجود الخالق وتأثيره الدائم المستمر؛ وذلك ليمكنهم تفسير تعاقب الكائنات وإدراك سر أصول الأشياء، وقال إميل بوترو في كتابه "العلم والدين": "عجز العلم عن حل كل المشاكل، والعلم مهما تقدم فهو محدود، لا يوجد غير الدين الذي يسد الفراغ".

فالعلم التجريبي لا يرفضه الفكر الإسلامي مادام في إطاره الصحيح، الذي يؤمن بوجود أشياء فوق تصور العقل وفوق قدراته، تدرك بالقلب عن طريق الإيمان بها كما هي، هذه الحقائق التي يعرفها الإنسان عن طريق الوحي الذي أرسله الله ﷻ للرسل؛ لكي

١. ركائز الإيمان، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط ١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، ص ٤٤٠.

٢. المنصفون للإسلام في الغرب، رجب البناء، مرجع سابق، ص ٢٤٠ وما بعدها.

٣. للمزيد انظر: إنه الحق، محاورة علمية أجراها الشيخ عبد المجيد الزنداني، دار وحي القلم، بيروت، ط ١، ٢٠٠٤م.

الأغلال الموروثة؛ لأن الإسلام يخاطب العقل والقلب معاً، وأبطل القرآن الكريم سلطان الأحرار والرهبان والوسطاء بين العبد والرب تبارك وتعالى، ولم يفرض على الإنسان قرباناً يسعى به إلى المحراب بشفاعة من ولى ولا تُرْجَمَان بين الله تعالى وعباده، وحرر عقل الإنسان من سلطان الهياكل والمحاريب؛ فقد علم القرآن الكريم أتباعه كيف يوفقون بين الدين والدنيا في معادلة صعبة لم يقم بها أي دين سوى دين الإسلام. يقول خليل حاوي في هذا الصدد: إن فجیعة القلوب هي أن العقل محدود المعرفة عاجز عن إدراك حقائق الإيمان والدين، فمن المستحيل إدراك المطلق عن طريق العلم أو العقل؛ لتعالى المطلق عن التجربة والواقع؛ فالإنسان ليس كائنًا يعقل فحسب، بل هو كائن له قلب وإدراك، ومن حق النفس الإيمان بأشياء لا يثبتها العقل ولا ينفیها، فمن حقها أن تؤمن بمعتقدات الوحي والدين وخلود النفس ووجود الله تبارك وتعالى؛ لأن العقل لا يستطيع أن ينفیها.

إن الفلسفة الغربية وصلت إلى مرحلة صعبة؛ فهي تجعل مهمتها مقصورة على إثارة الشبهات دون تقديم حل لها، أما الإسلام فهو عكس ذلك تماماً، فهو يضع الأمور ضمن إطار واضح ومحدد، والغرب ينطلق من واقع غير مقيد بأي إطار، أو ضوابط أخلاقية أو دينية، وفي ذلك يقول العلامة المودودي: "إن النظريات التي وضعها الإنسان عن نفسه، وعن الحياة الدنيا، وعن نظام الكون، وعن ذات الإله، مدفوعاً بدراسته الشخصية وتقديراته الخيالية وخضوعه لسلطان الأهواء، ثم المواقف التي اتخذها على أساس تلك

يضعوا الناس على الطريق الصحيح إلى الله تعالى، وبدون هذا الإيمان القلبي يصبح العلم أداة هدم لا أداة تعمير للكون.

وهذا هو الفارق الحقيقي بين الفكر الإسلامي والفلسفة المادية التي لا تؤمن إلا بالماديات فقط، وترفض كل ما هو غير مادي، بدعوى أنه لا يخضع للنظر المباشر، وهذا هو الذي جعل أوربا تفصل بين الدين والدنيا، فكان ما نشاهده الآن من فراغ روحي بين أبنائها.

إن المعرفة التجريبية هي التي أخذت مفهوم العلم، ولكن الفلسفة ليست إلا افتراضات خارج دائرة التجريب، وتحاول أن تصطنع الأسلوب العلمي في النظر والاستدلال، ولا تخلو هذه الفلسفة من الأهواء والمطامع، وهي حين تحاول أن تنقل التجريب إلى عالم النفس والإنسانيات والأخلاق تتعثر وتخطئ؛ لأن مثل هذه الأشياء لا يخضع للتجريب؛ لاختلاف النفوس والطبائع والبيئات والعصور، عكس العلوم المادية التي تخضع لذلك، فالفلسفة المعاصرة حسية مادية واقعية لا تعترف بغير ما يقع تحت التجربة؛ ولذلك فهي تنكر عالم الغيب الذي يؤمن به العلم، وتنكر الوحي والألوهية والنبوة والبعث والجزاء والأديان والكتب المنزلة وكل معطيات الإيمان الحقيقية؛ فهي لذلك قاصرة عن فهم الحياة والوجود كما يفهمها ويعرفها المؤمن بالله تعالى.

ولقد اعترف الباحثون في الفلسفة أنفسهم بأن أي فلسفة مثالية أو مادية، روحية أو عقلية، لم تصل إلى ما وصل إليه الإسلام من تحرير عقل الإنسان وتخطيم

النظريات، فإنها في حقيقتها باطلة ومهلكة للإنسان نفسه من ناحية المصير، وإنما الحق هو الذي علّمه الله تعالى للإنسان حين جعله خليفة في الأرض، وبموجب هذا الحق ليس من منهج من المناهج إلا المنهج الذي هو المنهج الصحيح قال الله تعالى: ﴿فَاقْمْ وَّجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم)، وهناك العديد من العلماء الغربيين الذين شهدوا للإسلام بأنه اهتم بالعلم والتعلم اهتمامًا كبيرًا؛ من هؤلاء: لوبون، وسيديلون، ومما قاله لوبون عن الدين الإسلامي: الإسلام أكثر الديانات ملاءمة لاكتشافات العلم^(١).

الخلاصة:

• من ينظر في آيات القرآن الكريم ونصوص الأحاديث النبوية الشريفة يجد فيها العديد من الإشارات التي تدعو إلى العلم وتحث عليه وترفع من قدر العلماء، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا خَيْرٌ﴾ (المجادلة)، ومن ذلك أيضًا قوله ﷺ: "العلماء ورثة الأنبياء"^(٢). فأين هذا التعارض المزعوم بين الإسلام أو الفكر الإسلامي وبين معطيات العلم!؟

• لا يوجد أدنى تعارض بين العلم وبين الفكر الإسلامي؛ لأن العلم يعترف أنه توجد أشياء خارج نطاق سيطرته، وهي الأشياء التي تتعلق بعالم الغيب والحياة بعد الموت، ويقتصر دور العلم على مجال الأشياء المحسوسة، أما الفلسفة فهي لا تتفق مع الفكر الإسلامي؛ لأنها تقوم على إنكار كل ما هو غير مادي، وبذلك فهي تنكر كل ثوابت الإيمان الصحيح، من إيمان بالوحي ووجود الله ﷻ والملائكة والكتب المنزلّة والثواب والعقاب... إلخ، والفكر الإسلامي يرفض مثل هذه الفلسفات؛ لأنها تنكر أشياء لا غنى عنها للإنسان، فلا بد من التوفيق بين عالم الجسد وعالم الروح، أو بين الدين والدنيا، وهذا غير موجود في الفلسفة الوضعية الحديثة.

• الذين درسوا الفلسفة أكدوا على حقيقة مؤداها أن الفلسفة الوضعية المعاصرة قاصرة عن معرفة الأشياء التي فوق إدراك العقل البشري، وعدم إدراك العقل البشري لمثل هذه الأشياء لا يعني أنها غير موجودة في الحقيقة، فهي من ثوابت الفكر الإسلامي الصحيح الذي يؤمن به المسلمون وأصحاب الفطرة السليمة من غير المسلمين.



١. الإسلام في قفص الانهمام، د. شوقي أبو خليل، مرجع سابق، ص ٢١٠: ٢١٥.

٢. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم (٣٦٤٣)، والترمذي في سننه، كتاب العلم، باب فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٩٧).

التفصيل:

أجل الإسلام العقل، وقدر المنطق، فذلك أدعى للامتثال وتمام التسليم، ولكن إعمال العقل في نصوص الشريعة - القرآن والسنة - ليس مطلقاً، وإلا لأدى ذلك إلى التحزب والتفرق، وهذا ما لم يدع إليه الإسلام.

أولاً. منزلة العقل وحدوده في تصور الإسلام:

القرآن يهدي العقل في عدة أمور:

- في مسائل الإيمان.
- في مسائل الأخلاق.
- في مسائل التشريع.

فقد جاء الدين هادياً للعقل في مسائل ما وراء الطبيعة؛ أي: العقائد الخاصة بالله ﷻ، ورسله - صلوات الله وسلامه عليهم - وباليوم الآخر، وبالغيب الإلهي على وجه العموم.

وكذلك جاء هادياً في مسائل الأخلاق؛ أي: الخير والفضيلة، وما ينبغي أن يكون عليه السلوك الإنساني ليكون الشخص صالحاً، فمن الناس من هو عبد للمال أو الجاه أو السلطان، ولدى هؤلاء الرأى هو السلطان، والشافي هو الدواء، والمعطي هو الوزير، وهكذا.

فخلطوا الوسيلة بالغاية، فقالوا: إن الدواء هو الشافي، والشرع يقول: إن الشافي هو الله، ولا يحصل الشفاء إلا بأمره، وهكذا في كل أمور الدنيا، فالعقل - إذن - ليس هو الأداة الصحيحة لبحث المسائل النفسية؛ لأن النفس تدخل في عالم الغيب الذي لا يخضع لحواس

الزعم أن الإسلام يلغي العقل ويخضعه

لنصوص الدينية(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن الإسلام دينٌ يلغي العقل ويخضعه للنصوص الدينية المدونة في القرآن والسنة، والمفروض في ظنهم أن يُحكَّم العقل في كل شيء حتى في القرآن، وأن ما لا يقبله العقل من الشرع غير مقبول.

وجوه إبطال الشبهة:

(١) أولى الإسلام العقل عناية فائقة، حتى ساق الكثرة المطلقة من أحكامه، مصحوبة بالحكم التي توخاها الشارع منها.

(٢) لم يلغ الإسلام العقل، وإنما أمر بإعماله، فهو مناط التكليف، وقد حث القرآن على النظر والتفكير، ودعا للتدبر والتعقل، وأنكر على الذين لا يعملون عقولهم قائلاً: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٦٨) (س).

(٣) لا تعارض بين صريح المعقول وصحيح المنقول في الإسلام، وتقديم النقل على العقل من مبادئ أهل السنة والجماعة عند التعارض بينهما.

(٤) لفهم النص القرآني أصول وضوابط، وإعمال العقل في القرآن والسنة ليس للحكم على صحتها، وإنما لتوثيق نسبتها إلى الله ورسوله، وإيضاح ما فيها

(*) أسئلة العصر المحيرة، محمد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل، القاهرة، ط ١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م. القرآن والرسول ومقولات ظلمة، د. عبد الصبور مرزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.

الإنسان، والخطأ والصواب في علم الأخلاق نختلف عليه لو استعملنا عقولنا فقط.

وقصة العبد مع سيدنا موسى عليه السلام دليل رائع على القصور البشري في إدراك الخير، والشر، وأن الحواس لا تدرك إلا جزءاً يسيراً من الحقيقة، وأن العقل يعجز عن إدراك أطوار لا يدركها إلا القلب، ولذلك نزلت الشرائع والأديان السماوية، بما يدخل في عالم الغيب وما يتصل بالسلوك الذي يعجز عن إدراكه العقل، وهي تدعو إلى التسليم والانقياد والعبودية المطلقة لله جل شأنه.

وجاء الإسلام كذلك هادياً في مسائل التشريع الذي ينتظم به المجتمع، وتسعد به الإنسانية مستقلاً بنفسه، فإنه لا يصل فيها إلى نتيجة يتفق عليها الجميع، فالمسائل المتعلقة بالعبادات؛ كالصلاة، والصوم، والزكاة، والحج؛ أي: الخصائص المتعلقة بالعبودية قطعاً تؤدي إلى التسليم والإذعان.

فلننظر إلى أداء هذه العبادات؛ فحركات الصلاة - مثلاً - ليست عشوائية بهذا الشكل، بل هي مقصودة، كما أن الأمر بغسل أعضاء معينة في أثناء الوضوء لا بد أنه مستند إلى فائدة وحكمة.

كما أن أداء الصلاة في الجماعة له دور مهم في تأسيس الحياة الاجتماعية، وفرض الزكاة له دور مهم في تأسيس التوازن بين الأغنياء والفقراء، أما الفوائد الصحية للصوم فهي أكثر من أن تُعدَّ، وقد كشف عنها الطب قديمه وحديثه بما فيه الكفاية. حيث إنه لو تم التدقيق من ناحية العقل والمنطق لوصلنا إلى النقطة نفسها وهي الإذعان والتسليم. فالإسلام عقلي ومنطقي من جهة،

وإذعان وتسليم من جهة أخرى، فيخضع المسلم لشرعه عن طريق القلب والعقل جميعاً.

ولا شك أن منازل الناس مختلفة في العقل، وأنصباؤهم متفاوتة فيه، ومعنى ذلك أن ما يروق لشخص عقلياً ربما لا يروق لغيره؛ فكانت الشريعة بمثابة السفير من الله إلى الخلق عن طريق الوحي، والآيات والمعجزات كذلك.

ومن هنا تسقط "لم"، وتبطل "كيف" وتزول "هلاً" وتذهب "لو" و"ليت" في الريح، فلو كان العقل يُكتفى به لم يكن للوحي فائدة.

فمثلاً: يُقال إن الحكمة من تحريم شرب الخمر إنما هي المفسد التي تنشأ من الشخص الشارب، فإذا ما انتفت تلك المفسد، فلا مانع من شرب الخمر.

والتكاليف الدينية إنما جاءت لإصلاح الضمير، فإذا كان الضمير صالحاً فلا حاجة إليها.

وأعمال العبادة إنما هدفها القرب من الله، فإذا حصل القرب فلا حاجة إليها.

وهكذا يخرج الإنسان بأهوائه - كما يصورها له الشيطان منطقاً معقولاً - عن الدين كما خرج إبليس قديماً بأهوائه - عن الدين حينما رفض السجود لآدم عليه السلام لزعمه أنه خير منه؛ لأنه خلق من النار، والنار أفضل من الطين.. كفرةً وعناداً.

والإمام الغزالي - رحمه الله - يمثل لهذا بقصة مؤداها أن رجلاً بني لابنه قصرًا على رأس جبل، ووضع فيه حشيشاً طيب الرائحة، ووصاه ألا يخلي القصر من هذا النبات طوال عمره، فزرع الولد من صنوف الرياحين والعنبر، فعمرت القصر رائحة طيبة، وزعم أنه آن

يَعْتَصِمُ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ (آل عمران).
وأن يُسَلِّمَ الأمر لله في التشابه^(١).

والقرآن لم يستشر الإنسان، بل قام بدور الهادي والمربي، وتعالى الخالق أن يستشير المخلوق، وتعالى الرب عن أن يستشير المربوب، وتعالى العليم الحكيم عن أن يحتكم إلى البشر أو يحكمهم فيما أنزله إليهم هداية وتربية، هذا هو موقف الدين من العقل: وترشدنا إليه آيات كثيرة، كقوله ﷺ: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشَوِي الْأُجُوهَ بِسُكِّ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ (الكهف).

والآية تقرر أن كل شخص يُعْمَلُ فكره ويتأمل في هذا الحق، فإنه - لا محالة - سينتهي بالاعتراف والإقرار والإيمان، أما من اتبعوا الأسلاف بغير علم، فهم كالأنعام، بل هم أضل؛ لأنهم يلغون عقولهم؛ ومن هنا اتفق العلماء على أن الإيمان المقبول ما كان عن علم وبرهان، لا عن تقليد وإذعان، واختلفوا في إيمان المقلد أيسح منه أم لا؟

فكان طبعياً أن يشن الإسلام حرباً شعواء على الخرافات والأباطيل، فهو ينهى أن يتبع الرجل أو يعتقد ما لم يقم عليه برهان قطعي ثابت.

وقد بلغ حرص الإسلام على أمر الاتباع في الجانب الذي لا ينبغي للعقل أن يعمل فيه حداً لافتاً، حتى لم يُجِز الرسول ﷺ أن يستبدل أحد صحابته بكلمة قالها كلمة بمعناها، كما روي عن البراء بن عازب ؓ أن

الوقت للاستغناء عن هذا الحشيش، فما وصاه به والده إلا لطيب رائحته، وقد ضاق به المكان.

فلما خلا القصر من الحشيش ظهر من بعض ثقوب القصر حية هائلة، وضربته ضربة أشرف بها على الهلاك، حينئذ تنبه إلى فائدة الحشيش وقت لا ينفع التنبه، فقد كان من خاصة هذا الحشيش دفع هذه الحية، فكان الغرض من الوصية شيئين:

أحدهما: الانتفاع بالرائحة، وهذا ما أدركه الولد بعقله.

وثانيهما: دفع الأذى، وهذا ما قَصُرَ عن إدراكه، فاغتر الولد بما عنده من علم، وظن أن لا سر وراء ما يعلم ويعقل كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ (النجم)، وقال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (غافر).

ولا شك أن الإنسان إنما سبيله أن تفيدهِ المِلَلُ بالوحي ما شأنه ألا يدركه بعقله البشري، وإلا فلا معنى للوحي. كما أن العقل يفهم محكم القرآن الكريم، ولا يناقض متشابهه، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۚ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾ (آل عمران).

فقد أراد الإسلام أن يستمسك المسلم بالمحكمات استمسكاً تاماً، وأن يعتصم بها اعتصاماً كاملاً: ﴿وَمَن

١. التشابه: نصُّ قرآني يحتمل عدَّة معانٍ، عكسه المُحْكَم.

النبي ﷺ قال: "إذا أتيت مضجعك، فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، أمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت، فإن مت في ليلتك، فأنت على الفطرة"، واجعلهن آخر ما تتكلم به قال فرددتها على النبي ﷺ، فلما بلغت اللهم بكتابك الذي أنزلت قلت: ورسولك الذي أرسلت قال: لا، ونبيك الذي أرسلت" (١).

وبالجملة فإن العلم الصحيح الصادق هو في عالم الهداية الإلهية والتربية الربانية، وليس للعقل سبيل إليها وحده، فالإنسان إنسان بالجانب الروحي، وكلما سما الإنسان روحياً كان أعلى في معاني الإنسانية، وتحديد تلك المعاني الروحية موكول بالقرب من الله تعالى، وما دام الأمر كذلك فليس للعقل إلا التسليم والخشوع والخضوع.

وقد يحسن أن نختم هذا البحث بلفتة دالة عن ورود مادة "العقل" في القرآن الكريم، فنشير إلى أنها لم ترد في القرآن بصيغة الاسم، وإنما وردت بصيغة الفعل، مثل: "تعقل، أو عقلوه، أو تعقلون، أو يعقلها، أو يعقلون" حوالي ٤٩ مرة، وذلك في الآيات التي تتحدث عن الطبيعة، والخلق، فذلك أدعى إلى الإيمان بالله تعالى بارتواء الروح؛ حتى لا يكون في الصدور حرج أو شك مما أنزل، فقد قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب فضل من بات على الوضوء (٢٤٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٧٠٥٧).

يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ (النساء) ٥٠.

ثانياً. العقل في الإسلام مناط (٢) التكليف، ولذلك نعي على من يعطلون عقولهم:

العقل جزء من الشرع، فكما أنه لا عقل كامل بلا شرع، فلا شرع كامل بلا عقل. فما العقل؟ قال السلف: إن العقل عقلان: غريزي، ومكتسب.

فالغريزي هو ما نسميه بالمقدرات العقلية، من فهم وإدراك وفقه، واتساق في الكلام، وحسن تصرف، وهذا هو مناط التكليف. ودين محمد ﷺ يقوم على دعائم ثلاثة: الإيمان بالله، والنبوة، واليوم الآخر، لذا قال الأمدي: "اتفق العقلاء على أن شرط المكلف أن يكون عاقلاً فاهماً للتكليف؛ لأن التكليف خطاب، والفهم محال على الجهاد والبهيمة مثلاً، وكذا المجنون والصبي؛ لقوله ﷺ: "رُفِعَ القلم عن ثلاث: عن النائم حتى يستقيظ، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل" (٣).

وإذا كان العقل هو مناط التكليف في الشريعة الإسلامية، فإن حفظه - إذن - ضرورة لا غنى عنها،

② في "مجالات عمل العقل في الإسلام" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثانية عشرة، من هذا الجزء. وفي "محدودية الإدراك العقلي" طالع: الوجه الخامس، من الشبهة الرابعة والعشرين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).
٢. المناط: العلة.

٣. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الحدود، باب في المجنون يسرق أو يصيب حدًا (٤٤٠٥)، والترمذي في سننه، كتاب الحدود، باب فيمن لا يجب عليه الحد (١٤٢٣)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٢٩٧).

بالأنعام السائمة التي لا تسمع إلا دعاء، ونداء، صم بكم عمي فهم لا يعقلون، بل هم أضل من الأنعام".

دعوة الإسلام إلى التفكير والنظر:

إن الإسلام يحرر العقل من عقاله، ومن أروع ما يُؤثر في هذا الباب عن رسول الله ﷺ أن الشمس كُسِفَتْ يوم مات ولده إبراهيم، فظن الناس أنها كُسِفَتْ من أجله، فأنكر ذلك حتى لا يقع الناس في رق الخرافات والأوهام.

فالإنسان قد ينزل بحسه وعقله إلى المستوى الحيواني، ويصير من طائفة من يقال فيهم: "كالأنعام"، وقد يرتفع بروحه الشفافة وبصيرته المضئية وقلبه الطاهر إلى أن يكون أقرب إلى الملائكة؛ لأن صفاء الروح وكشف الرّان^(١) عن القلب الذي كان يحجبه عن تلقي الأنوار الربانية يجعله محلاً للإلهام، والمعرفة المستنيرة.

وفريضة التفكير في القرآن الكريم تشمل العقل الإنساني بكل ما احتواه من وظائف؛ فهو يخاطب العقل الوازع، والعقل المدرك، والعقل الحكيم، والعقل الرشيد.

فمن خطابه ﷺ إلى العقل، قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْبَاهِ الْأَرْضَ بِعَدِّ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

١. الرّان: الحجاب.

ولا تستقيم حياة الناس بدون ذلك، ومما يدل على اهتمام الشريعة الإسلامية بحفظ العقل أنها حرّمت كل ما من شأنه إفساد العقل، وإدخال الخلل عليه، وهذه المفسدات قسّان:

١. مفسدات حسّية: وهي التي تؤدي إلى الإخلال بالعقل، بحيث يصبح الإنسان كالمجنون، الذي لا يعرف صديقاً من عدو، ولا خيراً من شر، وهذه المفسدات هي الخمر، والمخدرات، وما شابهها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة).

قال سيد قطب: إن غيبوبة السكر - بأي مُسكر - تنافي اليقظة الدائمة التي يفرضها الإسلام على قلب المسلم؛ ليكون موصلاً بالله في كل لحظة مراقباً لله في كل خطوة، ثم ليكون بهذه اليقظة عاملاً إيجابياً في نماء الحياة وتجدها، حافظاً لتكاليف ربه، حامٍ لماله وعرضه، فما كان المسلم عبداً لشهوة أو لذة، بل يجب أن يسيطر دائماً على رغباته، وغيبوبة السكر تنافي مع هذا فلا يرى الحق حقاً.

٢. مفسدات معنوية: وهي ما يطرأ على العقول من تصورات فاسدة في الدين، أو الاجتماع، أو السياسة، أو غيرها، فتعطيل العقل عن التفكير السليم مفسدة له، لذا نعى الله ﷻ في كتابه على الكفار؛ حيث عطّلوا عقولهم عن التفكير، في آيات الله القرآنية والكونية، قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان).

قال ابن سعدى: "سجل ﷻ عليهم ضلالهم البليغ بأن سلبهم العقول والأسماع، وشبّههم في ضلالهم

لَا يَنْتَبِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ (البقرة)، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٧﴾﴾ (الروم)، وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿١٢﴾﴾ (العنكبوت).

ومنه ما يخاطب العقل الوازع، في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ (الملك)، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ (الأنعام)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ (يوسف)، وقوله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ (الحشر).

إلى جانب الآيات التي تبتدئ بالزجر، وتنتهي إلى التذكير بالعقل؛ ذلك لأنه خير مرجع للهداية في ضمير الإنسان، كقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (البقرة)، ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ (المائدة)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الأنعام)، ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ (الأنبياء).

وهذا خطاب العقل المدرك، وهو يقوم على الفهم

والوحي؛ لأنه موطن الإدراك في ذهن الإنسان، قال تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾ (آل عمران)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَّوَلَّى الْأَلْبَابُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ (المائدة)، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي فَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١١١﴾﴾ (يوسف).

كما يدعو أيضًا إلى الفكر والنظر، والتدبر والاعتبار، وسائر هذه الملكات الذهنية، ونلمح ذلك في قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ قَيْنَا عَذَابُ النَّارِ ﴿١١١﴾﴾ (آل عمران)، وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ (الأنعام). وفي قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٧﴾﴾ (الغاشية)، وفي قوله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ﴿٦٥﴾﴾ (الأنعام: ٦٥)، وفي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (السجدة)، وفي قوله تعالى: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٦﴾﴾ (عبس). وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾﴾ (الزمر)، وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُسَدًا ﴿١٦﴾﴾ (الكهف).

والأمثلة على ذلك كثيرة، ويتبين منها أن العقل الذي يخاطبه الإسلام، هو الذي يعصم الضمير،

تبحث على التفكير والنظر تأتي في مئات المواضع في القرآن الكريم؛ لذا فهم السلف أن العقل هو الآنية التي يملؤها النقل.

وقد ظهرت بوادر الاختلال عندما جهدت عقول المسلمين عن الإبداع بحجة الاتباع، بينما جنح آخرون نحو الغلو في تقدير العقل حتى خاضوا في كثير من مسائل "عالم الغيب"، ووصلوا إلى الابتداع تحت راية الإبداع، وليس هذا بصحيح، بل ما جاء من عند الله فهو ثابت، وكل ما أدت إليه الاجتهادات البشرية فهو خاضع للتغير.

فلا يصح أن كل ما هو تراث يجب أن يُهال عليه التراب دون تفريق بين أصول إلهية معصومة وفروع بشرية غير معصومة، كما لا يصح أن ننظر إلى الماضي كإناء احتوى حضارة عظمى دون تفريق بين النقل المعصوم، والعقل الذي فكر وقدر، وجرب فأخطأ وأصاب.

وإن من يتنكرون للتراث ومن يجمدون عليه معاً يساهمون دون وعي في إضعاف فاعلية الأمة، والمخرج أن يتم إعمال العقل في فهم النقل، وحينها سيتم الاحتفاظ بالتراث المنسجم من مقاصد الشرع واستقبال الجديد من وقائع العصر، واختيار الأصلح منها؛ لنقوم بمزج ذلك كله في عقل المسلم، كما تمزج النحلة رحيق الأزهار ثم تخرجه عسلًا مصفًى شافيًا، فكل عقل لا يبدأ إلا بالنقل، وكل نقل لا يكون إلا بالعقل، إذ إن كليهما ضروري، سواء في الرؤية الإسلامية أو في الواقع العملي لنهوض الأمة؛ فهي إلى هلاك بدونها.

ويدرك الحقائق، ويميز الأمور، ويوازن بين الأضداد، ويتبصر ويتدبر، وهو العقل الذي يقابله الجمود والعنت والضلال.

وهنا يبرز فضل الحكمة والرشد على مجرد التعقل والفهم، كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة).

ويدل على ذلك أن الأنبياء يطلبون الرشد والعلم من بعض عباد الله الصالحين، كما جاء في قصة موسى والعبد الصالح - عليهما السلام - فالدين الإسلامي دين لا يعرف الكهانة^(١) ولا يتوسط فيه السدنة^(٢) والأحبار بين المخلوق والخالق، وهذا هو المنتظر من دين يُلزم كل إنسان طائره في عنقه، ويجاسبه بعمله، قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (النجم) (٣).

ثالثًا. لا تعارض بين العقول والمنقول، وتقديم النقل أوجب عند التعارض:

لا تعارض بين العقل والنقل:

لا شك أن الصحابة الكرام كانوا يدركون أن النقل - القرآن الكريم والسنة النبوية - هو القائد الذي لا بد من تسليمه زمام حياتهم، لكن هذا التسليم لا ينطلق في إطار "اعتقد وأنت أعمى"، فقد قال القرآن: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (محمد: ١٩)، والآيات التي

١. الكهانة: ادعاء معرفة الأسرار أو أحوال الغيب.

٢. السدنة: جمع سادن، وهو الحاجب.

٣. التفكير فريضة إسلامية، عباس محمود العقاد، دار القلم، القاهرة، ط ١، ص ٨: ٢٠ بتصرف.

وجوب تقديم النقل عند التعارض:

يقول ابن تيمية - رحمه الله: إذا تعارض العقل والنقل، وجب تقديم النقل؛ لأن الجمع بين المدلولين جمع بين نقيضين، ورفعهما رفع للنقيضين، وتقديم العقل ممتنع؛ لأن العقل دل على صحة السمع، ووجوب قبول ما أخبر به الرسول ﷺ، فلو أبطلنا النقل لكُنَّا أبطلنا دلالة العقل، فلم يصح أن يكون معارضاً للنقل، فكان تقديم العقل موجباً عدم تقديمه، فلا يجوز تقدمه.

فإذا تعارض العقل والشرع وجب تقديم الشرع؛ لأن العقل مصدق للشرع في كل ما أخبر به، والشرع لم يصدق العقل في كل ما أخبر به، ولا العلم بصدقه موقوف على كل ما يخبر به العقل، قال بعضهم: يكفيك من العقل أن يعلمك صدق رسول الله ﷺ ومعاني كلامه.

وإن تقديم المعقول على الدلالة الشرعية ممتنع متناقض، وأما تقديم الأدلة الشرعية فهو ممكن مؤتلف، فقد اتفق أهل الإسلام على ثوابته، فمثلاً نقل حروف القرآن الكريم، والصلوات الخمس، والقبلة ومقادير الزكاة بالتواتر، ومعلوم أن النقل المتواتر يفيد العلم اليقيني.

فلو قيل بتقديم العقل على الشرع - وليست العقول بالطبع شيئاً واحداً - لاختلفت آراء الناس باختلاف عقولهم في كل مكان وزمان، بل في البيئة الواحدة. أما الشرع فهو في نفسه قول الصادق. وهذه صفة لازمة له لا تنفك عنه، ولا تختلف باختلاف الناس.

رابعاً. ترشيد القرآن للنظر العقلي:

كان الإسلام - وما زال - دين العقل الصريح والمنطق الواضح والبرهان الصادق، قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة)، وعلى هذا الأساس، فقد حفل القرآن الكريم بالآيات التي تحث على الحكمة: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة)، وتدعو إلى التعقل: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة)، وإلى التفكير: ﴿فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف)، والابتعاد عن الظن السيئ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (يونس: ٣٦)، والابتعاد عن الهوى المضل: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ (القصص: ٥٠)، وتدعو إلى العلم: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة: ١١)، وقال أيضاً: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ﴾ (الزمر).

وقد اتخذ الإسلام في منهجه العقلي خطوات متتالية، ترقى بالعقل درجة درجة حتى تُفْضِي به إلى اليقين الديني، منها:

١. محاربة الجمود والتقليد: لأن البناء على أساس عقلي متين يقتضي تنقية الرواسب التي خلفتها القرون الزمنية الماضية التي هيمنت على العقول، وحجبتها عن البحث والتأمل؛ لذلك أثبت القرآن صفة هؤلاء، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ

شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٧١﴾ (البقرة) ٥٠.

٢. مكافحة المكابرة والعناد: والمعاندون هم الذين يرون الحقائق ماثلة أمام أعينهم، ولكنهم يكابرون ويختلقون الأكاذيب لطمسها، وصرف العقول عنها، وإذا وُضع الحق ماثلاً أمامهم - لا سبيل إلى نكرانه - كابرُوا: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عَمَلُونَ﴾ (٥٠) ﴿فصلت﴾، ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ (١٠) ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ تَحْتِهَا عِزْبٌ نَّفْجِرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ (١١) ﴿الإسراء﴾، وفي هؤلاء قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (١٤) ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ مُسْخَرُونَ﴾ (١٥) ﴿الحجر﴾، وأمثال هؤلاء وَجَبَ فَضْحُهم حتى لا يَقْنُتُوا غيرهم بما يُلقِّقونه ويتدعونهم من سَفْسَطة (١) ومُهاترات (٢).

٣. التأمل والاستنباط: بعد تحرير العقول من المعتقدات الفاسدة، وكشف أباطيل المعاندين، وقد ناشد الإسلام أهله - باستمرار - أن يتدبروا ويتأملوا في

٥٠ في "حقيقة الإيمان ومنافاتها للتقليد" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة، من الجزء السابع (الإيمان والتدين). وفي "نعي القرآن على المشركين تقليدهم للأسلاف في أمور دينهم" طالع: الشبهة الخامسة والأربعين، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

١. السَفْسَطة: الجدل والتضليل.

٢. المُهاترات: جمع المهاترة؛ أي: قول ينقض بعضه بعضًا.

ملكوت السماوات والأرض، فقال تعالى: ﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١١) ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُثُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١١١) ﴿آل عمران﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِلَهِ كَيْفَ خَلَقَ﴾ (٧) ﴿وَالِ السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ (١٨) ﴿وَالِ الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (١٩) ﴿الغاشية﴾، بل يحفز إلى التأمل الذاتي في تكوين الجسد والعقل: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ (٥) ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ (٦) ﴿الطارق﴾، ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (١١) ﴿الذاريات﴾، ﴿كَذَٰلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٨) ﴿الروم﴾.

٤. النتائج العلمية مؤيدة بالبراهين: بعد مرحلة التدبر يعين الإسلام على الوصول إلى النتائج العلمية مؤيدة بالدليل المنطقي الملموس، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢)، وقال أيضًا: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذْهَبَ كُلَّ إِلَهٍ مِمَّا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (١١) ﴿المؤمنون﴾.

وهكذا نجد الحقيقة الكبرى مقررة بالبرهان العقلي حتى لا يعتري الناس شك أو إيهام، كتقريره - مثلاً - لموضوع الوحدانية، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمُ أَنْ تَنْبِتُوا شَجَرَهَا ؕ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾ (٦٠) ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ

خَلَقَهَا أَنْهَرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوِيسًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرُهُمْ لَاعِلْمُونَ ﴿١١﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُم مَخْرَجًا ۚ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرُكُمْ لَاعِلْمُونَ ﴿١٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٣﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرُكُمْ لَاعِلْمُونَ ﴿١٤﴾ (النمل)، وفي التذليل على البعث والنشور قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ ﴿٥٨﴾ مَا أَنْتُمْ بِخَالِقُونَ ۚ أَمْ أَنْتُمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدْ زَيَّنَّا لَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمُسْبِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ (الواقعة).

وهكذا يظل القرآن يوالي الحقائق مشفوعة بالدليل القاطع والبرهان المبين^(١).

الخلاصة:

• أجل الإسلام العقل، وقدر المنطق، فذلك أدعى للامتنال، وتمام التسليم، فالعقل مناط التكليف، وبذلك دعا القرآن الكريم إلى التفكير والنظر، ولكن إعمال العقل في نصوص الشريعة - القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة - ليس مطلقاً، وإلا أدى ذلك إلى التحزب والتفرق؛ إذ ليس هناك حقيقة واحدة ثابتة على ذلك لاختلاف العقول، وبالتالي اختلاف الآراء، وهذا ما لم يدعُ إليه الإسلام.

١. انظر: الإسلام والعقل، د. عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، ط ٣، ١٩٨٨ م. تغيب الإسلام الحق، د. محمود توفيق محمد، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م. منهج السلف بين العقل والتقليد، د. محمد السيد الجليلند، مكتبة العمرانية، القاهرة، ١٩٩٤ م. أقطاب العلمانية في العالم العربي والإسلامي، طارق منينة، دار الدعوة، القاهرة، ٢٠٠٠ م.

• لم يبلغ الإسلام العقل ولم يأمر بتعطيله، بل حث على إعمال العقل، وأنكر على الذين لم يعملوا عقولهم، فقال: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾﴾ (يس).

• وصف القرآن المعطلين لعقولهم بالأنعام بل هم أضل، ومن ثم كانت حرية الاعتقاد: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩)، فالحق واضح لأولي الأبصار، واستعمال العقل يعمق الإيمان بالله تبارك وتعالى؛ لأنه مخلوق على الفطرة التي فطره الله عليها، ولكن الكفر والعناد والاستكبار يطمس البصائر ويعمي الأفئدة.

• استعمال العقل في نصوص الشريعة ليس مطلقاً؛ فالعقل والنقل بينهما تكامل، وكل منهما يقوي الآخر؛ إذ إن كل عقل لا يبدأ إلا بالنقل، وكل نقل لا يكون إلا بالعقل، وكلام القائلين بتعارض العقل والنقل، ينقصه الدليل.

• أما عند توهم التعارض بينهما - لقصور العقل - فيجب تقديم النقل على العقل عند أهل السنة والجماعة؛ ذلك لأن العقل مخلوق، أما نصوص الشريعة فقد قالها الحق ﷻ وهو أعلم بخلقه.

• وإعمال العقل في القرآن والسنة ليس للحكم على صحتها، وإنما لتوثيق نسبتها إلى الله ورسوله، واطمئنان القلب إلى ذلك، ولإيضاح ما فيها من دقائق المعاني ورقائق الهدى.



الشبهة الثانية عشرة

ادعاء مناقضة العقل للإيمان في الإسلام (*)

مضمون الشبهة:

يُحْتَجُّ بِبعض الواهمين في فهم دعوة القرآن الكريم للتفكير والتدبر من أجل الإيمان على بصيرة؛ فهم يفهمون هذه الدعوة على أنها عيب في القرآن وليست ميزة؛ لأنه يدعو إلى إعمال العقل، والإيمان والعقل في ظنهم متعارضان غير متوافقين أصلاً.

وجوه إبطال الشبهة:

(١) دعوة الإسلام إلى إعمال العقل دليل قوته وصحته، فهو لا يناقض العقل، ولو صحت هذه الدعوى لحجر الإسلام على العقل ورفض التفكير، كما حدث في الديانات المحرفة.

(٢) تقدير الإسلام للعقل هو تكريم وتشريف للإنسان الذي حرره الإسلام من رق الكُفَّان والقديسين.

(٣) الإسلام جاء هاديًا للعقل ومرشدًا له؛ لأن قضاياه توافق العقول، ولم يأت القرآن محكمًا للعقل في الدين.

التفصيل:

أولاً. دعوة الإسلام إلى إعمال العقل دليل قوته وصحته:

هذه الدعوى تنعكس على مُدَّعيها، فإغفال العقل في

(*) حتى الملائكة تسأل: رحلة إلى الإسلام في أمريكا، جيفري لانغ، ترجمة: د. منذر العبيسي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ٢٠٠١م.

الديانات المبدلة دليل على أن تصورها الديني لم يعد يقبله عقل صحيح، ودليل على مناقضته ومعارضته للنظرة السوية، ومن هنا كان شعارهم: "ألعن عقلك واعتقد"، وأن الإيمان والعقل لا يلتقيان، فكانت عقائدهم سبباً في الحجر على العقول وجود التفكير وتقهقر العلم، إلى أن تورد العقل عليها وأقصاها، فتبدل التخلف تقدماً والحجر والجمود تحرراً.

والإسلام يدعو إلى إعمال العقل، ويجعل من التفكير فريضة^(١)، لا لضعفه ولكن لقوته؛ لأن العقل كلما استيقظ أدرك أن الإسلام - بكل تعاليمه من أصل الإيمان، الإيمان بالله وحده، ونبذ ما عداه من الشريك، إلى أبسط تعاليمه، كإمالة الأذى عن الطريق - مما يقبله العقل، ويحتاج إليه الإنسان لأنه يلبي حاجاته الفطرية. ولو كان الإسلام بكل تعاليمه ضعيفاً، أو مهزوزاً، أو ضعيف الثقة بنفسه؛ لتهرب من العقل - كما صنعت عقائد أخرى - ولرفض التفكير، ولكنه يحترم العقل ويقدره ويطلب منه أن يقوم بدوره؛ لأن العقل بدوره يقبل تعليمه، فيقبل عليه ويستجيب له^(٢).

ثانياً. تقدير الإسلام للعقل هو تحرير للإنسان من رق الكهنة والقديسين:

يقول العقاد: "والذي ينبغي أن يُناب إليه^(٣) مرة بعد

١. التفكير فريضة إسلامية، عباس محمود العقاد، مرجع سابق، ص ٥ وما بعدها.

② في "حث الإسلام على طلب العلم وإعمال العقل" طالع: الوجه الأول، من الشبهة السابعة، من الجزء الخامس (النظم الحضارية). وفي "مزية الإسلام الكبرى في إعمال العقل" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السابعة، من الجزء الخامس (النظم الحضارية).

٢. يُناب إليه: يُرجع إليه.

مرة أن التنويه بالعقل - على اختلاف خصائصه - لم يأت في القرآن عَرَضًا^(١)، ولا تردد فيه كثيرًا من قبيل التكرار المعاد، بل كان هذا التنويه بالعقل نتيجة منتظرة يستلزمها لباب الدين وجوهره، ويترقبها من هذا الدين كل من عرف كُنْهَهُ^(٢)، وعرف كنه الإنسان في تقديره، فالدين الإسلامي دين لا يعرف الكهانة، ولا يتوسط فيه السَدَنَّة والأحبار بين المخلوق والخالق، ولا يفرض على الإنسان قربانًا يسعى به إلى المحراب بشفاعاة من وِيٍّ متسلط، أو صاحب قداسة مُطاعة، فلا تُرْجَمَان فيه بين الله وعباده يملك التحريم والتحليل، ويقضي بالحرمان أو بالنجاة، فليس في هذا الدين أمرٌ يتجه إلى الإنسان من طريق الكُهَّان، ولن يتجه الخطاب إلا إلى عقل الإنسان حُرًّا طليقًا من سلطان الهياكل والمحاريب، أو سلطان كهانها المحكِّمين فيها بأمر الإله المعبود كما يدين به أصحاب الديانات الأخرى، ولا هيكل في الإسلام: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥). ولا كهانة حيث لا هيكل، فكل أرض مسجد، وكل من في المسجد واقف بين يدي الله.

ودين بلا هيكل ولا كهانة لن يتجه فيه الخطاب - بداهة - إلى غير الإنسان العاقل حُرًّا طليقًا من كل سلطان يحول بينه وبين الفهم القويم والتفكير السليم. كذلك يكون الخطاب في الدين؛ الذي يُلْزَم كل إنسان طائرته في عنقه، ويحاسبه بعمله، فلا يؤاخذ أحد بعمل غيره: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الأنعام: ١٦٤)، و: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (الطور)، ﴿وَأَنْ لَّيْسَ

لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣١﴾ وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾﴾ (النجم).

فإذا كان في الأديان دين يجتبي القبيلة بنسبها، أو يجتبي^(٣) المرء قبل مولده؛ لأنه مولود فيها، أو كان في الأديان دين يحاسبه على خطيئة ليست من عمله، فليس في الإسلام إنسان ينجو بالميلاد أو يهلك بالميلاد، ولكنه الدين الذي يوكل فيه النجاة والهلاك بسعي الإنسان وعمله، ويتولى فيه الإنسان هدايته بفهمه وعقله، ولا يبطل فيه عمل العقل، إن الله بكل شيء محيط.

وعلى هذا النحو يتناسق جوهر الإسلام ووصاياه، وتأتي فيه الوصايا المتكررة بالتعقل والتمييز منتظرة مقدرة لا موضع فيها للمصادفة، ولا هي مما يطرد القول فيه متفرقًا غير متصل على نسق مرسوم، فإنها وصايا منطقية في دين يفرض المنطق السليم على كل مستمع للخطاب قابل للتعليم.

وهكذا يكون الدين الذي تصل العبادة فيه بين الإنسان وربّه بغير واسطة ولا محاباة، ويحاسب فيه الإنسان بعمله كما يهديه إليه عقله، ويطلب فيه من العقل أن يبلغ وسعه من الحكمة والرشاد^(٤).

ثالثًا. جاء الإسلام هاديًا للعقل وموجهًا له إلى مساره الصحيح:

في سياق الحديث عن منزلة العقل في الإسلام يعرض د. عبد الحليم محمود فكرة أن الإسلام يقدر العقل حتى يُحْتَكَم إليه في أمر الدين، ويناقشها في كتابه

٣. يجتبي: يختار.

٤. التفكير فريضة إسلامية، عباس محمود العقاد، مرجع سابق، ص ١٦، ١٧. بتصرف.

١. عَرَضًا: بطريق الصدفة، من غير قصد أو روية.

٢. الكُنْه: جوهر الشيء وأصله وحقيقته.

"الإسلام والعقل" فيقول - بعد أن يذكر الآيات التي تحض على استخدام العقل:

هذه الآيات الكريمة، بل القرآن في جملته والأحاديث الشريفة في جملتها، وتاريخ الإسلام، إن كل ذلك يدل - حسبنا يرون - على أن الإسلام دين العقل.

وإذا ما تساءلنا الآن ما يعنون أنه دين العقل؟ أجابوا بأنه يحتكم إلى العقل، ويرون بذلك أنه يحكم العقل في المسائل، والمبادئ والقواعد، وينتهي ذلك - لا مناص - بأن يكون العقل هو القائد وليس الدين، وذلك قلب للأوضاع، وانحراف عن الصراط المستقيم!

أما عن الصراط المستقيم فيما يتعلق بصلة العقل مع الدين فهو فقد جاء الدين هاديًا للعقل في مسائل معينة هي:

- الغيبات، أي: العقائد الخاصة بالله سبحانه، وبرسله عليهم السلام، وباليوم الآخر، والغيب الإلهي.
- الأخلاق، أي: الخير والفضيلة، وما ينبغي أن يكون عليه السلوك الإنساني ليكون الشخص صالحًا.
- التشريع: الذي ينتظم به المجتمع، وتسعد به الإنسانية، وجاء الدين هاديًا للعقل في هذه المسائل بالذات؛ لأن العقل إذا بحث فيها مستقلاً بنفسه فإنه لا يصل فيها إلى نتيجة يتفق عليها الجميع.

ومعنى ذلك أنه لو ترك الناس وعقولهم في هذه المسائل فإنهم يفرقون فرقاً عديدة ويتنازعون، ولا ينتهي الأمر بهم إلى الوحدة والانسجام، ولا إلى الهدوء والطمأنينة.

وجاء القرآن يفهمه العقل في المحكم منه ولا يتناقض العقل في المتشابه منه، ذلك أن القرآن الكريم منه: ﴿ءَايَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ (آل عمران: ٧)، وقد أراد الإسلام من المسلم أن يستمسك بالمحكمات استمسكاً تاماً، وأن يعتصم بها اعتصاماً كاملاً، فقال ﷺ: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (آل عمران).

وأن يسلم الأمر لله في المتشابه، اللهم إلا إذا فتح الله عليه بوساطة الإلهام الإلهي، عن شيء من أسرار هذا المتشابه الذي لا يناقض العقل، ولا يتعارض مع مبادئه.

هذا هو موقف الدين من العقل، وهو موقف ترشدنا إليه الآيات السابقة نفسها، ونأخذ منها قول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩)، في هذه الآية الكريمة يأمر الله ﷻ رسوله ﷺ أن يخبر بأن ما أتى به إنما هو الحق، وإذا كان هو الحق، فإن كل ما عداه باطل.

أما من أضرب عن ذلك صفحاً واتباع الآباء والأسلاف، لمجرد أنهم آباء وأسلاف فإن مثله كمثله البهيمة التي تسير وراء أصحابها لمجرد أنهم يقودونها، وتبّعهم لأنهم يسيرون أمامها، ومن شاء من الناس أن يؤمن بهذا الحق الذي ليس بعده إلا الباطل فليؤمن وليتبع الهدى الحق، ومن شاء منهم أن يكفر بالحق ويتبع الباطل معرضاً عن الحق البين فله ذلك، ولكن ليعلم أن الله ﷻ أعد لمن لم يتبع الإيمان: ﴿نَارًا

أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴿٢٩﴾ (الكهف: ٢٩).

والقرآن دين العقل بهذه المعاني، فهو هاد للعقل، ومرشد له وقائد، وهو يدعو إلى مبادئ يفهمها العقل في سهولة ويسر، وهو لا يناهض العقل، وعلى العقل أن يلجأ إليه في كل ما أتى به.

على أن القرآن - في حقيقة الأمر - نزل ليقود الإنسانية نحو الكمال الروحي، والمعنى الروحي لا سبيل إلى تحديده من الإنسان نفسه، وإنما تحديده موكول إلى الله سبحانه؛ إذ إن السمو الروحي قرب من الله تعالى، وكل من حاول أن يتخذ طريقاً آخر فإنما يجري وراء سراب.

والغاية والوسيلة حدّدها الله في كتابه الكريم بالأسلوب الإلهي نفسه، ومن فضل الله على المسلمين أن اللغة العربية كانت وسيلة فهم الإسلام، وما دام الأمر كذلك فليس للعقل إلا التسليم والخشوع والخضوع، أو بتعبير أدق السجود، وهو ليس سجوداً تعسفياً أو تحكيمياً، إنما هو سجود مصدره الإيمان اليقيني بأن هذا من عند الله، من هذا نتبين أن الدين هادٍ للعقل، وأن العقل يجب أن يخضع ويسجد للوحي الإلهي.

ونعود من جديد إلى المسألة التي بدأنا بها الحديث نعود من جديد إلى مسألة القرآن والعقل، سيقولون: ولكن القرآن يطالب دائماً بالتفكير والتدبر: ﴿فَاعْتَبِرُوا﴾ يتأولي الأَبْصَرَ ﴿٢﴾ (الحشر)، وقال ﷺ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ (ق: ٣٧)، وينعي على المشركين التقليد ويتهمهم في اتباعهم آباءهم،

فيتساءل: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا آبَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٠). وكثيراً ما نجد الآيات تحتّم به: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٦٨) (يسر)، و: ﴿أَفَلَا تَبْصُرُونَ﴾ (٧٢) (القصص).

والواقع أن القرآن الكريم لا يستشير الإنسان في أية قضية من القضايا التي جاء بها الوحي، ولا يحتكم الوحي إلى الإنسان باعتباره حكماً في أي مبدأ من مبادئه، ولا يطلب منه مشورة في أية قاعدة من القواعد التي شرعها، بل هذه الأوهام لا تدور بخلد المتدين أبداً.

ذلك أن الوحي نزل على أنه رسالة السماء النهائية إلى العالم، ونزل مبلغاً أن هذه الرسالة صدق كلها، حق جميعها، ليس فيها مبدأ مشكوك فيه، ولا قضية تحتّم الصدق والكذب، وليس فيها قيم زائدة، بل هي الحق الخالص، وكل ما ذكره من التفكير والنظر والتدبر إنما أراد به الاعتبار، وأراد أن يقول: تفكروا لتروا أن ذلك هو الحق، أما إذا رأيتم غير ذلك فإنما العيب في بصركم أو في بصيرتكم، إن قلوبكم رانَ عليها الإثم فضلت، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ (النساء: ٦٥).

ومن لم يسلم إلى الله بكلّيته فهو الخاسر، لكن باب التوبة مفتوح للتائبين آناء الليل وأطراف النهار، وفي كل لحظة، والناظر إلى السلف الصالح يجدهم كانوا يسلمون للنص، وتسجد له قلوبهم قبل جوارحهم، ويجعلون النص هو الحكم المهيمن.

وعن علي عليه السلام قال: رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خُفِّه، ولو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخفِّ

أولى بالمسح من أعلاه" (١).

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
"إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شِقِّكَ الأيمن، ثم قل: اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، فإن ميتاً من ليلتك فأنت على الفطرة، واجعلهن آخر ما تتكلم به"، قال: فرددتها على النبي ﷺ، فلما بلغت "اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت" قلت: ورسولك، قال: "لا، ونيبك الذي أرسلت" (٢).

إن الصحابي الجليل قال: "ورسولك" بدلاً من "ونبيك"، فصحح له رسول الله ﷺ وقال: "لا، ونيبك الذي أرسلت"، مع أن "رسولك" تشمل النبوة والرسالة معاً، وهذا دليل على أننا لا نحكم بالعقل، بل بالدليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ بِقَدَرٍ ۖ﴾ (القمر)، وقال ﷺ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ (البقرة: ٣١).

إن العلم الصحيح الصادق في علم الهداية الإلهية

١. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطهارة، باب كيف المسح (١٦٢)، والدارقطني في سننه، كتاب الطهارة، باب ما في المسح على الخفين من غير توقيت (٤)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٧).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب فضل من بات على الوضوء (٢٤٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٧٠٥٧).

والترية الربانية إنما هو من الله سبحانه، وكل ابتعاد عنه أو خروج عليه أو تغيير فيه إنما هو ضلال، وما من شك في أن الإنسان منذ أن وُجد على ظهر الأرض يحاول أن ينزع نزعة بشرية بحتة ويتصرف في الوحي الإلهي نقصاً وزيادة، وبتراً وإضافة، وتقديراً وتبديلاً.

فيقول مثلاً: إن الحكمة من تحريم الخمر إنما هي المفساد التي تنشأ من الشخص الشارب، فإذا ما انتفت تلك المفساد فلا مانع من شرب الخمر.

ويقول مثلاً: إن التكاليف الدينية إنما جاءت لإصلاح الضمير، فإذا كان الضمير صالحاً فلا لزوم للتكاليف الدينية، وأعمال العبادة إنما هدفها القرب من الله، فإذا حصل القرب - مثلاً - فلا حاجة إليها، وهكذا يربح الإنسان بأهوائه، ولا نقول بعقله؛ لأن له أهواء يصورها الشيطان منطقاً معقولاً، كما خرج إبليس قديماً - بأهوائه التي تمثلت لذهنه منطقاً - عن الدين.

والإمام الغزالي يُمثل لذلك بمثال مُعَبَّرٍ، فيذكر قصة رجل بنى لابنه قصرًا على رأس جبل، ووضع فيه حشيشًا طيب الرائحة، وأوصاه بالألا يُجْلِي القصر من هذا الحشيش أبدًا، لكن الولد فهم أن الحشيش للرائحة، فنزع الحشيش، فإذا بحية هائلة أتت وضربت ضربته أشرف منها على الموت، فتنبّه حيث لم ينفعه التنبّه أن حفظ الحشيش حكمته طيب الرائحة، وهو الظاهر، والحكمة الخفية إزالة المهلكات ودفعها عن القصر، فاعتبر الولد بما عنده من العلم العقلي ولم يدرك المعقول كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَبْلَعُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ (النجم: ٣٠).

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِأَلْبَيِّنَاتٍ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ﴾

يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ (غافر)، والمغرور من اغترَّ بعقله فظن أن ما هو متف عن علمه فهو متف في نفسه، فإن الإنسان إنما وسيلته أن تُفَيِّدَهُ الملل بالوحي ما شأنه ألا يدركه بعقله، وما يخور عقله عنه، وإلا فلا معنى للوحي ولا فائدة إذا كان إنما يفيد الإنسان ما كان يعلمه.

فإن الإنسان وإن بلغ نهاية الكمال في الإنسانية، فإن منزلته عند ذوي العقول الإلهية - التي استنارت بالوحي وسمت بالمبادئ الإلهية - كمثل الصبي والحدث^(١) والعرج^(٢) عند الإنسان الكامل.

كذلك الإنسان الكامل الإنسانية، لا يمتنع من أن يستنكر أشياء ويخيل إليه أنها غير ممكنة، من غير أن تكون في الحقيقة كذلك.

يشرح أبو سليمان المنطقي كل ذلك بدقة وفي أسلوب جميل فيقول: "إن الشريعة مأخوذة عن الله ﷻ بواسطة السفير بينه وبين الخلق من طريق الوحي، وباب المناجاة، وشهادة الآيات، وظهور المعجزات، وفي أثنائها ما لا سبيل إلى البحث عنه والغوص فيه، ولا بد من التسليم المدعو إليه والمنسب عليه، وهناك يسقط "لِمَ"، ويبطل "كيف"، وتذهب "لو" و"ليت" في الريح، ولو كان العقل يكتفى به لم يكن للوحي فائدة.

على أن منازل الناس متفاوتة في العقل وأنصبتهم مختلفة فيه، فلو كنا نستغني عن الوحي بالعقل، كيف كنا نصنع وليس العقل بأسره لواحد منا؟ فإنما هو

١. الحدث: صغير السن.

٢. العرج: الذي لا خبرة له.

لجميع الناس، ولو استقل إنسان واحد بعقله في جميع حالاته في دينه ودنياه لاستقل أيضًا بقوته في جميع حاجاته في دينه ودنياه، ولكان وحده يفي بجميع الصناعات والمعارف، وكان لا يحتاج إلى آخر من نوعه وجنسه، وهذا قول مردود ورأي مخدول.

فإذا كانت منازل الناس متفاوتة في العقل، وأنصبتهم مختلفة فيه، فمعنى ذلك أن هذا الذي يروق لشخص عقليًا ربما لا يروق لغيره عقليًا، ويجب من أجل ذلك ألا يتدخل العقل في الدين، وإلا اختلف الناس باختلاف عقولهم وأدعى كل أن ما هو عليه هو الحق وما عليه غيره هو الباطل، ونتج عن ذلك اتباع كل أهواءه، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ﴾ (الجن: ٢٣)، فتفرق الأمة وتخرج على ما أحبه الله تعالى وأمر به حين قال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران: ١٠٣) [®].

وإذا تساءلت الآن: ما هو إذا موقف العقل من الدين، وموقف الدين من العقل؟ فإننا نجمل الموضوع في النقاط الآتية:

نزل الدين هاديًا للعقل في جميع الأمور التي لو ترك العقل وشأنه فيها ضل السبيل، وعجز عن الوصول إلى الحقيقة، وهذه الأمور هي:

• العقائد.

• المبادئ الأخلاقية إجمالاً وتفصيلاً.

[®] في "خفاء العلة لا يعني انتفاء الحكمة" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الرابعة عشرة، من الجزء الخامس عشر (السياسة الجزائية). وفي "وجوب التسليم بحكمة التعاليم الشرعية" طالع: الوجه الخامس، من الشبهة الثالثة، من الجزء الثالث عشر (العبادات والمعاملات الاقتصادية).

• التشريع في قواعده العامة، وفي بعض تفصيلاته، وقواعده العامة التي تتضمن الجزئيات على مر الزمن، وعلى اختلاف البيئات.

أما الطبيعة والكون من سمائه إلى أرضه... إلخ فقد تركه الله ﷻ للإنسان يدرسه في مصنعه ومعمله بآلاته وأدواته، وحثه على أن يجول في ذلك ما استطاع إليه سبيلاً، حتى يكشف سنن الله الكونية ونواميس الطبيعة، ويرى صنع الله الذي أتقن كل شيء، ولم يحجر الدين على الإنسان في هذا المجال، اللهم إلا الواجب الذي ينبغي أن يكون شعاره دائماً، وهو أن يكون هدفه من كل ذلك الخير^(١).

وقد ظهر هذا التحديد لدور العقل في كلام الأصوليين المسلمين عن الأحكام وأدلتها، فإنهم قَسَموها إلى ثلاثة أقسام ارتفع العقل في بعضها إلى أن يكون أصلاً لبعض كبريات المسائل الدينية:

القسم الأول: ما لا يمكن إثباته إلا بالدليل العقلي القطعي، مثل وجود الله تعالى وصدق الرسول ﷺ في دعوته إلى الإيمان، فهذان الحُكْمَان لا يمكن إثباتهما بالدليل النقلي من غير دليل عقلي؛ لأن الأدلة النقلية من نصوص الشارع لا تثبت إلا بعد العلم بوجود الله وصدق الرسول، فيكون النقلي متوقفاً عليهما.

فهذه أحكام شرعية، وإن كان طريق إثباتها العقل؛ لأن الشارع هو الذي أرشدنا إلى الاستدلال على هذه الأحكام بالعقل، ومدركات العقل لا يعتد بها إلا إذا صادق عليها الشرع تمييزاً للحقائق عن الأوهام، فمثل

هذا عقلي لا هتداء العقل إليه وثبوت به، وشرعي من جهة الاعتداد به وإرشاد الشارع إليه.

القسم الثاني: ما لا يمكن إثباته إلا بالنقل، وهو المغيبات كالأحكام المتعلقة بتفاصيل الحياة الآخرة.

القسم الثالث: ما يثبت بكل من العقل والنقل، مثل الحكم بأنه ﷻ عالم وسميع وبصير، ونحو ذلك مما وصف به ﷻ نفسه في القرآن المجيد، ووصفه به الرسول ﷺ في السنة.

والأدلة الشرعية لا تنافي قضايا العقول، ودلل الشاطبي لذلك من عدة وجوه، أهمها^(٢):

• أنها لو ناقضتها لم تكن أدلة للعباد على حكم شرعي ولا غيره، لكنها أدلة باتفاق العقلاء فدل على أنها جارية على قضايا العقول.

• أنها لو نافتها لكان التكليف بمقتضاها تكليفاً لا يطاق، وذلك من جهة التكليف بتصديق ما لا يصدق العقل ولا يتصوره.

• أن مورد التكليف هو العقل، وذلك ثابت قطعاً بالاستقراء التام حتى إذا فُقد ارتفع التكليف رأساً، وعُدَّ فاقده كالبهيمة المهملة، وهذا واضح في اعتبار تصديق العقل بالأدلة في لزوم التكليف.

فلو جاءت على خلاف ما يقتضيه لكان لزوم التكليف على العاقل أشد من لزومه على المعتوه والصبي والنائم؛ إذ لا عقل لهؤلاء يصدق أو لا يصدق، بخلاف العاقل الذي يأتيه ما لا يمكن تصديقه به، ولما كان التكليف ساقطاً عن هؤلاء لزم أن يكون

٢. الموافقات، الشاطبي، تحقيق: عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ١٩٩٦م، ج ٣، ص ١٥.

١. الإسلام والعقل، د. عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص ١٧: ٣٠.

الشبهة الثالثة عشرة

ادعاء التناقض في العقيدة الإسلامية(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين في عقيدة التوحيد لدى المسلمين أنها عقيدة متناقضة عسيرة الفهم، مستدلين على ذلك بعدم قدرتهم على إدراك دعوة القرآن لتوحيد إله واحد بصورة واضحة مقنعة.

وجهاً لبطل الشبهة:

(١) إذا كان مذهب التوحيد في الإسلام - على وضوحه ويسره - صعباً فهل من المعقول قبول فكرة الأقانيم الثلاثة عقيدة توحيد، على صعوبتها ومخالفتها للعقل والمنطق؟!

(٢) ليس معنى عدم قدرتهم على إدراك دعوة القرآن لتوحيد إله واحد، أن عقيدة التوحيد بها نوع من الغموض والتناقض.

التفصيل:

أولاً. التوحيد الإسلامي هو التصور الواضح للألوهية، بعكس توحيد الديانات المحرفة الأخرى:

إن المتأمل في عقيدة التوحيد - عقيدة المسلمين - يجدها عقيدة ناصعة الوضوح لا يشوبها أي غموض أو تعقيد، يفهمها كل إنسان دون عناء مهما قلَّ حظه من العلم، فهي بكل بساطة تعني أن الله هو إله الكون، وهو واحد لا شريك له، وأنه ﷻ رب كل شيء

ساقطاً عن العقلاء أيضاً، وذلك مُنافٍ لوضع الشريعة فكان ما يؤدي إليه باطلاً.

واعلم أنه لا حاكم سوى الله تعالى، ولا حكم إلا ما حكم به جل شأنه، ويرى الشيعة أن العقل دليل من أدلة الأحكام وأصل من أصولها ومصدر شرعي من مصادرها، غير أنهم قالوا: شرط عمل العقل ألا يكون حكم عن الله في المسألة بأي طريق من طرق معرفة حكم الله، فلا يكون طريق من الكتاب الكريم ولا من قول أو فعل للنبي ﷺ[®].

الخلاصة:

• الإسلام دعا إلى استعمال العقل والتفكير؛ لأنه لا يتناقض مع قضايا العقول، وهذا مصدر قوته ودليل صحته؛ إذ التصورات الدينية الضعيفة والمضطربة وحدها هي التي تهرب من العقل، وترفض التفكير، كما في الديانات المحرفة.

• الإسلام حين يقدر العقل البشري فهو يكرم الإنسان ويحرره من رقِّ الكهنوت وأصحاب القداسة الذين استعبدوا أتباع الديانات الأخرى، ونصبوا أنفسهم وسائط بين الله وعباده.

• الإسلام جاء هادياً للعقل؛ فقضايا العقول السليمة توافق أحكامه وعقائده، وحين يخاطب العقل لا ليحكمه في الدين، بل ليرى الحق ويستدل عليه.



® في "حرص الإسلام على الاتباع فيما فوق العقل" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الحادية عشرة، من هذا الجزء. وفي "محدودية الإدراك العقلي" طالع: الوجه الخامس، من الشبهة الرابعة والعشرين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

(*) التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، محمد الغزالي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥ م.

تشير إلى أن هذا الإله يمكن أن يعجز عن أمور الخلق أو التدبير أو الرزق أو الإحياء أو الإماتة أو البعث أو الجزاء؟

تلك الأمور وغيرها يعرضها القرآن عرضاً مؤثراً ينتهي باقتناع الوجدان وإدراكه لحقيقة الألوهية؛ ومن ثم وجوب الإتيان بالله الواحد دون شريك، فيخاطب العقل بذلك حتى يسلم بأن لهذا الكون خالقاً واحداً لا شريك له، وإلا واجه هذا السؤال الوارد في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (الطور)، وهو سؤال مُسَكَّتٌ مُلْجَمٌ يتحدّى كل منكر، وبهذا يسلم العقل البشري بضرورة وجود إله عظيم خالق هو الذي يقوم على تدبير شئونه، ولكن القرآن لا يكتفي بهذا بالتذكير المصحوب بالتقريع، بل يمضي مع العقل البشري خطوة أخرى في المناقشة ليعرض أمامه - ببساطة يفهمها كل إنسان - هذه الحقيقة ليتدبرها:

لنفترض - جدلاً - أنه كان مع الله تعالى آلهة أخرى، فكيف يكون الموقف؟! كيف تنتظم دورة الفلك التي ينشئها إلهان مختلفان، ويشرف على شئونها أكثر من إله؟

هل يمكن أن تنتظم إذا تعددت الإرادة التي تهيمن عليها والسلطان الذي يسيرها؟ ألا يحدث - مثلاً - أن إلهاً واحداً من الآلهة يريد الشمس أن تشرق من المشرق والآخر يريد أن تشرق من المغرب، فكيف يصير الأمر؟ يجيب القرآن في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء)، وما دام هذا الفساد غير حادث والكون

ومليكه، ولا رب غيره، وهو الخالق المدبر الذي يعطي ويمنع، ويحيي ويميت، لا يشاركه أحد في فعله سبحانه، كما أنه ﷻ موصوف بصفات الكمال، منعوت بنعوت الجلال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى)، ولذلك فهو المعبود الحق المستحق للعبادة ولا معبود بحق غيره.

فهل في هذا الاعتقاد أي شيء من الغموض أو التعقيد؟ إن هذا هو ما يستشعره الإنسان بوجدانه وتنسجم معه نفسه؛ لأنه مركوز في فطرته، مجبول في طبعه، فالفطرة تتجه إلى الله تعالى، عالمة بوجوده، مؤمنة بأنه إله واحد لا شريك له.

لذلك كان عرض هذه الحقيقة في آيات القرآن وأحاديث السنة عرضاً سهلاً - يفهمه كل إنسان - بعيداً عن التعقيدات المنطقية والبراهين الفلسفية النظرية العقيمة، فنرى القرآن يحث الإنسان على إعمال العقل؛ لكي يتفكر في آيات الله الماثلة في تضاعيف الكون^(١) ويتدبر في خبايا النفس البشرية ذاتها؛ ليوصله إلى حقيقة الألوهية، ويذكره بما هو مركوز في فطرته، ومن هذه الأسئلة:

- هل يمكن أن يوجد هذا الكون الهائل بغير إله؟
- هل يمكن أن يدبر شئون هذا الكون الضخم إلا إله قادر عليم حكيم؟
- هل يمكن أن يكون لهذا الإله شريك في الملك أو شريك في التدبير؟
- هل آيات القدرة الماثلة في تضاعيف الكون

منضبط في حركته كما نزل، فقد انتفى - إذًا - وجود آلهة غير الله تعالى.

وفي سورة المؤمنون يعرض هذا الأمر من الجهة الأخرى، من جهة الآلهة ذاتها - لو أنهم أكثر من إله واحد - وما كان يجب أن يحدث بينهم من صراع ونزاع: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (المؤمنون) كل منهم يحاول أن يسيطر وأن تكون له الكلمة وحده فيحدث النزاع، وبهذا يبطل مذهب تعدد الآلهة فإذا ثبت أنه لا بد للكون من إله واحد يدبر أمره، فإن القرآن يُجّاجج العقل متسائلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (النمل: ٥٩)، ﴿أَأَلَهُمْ مَعَ اللَّهِ﴾ (النمل: ٦٠) والقرآن بهذا الحوار وبهذه المحاجة يخاطب العقل ويحيطه بمواجهة صريحة وحاسمة تعود به إلى التسليم المطلق، والشهادة اليقينية بأنه لا إله مع الله، وهذه هي عقيدة التوحيد التي يدعو إليها الإسلام وهي لا تحالف عقلاً مفكراً، ولا نظرة سليمة، ولا منطقاً صحيحاً.

ولا وجه للموازنة بين هذه العقيدة وما تخوض فيه ديانات أخرى كالنصرانية التي تثبت الآب والابن وروح القدس، وهم ثلاثة على أنهم يمثلون رباً واحداً في الفكرة النصرانية، وهذه هي المعضلة الكبيرة التي لم يفلح النصارى أنفسهم في إثباتها إلا بأمثلة شاردة لا تطابق ما يمثلون له.

وليس اليهود بأحسن حالاً منهم؛ فقد افترضوا على الله، بسوء أدبهم المعتاد، كما افترضوا على أنبيائه بالقتل والسب أيضاً، فقد قالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ (المائدة: ٦٤)،

وافترضوا على أنبياء الله، فقالوا: إن سيدنا لوط زنا بابنتيه، وإن سيدنا إبراهيم ديوث لا يغار على عرضه وقد صوروه كاذباً، وسيدنا موسى جعلوه قاتلاً، وزعموا أنه قتل أخاه هارون عليه السلام... إلخ، فهل عقيدتهم تلك التي لا تصلح أن تكون عقيدة أصلاً تُعد أسهل تناولاً من عقيدة الإسلام الشفافة، التي ارتضاها الله تعالى لعباده؛ كي تكون رسالة خاتمة صالحة للبشرية في كل مكان زمان؟!!

وعلى ذلك فمن سمات الفكر الغربي التخبط في معرفة الألوهية، فليست فكرة صافية تقدر الله حق قدره، وإنما تحيط بها الأوهام والجهالات، بل الحق أن الغرب - كما يظهر من تاريخه - لم يعرف الله تعالى معرفة صحيحة، ولم يهتد إلى الإيمان الصحيح بخالق الكون ومدبره؛ ذلك لأنه لم يعرف النبوة الهادية والوحي المعصوم معرفة مباشرة.

وقال عليه السلام ذمًا لعقائدهم الفاسدة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِيْ إِبْرَاهِيْمَ اْعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (المائدة)، فقد حكم الله تعالى عليهم بالكفر، وهم فِرَق النصارى من: المالكية، واليعقوبية، والنسطورية، ممن قال منهم بأن المسيح هو الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، وقد تقدم إليهم المسيح بأنه عبد الله ورسوله، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهدي هي: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (مريم).

لم يقل: أنا الله، أو ابن الله... وكذلك قال لهم في

لُبِّ، لا تحتل تناقضاً أو غموضاً، بل تتخذ منهجاً سيراً في الوصول إلى الله.

ثانياً. آيات القرآن الكريم واضحة في بيان العقيدة الصحيحة. فلا لبس فيها ولا غموض:

لا يوجد تناقض بين آيات القرآن بعامة، وآيات العقيدة بصفة خاصة؛ فالله تعالى متفرد بأفعاله وهو وحده الخالق لكل المخلوقات: ﴿اللَّهُ خَلَقُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الزمر: ٦٢)، وهو الرازق لجميع الدواب والادميين وغيرهم: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (هود: ٦)، وهو مالك الملك والمدير لشئون العالم كله، يُؤَلِّي وَيَعْرِل، وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ، وَيُحْيِي وَيُمِيت، وَيُصَرِّفُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، ويقدر على كل شيء: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٦٦) ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٧٧) (آل عمران).

وقد نفى الله ﷻ أن يكون له شريك في الملك، أو معين له في الخلق والرزق، فقال الله تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (لقمان)، وقال تعالى: ﴿أَمَنْ هَذَا الَّذِي يَزُفُّكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ (الملك: ٢١).

كما أعلن انفراده بالربوبية على جميع خلقه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة). وقد علمنا أن أشهر من عُرِفَ تجاهله وتجاهره بإنكار الرب، هو فرعون،

حال كهولته^(١) ونبوته، أمراً لهم بعبادة الله تبارك وتعالى ربه وربهم أجمعين: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لِي سَرِيحٌ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٧٢) (المائدة)، أي: من يعبد مع الله تبارك وتعالى غيره، فقد حَرَّمَ الله تعالى عليه الجنة وأوجب له النار وذلك جزاء شركه.

وجاء أن رسول الله ﷺ قال: "إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة"^(٢)، وفي رواية أخرى "مؤمنة"^(٣)، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ (النساء: ٤٨)؛ أي: أن يشرك به في عبادته سبحانه، أو فيما يختص به من الصفات والأفعال؛ كنسبة علم الغيب وإحياء الموتى بالذات إلى عيسى عليه السلام.

ولكن طاشت عقولهم وعميت عن الصواب، فقد صدق الرسول ﷺ حين قال: "حبك الشيء يُعمي ويَصِم"؛ أي: إن تمسكهم بالباطل أعماهم عن قبول الحق؛ لذا فعقيدة القرآن الكريم واضحة جلية لكل ذي

١. الكهولة: سن الإنسان ما بين الثلاثين والخمسين، أو مرحلة العمر بين الفتوة والشيوخوخة.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب إن الله يُؤيد الدين بالرجل الفاجر (٢٨٩٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب غلط تحريم قتل الإنسان نفسه (٣١٩).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة عليه السلام (٧٩٦٤)، والنسائي في المجتبى، كتاب مناسك الحج، باب قوله ﷺ: ﴿حُدُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (الأعراف: ٣١) (٢٩٥٨)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (١١٠١).

وقد كان مستعيناً به في الباطن كما قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرَ﴾ (الإسراء: ١٠٢)، وقال ﷺ عن قومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (النمل: ١٤)، حتى إن منكري الرب من الشيوعيين إنما ينكرونه في الظاهر مكابرة، وإلا فهم في الباطن لا بد أن يعترفوا أنه ما من موجود إلا وله مُوجد، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ (٢٥) أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (الطور).

ولم يقف القرآن عند إثبات وجود الخالق، ولكنه رد على التصورات الباطلة والمزاعم الخاطئة كما يلي:

• رد على عبدة الأصنام بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ (النجم)، وقال تعالى: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَذَابَيْنِ﴾ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ (الشعراء). فقد وافقوا على أن هذه الأصنام لا تسمع الدعاء، ولا تنفع ولا تضر، وإنما عبدوها تقليداً لأبائهم، والتقليد حجة باطلة.

• وردَّ على عبدة الكواكب والنجوم والشمس والقمر فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجْمُ مُسْحَرَاتٌ بِأَمْرِ ۖ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۚ بَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٥٤)﴾ (الأعراف)، وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾

١. عقيدة التوحيد، د. صالح بن فوزان، مؤسسة الحرمين الخيرية، الرياض، د. ت، ص ١٨.

لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (فصلت).

• وردَّ على من عبد الملائكة، والمسيح ﷺ على أنه ولد الله تعالى، بقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ (المؤمنون: ٩١)، وبقوله تعالى: ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ (الأنعام: ١٠١)، وبقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ (الإخلاص).

عقيدة التوحيد سهلة يسيرة تتفق مع الفطرة السوية والعقل الصريح:

إن جميع الكون، بسائه وأرضه، وأفلاكه وكواكبه، ودوابه وشجره، وبره وبحره، وملائكته وجنّه وإنسه كله خاضع لله، مطيع لأمره الكوني، قال تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ (آل عمران: ٨٣)، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ (الحج: ١٨).

فكل هذه الكائنات والعوالم منقادة لله تعالى خاضعة لسلطانه، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (١١)﴾ (الإسراء). فالجميع مقرون بالخالق بفطرتهم. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وهم خاضعون مستسلمون - تماماً - قانتون مضطرون من وجوه؛ منها: علمهم بحاجتهم وضرورتهم إليه.

® في "طريقة القرآن في إثبات الألوهية والوحدانية" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية والعشرين، من هذا الجزء.

وجاء منهج القرآن الكريم في عرض مسائل العقيدة منسجماً مع الفطرة المستقيمة وقد سلف فيها الذكر. قال تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ أَلَيْسَ الْفَيْسُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم).

فالإنسان يهتف باسم الله ويلوذ بجناحه إذا غلقت في وجهه الأبواب وتقطعت دونه الأسباب، كما اتَّسم المنهج القرآني بالوضوح التام في عرض قضايا العقيدة والإيمان، فالله واحد أحد لم يتخذ صاحبة ولا ولد، لا شريك له في ملكه، الكل يحتاج إليه، وهو غني عنهم جميعاً، ليس كمثل شيء وهو السميع البصير. والعالم حادث^(١) لا بد له من مُحدث: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (الطور)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ (الحج: ٧٣)، انتظام أمر العالم كله وإحكامه أدل دليل على أن مدبره إله واحد، ورب واحد لا شريك له ولا ند ولا منازع: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (المؤمنون).

أما الملائكة فعباد الله المكرمون، كلفهم بأدوار محدودة، والرسل - عليهم السلام - بشر اصطفاهم الله تعالى واجتباهم لحمل رسالته إلى خلقه، فكان التكليف والابتلاء بالتشريع والأمر والنهي، فمن أحسن في الدنيا كوفئ في الآخرة بالنعيم والرضوان، ومن عاند وجحد وعصى وظلم كوفئ بما يستحقه من عذاب

ومنها: خضوعهم واستسلامهم لما يجري عليهم من أقداره، ومشيتته. ومنها: دعاؤهم إياه عند الاضطرار.

إذن فهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به، أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات، كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم: ﴿قَالَتْ رَسُولُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (إبراهيم: ١٠).

تأمل العالم كله، علويّه وسفليّه، تجده شاهداً بإثبات صانعه وفاطره ومليكه، فإنكار صانعه وجحده في العقول والفطر بمنزلة إنكار العلم وجحده، لا فرق بينهما. ومن كان بهذه المثابة فقد ألغى عقله، ودعا الناس إلى السخرية منه، قال الشاعر:

فَوَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهَ

أَمْ كَيْفَ يَخْجَدُ الْجَاهِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ

تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

وقد سلك القرآن منهجاً متوازناً في تناول قضايا العقيدة، فخاطب في الإنسان عقله وقلبه وضميره وفطرته، فهو تارة يثير الوجدان بأساليب متنوعة، وتارة يبهر العقل بالأدلة الواقعة القاطعة التي تأخذ بيده نحو الإيمان، فهذه جولة في الآيات الكونية وتلك أخرى في النفس الإنسانية، وثالثة في التاريخ وسننه وقوانينه وعبره، ورابعة في مشاهد من القيامة والدار الآخرة تهز الوجدان وتضع النفس الإنسانية مجردة أمام حقائق الغيب ومكنوناته، وخاضعة أمام الجلال الإلهي والعظمة القدسية بصفات الكمال والجلال والجمال التي لا يملك المتلقي لها سوى الاعتراف والتسليم.

١. الحادث: الحدوث نقيض القدم، ومعنى حادث: مخلوق.

أليم.. وهكذا تبدو أمور العقيدة الإسلامية سهلة بسيطة دون تعقيد أو استغراق أو انحراف: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) (الزلزلة)، وجاءت العقيدة الإسلامية متناسبة مع مقتضيات العقل السليم التي تبحث عن معاني الوحدة وراء التنوع والكثرة، وتعمد إرجاع الأشياء المتفرقة دومًا إلى سبب واحد، فلا يقال في الإسلام "اعتقد وأنت أعمى"، بل يقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُعْطِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٨) (المؤمنون).

الخلاصة:

- عقيدة التوحيد عند المسلمين سهلة واضحة لكل ذي لب؛ لأن الإنسان بفطرته يميل إلى تقديس إله واحد معبود بحق، هو الخالق والرازق، وهو على كل شيء قدير، وهذا ما دعت إليه الفِطْر السوية، وإن ادّعى غير ذلك المنكرون.

- عقيدة التوحيد عقيدة صافية لا غموض فيها ولا تعقيد، كالذي نجده في عقيدة التثليث عند النصارى مثلاً، هذه التي لا يفهمها حتى أهلها، وهكذا الحال في الديانات الأخرى أيضًا، وقد أبطل القرآن مزاعم أهلها، ورد على افتراءاتهم وأباطيلهم، بما يثبت أن خالق الكون إله واحد سبحانه الله عما يشركون.

- تناول القرآن لعقيدة التوحيد لا يخفى على من له قلب أو ألقى السمع، فلا تناقض ولا غموض، بل يتخذ منهجًا يسيرًا في الوصول إلى خالق الكون، وهذا المنهج يناسب الفِطْر السليمة والعقول الواعية، وسور

القرآن كلها تتحدث عن الألوهية، وترسيخ عقيدة الإيمان بالله مكيها ومدنيها، بما ينفي زعمهم بوجود تناقض أو خلل، وبما يوحي أن تناول العقيدة - أولًا - كان دافعه هداية الناس، ثم تقويمهم في المرحلة التالية بمجيء الأحكام والتشريعات التي تنظم حياة الناس، وعلى ذلك فالإنسان يفتقر بطبعه إلى مدبر الكون وخالقه ورازقه، ويلجأ إليه حين تُغلق الأبواب، وتنقطع الأسباب. أليس هذا اعترافًا بوحداية الله تبارك وتعالى وإقرارًا باستحقاقه - وحده - العبادة والتوحيد.



الشبهة الرابعة عشرة

ادعاء جفاء العبادات في الإسلام ونفي الروحانية عنها (*) (٨)

مضمون الشبهة:

يدّعي بعض الواهمين أن العلاقة بين العبد وربّه في الإسلام تقوم على الإذلال والخضوع، لا على المحبة والسلام كما هي في الأديان الأخرى، كما يزعمون أن رسالة الإسلام تنحصر فقط في تحرير الإنسان من عبودية البشر إلى عبودية الله، وهذا في ظنهم إخضاع المسلم لعبودية كهنة النصوص.

(*) العبادة في الإسلام، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢٤٦، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م.

(٨) في "نفي الروحانية عن العبادة في الإسلام" طالع: الشبهة الثانية والثلاثين، من الجزء الثالث عشر (العبادات والمعاملات الاقتصادية).

وجوه إبطال الشبهة:

- (١) العبودية لله في الإسلام هي غاية الوجود الإنساني، وهي هداية كلية تشمل كل جوانب الحياة.
- (٢) علاقة الإنسان بربه في الإسلام أسمى وأجل وأقرب علاقة روحية، فليس لدى القلوب السليمة أحلى ولا أطيب من محبة الله ﷻ.
- (٣) استغلال السلطة الدينية أو ما يطلق عليه "عبودية كهنة النصوص" ليس من الإسلام في شيء، ومن يأخذ بهذا من المسلمين فهو يمثل نفسه فقط لا الأمة، ولا الدين.

التفصيل:

أولاً. العبودية لله في الإسلام هي غاية الوجود الإنساني:

إنَّ الغاية من خلق البشر هي أن يفروا إلى الله تعالى بالعبادة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات).

ومعنى العبودية: الخضوع والتذلل والانقياد لله ﷻ بطاعة أو امره، وترك نواهيه، والوقوف عند حدوده تقرباً إليه سبحانه، ورغبة في ثوابه، وحذراً من غضبه وعقابه، فهذه هي العبودية الحققة، ولا تكون إلا لله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام).

إن العبودية قضية كلية تهيمن على حياة المسلم، فهو حين يسعى في الأرض لطلب الرزق يعبد الله؛ لأن ربه يأمره بذلك في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك)،

وهو حين ينام فهو ينام ليتقوى على عبادة الله تعالى، كما قال معاذ بن جبل ﷺ: "أحتسب نومتي كما أحتسب قومتي" (١).

أي: إنه يحتسب الأجر في نومه، كما يحتسب الأجر في قيامه ليل، بل إن المسلم لا يرضى إلا أن يكون تمتعه بالطعام والشراب والنكاح في ميزان حسناته كما قال رسول الله ﷺ: "وفي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صدقة"، قالوا: يا رسول الله، يأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: "أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟" قالوا: نعم، قال: "فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر" (٢).

وطريق الوصول إلى هذه المرتبة العظيمة أن يستحضر العبد ذكر ربه، وهو يعمل في شتى مجالات الحياة، فيسأل نفسه هل هو في الموضع الذي يرضى ربه عنه أم يسخط عليه؟ فإذا كان في موضع الرضا فليحمد الله، وليزدد من الخير، وإن كان على غير ذلك فليستغفر الله، وليتب إليه سبحانه، كما هو حال عباد الله المتقين الذين وصفهم الله تبارك تعالی بقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران).

وهكذا كانت العبادة في حس سلفنا الصالح من الصحابة ومن بعدهم، فلم يحصروها قط في إطار

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما إلى اليمن (٤٠٨٦).
٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (٢٣٧٦).

الشعائر التعبدية بحيث تصبح اللحظات التي يقومون فيها بأداء تلك الشعائر هي وحدها لحظات العبادة، وتكون بقية حياتهم "خارج العبادة" إنما كان في حس أحدهم أن حياته كلها عبادة، وأن الشعائر إنما هي لحظات مركزة يتزود فيها الإنسان بالطاقة الإيمانية التي تعينه على أداء بقية العبادات المطلوبة منه، ولذلك كانوا يحتفون بها احتفاءً خاصاً كما يحتفي المسافر بالزاد الذي يعينه على الطريق وباللحظة التي يحصل فيها على الزاد^(١).

وهكذا كل من تعلق قلبه بشيء غير الله من أهواء نفسه، فإن حصل له رضى، وإن لم يحصل له سخط، فهو عبد ما يهواه، رقيق له، إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته، ثم بقدر ما تستعبده هذه الشهوات أو بعضها بقدر ما تضعف عبوديته لربه سبحانه، فإن استحكمت عبوديته لتلك الشهوات والأهواء حتى صدته عن الدين بالكلية فهو مشرك كافر، وإن صدته تلك الأهواء والشهوات عن بعض ما يجب عليه، أو زينت له فعل بعض ما يحرم عليه - مما لا يخرج فاعله من الدين - فقد نقص من عبوديته لربه وإيمانه به بقدر ما صد عنه.

وبهذا المفهوم الدقيق والمعنى الشامل للعبادة ندرك: أن عبادة الله هي غاية الوجود الإنساني كله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات)، ومن ثم لم ينحصر مفهوم العبادة في نطاق الشعائر التعبدية وحدها، فالشعائر التعبدية لا يمكن

- بداهة - أن تكون هي محل العبادة المطلوبة من الإنسان، فما دامت غاية الوجود الإنساني - كما تنص الآية الكريمة - محصورة في عبادة الله، فأنى يستطيع الإنسان أن يوفي العبادة المطلوبة بالشعائر التعبدية فحسب؟!

كم تستغرق الشعائر من اليوم واللييلة؟ وكم تستغرق من عمر الإنسان؟ بقية العمر؟ وبقية الطاقة؟ أين تنفق وأين تذهب؟ تنفق في العبادة أم في غيرها العبادة؟ وإن كانت في غير العبادة، فكيف تتحقق غاية الوجود الإنساني التي حصرتها الآية حصراً كاملاً في عبادة الله؟ وكيف يجوز للإنسان - من عند نفسه - أن يجعل لوجوده - أو لجزء من وجوده - غاية لم يأذن بها الله؟

ومن المعلوم - بداهة - أن كل إنسان عابد بفطرته، أي أنه مجبول على العبادة، فإما أن يكون عابداً لله وحده بلا شريك، وإما أن يكون عابداً لشيء آخر غير الله، معه أو من دونه، كلاهما سواء! وهذه العبادة هي التي يسميها الله تعالى "عبادة الشيطان"؛ لأنها استجابة لدعوة الشيطان الرجيم: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٦) وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) (يس)، ولا تستوي حياة الإنسان عابداً لله تبارك وتعالى وعابداً للشيطان: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٢) (الملك)، ﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ (الرعد: ١٦).

والشيطان يستدرج الإنسان في محاولة لإبعاده عن عبادة الله تعالى، فتارة ينجح في إبعاده إبعاداً مؤقتاً؛ كما يقع في المعصية، قال رسول الله ﷺ: "لا يزني الزاني حين

١. مفاهيم ينبغي أن تصحح، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط ٩، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م، ص ١٨٠.

لل بشرية كلها؛ لتصبح ذلك الغشاء الذي تتداعى عليه الأمم تنهشه من كل جانب كما تنهش الفريسة الذئب^(٧).

ثانياً. علاقة الإنسان بربه في الإسلام أفضل ما عُرف من علاقة بين العبد وربه في التصورات الدينية:

إنَّ المؤمن يقترب من ربه بقدر ما يكون إنساناً صالحاً نافعاً لنفسه ولغيره: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (١١٠) ﴿(الكهف)، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٦) ﴿(الأعراف).

وفي خضوع العبد لربه عزة وكرامة، فقد خلَّصه الخضوع له ﷻ من الخضوع لغيره، وحرره من المذلة لغيره، وهو خضوع لمن يستحق أن يُخضع له ويذل له، فهو خالقه وحافظه ومدبر أمره ومُسخر الكون له، وهي عبودية عطاء من الله المعبود للعبد، على عكس عبودية العباد للعباد، فالعبد يعطي خيره لسيده، ولكن عبودية العبد لربه تجعله يأخذ خير سيده، ويتعرض لعطائه، والله ﷻ يقرب عباده ليعطيهم لا ليأخذ منهم، فهو ﷻ غني عن خلقه.

قال الإمام الرازي: إن العبادة عبارة عن نهاية التعظيم، وهي لا تليق إلا بمن صدر عنه غاية الإنعام، وأعظم وجوه الإنعام: الحياة التي تفيد المكنة^(٨) من الانتفاع، وإليها الإشارة في قول الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتَك مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكْ شَيْئًا﴾ (٩) ﴿(مريم) وقوله ﷻ:

٧. مفاهيم ينبغي أن تصحح، محمد قطب، مرجع سابق، ص ١٧٣.
٨. المكنة: القدرة والاستطاعة.

يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن^(١). وتارة يبعده إبعاداً كاملاً ينقطع فيه ما بين العبد وربه، فيشرك أو يكفر أو يلحد، وعبادة الشيطان هذه تارة تكون عبادة للهوى، كما قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (٤٣) ﴿(الفرقان)، فهذا العبد الذي يأتمر بأمر هواه، فما رآه حسناً فعله، وما رآه قبيحاً تركه، فهو مطيع لهوى نفسه يتبع ما تدعوه إليه، فكأنه يعبد كما يعبد الرجل إلهه.

وتارة تكون عبادة للدرهم والدينار، كما قال ﷺ: "تَعَسَّ عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخَمِيصَة"^(٢)، "إِنْ أُعْطِيَ رِضْيِي، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعَسَّ وَانْتَكَس"^(٣)، وإذا شِئْتَ^(٤) فلا انتقش^(٥) (٦)(٥).

وحين يعقد الإنسان مقارنة بين المفهوم الشامل الواسع العميق الذي كانت الأجيال الأولى من المسلمين تفهمه من أمر العبادة، والمفهوم الهزيل الضئيل الذي تفهمه الأجيال المعاصرة، لا يستغرب كيف هوت هذه الأمة من عليائها لتصبح في هذا الحضيض الذي تعيشه اليوم، وكيف هبطت من مقام القيادة والريادة

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب النهي بغير إذن صاحبه (٢٣٤٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن التلبس بالمعصية (٢١١).

٢. الخَمِيصَة: ثوب أسود أو أحمر له أعلام.

٣. انتكس: انقلب على رأسه، وهو دعاء عليه بالخيبة؛ لأن من انتكس في أمره فقد خاب وخسر.

٤. شِئْتُ: دخل في جسمه شوكة.

٥. فلا انتقش: أي: إن دخلت فيه شوكة فلا أخرجها من موضعها، وهذا دعاء عليه أيضاً.

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٧٣).

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَنًا فَأَخْيَكُمُ﴾ (البقرة: ٢٨)، وخلق ما ينتفع به من الأشياء وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَافِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (البقرة: ٢٩).

إن الله ﷻ لا تنفعه عبادة من عبده ولا يضره إعراض من صدَّ عنه، ولا يزيد ملكه حمد الحامدين، ولا ينقصه جحود الجاحدين، فهو الغني ونحن الفقراء، وهو الودود الكريم، والبر الرحيم، الذي لا يأمرنا إلا بما فيه خيرنا وصلاحنا نحن المخلوقين، فضلاً عن حقه ﷻ في أن يفرض علينا ما يشاء، ويكلفنا ما يريد بحكم خلقه لنا وإنعامه علينا، وبحكم عبوديتنا الطبيعية له سبحانه^(١).

يضاف إلى ذلك أن العبادة غذاء الروح، ذلك الجوهر النفيس الذي صار به الإنسان إنساناً مكرماً سيداً على ما فوق الأرض من كائنات؛ فلا يجد حياته وزكاته إلا في مناجاة الله، وعبادة الله هي التي توفر لهذا الروح غذاءه ونماءه، وتمده بمدد يومي لا ينفد ولا يَغِيض^(٢)، لذا فإن القلب الإنساني دائم الشعور بالحاجة إلى الله ﷻ وهو شعور أصيل صادق لا يملأ فراغه شيء في الوجود إلا حسن الصلة برب الوجود، وهذا ما تقوم به العبادة، إذا أدت على وجهها، فالقلب فيه فقر ذاتي إلى ربه - بالفطرة - من حيث هو معبوده ومحبوه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والمتعة والسكون والطمأنينة^(٣).

١. العبادة في الإسلام، د. القرضاوي، مرجع سابق، ص ٩٥.

٢. يَغِيض: ينقص.

٣. العبادة في الإسلام، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص ٩٦، ٩٧.

قال ابن القيم: إنه لا شيء أحب إلى القلوب من خالقها وفاطرها؛ فهو إلهها ومعبودها، ووليها ومولاها، وربها ومدبرها ورازقها، وميتها ومحيتها، فمحبتة نعيم النفوس، وحياة الأرواح، وسرور النفوس، وقوت القلوب، ونور العقول، وقرة العيون، وعمارة الباطن.

فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة، والعقول الذكية أحلى ولا ألد، ولا أطيب، ولا أسر، ولا أنعم من محبته والأنس به، والشوق إلى لقائه، والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كل حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتم من كل نعيم، واللذة التي تناله أعلى من كل لذة، كما أخبر بعض الواجدین عن حاله فيقول: إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، فإنهم لفي عيش طيب، وقال آخر: إنه ليمر بالقلب أوقات يهتز فيها طرباً بأنسه بالله وحبه له، وقال آخر: مساكين أهل الغفلة! خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما بها، فقيل له: وما هو؟ قال: محبة الله والأنس به، ومثل هذا ما قاله الآخر: أطيب ما في الدنيا معرفته ومحبته، وأطيب ما في الآخرة رؤيته وسماع كلامه بلا واسطة.

وقال آخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك، ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف!

ووجدان هذه الأمور وذوقها هو بحسب قوة المحبة وضعفها، وبحسب إدراك جمال المحبوب والقرب منه، وكلما كانت المحبة أكمل، وإدراك المحبوب أتم، والقرب منه أوفر، كانت الحلاوة واللذة والسرور والنعيم أقوى.

الضيق، فتنجده وتخرجه من المآزق، وتقدم له العون عند الحاجة، هذا العجز موجود في كل نفس، ويلمسه الإنسان في نفسه، ويسمعه من غيره.

سأل رجل الإمام جعفر الصادق عن الله، فقال: ألم تتركب البحر؟ قال: بلى، قال: فهل حدث لك مرة أن هاجت بك الرياح عاصفة؟ قال: نعم، قال: فهل خطر في بالك واتضح في نفسك أن هناك من يستطيع أن ينجيك إن شاء؟ قال: نعم، قال: فذلك هو الله.

هذا الشعور النفسي بوجود المنقذ من الهلاك، والمنجي من الهم والغم، والحزن والكرب، إما أن يبقى مع الإنسان فيكون مؤمناً، وإما أن يتنكر الإنسان له ويحسد هذا الفضل، ويعرض عن ربه، فيكون كافراً وملحدًا وضالاً، وقد صور القرآن الكريم في آيات كثيرة ومواطن مختلفة هذه النماذج من النفوس:

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكَ فِي الْبَرْقِ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتَ فِي أَلْفِكَ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغِيكُم عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ (يونس)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ (الإسراء)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسَى مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (الزمر: ٨)، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَكُمُ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا

وهذا تنبئ أن الذي يذوق طعم الإيمان الحق، وتزهو في قلبه مصابيح اليقين، لا ينظر إلى العبادة على أنها مجرد خضوع أو "تنفيذ أوامر" فحسب، إنه يجد فيها تلذذاً بمناجاة الله وطاعته، والسعي في مرضاته، ويجد فيها سعادة لا تدانيها سعادة أصحاب القصور والقناطير المُقنطرة^(١) من الذهب والفضة، وقد كان النبي ﷺ ينتظر فريضة الصلاة انتظارَ الظَّمآن اللَّهْف إلى شربة الماء العذب الزلال^(٢)، ويهرع^(٣) إليها كما يهرع السائر في الصحراء إلى الواحة الخضراء.

وكان يقول لبلال - في شوق ولهفة - إذا حان وقتها: "قم يا بلال فأرحنا بالصلاة"^(٤).

وقالت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه، فلا عجب أن يقول ﷺ: "جَعَلْتُ قُرَّةَ عَيْنِي^(٥) في الصلاة"^(٦).

إن العجز في الإنسان وحاجته إلى قوة جبارة تنقذه من المهالك، وتعينه وقت الشدة، ويستغيث بها وقت

١. القناطير المُقنطرة: الكثيرة المُكدَّسة، والقناطير: جمع القنطار، وهو معيار يختلف وزنه حسب الأمكنة والأزمنة.
٢. الماء الزلال: الصافي السهل المرور في الحلق.
٣. هرع: أسرع.

٤. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، أحاديث رجال من أصحاب النبي ﷺ (٢٣٢٠٢)، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة (٤٩٨٨)، وصححه الألباني في المشكاة (١٢٥٣).

٥. قُرَّة عيني: سعادة نفسي.
٦. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك (١٢٣١٥)، والنسائي في المجتبى، كتاب عشرة النساء، باب حُب النساء (٣٩٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٢٤).

مَسْكُومَ الضَّرِّ فَإِلَيْهِ يَجْشَرُونَ ﴿٥٢﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضَّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانِسْتُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَأَلَّفَ لَشْعُنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَقْتَرُونَ ﴿٥٥﴾ (النحل).

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ أَلَدًا مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ؕ أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٣﴾ (النمل)، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُجِيبُكُمْ مَنِ ظَلُمْتِ اللَّيْلَ وَالْبَحْرَ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيِّنَ أَنجِمَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٤﴾ قُلْ اللَّهُ يُجِيبُكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿١٥﴾ (الأنعام)، هذه الآيات الكريمة تكشف هذا الإحساس النفسي الباطني عن عجز الإنسان، وتذكر بعض الصور الدقيقة التي لا مهرب منها لكل فرد من إقراره بالعجز، والتجائه إلى القوى الغيبية الخالقة المبدعة التي تتصرف بالكون، يلجأ إليها لتنقذه من المهالك، ويستنجد بها في أحلك الظروف للنجاة، ويعطي الوعود والعهود بالتوبة والإنابة والطاعة والخضوع، ثم لا يلبث أن ينسى حاله، وينقض وعده، ويتيه في غيه وضلاله إلا من رحم ربك، وأعمل عقله، واحترم نفسه، وفكر في ماضيه وحاضره ومستقبله، فهو على العهد باق، وبالعقيدة والإيمان بالله ملتزم.

يقول محمد قطب: "يحس الإنسان بالعجز إزاء الكيان الكوني من حوله، يبدأ العجز من لحظة الميلاد ويستمر إلى لحظة الموت، ولا ينقطع فيما بين الميلاد والموت، وإن كان يأخذ صورًا مختلفة من كل سن،

وكل طور من أطوار النمو الجسمي والنفسي، ويظل يكبر ويكبر معه العجز حتى يستوي على أشده، وما يزال يحس بالعجز في أكبر مجالاته، العجز عن تحقيق كل ما يريد، والعجز عن معرفة كل ما يريد معرفته، والعجز عن السيطرة على كل ما يريد السيطرة عليه" (١).

وهكذا يتضح أن المفهوم الصحيح للعبادة في الإسلام يشمل كل جوانب الحياة وأن الإنسان عابد بفطرته، فينبغي عليه ألا يخضع إلا لمن يستحق هذا الخضوع، وينأى بنفسه عن الخضوع لمن لا يملك له ضرًا ولا نفعًا، وينقي نفسه من الأهواء، وبهذا يطمئن فؤاده ويزكو عقله ويحمي روحه كما تحيا الأحياء بالماء، فكيف يدعي هؤلاء بعد ذلك أن العلاقة بين العبد وربّه علاقة خضوع ومذلة؟ إنه العجز عن الإنصاف وسوء الفهم وخبث الطوية، كما أنه حرمان من لذة العبادة ونعيمها"، ويقول د. يوسف القرضاوي: "وللمستشرقين في كل جانب من جوانب الإسلام، وفي كل فرع من فروع المعرفة الإسلامية، دعاوٍ عريضة دفع إليها أحد أمرين أو كلاهما:

الأول: سوء الفهم لدين الإسلام، ولغته التي نزل بها كتابه وجاءت بها أحاديث نبيه، وكُتبت بها مؤلفات علمائه، وهم - لعجمتهم وغربتهم عنها - لا يتذوقونها، ولا يدركون أسرار تعبيرها وتنوع دلالاتها.

الثاني: سوء النية والقصد إلى البحث عن عورات

١. وظيفة الدين في الحياة وحاجة الناس إليه، د. محمد الزحيلي، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، ط ٢، ١٤٢٨ هـ / ١٩٩٩ م، ص ٣٥ وما بعدها.

يشنعون بها، ونقاط ضعف يسوغون بها ما يعتقدونه من دعوى بشرية القرآن، وعدم صدق نبوة محمد ﷺ؛ فهم يقرءون تراثنا ويدرسونه بروح المتعصب الباحث عن المطاعن، لا بروح الباحث عن الحق.

فهم قد كَوَّنوا فكرة سابقة عن الإسلام وكتابه ونبيه ورجاله وتاريخه، وهمهم في دراسة تراث الإسلام أن يعثروا على أدلة توافق فكرتهم، فإن لم يجدوا الأدلة - كما هو الواقع - تصيدوا الشبهات، فإن أعيتهم الشبهات لَفَّقُوا من المصادر الضعيفة، والأقوال المردودة، والروايات المنكرة ما يُشَوِّشون به وَيُبْهَرُجون^(١).

ومن ذلك ما ذكره بعضهم عن عبادة المسلمين، وأنها تقوم على الخوف والخضوع وحده، ولا مجال لحب الله تعالى، وأن الله تعالى في تصور المسلمين إله قهر وجبروت.

ويزعمون أن المسلمين لم يعرفوا عنصر الحب في صلتهم بالله تعالى، إلا بعد انتشار التصوف الذي اقتبس هذا العنصر من مصادر أجنبية عن الإسلام. ولو أنصف هؤلاء ورجعوا إلى نصوص القرآن والسنة، وسيرة الرسول ﷺ وسير الصحابة رضي الله عنهم بإحسان، بل لو حلَّلوا معنى العبادة - لغة - كما فعل ابن تيمية - لكفُّوا عن هذا اللغو، وعلموا أن العبادة في الإسلام تعني: غاية الخضوع لله مع غاية الحب له.

والمتصوفة لم يستمدوا حب الله ﷻ من خارج الإسلام، وإنما التفتوا إليه ونموه وعمقوه من مصادر

١. يُبْهَرُجون: يزيِّفون.

® في "دور المستشرقين في تشويه الدعوة الإسلامية" طالع: الوجه الأول، من الشبهة التاسعة عشرة، من الجزء الخامس (النظم الحضارية).

الإسلام الأصلية: الكتاب والسنة، وما حاجة الصادقين من أهل الذوق والوجدان الروحي - الصوفي - إلى اقتباس الحب من مصدر أجنبي عن الإسلام، ونصوصه المحكمة في هذا الأمر أمام أعينهم بينة واضحة وكافية شافية؟

يكفي أن نذكر هنا ما كتبه الإمام الغزالي في بيان شواهد الشرع في حب العبد لله ﷻ في كتاب "المحبة" من "إحيائه" لنعلم من أي ينبوع استقى الصوفية المعتدلون فكرة "الحب الإلهي" قال: "اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله ﷻ ولرسوله ﷺ فرض، وكيف يفرض ما لا وجود له؟ وكيف يفسر الحب بالطاعة، والطاعة تبع الحب وثمرته؟ فلا بد أن يتقدم الحب، ثم بعد ذلك يطيع من أحب. ويدل على إثبات الحب لله ﷻ قوله ﷻ: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ (المائدة: ٥٤)، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٦٥)، وهو دليل على إثبات الحب وإثبات التفاوت فيه.

وقدر رسول الله ﷺ الحب لله شرطاً من شروط الإيمان في أخبار كثيرة، ومنها حديث: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما..."^(٢).

وفي حديث آخر: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وماله، والناس أجمعين"^(٣). وفي

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان (١٦)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (١٧٤).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان (١٥).

رواية عمر بن الخطاب: "أحب إليك من نفسك" (١).

قال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٤) (التوبة)

وإنما أجرى ذلك في معرض التهديد والإنكار. وقد أمر رسول الله ﷺ بالمحبة كما سلف في الحديث السابق.

وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: "يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: وماذا أعددت لها؟ قال: لا شيء، إلا أنني أحب الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: "أنت مع من أحببت". قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: "أنت مع من أحببت". قال أنس: فأنا أحبُّ النَّبِيَّ ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بِحُبِّي إِيَّاهُمْ، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم (٢).

فهذه هي حقيقة العبادة في الإسلام: إنها معنى مركب من عنصرين: غاية الخضوع لله تعالى، مع غاية المحبة له سبحانه.

ثالثاً. لم يعرف الإسلام - على مدى تاريخه - ظاهرة الكهنة الذين يحتكرون العلم بالله وبمراده:

قد زعموا أن الإسلام لم يحرر الإنسان من عبودية البشر تحريراً كاملاً؛ إذ أسلمهم إلى عبودية كهنة

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان والنذر، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ (٦٢٥٧)، وفي موضع آخر.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب (٣٤٨٥)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب (٦٨٧٨).

النصوص، وهذه فرية عظيمة يقدمها العلمانيون (٣) ضد الإسلام، فيها خلط للأوراق، ومجافاة للحقيقة، فهم يخلطون بين تعاليم الإسلام الواضحة في تحرير الإنسان من عبوديته للإنسان خاصة، ولغير الله ﷻ عامة، والتي يطلقون عليها وصف "عبودية كهنة النصوص".

وهي أظهر ما تكون عند رجال الدين الكنسي، مما جعل الغرب يتمرد على الكنيسة في أشكال متعددة، والعلمانيون يعلمون أن الإسلام لا يعرف الكهانة، وليس فيه أو فيها ورد من نصوصه أسرار يحتكرها رجال الدين، وليس لأحد من العباد - مهما كان سلطانه - أن يحتكر لنفسه الحق، ويفرضه على الآخرين. والقرآن الكريم خلّد ذكر المرأة التي جادلت النبي ﷺ واشتكت أمرها إلى الله بسورة سميت باسمها، وصدرت آياتها بسماع الله شكواها ومجادلتها النبي ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (١) (المجادلة).

وتطبيقات النبي ﷺ وأصحابه وخلفائه تمتلئ بهذه الروح الإسلامية التي لا تستغل النصوص للحجر على إرادة، أو رأي، أو فكر.

مميزات العبادة في الإسلام:

١. تحرير العبادة من رق الكهنوت:

لقد أفسد الناس الأديان التي أنزلها الله لتسمو بهم فهبطوا هم بها! والعجب أن فسادها كان من رجال

٣. العلماني: اسم منسوب إلى علم، على غير قياس، بمعنى: عالم، غير ديني يُعنى بشئون الدنيا فقط، ويعتقد بفصل الدين عن الدولة.

صفقة أخرى هي جهنم، فباعها له بثمن بخس^(٣)؛ لأنها سلعة لا يرغب فيها أحد، ولكن اليهودي الماكر أعلن للمسيحيين جميعاً: ألا يبالوا بشراء الجنة بعد اليوم؛ لأنه هو قد اشترى من البابا جهنم، ولن يُدخل أحداً فيها!! قالوا: فعاد البابا واشتراها بأضعاف ما باعها به!

والرؤساء الروحانيون في المسيحية يزعمون أن لهم سلطة المنح والمنع، والغفران والحرمان، والإدخال في رحمة الله والطرد منها؛ لأن المسيح قال لبعض تلاميذه: "وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السماوات. وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السماوات". (متى ١٦: ١٩).

٢. تحرير العبادة من قيود المكان:

أما الإسلام فكان له شأن آخر في تقرير الصلة بالله والعبادة له؛ فلقد حرر الإسلام العبادة من قيود الوساطة والمكان، وكل مظاهر العبودية للكهنوت، فالأرض كلها محراب كبير للمسلم، فحيثما توجه يستطيع أن يتجه بعبادته إلى الله، وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥). ويقول الرسول الكريم في بيان الخصائص التي أُعْطِيَتْهَا أُمَّتُهُ ولم تُعْطَها أمة قبلها: "وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأبيا رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل"^(٤).

٣. بخس: زهيد، ناقص القيمة.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب المساجد، باب قول النبي ﷺ: "جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً" (٤٢٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، أوائل كتاب المساجد ومواضع الصلاة (١١٩١).

الأديان أنفسهم، لقد جعلوا من أنفسهم حجاباً على باب الله الفسيح، مهمتهم أن يمنعوا الناس الاتصال المباشر به أو التقرب المباشر إليه، إنهم احتكروا لأنفسهم الصلة به والقرب منه، ووجدوها بضاعة رائجة وسلعة تشتد الحاجة إليها، فبالغوا في احتكارها وإغلاء أسعارها.

ومن ثم قيدوا العبادات بوسيط معين، يقوم بعملية السمسرة بين الله وعباده، وقيدوها بمراسم وطقوس كهنوتية لا تُقبل بدونها، وكل هذا يحتاج إلى إتاوات تبذل، وجُعالات تدفع للأجبار والكهنة المحتكرين لهذا الصنف من العلاقات!

رجال الكهنوت في العصور الوسطى:

وقد بالغ رجال الدين المسيحي بالغرب في العصور الوسطى في فرض هذه المظاهر الكهنوتية، فعلقوا في معابدهم رسوماً وتماثيل للعدراء والمسيح، وأيقونات^(١) ونحوها، وعدت الكنيسة ذلك شعائر تعبدية واجبة التقديس.

وكان أعجب ما صنعوه أنهم اتخذوا من الجنة مصدراً للثروة يبيعون منها قرايط وأسهماً لمن يدفع الثمن المعلوم، وعلى قدر المدفوع يكون عدد الأسهم، ومن الطرائف اللاذعة ما حكوا أن أحد أثرياء اليهود أراد أن يقابل هذه السخريات العجيبة بسخرية أمر وأعجب، فقد ذهب إلى أحد البابوات^(٢) ولم يشتر منه الجنة، كما كان يفعل المسيحيون، ولكنه اشترى منه

١. أيقونات: جمع أيقونة، وهي صورة أو تمثال مُصَغَّر لشخصية دينية، يقصد بها التبرُّك.

٢. البابوات: جمع البابا، وهو الرئيس الأعلى للكنيسة.

وقد كانت هذه الخُصِيصة للعبادة الإسلامية موضع الإعجاب العظيم، والتأثير البالغ من كثيرين من غير المسلمين، حتى من رجال الأديان أنفسهم، حتى قال أحدهم - وهو أسقف "لوفروا": "لا يستطيع أحد خالط المسلمين لأول مرة ألا يدهش ويتأثر بمظهر عقيدتهم، فإنك حينما كنت - سواء أوجدت في شارع مطروق، أو محطة سكة حديدية أو في حقل - كان أكثر ما تألف عينك مشاهدته أن ترى رجلاً ليس عليه أدنى مَسْحَة^(١) للرياء، ولا أقل شائبة من حب الظهور، يذر عمله الذي يشغله كائنًا ما كان، وينطلق في سكون وتواضع لأداء صلاته في وقتها المعين".

ولقد كان هذا المشهد الفريد في الأديان أحد العوامل التي أثرت في وجدان المحامي الكبير زكي عريبي عميد الطائفة اليهودية في مصر، والذي اهتدى إلى الإسلام في عام ١٩٦٠ م. ومما جاء في محاضرته "لماذا أسلمت؟" قوله: "وما سمعت المؤذن يؤذن في الفجر، أو في الظهر، أو في أي وقت آخر إلا شعرت بأن صوت المؤذن الذي ينبعث من الأفق من فوق المئذنة، شعرت بأنه صوت الله، الذي يفصل بين الحق والباطل، والحلال والحرام، ويهدي الإنسان إلى الطريق المستقيم، وأركب السيارة في السفر، وعلى الطريق بين الحقول وبين الفضاء تقع عيني على رجل متواضع يقف بين يدي الله في ثياب رَثَّة^(٢) مهلهلة، يقف على مصلى صغير، مفروش بالرقيق من الحصر على شاطئ ترعة متواضعة أيضًا.. يقف الرجل يصلي لله في خشوع

وابتهال، فكانت نفسي تهفو إلى أن أصلي مثل صلاته، كنت أعتقد أن هذه نفحات الله في الأرض يلقيها في نفوس عباده الصالحين".

حرر الإسلام العبادة من القيود المكانية المترتبة، ولم يشترط المكان الخاص في عبادة من عباداته إلا في الحج؛ لما فيه من فوائد عظيمة تفوق فائدة التحرر من المكان؛ من التجمع العالمي للمسلمين حول أول بيت وضع في الأرض للناس، وفي أرض الذكريات الإبراهيمية والذكريات المحمدية.

٣. تحرير الضمير من قيود الوساطة في العبادة:

ومع اشتراط المكان لعبادة الحج، فليس فيه أي شائبة لتأثير الكهنوت، وليس فيه أي ثغرة لتدخل الوسطاء والكهان بين المسلم وبين الله، شأنه في ذلك شأنه في سائر عبادات الإسلام.

يقول العقاد: إن عبادات الإسلام قد امتازت بين عبادات الأديان بمزية لا نظير لها، فهي أرفعها وأرقاها، بالنظر إلى حقيقتها، أو بالنظر إلى جماهير المتدينين بها، وتلك ميزته البيئة التي يرفع بها استقلال الفرد في مسائل الضمير خير رعاية تتحقق لها في نظام حياة، فالعبادات الإسلامية بأجمعها تكليف لضمير الإنسان وحده، لا يتوقف على توسط هيكل أو تقريب كهانة.

يصلي حيث أدركه موعد الصلاة، وأينما تكونوا فثم وجه الله، ويصوم ويفطر في داره أو في موطن عمله، ويحج ليذهب إلى بيت لا سلطان فيه لأصحاب سدانة، ولا حق عنده لأحد في قربانه، غير حق المساكين والمُعَوِّزِينَ^(٣)، ويذهب إلى صلاة الجماعة، فلا تنقيد

١. المَسْحَة: الأثر الظاهر.

٢. الثياب الرَثَّة: البالية.

٣. الْمُعَوِّزِينَ: جمع الْمُعْوِز، وهو الفقير.

يَمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ (الحديد).

وقد عبّر القرآن على لسان إبراهيم - أبي الأنبياء - عن العلاقة بين الإنسان والله ﷻ، فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ (٧٨) ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ (٧٩) ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (٨٠) ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ (٨١) ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٨٢) (الشعراء: ٢).

وروى المفسرون أن رجلاً جاء يسأل النبي ﷺ أقرب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فنزل القرآن يحيب عن هذا السؤال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: ١٨٦).

ومن اللطائف في هذه الآية: أن سؤال الرسول ﷺ عن بعض الأمور قد وقع في القرآن بضع عشرة مرة، وكان كل جواب عن تلك الأسئلة مقترناً بكلمة "قل"، أما في هذه الآية فكانت الإجابة مباشرة "فإني قريب" ولهذا الأسلوب دلالة وإيحاء في الأنفس والعقول؛ إذ لم يجعل الله واسطة بينه وبين عباده، وكأنه قال لرسوله: لا تبغهم أنت عني، كما تبغ في أسئلة الأحكام، ولكني أقول لهم: إني قريب. ولما رأى النبي ﷺ أصحابه يجهرون بالدعاء قال لهم: "ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ" (٣)، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، ولكن تدعون سميعاً قريباً" (٤).

٢. العبادة في الإسلام، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص ١٥٨.

٣. ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ: ارفقوا بها.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير (٢٨٣٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٧٠٣٧).

صلاته الجامعة بمراسم كهانة أو إتاوة محراب، ويؤمه في هذه الصلاة الجامعة من هو أهل للإمامة بين الحاضرين باختيارهم لساعتهم إن لم يكن معروفاً عندهم قبل ذلك، إنه الدين الذي نتعلم فيه أن الإنسان مخلوق مكلف، لا جرم تقوم عباداته على رعاية حق الضمير واستقلاله بمشيئته أكرم رعاية.

إن عقيدة المسلم في الله لا تتيح مكاناً لأولئك الوسطاء الذين يتحكمون في ضائر عباد الله (١).

فاعتقاد المسلم في الله يقوم على حقيقتين:

الأولى: الله فوق عباده: علوًّا، وقهرًا، وسلطانًا، وتصرفًا، لا يشبهه شيء قط، ولا يحكم عليه شيء قط، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ وهو الحكيم الخبير ﴿١٨﴾ (الأنعام)، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وهو السميع البصير ﴿١١﴾ (الشورى). والخلق جميعًا في قبضته لا يملكون لأنفسهم - فضلًا عن غيرهم - ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة، ولا نشورًا[®].

الثانية: الله مع عباده: أنه تعالى - مع عظمته وعلو شأنه - قريب من خلقه، بل هو معهم أينما كانوا، في جلوتهم وفي خلوتهم، يسمع، ويرى، ويرعى ويهدي، يعطي من سأله ويحيب من دعاه فهو تعالى قريب في علوه، علي في دنوه، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ

١. العبادة في الإسلام، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص ١٥٣: ١٥٧.

® في "ثبوت العلو والفوقية لله" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الحادية والعشرين، من هذا الجزء.

الزعم أن تقديس الحجر الأسود عبادة وثنية (*) (®)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أن تقديس المسلمين للكعبة (بالطواف حولها)، وتقديسهم للحجر الأسود (بتقبيله واستلامه) نوع من الوثنية وعبادة الأصنام؛ لأن الحجر الأسود - في ظنهم - كان صنماً من جملة الأصنام التي كانت في الكعبة، لكنه لم يُزل كغيره من الأصنام عام الفتح.

وبهذا التقديس - للكعبة وللحجر الأسود - تستوي عبادة المسلمين للأحجار مع عبادة الكفار الجاهليين الذين كانوا يظنون أنها تقربهم إلى الله زلفى، وقد أخذ محمد بهذه العادة حينما وضع شعائر دينه، وجعل الكعبة هي مركز هذه الشعائر عند استقبالها في كل صلاة. ويتساءلون: إذا كان الإسلام دين توحيد فلماذا أبقى على تعظيم الكعبة، والحجر الأسود، وسائر طقوس الحج ذات الأصل الوثني؟!

وجهاً لإبطال الشبهة:

(١) الشعائر التي يؤديها المسلمون في الحج هي عبادة الله ﷻ يأتونها امتثالاً لأمره، ولا يصرف أحد من المسلمين إلى الحجر أو الكعبة خوفاً أو رجاءً، فإنما

• العبادة في الإسلام اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، وهي تشمل كل مناحي الحياة، وليست الشعائر والمناسك التعبدية فقط؛ ومن ثم كانت العبادة في الإسلام غاية الوجود الإنساني كله، وصارت في وجدان المسلم بمثابة غذاء الروح، وقوت القلوب، وزكاة العقول.

• إن الإنسان عابد بفطرته، وإن خضوعه لربه يخلصه من الخضوع لغيره ويحرره من المذلة لمن لا يستحقها مما هو سوى الله؛ لذا كانت علاقة المسلم بربه علاقة الموهوب بالواهب، المنعم عليه بصاحب النعم، الفقير المحتاج بالغني الجواد، المضطر المكروب بالمنقذ من الهلاك والمنجي من السوء، فكيف يكون كُنْهُ علاقة هذه أو أصرها؟ ألا تستحق أن توصف بأنها علاقة رضا وحب ورغبة؟ وهل يعيبها أن يصحبها مع الحب والرغبة تضرع وخضوع ورهبة؟ أليس في الذل والخضوع لمن يستحقه كمال العزة وتمام الكرامة؟ أم أن الكرامة في الخضوع لمن لا يستحقه؟!

• من أجل ذلك فإن الإسلام حرر المسلم من عبوديته غير الله، فلا كهانة ولا وساطة في الإسلام، ولا استبداد أو حَجْر على إرادة أو فكر، وذلك كله ما قد عرفته ديانات أخرى، ولم يعرف تاريخ الإسلام - على طوله - منه شيئاً.



(*) قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية: نقد مطاعن ورد شبهات، د. فضل حسن عباس، دار البشير، الأردن، ط ٢، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م.

(®) في "مناسك الحج والوثنية" طالع: الوجه الرابع، من الشبهة السادسة والعشرين، من الجزء الثالث عشر (العبادات والمعاملات الاقتصادية).

ذلك لله وحده.

(٢) شرع الإسلام تقبيل الحجر الأسود لما له من منزلة عظيمة، وما يقال من أن أصله صنم جاهلي هو افتراء خالص لا يسنده شيء من حق أو علم.

التفصيل:

أولاً. شعائر الحج هي امتثال لأمر الله ﷻ لا عبادة للكعبة:

العبادة في المفهوم الإسلامي تشتمل على معنى الخضوع والذل والانقياد والطاعة، فالعبد عندما يكون عابداً لشيء ما ينبغي أن يخضع ويذل له، ويقف بين يديه ضعيفاً ذليلاً لا يملك من أمره شيئاً، فإن من يعبد شيئاً، مهما كانت طبيعته، يعتقد أن له سلطة غيبية ينعكس تأثيرها على الواقع، وبالتالي فإن العابد يتقرب إلى معبوده رجاء للنفع أو دفعاً للضرر، وهو في الوقت ذاته يعتقد أن التقصير في حق هذا المعبود، أو ترك عبادته يترتب عليه حصول الضرر ووقوعه كنوع من العقاب، فأمره مستجاب، ونهيه كذلك، بمعنى أنه يآتمر بما يأمره به، ويترك ما ينهاه عنه.

تقدير واحترام لا خضوع وتذلل:

ومما سبق من مفهوم العبادة الموجه نستطيع أن ندرك أن المسلمين لا يعبدون الكعبة، ولا الحجر الأسود، فهم لا يخضعون لها ولا يذلون، وإنما يقدرون ويحترمونها، وهم لا يتلقون شيئاً من الأوامر أو النواهي من الكعبة والحجر الأسود؛ لأنها لا يضران ولا ينفعان ولا يصدر عنهما شيء يمكن أن يكون فيه توجيه أو إرشاد، وإنما كان التقبيل والتقدير لهذا الحجر لتحقيق

متابعة الرسول ﷺ وليس له أدنى تعلق بالعبادة بحال من الأحوال، بل إن المسلمين الذين يقبلون الحجر الأسود يعتقدون أنه لا يملك الضر والنفع غير الله تعالى، فهم ينفون وجود أي سلطة ذاتية في المخلوقات مهما كانت، كما أنهم يعتقدون أن علاقة المخلوق بالخالق علاقة مباشرة ليس فيها وسيط، وأن العباد لا يحتاجون إلى شفيع يقصدونه للتقرب إلى الله ﷻ، بل إنهم يعدّون ذلك من الشرك الأكبر المخرج من الملة.

مناسك الحج هي من ملة إبراهيم ﷺ محطمة الأصنام:

الحج من ملة إبراهيم ﷺ فقد بدأ الحج إلى بيت الله الحرام، منذ أمره الله أن يؤذن في الناس بالحج: ﴿وَإِذْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۖ﴾ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴿٢٨﴾ (الحج).

فإبراهيم ﷺ هو الذي بدأ الحج، ومثله لا يُتَّهم بعبادة الأصنام؛ لأنه هو الذي حطّمها وجعلها جُذاداً، وأحيا ﷻ بذلك الملة الحنيفة ملة التوحيد: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٣) (النحل).

طقوس وثنية حرّمها الإسلام:

وأكثر من ذلك أن أهل الجاهلية حين أدخلوا على الحج بعض الطقوس الوثنية وبعض الشعائر غير المقبولة، كالطواف بالبيت عرايا، جاء الإسلام فأبطلها ومنع أن يطوف بالبيت عريان، وكان هذا في العام

التاسع للهجرة؛ حين نهى رسول الله ﷺ عن ذلك صراحة: "ألا يحجَّ بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان" (١).

ومن شعائرهم أنه كانت لكل قبيلة تلبية؛ كقولهم: "لييك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملكك" يقصدون بهذا الشريك "الأصنام"، فجاء الإسلام وأبقى على جوهر التليبات جميعاً ووحدها في التلبية المعهودة: "لييك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك" (٢).

والنبي ﷺ كان يقول: "أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير" (٣).

وهذا من مقاصد الإسلام في الحج، حيث قرر تثبيت التوحيد ومحو طقوس الشرك، فكان الحجُّ خلصاً ومطهراً تماماً من كل مظاهر الشرك. وكذلك نجد أن الجاهليين كانوا يعتقدون أن الأصنام والأوثان التي يعبدونها تقربهم إلى الله ﷻ وتشفع لهم عنده، يقول الله تعالى مبيناً ذلك: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب لا يطوف بالبيت عريان ولا يحج مشرك (١٥٤٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب لا يحج البيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان (٣٣٥٣).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب التلبية (١٤٧٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها (٢٨٦٨).

٣. حسن: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب في دعاء يوم عرفة (٣٥٨٥)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٠٣).

نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴿٣﴾ (الزمر: ٣)، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (يونس: ١٨).

وهذه صورة من التقديس الوثني تنزل عن العبادة الصريحة المباشرة إلى رتبة الاستشفاع بالوثن على سبيل التقرب إلى الله ﷻ، والإسلام - مع ذلك لا يقرها ولا يرضى بها وينعي عليهم هذه الصورة من التعظيم الذميم والعبادة الملتفة.

وليس أدلَّ على موقف الإسلام من الوثنية ومحاربتها لمظاهرها من كل وجه، من شهادة طائفة من غير المسلمين بهذه الحقيقة، نحو جوستاف لوبون في قوله: "للإسلام وحده أن يباهي بأنه أول دين أدخل التوحيد إلى العالم" (٤).

وصفوة القول أن رَحَى العبادة تدور على قضيتين أساسيتين: تمام المحبة مع غاية الذل والخضوع، فمن أحب شيئاً ولم يخضع له، فليس بعباد له، ومن خضع لشيء دون أن يحبه فهو كذلك ليس بعباد له، ومعلوم أن شعائر الحج تصرف الحب والذل جميعاً إلى الله ﷻ لا إلى الحجر أو الكعبة المبنية.

ومن المناسب أن نقول: إن من يعبد شيئاً فلا شك أنه يرى في معبوده أنه أعلى منه وأفضل، ونعلم أن حرمة المؤمن أعظم من حرمة الكعبة، بل من حرمة الدنيا بأسرها، كما جاء في حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال في الكعبة: "ما أعظمك وأعظم حرمتك"، والمؤمن أعظم حرمة عند الله

٤. حضارة العرب، جوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، د. ت، ص ١٢٥.

وفي الحديث: "والله ليعبثه الله يوم القيامة له عينان يبصر بهما، ولسان ينطق به يشهد على من استلمه بحق" (٤).

ثانياً. حقيقة الحجر الأسود ومنزلته في الإسلام:

لقد اكتسب الحجر الأسود هذه المزية - مزية تعظيمه - لأمر الله تعالى بتقبيله، ولو لم يرد ذلك الأمر لم يكن لأحد أن يقوم بتقبيله؛ إذ إن الشرع أمر بإسلام الوجه لله، وقبول ما جاء به الرسول ﷺ - مع التسليم وانتفاء الحرج، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر: ٧).

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٣٦)، وقد ورد تقبيل الحجر عن النبي ﷺ، وهو كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (٥).

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ (النجم)، فمن الحكمة في مشروعية تقبيل الحجر والطواف والرمي - ابتلاء العباد وإظهار العبودية؛ ليعلم المسلم أنه لا اختيار مع أمر الله وأمر رسوله ﷺ، فشرع الله هو الذي حرم عبادة الأحجار والأشجار والأوثان وحرّم التقرب إليه غيرها، وهو الذي أمر بالطواف حول البيت الحرام، وشرع تقبيل الحجر الأسود، ولهذا جاء قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "ولولا أني رأيت رسول

منك" (١)، وهذا جدير بأن يجلي حقيقة الفكرة الإسلامية عن هذه الشعائر ومعنى تأدية المسلمين لها.

ولنقف لتدبر، ألم يكن العرب في جاهليتهم يتخذون العديد من الآلهة من مختلف الأشياء، وهم مع ذلك لم يتخذوا الحجر الأسود إلهًا من دون الله، ولكنهم جعلوا له حرمة ومكانة، باعتباره من البقايا الموروثة للكعبة التي بناها إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - فإذا كان هذا حال العرب في جاهليتهم، فأين العقل عندما ينسب هذا إلى المسلمين؟!

الحجر الأسود كتلة من الحجر ضارب إلى السواد بيضاوي في شكله، يقع في أصل بناء الكعبة في الركن الجنوبي الشرقي منها، يُسنُّ استلامه وتقبيله عند الطواف. وقد روى ابن عباس عن النبي ﷺ قال: "نزل الحجر الأسود من الجنة، وهو أشد بياضًا من اللبن، فسودته خطايا بني آدم" (٢).

كما أثبتت بعض النصوص الترغيب في تقبيله وبيان أنه يشهد يوم القيامة لمن استلمه بحق، وأنه تحط به الذنوب، ففي الحديث: "إن مسح الحجر والركن اليماني يحطّان الخطايا حطًّا" (٣).

١. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب تعظيم المؤمن (٢٠٣٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٤٢٠).

٢. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الصوم، باب ما جاء في فضل الحجر الأسود والركن والمقام (٨٧٧)، وابن خزيمة في صحيحه، كتاب المناسك، باب صفة الركن والمقام (٢٧٣٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٥٦).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمر رضي الله عنهما (٥٦٢١)، والطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ٣٨٩) برقم (١٣٤٣٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢١٩٤).

٤. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، من مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (٢٢١٥)، والترمذي في سننه، كتاب الصوم، باب الحجر الأسود (٩٦١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٠٩٨).

الله يقبلك ما قبلتك" (١).

لتعطي - أيضاً - مع معنى التعبد معنى الدلالة على منهج الوجدانية لله ﷻ.

تقبيل الحجر لغة رمزية:

وباختصار شديد ليست العبادة للكعبة، ولا للحجر الأسود وإنما لله، ومن رحمته وحكمته أن جعل بعض معاني هذه العبودية تتجلى في صورة حسية؛ ليتوافق ذلك مع طبيعة الإنسان وفطرته في تعبيره عن المعاني والمشاعر في صور حسية.

وقد يقال - بعد ذلك كله - إن الحكمة في هذا التقبيل تكمن في ذلك الاتصال بين رسول الله ﷺ وأمته، فهو اتصال من نوع خاص، اتصال روحي وكياني، وكأنه ﷺ قبل الحجر الأسود ليكون هذا بمثابة الاتصال المادي والحسي بينه وبين أمته أليس هو القائل: "وددت أني

لقيت إخواني" (٢)، وفي رواية: "وددت أني قد رأينا إخواننا" (٣)، غير أن المستشرقين الذين يعدون تقبيل الحجر الأسود من بقايا الوثنية لا يعلمون الحكمة من ذلك، وهي حب النبي ﷺ لأحبابه الذين لم يرههم ولم يروه، وآمنوا به، والذين سيأتون من بعده؛ فالصحابه - رضوان الله عليهم - كانوا يرون رسول الله ﷺ ويصافحونه ويسمعون الوحي المنزل عليه من فمه الشريف، أما المؤمنون من بعدهم فإنهم لم يواكبوا هذه الأحداث الملموسة، وآمنوا بها بالرغم من عدم رؤيتهم لها، فربما أراد الرسول ﷺ أن يطبع على جبين كل واحد منهم ما هو بمثابة وسام؛ تكريماً لهم على إيمانهم ومحبتهم

وهذا التقبيل هو في حقيقته عمل رمزي، فالحج يتميز بأن فيه اللغة الرمزية، فرمي الجمار - مثلاً - رمز لمقاومة الشر الذي يتمثل في الشيطان، والمسلم يقتدي في هذا بإبراهيم عليه السلام حينما رمى إبليس، حينما تعرض له ليثنيه عن ذبح ولده فرماه بالجمار، وكذلك نحن حينما نرمي الجمار نتمثل أننا نرمي الشيطان ونقاوم الشر، بل حتى العوام من المسلمين يكادون يتمثلون أن هذا الذي يرمونه هو إبليس "كأنهم يرونه" ويقولون: هذا إبليس الكبير، وإبليس المتوسط، وإبليس الصغير، فهذه عملية رمزية.

والإنسان بطبيعته وفطرته يحتاج إلى تمثيل المعاني في صورة محسوسة، والله ﷻ أعلم بخلقه، ألم يقل: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك)، فتعظيم العبد لله وإعلانه لخضوعه له واستكانته لأمره، جعله ﷻ في صور محسوسة؛ لكي تكون دلالتها الرمزية تحقق معنى العبودية، وتشبع العاطفة والميل الإنساني للتعبير عن هذه المعاني في صورة حسية.

والكعبة والبيت الحرام وغيرهما صور حسية رمزية لحقائق معنوية، وجعلت الكعبة في العبادة، وفي الصلاة خاصة، مركزاً للتعظيم والتوقير والإجلال لا لذاتها، وإنما لعبادة الله، وجعلت واحدة في مكان واحد؛

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك ﷺ (١٢٦٠١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧١٠٨).
٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتججيل في الوضوء (٦٠٧).

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب ما ذكر في الحجر الأسود، (١٥٢٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف (٣١٢٦).

ينطق عن الهوى.

• تقبيل الحجر عمل رمزي وتواصل روحي وكياني مع رسول الله ﷺ وكأنه قَبْلَ الحجر ليكون بمثابة الاتصال المادي والحسي بينه وبين أمته، فتقبيله لحكمة؛ وهي حبه ﷺ لأحبابه الذين لم يرههم ولم يروه وآمنوا به، ومعنى ذلك - على كل حال - أن المسلمين لم يعبدوا الحجر الأسود ولم يقدسوه، وإنما كان هذا اتباعاً منهم لسنته ﷺ وامتنالاً لأمر الله تبارك وتعالى الذي أوحى به للنبي ﷺ.



الشبهة السادسة عشرة

استنكار إخفاء المسلم عقيدته خشية الأذى (*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المغالطين على المسلم إخفاءه لعقيدته بغرض النجاة من إيذاء الكفار. ويستدلون على ذلك بقول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِأَلَايَمِنٍ﴾ (النحل ١٠٦)، وبقصة عمار بن ياسر حينما قال له النبي ﷺ: إن عادوا فعد، ويتساءلون: كيف يكون ذلك عند المسلمين، وعيسى يقول: من أنكرني قدام الناس يُنكر قدام ملائكة الله؟!

وجها إبطال الشبهة:

(١) من رحمة الله ﷻ أنه تجاوز عن الخطأ والنسيان وما أكره الناس عليه.

(*) موقع إسلاميات، عبدالله عبدالقادي.

لهذا الدين من خلال تقبيله الحجر الأسود، فكأنها صار هذا الحجر الواسطة بينهم لنقل هذه المشاعر وتقليدهم هذا الوسام الرفيع.

ومما سبق ندرك أن المسلمين لم يعبدوا الحجر الأسود ولم يقدسوه، وإنما يتبعون سنة النبي ﷺ فيقدرونه ويحترمونه.

الخلاصة:

• تشتمل العبادة على معنى الخضوع والذل والانقياد؛ فالعبد ينبغي أن يخضع ويذل إلى معبوده ويتقرب إليه رجاءً للنفع، أو دفعاً للضرر، والمسلمون لا يذلون ولا يخضعون للكعبة ولا للحجر؛ لأنهما لا يضران أو ينفعان، وإنما يقدرونها ويحترمونها امتثالاً لأمر الله ورسوله ﷺ.

• بدأ الحج إلى بيت الله الحرام، منذ أمر الله إبراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس بالحج، وهو عليه السلام الذي بدأ الحج، ولا يمكن أن يُتهم إبراهيم عليه السلام بعبادة الأصنام وهو محطّمها، وصاحب الملة الحنيفية التي اتبعها الموحدون من بعده.

• أدخل أهل الجاهلية على الحج بعض الطقوس الوثنية، فجاء الإسلام وألغاه وأبقى على جوهر التلبية، وكانوا - أيضاً - قد اعتقدوا أن الأصنام والأوثان التي يعبدونها تقربهم إلى الله ﷻ، فجاء الإسلام فجعل علاقة المخلوق بالخالق علاقة مباشرة ليس فيها وسيط.

• اكتسب الحجر الأسود تقديسه لأمر الله ﷻ بتقبيله، ولو لم يرد ذلك الأمر لم يكن لأحد أن يقوم بتقبيله، إذ إن تقبيله؛ طاعة لأمر رسول الله ﷺ الذي لا

(٢) شُرِعَ العمل بالتَّقِيَّةِ^(١) تخفيفاً على المكلف في حالات خاصة تقتضي هذا التخفيف، وليس الإسلام بدعاً من الشرائع في استخدامه للتقية، بل شرعها عدد غير قليل من الشرائع على رأسها اليهودية.

التفصيل:

أولاً. تجاوز الله ﷻ عما أكره الناس عليه:

من رحمة الله ﷻ بهذه الأمة أنه لا يؤاخذ أحداً في حالات الخطأ والنسيان والاستكراه، ومن هنا يأتي دور مساهمة الإسلام للفطرة الصحيحة ومشيه في خطها، ومن هنا تبرز ساحة الإسلام ويسره في تلك الحالات الناتجة عن بعض مواطن النقص في طبيعة الإنسان.

وإن الإسلام ليسهم بجزء وافر من اليسر في هذه الحالات من الضعف البشري؛ فلا يؤاخذ على الإثم المرتكب من جراء النسيان أو الخطأ أو الإكراه، ولا يُعَدُّ ذلك من الأمور التي تستحق المؤاخظة كما لو صدرت في حالات متكاملة من التذكر، والعلم، والاختيار.

وقد خشي المؤمنون من المؤاخظة على ما يرتكبونه بسبب هذه الملابس فأطلقوها دعوات لله؛ أن يعفو عنهم، ويغفر لهم، وألا يؤاخذهم عليها: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن سَيِّئًا أَوْ آخِثًا﴾ (البقرة: ٢٨٦)، وقد لبى الله نداءهم، واستجاب دعاءهم، فرفع ذلك عنهم، روى مسلم أنه لما قالوا ذلك قال الله: "قد فعلت"^(٢).

بل إن المؤمنين الأوائل في مكة قد لقوا من الأذى ما

١. التَّقِيَّة: مداراة المؤمن للكافر باللسان خلاف ما ينطوي عليه قلبه خوفاً على نفسه.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَبْذُرُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْشَوْهُ﴾ (البقرة: ٢٨٤) (٣٤٥).

لا يطيقه إلا من نوى الشهادة، وآثر الحياة الآخرة، ورضي بعذاب الدنيا عن العودة إلى ملة الكفر والضلال، وقد شق ذلك عليهم كثيراً حتى إن بعضهم قد قارب الكفار في بعض ما يقولونه، وخشي أن ذلك لا يجوز له، ولكن رسول الله ﷺ بيّن له أن مثل ذلك جائز.

فعن أبي عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال: "أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوه، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئن بالإيمان، قال النبي ﷺ: "إن عادوا فعد"^(٣)، وبسبب هذه القصة نزل قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ (النحل: ١٠٦)^(٤).

يقول العلامة السعدي في تفسير هذه الآية: فمن أكره على الكفر وأجبر عليه وقلبه مطمئن بالإيمان راغب فيه، فإنه لا حرج عليه ولا إثم، ويجوز له النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها. ودل ذلك على أن كلام المكروه على الطلاق أو العتاق أو البيع أو سائر العقود لا عبرة به، ولا يترتب عليه حكم شرعي؛ لأنه إذا لم يعاقب على كلمة الكفر إذا أكره عليها فغيرها من باب أولى وأحرى^(٥).

٣. صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة النحل (٣٣٦٢)، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب المرتد، باب المكروه على الردة (١٦٦٧٣)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

٤. صور من ساحة الإسلام، د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الربيع، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٠٨ هـ، ص ٣١، ٣٢.

٥. انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، مكتبة الصفا، القاهرة، ط ١، ١٤٢٥ هـ.

الشديدة على نحو يخاف عنده حدوث ضرر أو أذى بالنفس أو بالعرض أو بالعقل، أو بالمال ونحو ذلك، فما موقف الإسلام عندئذٍ؟

بالنظر إلى نصوص شريعة الإسلام نجد أنه قد راعى جميع الظروف والأحوال وأعطى لكل ذلك ما يناسبه من أحكام، وقد حسب للضرورة حسابها، فأباح فيها المحظورات وأحل فيها المحرمات، بقدر ما تنتفي به هذه الضرورات بغير تجاوز لها ولا تعدُّ لحدودها، وهذا ما يعرف عند جمهور العلماء بقاعدة "الضرورات تبيح المحظورات" فكل محذور في الحالات الاعتيادية يباح في حالة الضرورة، بل قد يرتفع إلى درجة الوجوب والإلزام، وقد وردت الأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية بتشريع هذا المبدأ وتقريره، وإحاطته بالقيود التي لا بد من توافرها فيه.

وإنما يجب على المسلم أن يقي نفسه من الهلاك ويحفظ حياته في غير حالة النطق بكلمة الكفر، فإن التلطف بكلمة الكفر تحت ضغط العذاب وشدة الألم، ليس من باب الواجب، وإنما هو من باب الرخصة؛ ذلك لأن إزهاق النفس يقابله أمر عظيم سام، فهو يلفظ أنفاسه في سبيل إحقاق الحق، ومن أجل التوحيد وتحت رايته، ولذلك فقد ترك المكلف مخيراً بين الأمرين^(٢).

ثانياً. حول شروط العمل بالتقية وأنها ليست خاصة بالمسلمين؛

إن مسألة التقية - على الوجه المتقدم - هي ضرورة لا

٣. انظر: مباحث في أصول الفقه، د. نادية محمد شريف العمري، دار هجر، القاهرة، ط ١، ١٤١٠ هـ.

وقد حفلت دواوين السنة بذكر هذه الملابس التي تتاب المسلم في حياته، ورفعت المؤاخذه بالإثم المرتكب من جرائمها، فكانت بذلك موافقة للقرآن، مصدقة له، مؤكدة ما قرره في ذلك من أحكام.

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: "إن الله تجاوز لأمتي عن ثلاث: عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه"^(١).

كما روى ابن حاتم عن أم الدرداء عن النبي ﷺ قال: "إن الله تجاوز لأمتي عن ثلاث: عن الخطأ والنسيان والاستكراه". قال أبو بكر الهذلي: فذكرت ذلك للحسن، فقال: أجل، أما تقرأ بذلك قرآنًا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (البقرة: ٢٨٦)^(٢).

ومن محاسن الإسلام أنه قرر قاعدة "الضرورات تبيح المحظورات"، فمن مسلمت المبادئ لدى جمهور المسلمين أن شريعة الإسلام قد ابتنت أحكامها على مراعاة الحكم؛ جلباً للمصالح أو دفعاً للمفاسد.

والمأمل في نصوصها يجد أن ذلك واضحٌ في جميع ما قررته من أحكام، وفي كل ميدان تناولته من ميادين الحياة. وليس غريباً عليها أن تسلك هذا المسلك أو تتجه هذا الاتجاه، فإنها تنزيل من خالق البشر، المتصف بكمال الحكمة والخبرة بشئون خلقه.

وقد يطرأ على الإنسان حالة من الخطر أو المشقة

١. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي (٢٠٤٥)، وابن حبان في صحيحه، كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم (٧٢١٩)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٦٦٤).

٢. أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، تفسير سورة البقرة (آية ٢٨٦) برقم (٣١٣٧).

الخلاصة:

• ليس ثمة ضعف من المسلم أن يحفظ عقيدته بتخفيه من بطش الجبارين والمعاندين لعقيدة الإسلام، وليس خروجاً من الدين أن يُظهر الكفر، وقلبه مطمئن بالإيمان، فإن من محاسن الإسلام السمحة أنه تجاوز عما استكره المسلمون عليه، فمن استكره منهم على ما حرمه الله ﷻ؛ كالنطق بالكفر أو أكل المحرم، أو إفطار رمضان إلى غير ذلك عفا الله عنه.

• لقد قرر الإسلام قواعد مهمة لهذه الأمة؛ دفعاً للحرص عنها وتخفيفاً منه عليهم، رحمة بهم، فشرع لهم إباحة المحظور عند الضرورة، وهو ما عرف بقاعدة "الضرورات تبيح المحظورات".

• وشرع لهم الأخذ بالرخصة عند قيام العذر الشرعي على ذلك، فله الحمد أولاً وآخراً على نعمة الإسلام.



الشبهة السابعة عشرة

اتهام الإسلام بالكهنوت والوساطة بين العبد وربّه (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أن في الإسلام طبقة لها نفوذ دون سواها تُسمى "رجال الدين" ويُعتبرون وسطاء

(*) شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي، أنور الجندي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٧٨ م. حوارات مع أوربيين غير مسلمين، د. عبد الله أحمد قادري الأهدل، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط١، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م.

عادة مطردة، ولا وجه للموازنة بينها وبين المداينة في أمر الاعتقاد أو المراء فيه، وهو معنى يزداد جلاؤه بالنظر إلى جملة القيود التي وضعها العلماء والمسلمون لإباحة التقية في الدين، ومنها:

• أن يكون الخوف من المكروه أمراً محققاً لا مظلوناً.

• أن يغلب على ظنه أنه متى استعمل التقية نجا.

• ألا يكون للمكلف مخْلَص من ذلك المكروه إلا بالتقية.

• أن يكون الأذى المُخوف مما لا يطاق احتمالُه^(١).

ومبدأ التقية - في ضوء هذه القيود - هو من جملة المحظورات التي تبيحها الضرورة، وهو - كذلك بعيد الصلة أو مقطوعها بالمدايرة المذمومة على حساب الاستعلان بالإيمان، والاستعلاء به على الآلام التي يؤدي بها المشركون أتباعه.

وليست التقية مسلماً يخص المسلمين وحدهم، بل هي شيء نجده في عديد من الديانات والمذاهب، لا سيما في أطوار الضعف من تاريخها، والحق أن النظر في تواريخ الأديان والعقائد يظهر صوراً بالغة السوء من السرية والتستر، وذلك نحو ما عرفته اليهودية في شكل تنظيمات كالماسونية، وكذلك ما عرفته العقائد الفارسية أيام هَوْتِ إمبراطورية الفرس؛ فسعوا إلى إشاعة عقائدهم في شكل جماعات سرية تفسد على المسلمين دينهم ووحدتهم.

١. الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ط١، ١٤٠٨ هـ، ج١٣، ص١٩١: ١٩٥.

بين العباد و ربهم ليقربوهم إليه، وبذلك يسلبون عن الإسلام فارقاً مهماً بينه وبين النصرانية، ويثبتون أنه أقر ذلك المأخذ الذي طالما عابه المسلمون على النصرانية وتاريخها.

وجهاً إبطال الشبهة:

(١) مصطلح "رجال الدين" مصطلح غربي دخيل على الإسلام، ولا نجد في الإسلام إلا لقب العلماء "العالمين بأحكامه"، وليس هذا حكراً على أحد بعينه، بل يمكن أن يكتسبه أي مجتهد في المعرفة الصحيحة بشريعة الإسلام.

(٢) في الوجود الإنساني شواهد كثيرة على عناية الله ﷻ بالنوع الإنساني وتأهيله بما يعينه على الخلافة في الأرض وعمارتها.

التفصيل:

أولاً. غربة مصطلح "رجال الدين" عن ثقافة الجماعة الإسلامية:

مصطلح "رجال الدين" مصطلح غربي لا يُعرف في الإسلام، وإنما الذي يُعرف في الإسلام هو "علماء" بشئون الإسلام، وليس هذا حكراً على أحد بعينه، بل يمكن أن يكتسبه أي مجتهد مسلم في معرفة الإسلام، بينما مصطلح "رجال الدين" في الغرب يعني أن هناك طبقة يعود إليها - هي فقط - تفسير الدين وتحكيم أمره، وهذه الطبقة تورث ذلك الأمر لغيرها، ومن أهم أعمالها القيام بالوساطة بين جمهور المتدينين والخالق، أما في الإسلام فلا توجد هذه الوساطة، وبالتالي لا يوجد ما يسمى بـ "طبقة رجال الدين" إنما يوجد علماء بشئون الإسلام، فقهاً وعقيدة ومعاملة وغير ذلك، وهم لا

يورثون ذلك لأبنائهم إنما يصل إلى ذلك كل من يريد من الأمة التعليم والترقي فيه، وهم ليسوا وسطاء بين جمهور المتدينين، والله الذي له وحده التصرف في الكون، ثم إن رجال الدين الإسلامي ليسوا معصومين من الخطأ، ويجوز لأي فرد من أبناء الأمة تخطئتهم وتبيين الأمر لهم إذا حادوا عن الجادة، وكتاب الله وسنة رسوله هما صاحب المرجعية، وليس علماء الأمة ولا رجال الدين، وهذا خلاف مفهوم رجال الدين في الغرب الذين يعود لهم وحدهم فهم الدين وتفسيره، فهم معصومون متصلون بالخالق - بزعمهم - وغيرهم متصل به عن طريقهم.

وأخيراً من يسوق هذا الزعم عائداً إلى مقارنة خاطئة بين علماء الدين الإسلامي ورجال الدين في الغرب في العصر الوسيط أو حتى اليوم.

فلا وساطة بين العباد وبين ربهم في الإسلام؛ لأن الإسلام ينهى عن ذلك ويحرمه، ويعتبر كل الناس سواسية عند الله تعالى، فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح، وإذا كان الإسلام يمقت الذين يشرعون للناس من دون الله ﷻ، فإنه ينعي على الذين يتبعون الأبحار والرهبان فيما يخللون ويحرمون لهم من دون الله، ويطيعونهم طاعة عمياء، ويعتبر أن هذه الطاعة وذلك الاتباع عبادة وتأليه من التابع للمتبع قال ﷻ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُورُهُمْ إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة)، وعن عدي بن حاتم قال: "أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب

من ذهب، فقال: يا عدي اطرح عنك هذا الوثن، وسمعتة يقرأ في سورة براءة: ﴿أَتَخَذُوا آبَاءَهُمْ وَرَهَبَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣١)، قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه^(١).

قال سيد قطب رحمه الله: "كما يعرض القرآن صورة من تأليه العباد للعباد لا تتمثل في اعتقادهم بألوهيتهم، ولكن تتمثل في تلقي الشرائع منهم، وجعلهم - بذلك - أرباباً، ولو لم يعتقدوا بألوهيتهم أو يقدموا لهم شعائر العبادة: ﴿أَتَخَذُوا آبَاءَهُمْ وَرَهَبَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣١)، وهكذا.. يستمر القرآن الكريم في توكيد هذه العقيدة وتثبيتها وتوضيحها؛ ليصل إلى تحرير الوجدان من كل شبهة شرك في ألوهية أو ربوبية، قد تضغط هذا الوجدان وتخضعه لمخلوق من عباد الله تعالى، إن يكن نبياً أو رسولاً فإنه عبد من عباده تعالى لا إله!

فإذا انتفى أن يكون عبداً بذاته أُمِيزَ عند الله من عبد بذاته، انتفت الوسائط بين الله وعباده جميعاً؛ فلا كهانة ولا وساطة بل يتصل كل فرد صلة مباشرة بخالقه؛ يتصل شخصه الضعيف الفاني بقوة الأزل والأبد، يستمد منها القوة والعزة والشجاعة، ويشعر برحمة الله وعطفه فيشتد إيمانه، وتَقْوَى معنوياته^(٢).

والإسلام لم يكتف بتحرير الوجدان الإنساني من

رُقٍّ وعبودية فحسب، بل قرر مبدأ المساواة باللفظ والنص؛ ليكون كل شيء واضحاً مقررًا منطوقاً، وفي الوقت الذي كان يدعي بعضهم ويصدق أنه من نسل الآلهة، وبعضهم يدعي ويصدق أن الدماء التي تجري في عروقه ليست من دماء العامة، إنما هو الدم الأزرق الملوكي النبيل، وفي الوقت الذي كانت بعض الملل والنحل تفرق الشعوب إلى طبقات، خلق بعضها من رأس الإله فهي مقدسة، وخلق بعضها من قدميه فهي منبوذة، وفي الوقت الذي كان الجدل يدور حول المرأة: أهى ذات روح أم لا روح لها؟! وفي الوقت الذي كان يباح فيه للسيد أن يقتل عبيده ويعذبهم؛ لأنهم من نوع آخر غير نوع السادة.. في هذا الوقت جاء الإسلام ليقرر وحدة الجنس البشري في المنشأ والمصير، في المحيا والممات، في الحقوق والواجبات، وأمام القانون أمام الله في الدنيا والآخرة، لا فضل إلا للعمل الصالح، ولا كرامة إلا للأتقى^(٣).

والإسلام لا كهانة فيه ولا وساطة بين الخلق والخالق، فكل مسلم في أطراف الأرض، وفي فجاج البحار، يستطيع بمفرده أن يتصل بربه، بلا كاهن ولا قسيس، والإمام المسلم لا يستمد ولايته من "الحق الإلهي" ولا من الوساطة بين الله تعالى والناس، وإنما يستمد مباشرته للسلطة من الجماعة الإسلامية، كما يستمد السلطة ذاتها من تنفيذ الشريعة التي يستوي الكل في فهمها وتطبيقها، ويحتكم إليها الكل على السواء. فليس في الإسلام "رجل دين" بالمعنى المفهوم في الديانات التي لا تصح مزاولة الشعائر التعبدية فيها

١. حسن: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة التوبة (٣٠٦٥)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٢٩٣).

٢. العدالة الاجتماعية في الإسلام، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط ١٦، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م، ص ٣٥.

٣. المرجع السابق، ص ٤٤، ٤٥.

وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ (البقرة)، وهو المقصود بالاستعمار في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكَ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (١٦) (هود).

والله ﷻ جهز الإنسان بمجموعة من الملكات والصفات التي لا بد منها؛ لتتكمّل لديه القدرة على إدراك شأن هذا الكون وتعميره واستخدامه، فبث فيه صفة العقل، وما يترفع عنها من العلم والقدرة على تحليل الأشياء، وسبر أغوارها والوصول إلى ما ورائها، وبث فيه أسباب القوة ومقومات التدبير، وما يترفع عنها من النزوع إلى السيطرة والعظمة والجاه، ثم بث فيه مجموعة من العواطف والأشواق والانفعالات التي تعدّ متممة لقيمة تلك الصفات وفوائدها؛ كالحب، والكراهية، والغضب، وما إلى ذلك. والإنسان لم يستطع تسخير شيء مما في هذا الكون أو السيطرة على شيء من شئون الحياة ومظاهرها إلا يوم أن جهزه الله تعالى بتلك الملكات والصفات. وهذه الصفات لها آفات عظام ومخاطر كبيرة، ومصدر خطورة هذه الصفات أنها في حقيقتها ليست إلا صفات الربوبية؛ كالعلم، والقوة، والسلطان والتملك، والجبروت، كلها مقومات للألوهية وصفات للرب ﷻ. فمن شأن هذه الصفات إذا وجدت في الإنسان أن تسكره وتأخذ بلبه، وتُنسِيه حقيقته، وتجعله يتطلع إلى تصوّر حقائق الربوبية والألوهية، والإنسان لا يملك فيها - في الحقيقة - إلا ظلالاً وآثاراً ليس لها من حقيقة الصفات الإلهية إلا الاسم وحده، ومن نتائج الخطورة التي في هذه الصفات أن من شأنها أن تحمل صاحبها على أن

إلا بحضور رجل الدين، إنما الذين في الإسلام علماء بالدين، وليس للعالم بهذا الدين من حق خاص في رقاب الناس، وليس للحاكم في رقابهم إلا تنفيذ الشريعة التي لا يبتدعها هو، بل يفرضها الله على الجميع، أمّا في الآخرة فالكل مصيره إلى الله تبارك وتعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ عِندَ رَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدٌ﴾ (٩٥) (مريم)، فلا صراع - إذاً - بين علماء الدين والسلطان على رقاب الناس ولا أموالهم، وليس هناك مصالح اقتصادية ولا معنوية يتنازعانها، وليس هنالك سلطة روحية وأخرى زمنية في الإسلام، فلا مجال للصراع عليها، كما كان الحال بين الأباطرة^(١) والبابوات^(٢).

فهذا هو قوام الإسلام في العمل والاعتقاد، لا عزلة بين الإنسان وربّه بتلك الوساطة المزعومة كما في الأديان الأخرى التي صاغتھا المجامع المقدسة.

ثانياً. عناية الله تعالى بالإنسان، وحاجة الحياة إلى الاعتقاد السليم:

إن الله ﷻ حينما أراد إيجاد هذا الكون بما فيه من الموجودات أنواعاً وأجناساً اقتضت حكمته الباهرة أن يختار نوعاً من هذه الموجودات، وهو الإنسان، فيجعله سيد هذا الكون، ويجعل سائر مظاهره وموجوداته مسخرة له قائمة بخدمته، وأن يكل إليه عمارته وأمره تنظيمه، فذلك هو المعنى بالخلافة في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ

١. الأباطرة: جمع إمبراطور، وهو الملك.

٢. العدالة الاجتماعية في الإسلام، سيد قطب، مرجع سابق،

يستعمل صفة القوة في ظلم الآخرين، وأن يشبع نزوعه إلى السيطرة والسلطان في بسط نفوذه وسلطانه على المستضعفين من الجماعات، وأن يتجه - بما لديه من نزوع - إلى تملك أموال غيره؛ يستلبها وينهبها، ثم من نتائجها أن تتسابق جماعات من الناس - بدافع هذه الصفات - في ميدان الصراع على السلطان والجاه والممتلكات والحكم والقيادة، ووقائع التاريخ المطردة تدل على هذا دلالة واضحة، وهكذا تنقلب هذه الصفات إلى عامل اضطراب وشقاء في حياة الإنسان، وهي إنما رُكِّبت فيه لتكون عامل سعادة ورقي ونظام، فمن أجل ذلك لم يكن بد من قوة أخرى توجه هذه الصفات الوجهة الصالحة، وتمنع الإنسان من أن يستعمل أسلحتها إلا من حدها المفيد.

أثر الدين الحق في السواء النفسي للإنسان:

تلك هي حاجة الإنسانية كلها إلى الدين؛ أي: إلى العقيدة الصحيحة عن الإنسان والكون والحياة وما وراء ذلك كله، والعقيدة الصحيحة التي هُدي إليها العقل والعلم، وهي الإيمان بوجود الله ووحدانيته، وأن لا سلطان حقيقياً في الكون غير سلطان الله، ولا قوة قاهرة غير قوته، ولا ملك غير ملكه، وكل ما وراء ذلك فهو مخلوق لله ﷻ يمنحه حيث يشاء ويسلبه عندما يشاء، وأنه الرقيب على عباده كلهم، وسيبعثهم من بعد الموت، فيحاسب كلًّا على ما كسب أو اكتسب، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره^(١)، وبهذا البيان اتضح أن الله ﷻ قد كرم الإنسان،

١. كُتِبَ الِيقِينَاتِ الْكَوْنِيَّةِ، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط ٢٥، ١٩٨٢، ص ٦٥: ٦٧.

وجعله سيد هذا الكون، وجعل سائر موجوداته مسخرة له قائمة بخدمته، وعبادة غير الله ﷻ هي انحطاط بالإنسان عن المكانة التي وضعه الله فيها.

فشتان بين عقيدة ترتفع بالإنسان وتكرمه، فلا تجعله معبوداً لأحد إلا لرب واحد للوجود كله، وبين عقائد تنزل بالإنسان إلى أحط من الحيوان والجماد، وتذله للوجود كله.

وكل معبود من دون الله هو نفسه في حاجة إلى الله، ليس عنده ما يسمو به حتى يكون شافعاً للناس عند الله أو مقرباً إليه.

إن شفاعَةَ الآلهة التي عُبِّدت من دون الله أو معه، والتي يدعون أنها تقرب إلى الله زلفى، هذه الشفاعَةُ لا وجود لها ألبتة، سواء كان المعبود المرجو الشفاعَةَ ملكاً أو نبياً أو صالحاً، أو دون ذلك من الجن أو الشياطين، أو الحيوانات والجمادات؛ وذلك لقول الله تعالى: ﴿أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ سُفْعَاءً قُلْ أُولَٰئِكَ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) (الزمر).

والذين يدعون أن تلك الأوثان تقربهم إلى الله، لماذا لا يتقربون إلى الله بدون هذا الصنم، وهل يكون لوثن لا يسمع ولا يبصر ولا يتحرك أن ينفع؟!

وهل أجاب هؤلاء هذا الوثن يوماً من الأيام وقال لهم: لقد توسطت بينكم وبين الله؟!

إن الإله الحق قريب غير بعيد، وليس بحاجة إلى وسائط: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (١٨١) (البقرة).

دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ
يُرْشَدُونَ ﴿١٨٦﴾ (البقرة).

• وليس هذا فحسب؛ بل لقد رفع الله تبارك وتعالى شأن الإنسان، وجعله سيداً لهذا الكون، وجعل سائر مظاهره وموجوداته مسخرة له، قائمة بخدمة، وجهازه بمجموعة من الصفات والملكات؛ لتكامل لديه القدرة على إدارك شأن هذا الكون، وتعميره واستخدامه.

أما عبادة غير الله ﷻ فهي انحطاط بالإنسان إلى درجة هي أحط من درجة الحيوان والجماد، فكل ما يعبد من دون الله يستوي في حاجته إلى الله، وافتقاره إليه، وليس عنده من الفضل ما يسمو به حتى يكون شافعاً عند الله، شافعاً عند الله ﷻ أو مقرباً إليه.



الشبهة الثامنة عشرة

دعوى معاداة الإسلام لمخالفه وتعبه ضد

العقائد الأخرى (*) ®

مضمون الشبهة:

يدّعي بعض المغالطين أن الإسلام دين يعادي الملل

(*) الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، مرجع سابق. قرآن أمريكي ملفق "الفرقان الحق"، د. إبراهيم عوض، زهراء الشرق، القاهرة، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م. قصة الحضارة، ول ديورانت، مرجع سابق.

® في "ساحة الإسلام في معاملة غير المسلمين" طالع: الشبهة الثانية، من الجزء السادس عشر (أصالة التشريع الإسلامي). وفي "انتشار الإسلام بحد السيف" طالع: الشبهة الحادية عشرة، من الجزء الثالث (التاريخ الإسلامي ١).

إن الله ﷻ معنا بعلمه ورعايته أينما كنا، يسمعنا ويرانا، قال تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافُ أَتَنِي مَعَكُمْ أَتَمَعُ وَأَرَى﴾ (طه)، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَآهُمْ وَلَا حَسَّةٌ إِلَّا هُوَ سَادِشُهُمْ وَلَا آدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المجادلة)، فكل ما يُعبد من دون الله تبارك وتعالى يستوي في حاجته إلى الله وافتقاره إليه، وليس عنده من الفضل ما يسمو به حتى يكون شافعاً عند الله، أو مقرباً إليه.

الخلاصة:

• إن الإسلام لا يعرف طبقة مميزة عن طبقة، إنما هو الدين الذي سوى بين جميع الناس وجعل الأفضلية لمن اتقى، أيّاً كان نوعه أو جنسه، فليس في الإسلام مصطلح "رجال الدين" بالمعنى الغربي، الذي يجعلهم مشرّعين - محللين ومحرمين - على أهوائهم، إنما عَرَفَ الإسلام رجالاً عالمين بالدين، وهم لا يحللون ولا يحرمون من تلقاء أنفسهم، إنما تحكمهم قوانين علمية دينية، لا يتقدمون عليها ولا يتأخرون، وكل منهم يؤخذ من كلامه ويُرد.

• من رحمة الله ﷻ بعباده أنه لم يجعل بين العبد وربّه الذي خلقه وساطة؛ حتى يتحرر العبد من كل شيء دون الله تعالى، وحتى تكون المرجعية الكبرى والأخيرة إلى الله وحده، فلا يستطيع أحد أن يحول بينه وبين ربه، وهذا ما عبّر عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ

والعقائد الأخرى، ويدعو إلى التعصب، والانتقام من مخالفه، ويستدلون على دعواهم هذه بتصنيف الناس إلى مسلمين وكفار، في إشارة إلى رفض الآخر ورفض التعايش معه وإهانته.

ويرون أن الإسلام قد عامل الذميين بقسوة واضطهاد، وسلب حريتهم وأرهقهم بضرائب^(١) كبيرة، يسميها المسلمون الجزية^(٢).

وجوه إبطال الشبهة:

(١) الإسلام دين الرحمة والتسامح والهداية والسلام، ولا يحض على الكراهية والعداء؛ بل هو دين المساواة بين المسلمين وغير المسلمين في القضاء وسائر المعاملات، والقرآن والحديث ومواقف الصدر الأول من الصحابة خير دليل على ذلك.

(٢) الحرب في الإسلام لها ضوابط وأخلاق تنأى بها عن الاعتداء والجور، فلا يلجأ الإسلام إلى الحرب إلا في الضرورة القصوى التي تستدعي الدفاع عن النفس أو الجهاد في سبيل الله.

(٣) المزايا التي يتمتع بها غير المسلمين في ظل الدولة الإسلامية، تجعلهم من أسعد الناس في كنف الدولة الإسلامية.

(٤) تسمية غير المسلمين كفاراً لا يعني إهانته أو ظلمهم أو الاعتداء عليهم، والإسلام لم ينفرد بهذه التسمية، بل كل ذي دين يطلق مثل هذا على مخالفه.

(٥) الجزية مبلغ زهيد مقابل الحماية واستخدام

١. الضرائب: جمع الضريبة، وهي ما يفرض على الملك والعمل والدخل للدولة.

٢. الجزية: ما يؤخذ من أهل الذمة نظير حمايتهم.

مرافق الدولة، وتؤخذ من الرجل القادر على العمل فقط، ويعفى منها الشيوخ والنساء والأطفال والفقراء. (٦) شهادات المنصفين من غير المسلمين على ساحة الإسلام في تعامله مع مخالفه، تؤكد كذب هذا الادعاء، والتاريخ نفسه أكبر شاهد على ذلك.

التفصيل:

أولاً. تسامح الإسلام ودعوته:

يقف الإسلام من غير المسلمين - في حال السلم - موقف الأمان، بل إنه لم يَنْه عن البر بهم ما داموا لم يقاتلوا المسلمين، وإنما نهى عن برّ الذين قاتلوا المسلمين في دينهم، وأخرجوهم من ديارهم، أو ظاهرروا على إخراجهم، فقال جل شأنه: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِينِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُم فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝٩﴾ (المتحنة).

ونهى القرآن الكريم المسلم عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، فقال الله ﷻ: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ۝١٦﴾ (العنكبوت)، وقال ﷻ: ﴿قُلْ يَتَّهِلُ الْكِتَابُ وَمَأَلُوا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٦٤﴾ (آل عمران)، بل أمر الإسلام بالوفاء بالعهد حتى مع المشركين، قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ

والأبناء عن الآباء.

المساواة بين المسلمين وغير المسلمين في القضاء وسائر المعاملات:

أقام الإسلام المساواة بين المسلمين وغيرهم في القضاء وفي سائر المعاملات، وقد سجل التاريخ نماذج رائدة لهذه المعاملات التي تعتبر قمة ما وصلت إليه المعاملات الإنسانية العادلة في تاريخ البشرية جمعاء، فعندما شكا رجل من اليهود علي بن أبي طالب للخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال عمر لعلي: قم يا أبا الحسن فاجلس بجوار خصمك، فقام علي وجلس بجواره، ولكن بدت على وجهه علامة التأثر، فبعد أن انتهى الفصل في القضية قال له عمر: أكرهت يا علي أن نسوي بينك وبين خصمك في مجلس القضاء؟ قال: لا، ولكنني تأملت لأنك ناديتني بكنتي فلم تُسوِّ بيننا، ففي الكنية تعظيم، فخشيت أن يظن اليهودي أن العدل ضاع بين المسلمين".

وتتابعت وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل الذمة والمهادين حيث قال صلى الله عليه وسلم: "من قتل معاهداً لم يرحَ رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً"^(١)، ومعنى "لم يرحَ رائحة الجنة": لم يشمها، وقال صلى الله عليه وسلم: "ألا من ظلم معاهداً، أو انتقصه، أو كلّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة"^(٢).

١. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب الجزية والمواذعة، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم (٢٩٩٥)، وفي موضع آخر.
٢. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الخراج، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات (٣٠٥٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٥٥).

عَهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ (التوبة)، بل لو طلب المشرك من المسلم أن يجيره فعليه أن يجيره، بل يبلغه مأمنه، كما قال الحق صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّبِعْهُ مَأْمَنُهُ ذَٰلِكَ يَأْتِيهِمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ (التوبة).

ومن رعاية الإسلام لحقوق غير المسلمين رعايته لمعابدهم وكنائسهم، ومن محافظته عليها ما جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما حان وقت الصلاة وهو في كنيسة القيامة، فطلب البطريك من عمر أن يصلي بها، وهمّ أن يفعل ثم اعتذر، ووضح أنه خشي أن يصلي بالكنيسة فيأتي المسلمون بعد ذلك ويأخذونها من النصارى على زعم أنها مسجد لهم، ويقولون: هنا صلى عمر، ولم تتوقف معاملة المسلمين عند حد المحافظة على أموالهم وحقوقهم، بل حرص الإسلام عبر عصوره على القيام بما يحتاج إليه أهل الكتاب وبخاصة الفقراء منهم.

إن مثل هذه المعاملة من المسلمين لغير المسلمين تُطلع العالم أجمع على أن الإسلام ربّى أتباعه على التسامح، وعلى رعاية حقوق الناس، وعلى الرحمة بجميع البشر مهما اختلفت عقائدهم وأجناسهم، وقد حفظت أجيال المسلمين قيمة هذه الرعاية الإسلامية لحقوق غيرهم؛ لأنهم ما طبقوها إلا استجابة لتعاليم القرآن الكريم، وتوجيهات الرسول العظيم عليه أفضل الصلاة والسلام، وقد طبقها في حياته فوعاها المسلمون جيلاً فجيلاً، وطبقها الخلف عن السلف،

ومما يدل على المساواة بين المسلمين وغيرهم في القضاء، وعلى انتشار الإسلام بساحته وحسن معاملة المسلمين لغيرهم: هذه الواقعة التي حدثت بين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وبين رجل من أهل الكتاب، وذلك عندما فقد الإمام علي عليه السلام درعه، ثم وجدها عند هذا الرجل الكتابي، فجاء به إلى القاضي شريح قائلاً: إنها درعي ولم أبع ولم أهب، فسأل القاضي شريح الرجل الكتابي قائلاً: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ فقال الرجل: ما الدرع إلا درعي، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب، فالتفت القاضي شريح إلى الإمام علي عليه السلام يسأله: يا أمير المؤمنين هل من بينة^(١)؟ فضحك علي عليه السلام وقال: أصاب شريح، ما لي بينة، فقضى بالدرع للرجل، وأخذها ومشى، إلا أن الرجل لم يخط خطوات حتى عاد يقول: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء.. أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه فيقضي عليه؟ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين، اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين، فخرجت من بعيرك الأوراق، فقال الإمام علي عليه السلام: "أما إذ أسلمت فهي لك"^(٢).

وهكذا نرى كيف وصلت سماحة الإسلام إلى هذا المدى الذي يقف فيه أمير المؤمنين نفسه أمام القاضي، مع رجل من أهل الكتاب، ومع أن أمير المؤمنين على حق، فإن القاضي طالبه بالبينة، وهذا أمر جعل أمير المؤمنين يضحك؛ إذ هو على حق وليس معه بينة، وواضح أنه المدعي، والبينة على من ادّعى، واليمين على

من أنكر، ثم تكون النهاية أن يحكم القاضي للرجل بالظاهر؛ حيث لم تظهر البينة. إن هذه المعاملة السمحة التي لا يُفرّق فيها بين أمير وواحد من الرعية من أهل الكتاب، جعلت الرجل يفكر في هذا الدين ويتملكه الإعجاب به، فلم يملك إلا أن يقول: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

إنها صورة من صور القضاء في قمة عدالته؛ حيث يسوي بين هذا الرجل وبين أمير المؤمنين، وصورة من سماحة الإسلام في ذروتها؛ حيث كان الحكم بالظاهر وعلى أمير المؤمنين لا له، إن مثل هذه المعاملة السمحة مع غير المسلمين هي التي قربت الإسلام إلى الناس، وجعلتهم يدخلون في دين الله أفواجا[®].

عدالة الإسلام مع غير المسلمين:

وقد عنى الإسلام برعاية أهل الكتاب، فقرر سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لهم عطاءً من بيت مال المسلمين، فقد روى أنه مر بباب جماعة، فوجد سائلاً يسأل - وهو شيخ كبير ضريب - فسأله قائلاً: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي، فسأله: ما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن، فأخذ عمر بيده إلى منزله، وأعطاه، ثم أرسل إلى خازن بيت المال، فقال له: انظر هذا وأضرابه، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم!!

وما حدث في تاريخ سلفنا إهانة أحد من أهل

® في "مظاهر المساواة في التشريع بين المسلمين وغيرهم" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الخامسة عشرة، من الجزء الرابع عشر (العلاقات الدولية).

١. البينة: الحجة الواضحة، والبرهان، والدليل.

٢. أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب آداب القاضي، باب إنصاف الخصمين في المدخل عليه والاستماع منهما (٢٠٢٥٢).

بالحرب إلا في الضرورة القصوى التي تستدعي الدفاع والجهاد في سبيل الله، ومع مشروعية الجهاد في سبيل الله - دفاعاً عن الدين والعقيدة والأرض والعرض - فإن الحرب في الإسلام لها حدود وضوابط، وللمسلمين أخلاقهم التي يتخلقون بها حتى في حربهم مع من يحاربهم من غير المسلمين، فأمر الإسلام بالحفاظ على أموال الآخر، وبترك الرهبان في صوامعهم دون التعرض لهم، ونهى عن الخيانة والغدر والغلول، كما نهى عن التمثيل بالقتلى، وعن قتل الأطفال والنساء والشيوخ، وعن حرق النخيل والزروع، وقطع الأشجار المثمرة.

وأوصى أبو بكر الصديق رضي الله عنه أسامة بن زيد عندما وجهه إلى الشام بالوفاء بالعهد، وعدم الغدر أو التمثيل، وعاهد خالد بن الوليد رضي الله عنه أهل الحيرة ألا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة ولا قصرًا، ولا يمنعهم من أن يدقوا نواقيسهم أو أن يخرجوا صلبانهم في أيام أعيادهم، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه رحيماً بغير المسلمين من أهل الكتاب، وكان ينصح سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه - عندما أرسله في حرب الفرس - أن يكون في حربه بعيداً عن أهل الذمة، وأوصاه ألا يأخذ منهم شيئاً لأن لهم ذمة وعهداً، كما أعطى عمر رضي الله عنه أهل إيلياء أماناً على أموالهم وكنائسهم وصلبانهم، وحذر من هدم كنائسهم.

وأمر الإسلام بحسن معاملة الأسرى وإطعامهم، قال الله ﷻ: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (الإنسان)، بينما يعامل غير المسلمين أسرى المسلمين معاملة سيئة؛ فقد يقتلونهم وقد يسترقونهم

الذمة، بل إن حدث أي تجاوز كان يعالجه الإسلام في الحال، فعندما شكّا إلى عمر أحد الأقباط أن ابن والي مصر "عمرو بن العاص رضي الله عنه" لطم ابنه عندما غلبه في السباق، وقال: أنا ابن الأكرمين، أسرع عمر رضي الله عنه بإحضار عمرو وابنه إلى مكة في موسم الحج، وأعطى عمر رضي الله عنه الدرّة^(١) لابن القبطي، وأمره أن يقتص من ابن الأكرمين، ثم قال لعمرو كلمته الماثورة: "متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!"

وقد أقام الإسلام العدل بين عنصري الأمة من المسلمين وغير المسلمين، ومن رسالة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى قاضي القضاة أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال له: "آس^(٢) بين الناس في وجهك ومجلسك وقضائك؛ حتى لا يطمع شريف في خيفك^(٣)، ولا يئس ضعيف من عدلك". فلا يصح التفرقة بين المتخاصمين حتى لو كان أحدهما غير مسلم. وهكذا نرى كيف عامل سلفنا أهل الكتاب، وكيف أظهرنا ساحة هذا الدين الذي لا يقر العصية، ولا يرضى الظلم حتى لغير المسلمين، بل يدعو إلى التسامح والعدل معهم، وهذا المنهاج المتسامح للإسلام مع أهل الأديان الأخرى هو سرُّ عظمة الإسلام، وسرُّ ذيوعه وانتشاره في ربوع المعمورة.

ثانياً. ضوابط الحرب في الإسلام وأنها بمعزل عن صفة التعدي والهمجية:

فمن المعلوم أن الإسلام هو دين السلام، لا يأمر

١. الدرّة: لؤلؤة عظيمة كبيرة.

٢. آس: سؤ أو اعدل.

٣. الخيف: الظلم والجور.

اللَّهُ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُعْتَدِينَ ﴿١١﴾ (البقرة)، فالذين يعتدون من المشركين
على المسلمين ويقاتلونهم أَمَرُ المسلمون أن يقاتلوهم،
ولكنه قتال عادل لا مُثْلَةٌ فيه ولا تعذيب؛ حيث قال الله
تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنْ
اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ مِمَّا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة).
وهذا فيمن يقاتلون المسلمين، أما الذين لا يقاتلون
من غير المسلمين فكان النبي ﷺ ينهى عن قتالهم: فعن
بريدة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "اغزوا باسم الله في
سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا
تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتاتلون وليدًا"^(٥)، وفي رواية:
"أنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان"^(٦).

كما كان ينهى ﷺ عن التعرض للربهان وأصحاب
الصوامع، وعن التمثيل والغلول، عن ابن عباس
- رضي الله عنهما - قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث
جيوشه قال: "اخرجوا باسم الله، تقاتلون في سبيل الله
من كفر بالله، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الولدان
ولا أصحاب الصوامع"^{(٧) (٧)}.

أو يكلفونهم أشق الأعباء والأعمال. إن أسرى غزوة
بدر الكبرى عاملهم النبي ﷺ خير معاملة، فأوصى
الصحابة أن يحسنوا إليهم، فكانوا يؤثرونهم على
أنفسهم في الطعام وفي الغذاء، ولما استشار أصحابه في
شأن أسرى بدر، وأشار بعضهم بقتلهم وأشار
الآخرون بالفداء، وافق على الفداء، وجعل فداء الذين
يكتبون منهم أن يعلم كل واحد منهم عشرة من أبناء
المسلمين القراءة والكتابة، وكان هذا أول إجراء
ولم يقبل الرسول ﷺ أن يمثل بأحد من أعدائه في
الحروب مهما كان أمره، ولما أشير عليه أن يمثل
بسهيل بن عمرو - الذي كان يحرص على حرب
المسلمين وعلى قتالهم - بأن ينزع ثِيَّتَيْهِ^(١) السُّفْلَيْنِ؛
حتى لا يستطيع الخطابة بعد ذلك، لم يوافق النبي ﷺ،
بل رفض قائلاً: "لا أمثل به"^(٢) فيمثل الله بي"^(٣).

وعندما حقق الله ﷻ لرسوله ﷺ أمنيته بفتح مكة
المكرمة، ودخلها فاتحاً منتصراً ظافراً قال لقريش: "من
دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو
آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن"^(٤).

ومن توجيهات الإسلام للمسلمين في الحرب:

١. أن يكون القتال في سبيل الله.
٢. أن يكون القتال لمن يقاتلون المسلمين.
٣. عدم الاعتداء، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ

٥. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير
الإمام الأمراء على البعوث (٤٦١٩).

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب قتل
الصبيان في الحرب (٢٨٥١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد
والسير، باب تحريم قتل النساء والصبيان (٤٦٤٥).

٧. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، من مسند بني هاشم، مسند
عبد الله بن عباس (٢٧٢٨)، وأبو يعلى في مسنده (٤٢٢ / ٤)
برقم (٢٥٤٩)، وحسنه الأرئوطي في تعليقه على المسند.

⑧ في "ضوابط الجهاد في الإسلام" طالع: الوجه الثاني، من
الشبهة السادسة والسبعين، من الجزء الثاني عشر (عصمة القرآن
الكريم).

١. الثَّيَّةُ: هي الأسنان الأربع في مقدم الفم.

٢. مثل به: عذبه ونكّل به بجذع أنفه، أو قطع أذنه، أو غيرها.

٣. أخرجه ابن أبي شبة في مصنفه، كتاب المغازي، باب غزوة
بدر الكبرى (٣٦٧٣٩).

٤. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فتح
مكة (٤٧٢٢).

ثالثاً. دستور العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين:

وضع القرآن الكريم قاعدة تُعدُّ الدستور الأساسي في معاملة المسلمين لغيرهم من الناس، فقال: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)﴾ (المتحنة)، فالآية الكريمة واضحة تماماً في تقرير العلاقة بين المسلمين وغيرهم، إنها علاقة قائمة على أمر أعظم من العدل - الذي هو إعطاء كل ذي حق حقه - وإنما ترتقي هذه العلاقة إلى مرحلة الإحسان - وهو الزيادة على الحق فضلاً - ولقد قدمت الآية لفظ البر على لفظ القسط - وهو العدل - وهي إشارة عظيمة رائعة إلى كيفية معاملة غير المسلمين، إنها علاقة قائمة على البر والإحسان.

والشيء اللافت أن الإسلام سمَّى غير المسلمين داخل مجتمعه: (أهل الذمة)؛ أي: أهل العهد والضمان والأمان؛ لأن لهم عهد الله وضمان رسوله وأمان جماعة المسلمين، على أن يعيشوا في حماية الإسلام وتحت راية المجتمع الإسلامي آمنين مطمئنين.

ولكن العجب من البعض أنهم يعتبرون هذه التسمية تسميةً فيها شيء من الدونية، وهذا كلام مرفوض، فمن يفهم كلمة العربي حين يقول: "أنت في ذمتي" يعني تماماً ما معنى أهل الذمة، أي: أنت في حمايتي ورعايتي وكفني، لا أؤذيك ولا أسمح لأحد بأذيتك. ويمكن استبدال هذه الكلمة - حالياً - فيما يسمى بالعرف السياسي باسم: "حاملي الجنسية

الإسلامية"؛ فهؤلاء في الحقيقة مواطنون كبقية أفراد المجتمع المسلم.

وقد وضع فقهاء الشريعة الإسلامية قاعدة لتوضيح العلاقة بين المسلمين وغيرهم داخل المجتمع، وهذه القاعدة قائمة على المعاملة بالمثل، وقد قيل قديماً: مَنْ عَامَلَكَ كَنْفَسَهُ لَمْ يَظْلَمْكَ، وهذه القاعدة هي "لهم ما لنا، وعليهم ما علينا" وتفسيرها ليس على إطلاقها، وإنما، لهم ما لنا من الحقوق والحريات، وعليهم بعض الذي علينا من الواجبات، وقد فسَّرت هذه القاعدة من خلال النقاط التالية:

تأمين الحماية من العدوان الخارجي:

حيث يوجب المجتمع الإسلامي أن تُؤمَّن كل ضوابط الحماية لكل من رضي العيش بداخله، وهذا ما صرح به الفقهاء في إرشاداتهم، يقول ابن حزم الأندلسي: "إن من كان في الذمة، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع" (١) والسلاح ونموت دون ذلك؛ صوتاً لمن هو في ذمة الله ﷻ وذمة رسوله، فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة، ولعل أروع الأمثلة على ذلك في التاريخ موقف القائد أبي عبيدة بن الجراح من أهل حمص وغيرهم، حينما ردَّ عليهم أموالهم التي دفعوها مقابل حمايتهم من الاعتداء الخارجي؛ بسبب عجزهم عن ذلك، فقالوا: ردَّكم الله إلينا، ولعن الله الذين كانوا يملكوننا من الروم، ولكن والله لو كانوا هم ما ردُّوا إلينا، بل غصبونا.

وهذا ابن تيمية يقف بعنف في وجه التتار عندما

١. الكراع: الخيل.

أرادوا إطلاق سراح أسرى المسلمين فقط، وإبقاء النصارى بالأسر، فقال: إنا لا نرضى إلا بافتكاك جميع الأسرى من المسلمين وغيرهم، لأنهم أهل ذمتنا، ولا ندع أسيرًا لا من أهل الذمة، ولا من أهل الملة.

تأمين الحماية الداخلية:

وتشتمل هذه الحماية على ما يلي:

• حماية الدماء والأبدان، فقد تضافرت الأحاديث النبوية وسلوك الصحابة على تحريم إلحاق أي أذى أو ظلم بأي إنسان، مواطن أو زائر غير مسلم هو في ذمة المسلمين وعهدهم؛ ومن ذلك قوله ﷺ: "ألا من ظلم معاهدًا، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة"^(١).

وكان علماء المسلمين يُوصون الأمراء والخلفاء بحسن معاملة غير المسلمين والإحسان إليهم، فهذا القاضي أبو يوسف يكتب إلى الرشيد قائلاً: "... وقد ينبغي يا أمير المؤمنين - أيدك الله - أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك؛ حتى لا يُظْلَمُوا ولا يُؤذَوْا ولا يُكَلَّفُوا فوق طاقتهم"، ومن أمثلة التاريخ - أيضًا - وقوف الإمام الأوزاعي في وجه والي العباسي صالح بن علي عندما أساء إلى بعض أهل الذمة. كل ذلك شاهد لحماية غير المسلمين في المجتمع الإسلامي.

• حماية الأعراس، فلا يجوز في الإسلام إلحاق أي

أذى بالمسلم، أو غير المسلم، من شتم، أو قذف، أو تجريح، أو حتى غيبة، يقول فقهاء الحنفية: ويجب كف الأذى عنه - أي: الذمي - وتحرم غيبته كالمسلم. ويقول فقهاء المالكية: "إن عقد الذمة يوجب حقوقًا علينا لهم... فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء، أو غيبة في عرض أحدهم، أو نوع من أنواع الأذية، أو أعان على ذلك فقد ضيّع ذمة الله".

• حماية الأموال، وهي مشابهة لحماية الدماء والأعراض، وكان من ضمن المعاهدة التي وقّعها النبي ﷺ مع نصارى نجران قوله: "ولنجران وحاشيتها جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأرضهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير".

والواقع التطبيقي لأحكام الشريعة يُظهر بوضوح هذه الحماية لكل ممتلكات غير المسلمين، فلمن الحق في دخول كل المعاملات الاقتصادية وممارسة كل الصفقات وما سوى ذلك من مظاهر الحرية الاقتصادية، والتملك.

• كفالة بيت المال، فالمجتمع الإسلامي يكفل للمسلم وغيره كل الاحتياجات، وبخاصة عند العجز عن الكسب والعمل؛ لقول النبي ﷺ: "كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع... وكلكم مسئول عن رعيته"^(٢).

والأمثلة على ذلك كثيرة، فأهل الذمة هم من أولى

١. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الخراج، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلّفوا بالتجارات (٣٠٥٤)، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب الجزية، باب لا يأخذ المسلمون من ثمار أهل الذمة (١٨٥١١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٥٥).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب المرأة راعية في بيت زوجها (٤٩٠٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر (٤٨٢٨).

الناس مع المسلمين بالبر والصلة، وكانت ضمانات المجتمع المسلم واضحة ضد الفقر والعجز والشيخوخة لكل فئات المجتمع، لا تفريق بين مسلم وغيره، فهذا صَلُّحُ خالد بن الوليد رضي الله عنه مع أهل الحيرة، جاء فيه: "وجعلتُ لهم أيَّما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنيًّا فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام".

وقد أقر الخليفة الصديق رضي الله عنه خالدًا رضي الله عنه على ذلك، وقد قيل: إن مساعدة الذمي من بيت مال المسلمين - حال عجزه - أمرٌ قد أجمعت عليه الأمة.

الحرريات العامة:

وتشتمل هذه الحرريات على ما يلي:

- حرية المعتقد وممارسة الشعائر وصون أماكن العبادة، وقد أقر الإسلام - بوضوح تام - حرية الاعتقاد لكل الناس، فلا إكراه لأحد على دخول الإسلام، وإن كان يدعوهم إليه، والدعوة إلى دخول الإسلام والإجبار عليه أمران متضادان: الأول: جائز مشروع، والثاني: حرام ممنوع بقوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل) ١٢٥ وقوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦)
- والقاعدة في ذلك هي قول الإمام علي - كرم الله وجهه: "نتركهم وما يدينون".

والشواهد التاريخية على هذا كثيرة، من زمن النبي صلى الله عليه وسلم إلى عصرنا الحاضر؛ فقد جاء في عهد النبي صلى الله عليه وسلم

إلى يهود المدينة "... لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم" وفي عهده - أيضًا - لأهل نجران "... ولا يغير أسقف من أسقفية، ولا راهب من رهبانية، ولا كاهن من كهنته، وليس عليه دَنِيَّةٌ" (١).

وقد حَفِظَ الإسلام رجال الدين المسيحيين واليهود من سطوة الحروب، فقد جاء في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع" (٢)، وفي خطبة الصديق إلى جيوشه لتحرير العراق والشام جاء قوله: "وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له".

وجاء في عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أهل القدس ضمانات واضحة لحرية الدينية وحرمة معابدهم وشعائرهم ما نصه: "هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، سقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تُسْكَنُ كنائسهم ولا تُهْدَمَ، ولا يُتَقَصَّ منها ولا من حيزها، ولا من صليبيهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكْرَهُونَ على دينهم، ولا يضار أحد منهم".

ومن أبلغ الأمثلة على تسامح الإسلام الرفيع سماح رسول الله صلى الله عليه وسلم لوفد نصارى نجران - وكانوا ستين شخصًا - أن يدخلوا مسجده وأن يجلسوا فيه بضعة

١. الدَنِيَّةُ: الدنيئة، النقيصة.

٢. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، من مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن عباس رضي الله عنها (٢٧٢٨)، وأبو يعلى في مسنده (٤٢٢ / ٤) برقم (٢٥٤٩)، وحسنه الأرناؤوط في تعليقه على المسند.

أيام، فإذا حضرت صلاتهم قاموا متوجهين إلى الشرق على مرأى ومسمع من رسول الله ﷺ دون اعتراض منه أو منع^(١).

والحق الذي يجب الصدع به أن أعظم الشواهد الواقعية على حرية المعتقد في الإسلام، هو ما يرى الآن، من أماكن العبادة: فالكنائس والمعابد والأديرة منتشرة في كل مكان من بقاع العالم الإسلامي شرقاً وغرباً، وهي شواهد تنطق بحرية المعتقد التي جاء بها الإسلام، فلو أن المسلمين كانوا كغيرهم من أتباع الملل والنحل لما شُهِدَ برج كنيسة واحد، ولما سُمِعَ صوت ناقوس، على حين أن الآخرين كانوا يستأصلون شأفة^(٢) المسلمين في ديارهم فما الأندلس منّا ببعيدة، وما البوسنة والهرسك عنّا بغائبة[®].

• حرية الفكر والتعلم، فعندما أرسى الإسلام قواعد المجتمع الإسلامي كان من بين ما أسسه نُشْرُ العلم بين كل فئات ذلك المجتمع، وأبلغ دليل على ذلك هو كثرة الإنتاج العلمي الذي ظهر على أيدي غير المسلمين في شتى المجالات العلمية، واشتهرت أسماء علماء كثيرين من اليهود والنصارى وغيرهم؛ فليس في أحكام الإسلام ما يمنع غير المسلمين من حرية الفكر والتعلم، ولهم تعليم أبنائهم وتنشئتهم وفق مبادئ دينهم، ولهم إنشاء المدارس الخاصة بهم.

وكانت أول مظاهر هذه الحرية قد ظهرت في تطبيقات الرسول العملية؛ إذ كان من ضمن الغنائم التي آلت إلى المسلمين بعد فتح خيبر مجموعة كبيرة من نُسُخ التوراة، فأمر النبي ﷺ بردها مباشرة إلى أصحابها اليهود.

ولقد كانت الجامعات والمعاهد الإسلامية - عبر التاريخ - مفتوحة على مصاريعها لأهل الذمة، حتى تتلمذوا على أيدي علماء المسلمين وفقهائهم، فدرس حُنين بن إسحق على يد الخليل الفراهيدي وسيبويه حتى أصبح حجة في اللغة العربية، وتلمذ يحيى بن عدي على يد الفارابي، ودرس ثابت بن قُرّة على يد محمد بن موسى^(٣).

• حرية التنقل، فلغير المسلمين من أهل الديانات الأخرى حرية التنقل والحركة، والسفر والترحال من بلد لآخر، في أي وقت شاءوا، ولأي اتجاه ساروا؛ فقد جاء في العهد الذي أرسله النبي ﷺ إلى أهل أيلة النصارى قرب العقبة: "بسم الله الرحمن الرحيم هذه أَمَنَةٌ من الله، ومحمد النبي رسول الله إلى يوحنا بن رؤبة، وأهل أيلة سفنهم وسياراتهم في البر والبحر: لهم ذمة الله، وذمة محمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام واليمن.. وإنه لا يحل أن يُمنَعوا ماءً يَرِدُونَهُ ولا طريقاً يُريدونها من بر وبحر".

حرية العمل والكسب وتولى مناصب الدولة:

إن أبواب العمل مفتوحة للمسلمين ولغيرهم لممارسة أي عمل أو مهنة، وهذا ما دفع غير المسلمين

١. السيرة النبوية، ابن هشام، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ج ١، ص ٥٧٤ بتصرف.

٢. استأصل شأفته: قضى عليه، وأنهى وجوده تماماً.

® في "وحشية الصرب في البلقان ووحشية الصليبيين في الأندلس" طالع: الوجه الخامس، من الشبهة الحادية عشرة، من الجزء الثالث (التاريخ الإسلامي ١).

٣. مواطنون لا ذميون، فهمي هويدي، دار الشروق، القاهرة، ط ٤، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م، ص ٧١.

داخل المجتمع الإسلامي بكل ثقة وطمأنينة أن يتوجهوا إلى الأعمال التي تدر أكبر قدر من الأرباح، فقد كانوا صيارفة وضيّاعًا وتجارًا وأطباء.

وكذلك الأمر بالنسبة لتولي وظائف الدولة، فلهم مطلق الحرية في ذلك باستثناء الوظائف التي لها السّمة الدينية الاعتقادية البحتة؛ كالإمامة العامة، والقضاء.

ولهم المشاركة فيما يسمى مجلس الشعب ترشيحًا وانتخابًا، لأن عضوية هذا المجلس تفيد في إبداء الرأي للدولة وعرض مشاكل وأحوال المواطنين ومعالجتها.

ولعل في شهادة توماس أرنولد، صاحب كتاب "تاريخ الدعوة إلى الإسلام" أبلغ دليل على ما سبق عرضه، فقد بيّن أنه كانت لأهل الذمة فترات طويلة تعتبر العهود الزاهرة في تاريخهم، لما لقيه هؤلاء من تسامح في ممارسة شعائهم الدينية، وفي بناء الكنائس والأديرة، وفي مساواتهم بالمسلمين في الوظائف فكانت طوائف الموظفين الرسميين تضم مئات من المسيحيين، وقد بلغ عدد الذين رُقُوا منهم إلى مناصب الدولة العليا من الكثرة لدرجة أثارت شكوك المسلمين.

الحرية الاجتماعية:

والمقصود بها حرية ممارسة كل النشاطات الاجتماعية، كالمهرجانات والأعياد والزيارات، وكانت سمة المجتمع الإسلامي هي التعايش السلمي بين كل طوائفه وملله على اختلافها، وقد سبق الحديث عن الآية الكريمة التي حثت على البر وحسن الصلة لغير المسلمين، وكان رسول الله ﷺ يعود مرضى غير المسلمين، ويزور جيرانه منهم، ويتفقد أحوالهم، فيحسن إلى محتاجهم، ويتجاوز عن سيئهم، ويدعوهم

لِلإسلام بكل رفق ولين.

ولقد كان احتفال غير المسلمين بأعيادهم ومناسباتهم من الأمور المألوفة لدى المجتمع الإسلامي في جو من الحرية والتسامح[®].

موقف الدين الإسلامي من غير المسلمين خارج المجتمع الإسلامي:

غير المسلمين خارج المجتمع الإسلامي هم على ثلاث فئات: المحايدون، والمعاهدون، والمحاربون، وهذا عرض موجز عن علاقة المسلمين بهم:

• المحايدون:

وهم ممن ليسوا في حالة حرب مع المسلمين، ولا تربطهم بالمسلمين معاهدات ولا علاقات، وليس بينهم وبين المسلمين حالة حرب أو عداوة مُعلن، فهؤلاء لهم السلام، وعدم الاعتداء ما داموا على حالة من الحياد، مع استعداد المسلمين لقبول أيبادرة لإنشاء علاقات صداقة وتعاون؛ وذلك أن الأصل في علاقة المسلم مع غير المسلم في غير دار المسلم هو السلام والتعاون والبر.

وهذا كله مستمد من قوله ﷺ: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقِنُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المتحنة).

وهناك حالة أخرى للحياد، حيث يكون المسلمون في حالة حرب مع عدو معين، وهناك قوم آخرون لم

® في "صيانة الإسلام للحقوق الاجتماعية لأهل الذمة" طالع: الشبهة السادسة عشرة، من الجزء السادس عشر (أصالة التشريع الإسلامي). وفي "شغل كثير من الذميين للوظائف العليا في الدولة الإسلامية" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السادسة والأربعين، من الجزء الرابع (التاريخ الإسلامي ٢).

يدخلوا هذه الحرب، وتربطهم بالمحاربين المسلمين علاقات، ولكنهم تجنبوا الدخول في الحرب ضد المسلمين، فهؤلاء يجري عليهم حكم الحياد من المسألة، يقول ﷺ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتٌ صُدُّوهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُقْتَلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَاطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقْنَاهُمْ قَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَرَفْتُمْ فَلَمْ يَقْتُلُوكُمْ وَأَلْفَوْا إِلَيْكُمْ أَلْسَلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ۝٩٠﴾ (النساء).

• المعاهدون:

وهم من يرتبطون من خارج بلاد المسلمين بمعاهدات واتفاقيات ومواثيق مع المسلمين^(١)، فهؤلاء لهم الوفاء الكامل، والتعاون على مبدأ العدالة، والاحترام المتبادل، ويجب على كل المسلمين الوفاء لهم بعهودهم وعدم الإخلال بها، ما داموا أوفياء من جانبهم؛ وذلك لأن الوفاء بالعهود والمواثيق من أعظم الواجبات الإسلامية، يقول الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ (التوبة: ٤)، فإذا نقض هؤلاء المعاهدون عهودهم وجب معاملتهم بالمثل، حتى لو وصل الأمر إلى إعلان حالة الحرب معهم^(٢).

• المحاربون:

وهم الذين في حالة حرب مع المسلمين؛ بسبب

١. آثار الحرب في الفقه الإسلامي، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م، ص ١٧٧.

② في "حرص الإسلام على الوفاء بالعهود والمواثيق" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الحادية والعشرين، من الجزء الرابع عشر (العلاقات الدولية).

اعتدائهم وظلمهم وأذيتهم للإنسان، مسلمًا كان أو غير مسلم، وبسبب منعهم لانتشار دعوة الله تعالى، والوقوف في وجهها بالقوة والعنف، فهؤلاء تنطبق عليهم قوانين الحروب.

رابعًا. تسمية المخالفين "كفارًا" لا تعني أبدًا الاعتداء عليهم، والإسلام ليس بدعًا في هذا:

إن لفظ "الكفر" في اللغة إنما يعني الستر والتغطية؛ ولأن غير المسلمين ستروا الإيمان الموجود في أصل نفوسهم، والمركز في فطرتهم التي فطرهم الله عليها، بجحودهم وإنكارهم، فلذلك سُمُّوا "كفارًا"، فالتسمية - أساسًا - تسمية لغوية، وهي فقط لتمييز من دخل في الإسلام ممن لم يدخل فيه، ولا تعني أبدًا بأي حال من الأحوال، ظلم الآخر، أو الاعتداء عليه دون مبرر أو سبب، بل إن نصوص الشريعة تنهى عن الاعتداء والجور على الآخرين، كما سبق أنوضحنا، ولم يحدث في تاريخ الإسلام والمسلمين أنهم اعتدوا على أحد لمجرد أنه كافر فقط.

إن وصف الكفر يطلقه كل ذي دين على من يخالفه، حتى إن كفار قريش كانوا يُكفِّرون من يدخل في الإسلام، ويقولون: لقد صبا فلان، أي: رجع عن دين آبائه، بل إن طوائف الدين الواحد قد يُكفِّر بعضها بعضًا.

ثم إننا نوجه سؤالاً مهمًّا لأصحاب هذا الادعاء ونقول لهم: ماذا يسمَّى غير المسلمين المسلمين؟ هل يسمونهم مؤمنين مثلهم؟ لا شك أن موقف الإسلام في مثل هذا هو كموقف غيره من الأديان والعقائد. وبإليت الأمر اقتصر على أن يسمي أتباع الديانات الأخرى

مخالفيهم في العقيدة "كفارًا"، فهذا لفظ للتمييز وليس فيه من التحقير والامتهان ما يطلقه اليهود على غيرهم، حيث يسمون غيرهم "أُمِّيَّين" ويستباحون بذلك دماءهم وأموالهم وأعراضهم، بل الأعظم من ذلك جرماً لفظ "الجوييم" الذي يطلقونه على مخالفيهم في العقيدة، وهذا اللفظ يعني: النجس والقذر.

ويبقى جانب آخر، هو أن ذلك مسلك يشبه أن ينتهي إلى نوع تسوية بين من آمن ومن لم يؤمن، وهذه نتيجة طبيعية متى أصبح "الشرك" و"الكفر" من جملة السبب الذي يجب على المسلمين أن ينزهوا عنه تنزهًا يفضي إلى نفيه وإثبات ضده من الإيمان الصحيح، وذلك - بلا شك - ليس توفيقاً بين العقائد، بل هو تميع لها جميعاً. وإلغاء للفروق الكبرى بين التصورات الدينية المختلفة في أصولها وخطوطها العريضة.

خامساً. حقيقة الجزية والغاية من فرضها:

إن أدنى نظرة أو تصفح لتشريعات الإسلام في هذا الشأن لتؤكد أن الجزية مبلغ زهيد من المال، مقابل الحماية واستخدام مرافق الدولة، وتؤخذ من القادرين فقط، ويعفى منها الشيوخ والصبيان والنساء والفقراء. إن أهل الكتاب في ظل الدولة الإسلامية ينتفعون بالمرافق العامة للدولة؛ كالقضاء، والشرطة، وما سوى ذلك؛ كالطرق والجسور ومشاريع الري، وهذا كله يحتاج إلى أموال يدفع المسلمون قسطها الأكبر، ويسهم أهل الكتاب بالجزية فيها، ولا يدفع الجزية منهم إلا قطاع ضئيل جداً، هم الشباب القادرون على العمل، بل إن هذا القطاع يعفى منه الفقير والمريض وغير القادر على العمل، ويضم إلى ذلك القطاع الأكبر، وهم

الشيوخ والصبيان والنساء، وهؤلاء جميعاً لا يُعْفَوْنَ من دفع الجزية فقط، بل يُسَهَّمُ لكثير منهم من بيت مال المسلمين ما يسد حاجتهم.

وعلى هذا فإننا إذا قمنا بمقارنة بين ما تحصله الدولة المسلمة من أهل الكتاب في مقابل ما تنفقه عليهم "في صورة إعانات، أو مرافق يستخدمونها، أو إعفاء من القتال" سوف نجد أن ما تنفقه الدولة أكثر بكثير مما تحصله منهم.

فهل في هذا اضطهاد، وسلب للحريات، وإرهاق بضرائب، أم إنها رحمة الإسلام الواسعة التي تشمل العالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء) ١٠٧.

سادساً. شهادات غير المسلمين على سماحة الإسلام مع مخالفيه:

إن التاريخ يشهد أن اليهود وغيرهم لم يذوقوا طعم الأمن والحرية إلا في ظل الدولة الإسلامية، وذلك ما شهد به المنصفون من دارسي الحضارة الإسلامية الغربيين، والشهادات حول هذا الموضوع كثيرة؛ بحيث يضيق المقام عن ذكرها؛ لذا سنكتفي بذكر نزر يسير منها، وما أحوج الغربيين اليوم إلى تذكر هذا الذي شهد به المنصفون منهم:

● فهذا غوستاف لوبون يؤكد: أن أهم ما تميز به المسلمون الفاتحون هو دماثة خلقهم وتسامحهم الذي فاق كل الحدود، وكان لذلك كبير الأثر على البلاد التي

® في "الحكمة من تشريع الجزية، ومقدارها" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الخامسة عشرة، من الجزء الرابع عشر (العلاقات الدولية).

فتحوها، فيقول: "إن أظهر ما يتصف به الشرقيون - المسلمون - هو أدبهم الجُم، وحلمهم الكبير وتسامحهم، ووقارهم في جميع الأحوال، وقد أورثهم إيمانهم طمأنينة روحية، في حين تُورثنا أمانينا واحتياجاتنا المصنوعة قلقاً دائماً يبعدنا عن تلك السعادة"^(١).

• أما روبرتسون فيرى أن المسلمين تفردوا دون غيرهم بحرصهم الكبير على دينهم، وتوصيله لكل من يجيأ على ظهر الأرض، في إطار من السباحة والمشروعية، يقول: "إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة على دينهم، وروح التسامح نحو أتباع الديانات الأخرى، وإنهم مع امتشاق الحسام تركوا لمن لا يرغب حرية التمسك بدينه".

• كما شهد البطريق عيشوبايه بأن "العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون: "إنهم ليسوا أعداء النصرانية، بل يمتدحون ملتنا، ويوقِّرون قديسينا وقسسينا، ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا"^(٢).

• ويقرر الإنجليزي السير توماس أرنولد في كتابه القيم "الدعوة إلى الإسلام" أن النصارى الذين اعتنقوا الإسلام إنما اعتنقوه عن رغبة جاححة لا عن إرغام وإكراه، فيقول: "لقد عامل المسلمون الظافرون العرب المسيحيين بتسامح عظيم منذ القرون المتعاقبة، ونستطيع أن نحكم بحق أن القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام قد اعتنقته عن اختيار وإرادة حرة،

١. مجلة منار الإسلام، الإمارات، جماري الأولى ١٤١٨ هـ، ص ١١٧ وما بعدها.

٢. التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص ٤١ بتصرف.

وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات المسلمين هم الشاهد على هذا التسامح"^(٣).

ثم يبرهن على ذلك بقوله: "لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن اضطهاد وظلم قصد منه استئصال الدين المسيحي، ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها فرديناند دين الإسلام من إسبانيا، أو التي جعل بها لويس الرابع عشر المذهب البروتستانتي"^(٤) مذهباً يعاقب عليه متبعوه في فرنسا، أو بتلك السهولة التي ظل اليهود بها مبعدين عن إنجلترا مدة خمسين وثلاثمائة سنة".

• ومن وجهة نظره الخاصة يرى توماس أرنولد أن بقاء دور العبادة المسيحية دليل واضح على ما يقوله: "ولهذا فإن مجرد بقاء الكنائس - حتى الآن - ليحمل في طياته الدليل القوي على ما أقدمت عليه سياسة المسلمين في الدول الإسلامية - بوجه عام - من تسامح"^(٥).

• أما زيفريد هونكه فقد نقلت في كتابها "شمس العرب تسطع على الغرب" مقولة لأحد ملوك الفرس الذين بهرتهم سماحة هذا الدين، ويسمى كيروس،

٣. سماحة الإسلام، د. أحمد الحوفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧ م، ص ٨٣.

٤. المذهب البروتستاني: مذهب ديني مسيحي، نشأ عن حركة الإصلاح الديني التي قادها مارتن لوثر، وتدعو إلى تحرر الفرد من سلطان الكنيسة وتجعله مسؤولاً أمام الله تعالى وحده، وتتبعه عدد من الكنائس؛ كالإنجيلية والمعمدانية وغيرهما، ويقابلها الكاثوليكية الرومانية والأرثوذكسية الشرقية.

٥. مجلة منار الإسلام، شعبان ١٤٢٨ هـ، ص ١١٧.

خصوصاً أن الشفقة والرحمة والحنان كانت أمارات ضعف عند الأوربيين، وهذه حقيقة لا أرى وجهاً للطعن فيها".

وكان للتسامح الإسلامي في البلدان المفتوحة أثر كبير في انطباعات الشعوب المجاورة لهذه البلاد، حتى إن أغلبها تمت الفتحة الإسلامي، ووجدت فيه الملجأ والملاذ، يقول ترومان بينزا: "لما فتح العثمانيون القسطنطينية كان أكثر الشعب المسيحي في عَشِيَّة الكارثة ينفرون من أي اتفاق مع كنيسة روما الكاثوليكية^(٣) أشد من نفورهم من الاتفاق مع المسلمين، وما زال الناس يرددون الكلمة المشهورة التي نطق بها رئيس ديني في بيزنطية في ذلك الحين، وهي: "إنه خير لنا أن نرى العمامة التركية في مدينتنا من أن نرى فيها تاج البابوية".

وقد شهدت أوروبا نفسها صوراً مشرقة من تسامح المسلمين فتعامل المسلمون - كدأبهم - مع أهل الأندلس معاملة طيبة وكفلوا لهم حرية العقيدة، بل قلدوهم الوظائف الرفيعة والمناصب العليا.

• يقول الكونت هنري دي كاستري: في كتابه "الإسلام خواطر وسوانح": "وإذا انتقلنا من الفتحة الأولى للإسلام إلى استقرار حكومته استقراراً منظماً رأيناه أكثر حُسناً، وأنعم ملمساً، فما عارض العرب قط شعائر الدين المسيحي".

ثم ينقل عن دوزي قوله: "لقد أبقي المسلمون سكان الأندلس على دينهم وشرعهم وقضائهم وقلدوهم بعض الوظائف، حتى كان منهم موظفون في

يقول: "إن هؤلاء المنتصرين لا يأتون مخربين يدمرون البلاد ويقتلون العباد وينشرون الفساد".

• ويرى القس^(١) ميثو أن القرآن له الأثر الكبير في أهله، فقد أمرهم بالجهاد وفي الوقت نفسه أوجب عليهم التسامح في كل الأحوال، كما يرى أنه من العار على الشعوب المسيحية ألا تتعلم الساحة من المسلمين، فيقول: "إن القرآن الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وقد أعفى الرهبان والبطارقة وخدمهم من دفع الجزية، وحرّم قتلهم لعكوفهم على العبادة".

ثم يواصل قائلاً: "... ومن المؤسف ألا تقتبس النصرانية من المسلمين التسامح الذي هو آية الإحسان بين الأمم واحترام عقائد الآخرين، وعدم فرض أي معتقد عليهم إكراهاً"^(٢).

وقد قارن ميثو في كتابه "ساحة دينية في الشرق" بين الفتحة الإسلامي للقدس في عهد عمر، والاستيلاء المسيحي على القدس، وقد عاب على المسيحيين أنفسهم عدم تحليهم بروح التسامح، فقال: "لما استولى عمر على مدينة أورشليم، لم يفعل بالمسيحيين ضرراً مطلقاً، ولكن لما استولى المسيحيون قتلوا المسلمين ولم يشفقوا، وأحرقوا اليهود حرقاً، ولقد أيقنت من تتبعي للتاريخ أن معاملة المسلمين للمسيحيين تدل على ترفع في المعاشرة عن الغلظة، وحسن مسايرة ولطف ومجاملة، وهو إحساس لم يشاهد في غير المسلمين إذ ذاك،

١. القس أو القسيس: الكاهن، وهو من كان بين الأسقف والشمّاس.

٢. مجلة منار الإسلام، مرجع سابق، جمادي الأولى ١٤١٨ هـ، ص ١١٧ وما بعدها.

٣. الكاثوليكية: التي تتبع سلطة البابا في روما.

خدمة الخلفاء، وكثير منهم تولى قيادة الجيوش، وتولد عن هذه السياسة الرحيمة انحياز عقلاء الأمة الأندلسية إلى المسلمين، وحصل بينهم زواج كثير، وكم من أندلسي بقي على دينه، ولكن أعجبته حلاوة التمدن العربي، فتعلم اللغة وآدابها، وصار القسّس يلومونهم على ترك ألحان الكنيسة والتعلق بأشعار الظافرين، وكانت حرية الأديان بالغة متهاها؛ لذلك لما اضطهدت أوروبا اليهود، لجئوا إلى خلفاء الأندلس في قرطبة؛ لكن لما دخل الملك كارلوس سرقسطة أمر جنوده بهدم جميع معابد اليهود ومساجد المسلمين، ونحن نعلم أن المسيحيين أيام الحروب الصليبية ما دخلوا بلادًا إلا أعملوا السيف في يهودها ومسلميها، وذلك يؤيد أن اليهود إنما وجدوا مجبرًا وملجأ في الإسلام، فإن كانت لهم باقية حتى الآن فالفضل فيها راجع لسماحة المسلمين^(١).

• يقول ميخائيل الأكبر بطريرك أنطاكية بعد أن استعرض سلسلة الاضطهادات التي وقعت على أيدي هرقل ورجاله: "وهذا هو السبب في أن إله الانتقام الذي تفرد بالقوة والجبروت، والذي يدير دولة البشر كما يشاء - فيؤتيها من يشاء، ويرفع الوضع - لما رأى شرور الروم الذين لجئوا إلى القوة فنهبوا كنائسنا وسلبوا أديارنا في كافة ممتلكاتهم، وأنزلوا بنا العقاب في غير رحمة ولا شفقة، أرسل أبناء إسماعيل (المسلمين) من بلاد الجنوب؛ ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم، ولما أسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة

١. سماحة الإسلام، د. أحمد الحوفي، مرجع سابق، ص ٨٣ وما بعدها.

الكنائس التي وجدت في حوزتها، ومع ذلك لم يكن كسبًا هيئًا أن نتخلص من قسوة الروم، وأن نجد أنفسنا في أمن وسلام".

• يقول أدوالدويلي أحد رهبان القديس ديس القسيس الخاص بلويس السابع في الحرب الصليبية الثانية ١١٤٨ م - يقول عن إسلام ثلاثة آلاف صليبي وانضمامهم إلى جيوش المسلمين: "لقد جفوا إخوانهم في الدين، كانوا قساة عليهم، ووجدوا الأمان بين الكفار (يعني المسلمين) الذين كانوا رحماء عليهم، ولقد بلغنا أن ما يربو على ثلاثة آلاف قد انضموا - بعد أن تقهقروا - إلى صفوف الأتراك، آه... إنها لرحمة أقسى من الغدر، لقد منحوهم الخبز، ولكنهم سلبوهم عقيدتهم، ولو أن من المؤكد أنهم لم يكرهوا أحدًا من بينهم على نبذ دينه، وإنما اكتفوا بما قدموه لهم من خدمات".

• أما شهادة د. فيليب حتّى فهي شهادة من نوع خاص، لسبيين، أولها: أنه مسيحي، وثانيها: أنه عربي تجري في عروقه دماء العروبة، فهو يمتدح الإسلام، ويرى جدارته باستيعاب كل من يعيش تحت سمائه، في إطار من العدل والتسامح، فيُعرّف الإسلام بأنه: "حضارة عامة شاملة تنظم كل من يعيش تحت سمائها في حرية وصفاء، ويعيش غير المسلمين والمسلمون على قدم المساواة تربطهم روابط المحبة والأخوة".

وبعد، فهذا نزر يسير من شهادات غير المسلمين من الذين وقفوا على حقيقة هذا الدين السمح بعظمته التي لا تضاهيها عظمة، وبإنسانيته التي ليس لها حدود، فلم يستطع هؤلاء أن يكتبوا شهادتهم، أو أن يسلبوه حقه،

فأنطقهم الله الذي أنطق كل شيء[®].

الخلاصة:

• إن أدنى تأمل في عقيدة الإسلام وتشريعاته الخالدة يوضح أنه دين الرحمة والتسامح، وإفشاء السلام وهداية الناس إلى الخير والصلاح، وليس فيه ما يُحُضُّ على الكراهية والعداء؛ مصداقاً لقوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء).

• حتى الحرب في الإسلام لها ضوابط وأخلاق، فهي حرب شريفة بعيدة عن الاعتداء والجور، وليس في تاريخ المسلمين حروب جائرة، والعالم يشهد بنزاهة حروب المسلمين وأخلاقياتها.

• لقد أثبت التاريخ أن غير المسلمين في كنف الدولة الإسلامية هم أسعد الناس، وذلك بما كفله لهم الإسلام من حقوق، جذبت كثيرين منهم إليه، طوعاً لا قسراً.

• تسمية غير المسلمين "كفاراً" لا تعني ظلمهم أو الاعتداء عليهم؛ فهي للتمييز فقط بين من دخل في الدين، ومن لم يدخل، والإسلام لم يأت بجديد في هذا؛ فكل ذي دين يطلق على مخالفه "كفاراً".

• الجزية مبلغ زهيد من المال مقابل الحماية واستخدام مرافق الدولة، ولا تؤخذ إلا من الرجال القادرين على العمل، أما النساء والأطفال والشيوخ فيعفون منها، بل يُسهم لكثير منهم بما يكفي حاجاته ويغنيه عن سؤال الناس.

• شهادات المنصفين من غير المسلمين على ساحة الإسلام في تعامله مع الآخر الثابتة تؤكد كذب هذا الادعاء وتفضح زيف مدعيه.



الشبهة التاسعة عشرة

الاستدلال بشيوع الإلحاد على خطأ

العقيدة الإسلامية(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المفترين أن الإسلام ليس الدين الحق، ويتساءلون: إذا كان في الإسلام ما يرضي الإنسان ويكفيه، فلماذا - إذن - يتركه الناس ويلحدون؟!

وجوه إبطال الشبهة:

- (١) الإلحاد إنكار لوجود الله ﷻ، وهو من جهة السلوك حالة من الحرية بلا حدود.
- (٢) أسباب انتشار الإلحاد كثيرة ومتنوعة، ومنها: الجهل، واللامبالاة، والنظرة الإباحية، وغيرها، وللإلحاد - بعد ذلك - عواقب وخيمة، فهو يؤدي إلى الأمراض النفسية والانتحار.
- (٣) الإيمان بالله رباً وبالإسلام ديناً فيه صلاح الفرد والمجتمع.

التفصيل:

أولاً. معنى الإلحاد وأساسه النظري:

الإلحاد يعني: الإنكار، والإلحاد من الناحية الفكرية

® في "شهادات المستشرقين بساحة الإسلام" طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الحادية عشرة، من الجزء الثالث (التاريخ الإسلامي) (١).

(*) أسئلة العصر المحيرة، محمد فتح الله كولن، مرجع سابق.

والملائكة، والروح، والشيطان، ووقع التصادم والتناقض التام بينها وبين العقائد الدينية الأساسية^(٢).

ثانياً. أسباب انتشار الإلحاد:

١. الجهل: إن أول بيئة ينمو فيها الإلحاد هي البيئة التي يسود فيها الجهل بالدين، ويغيب عنها العلم والإيمان، فكتل الجماهير التي لا تتلقى تربية وتغذية روحية وقلبية، ستقع - إن عاجلاً أو آجلاً - في براثن^(٣) الإلحاد، وإذا لم تتدخل العناية الإلهية فإنها لن تستطيع إنقاذ نفسها، إذا لم تبذل الأمة عناية خاصة في تعليم ضرورات الإيمان لأفرادها.

٢. اللامبالاة تجاه أسس الإيمان، وعدم الاهتمام بها: ومثل هذا السلوك الذي يتسم بحرية التفكير ما إن يجد أية أمانة صغيرة تعين على الإنكار وعلى الإلحاد، حتى ينمو هذا الإلحاد ويزداد، مع أنه لا يستند إلى أي سبب علمي، ولكن إهمالاً معيناً، أو غفلة معينة، أو تقييماً خاطئاً، كل ذلك قد يولد الإلحاد.

٣. اعتمادهم الأول على قوانين الطبيعة التي هي أهم أداة في يد الإلحاد: لكن هل يمكن أن تكون هذه الطبيعة الجميلة التي تسحر النفوس والأرواح مثل شعر منظم نتيجة مصادفات عمياء؟

إن كانت الطبيعة تملك - كما يتوهم هؤلاء - قوة قادرة على الإنشاء والخلق فهل نستطيع إيضاح كيف استطاعت الطبيعة الحصول على مثل هذه القدرة؟ أنستطيع أن نقول إنها خلقت نفسها بنفسها؟ أي يمكن تصديق مثل هذه المغالطة المرعبة؟

هو إنكار وجود الله ﷻ، وعدم الإقرار به، والإلحاد في مستوى التصور هو حالة الحرية بلا حدود، أما في مستوى العمل والسلوك فيدافع عن الإباحية.

والخاصية الحسية المادية الإلحادية تتجسد في الفكر الفلسفي والأوربي منذ عصر النهضة إلى اليوم، فلقد نادى فلاسفة عصر النهضة بأن "كل العقائد المضادة للخبرة الإنسانية والملاحظة التجريبية يجب أن تستبعد، وسُخروا من النبوات والمعجزات، والوحي، وكل الشعائر والطقوس الدينية بوصفها خرافة، وشبه "فولتير" (١٦٩٤ - ١٧٧٨ م) خَلَقَ الله للكون بتجميع صانع الساعات للساعة، ثم انقطاع صلته بعد ذلك.

ويزداد إنكار الخالق ﷻ في هذه الفلسفة في رفض دافيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦ م) العقائد الدينية على أساس عدم إمكان البرهنة عليها، لا بالتجربة العلمية، ولا بالعقل الإنساني، وهاجم هيوم ربَّ فولتر نفسه معلناً: "أننا رأينا الساعات تصنع، ولكننا لم نر العالم يخلق".

وزعم فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩ م) أن الدين مصدره اللاشعور، لا الوحي، وزعم استحالة البرهنة على صحة الإيمان الديني، ومن ثم أنكر وجود الله^(١).

ولا تزال الثقافة الأوربية بعيدة عن الإيمان بالله، وكتبه ورساله، وعن الإقرار بأن الوحي مصدر من مصادر المعرفة، ونتيجة لإنكار كل وسيلة معرفية غير الحواس، كالحسد والوحي، أنكرت الفلسفات الأوربية المعاصرة كل وجود غير حسي، كوجود الله،

٢. المرجع السابق، ص ٢٦.

٣. البرائن: جمع البرثن، وهو المخلب.

١. نقد الثقافة الإلحادية، د. أحمد عبد الرحمن إبراهيم، دار هجر، القاهرة، ط ١، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م، ص ١٩.

٤. النظرة الإباحية: التي ترى الاستفادة من كل شيء موجود مهما كان ذلك الشيء، أي النظرة التي تستند إلى الفائدة والتلذذ من جميع النعم، وتبذل المحاولات اليوم لصب هذه النظرة في قالب فلسفي وفكري ومنهجي.

٥. غياب النظرة التدبرية في الكون: وهي النظرة المجردة من الأهواء والميول الشهوانية، أو تغييبها، من قبل دعاة الإلحاد، والذين يريدون للعقل ألا يتدبر إلا ما يكتبونه، ولا يأخذ إلا بنظرياتهم المادية.

ومساوئ الإلحاد كثيرة ومتعددة، ومن أهمها:

١. الأمراض النفسية: يقول العالم النفسي الشهير يونج ١٨٧٥ - ١٩٦١ م: "طلب مني أناس كثيرون من جميع الدول المتحضرة مشورة لأمرضهم النفسية في السنوات الثلاثين الأخيرة، ولم تكن مشكلة أحد من هؤلاء إلا الحرمان من العقيدة الدينية".

ويمكن أن يقال: إن مرضهم لم يكن إلا أنهم فقدوا الشيء الذي تعطيه الأديان الحاضرة للمؤمنين بها في كل عصر، ولم يُشَفَ أحد من هؤلاء من المرض، إلا عندما استرجع فكرته الدينية^(١). والشيء الذي فقدوه هو الإيمان بوجود الله ﷻ.

٢. يحرم الإنسان من كل النعم: ويدعه بلا أمل ولا أمن، ويقبل الإنسان على الدنيا فيصطدم بالآخرين، ويحتدم الصراع، ويتردد الإنسان بين الملل والألم - كما يقول "شُوْ بِنْهَوْد" - الملل إذا فاز في الصراع وأشبع بطنه وفرجه، والألم من الحرمان إذا انهزم ولم يشبع حاجاته؛

فالإلحاد يهدم الدين، ولا يعطي الناس شيئاً بديلاً.

٣. انتشار الجريمة والإحساس بالتعاسة، وإدمان الخمر للهروب من الواقع، والانتحار للتخلص من الملل والقلق والغربة النفسية في المجتمعات الملحدة، حتى وصل الانتحار بين الإفريقيين في جنوب إفريقيا إلى (١٠ - ١٠٠,٠٠٠)، وبين البريطانيين (١ - ١٠٠,٠٠٠) وبين الأمريكيين إلى (١١ - ١٠٠,٠٠٠).

ثالثاً. أثر الإيمان بالله في مواجهة الإلحاد وتحقيق صلاح الفرد والمجتمع:

الإيمان بوجود الله فيه سعادة الفرد والمجتمع، فالثقافة الإسلامية هي التي تبني نظاماً أخلاقياً دينياً ثابتاً مطلقاً، قوامه الإيمان بشوَاب الله الأخروي، وجوهره الإيثار الذي يتمثل في تقديم حظ الآخرين على حظ النفس بدرجة أو بأخرى؛ طلباً للفوز بالسعادة الأخروية^(٢).

ويقول جمال الدين الأفغاني: "وأما الاعتقاد بالآلوهية ويوم الجزاء، وفحواه الإيمان بأن للعالم صانعاً عالماً بكل شيء، وسامي القدرة، وأنه قَدَّر للخير والشر جزاءً يُؤَفَّاه مستحقه في الدار الآخرة، فهذه العقيدة هي الوحيدة التي تقمع الشهوة، وتردع الهوى، فهذان الاعتقادان هما وسيلة إحقاق الحق، والتوقف عن الشرود في السر والعلن، وذلك أن العلة الغائية لأعمال الإنسان هي نفسه، فإذا لم يؤمن بأن هناك ثواباً وعقاباً، فلا يوجد ما يحمله على تحمل الفضائل والابتعاد عن الرذائل، وخصوصاً إذا كان

٢. الفضائل الخلقية في الإسلام، مكتبة دار العلوم، الرياض، ١٤٠٢هـ، ص ٢٦٩.

١. نقد الثقافة الإلحادية، د. أحمد عبد الرحمن إبراهيم، مرجع سابق، ص ٣٧.

الشبهة العشرون

في مأمن من الناس^(١).الزعم أن القرآن الكريم يؤكد فكرة الحلول والاتحاد^(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن القرآن يؤكد فكرة الحلول والاتحاد^(٢)، مستدلين على ذلك بقوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَظِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْسُكْ إِيَّتَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (القصص)، قائلين بأن قوله: ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ يوحي بأن الله تعالى يحل في الشجرة، وإذا كان الله - على حد زعمهم - يحل في الشجرة، فمن باب أولى أن يحل في البشر - يقصدون عيسى عليه السلام.

وجوه إبطال الشبهة:

- (١) القول بحلول الله في بعض الأجسام واتحاده معها هو عقيدة وثنية ونصرانية أبطلها الإسلام، ونهى عن القول بها.
- (٢) الأدلة على بطلان القول بالحلول والاتحاد عقلاً ونقلاً.
- (٣) طرق تلقّي الوحي عن الله ﷻ كثيرة، ولا تستلزم الحلول أو الاتحاد، وليس في الآية ما يشير إلى ما ذكروا.

(*) البابية والبهائية في الميزان، مجموعة من علماء الأزهر، مطبوعات الأزهر، مصر، ١٩٨٥ م. برنامج "أسئلة عن الإيمان"، القمص زكريا بطرس، قناة الحياة الفضائية.

٢. الحلول والاتحاد: يقتضي وجود خالق و مخلوق، وبمداومة المخلوق على رياضات روحية معينة حلّ في الخالق كحلول الزبدة في اللبن أو الماء في الإناء، فهذا هو الحلول، أو اتحد به حتى صار شيئاً واحداً، وهذا هو الاتحاد.

وإن النظر في الحالة الدينية للبلاد التي يشيع فيها الإلحاد يُبدي أنّ القيم الإيمانية قد نُحِيتَ رأساً عن إدارة الحياة وعن التكوين النفسي للأفراد؛ فلذلك اجتالتهم المذاهب الإلحادية باسم العلم عن حقائق الدين الكبيرة، وذلك قصاره أن يعطي معنى أن الدين قد غُيِّبَ عن الحياة، أو أن الدين المعين لا يرضى الضمير الإنساني والمدارك السوية، فأما الإسلام فهو بمعزل عن هذه التيارات، وبلاده أقلّ البقاع في ظهور مثل هذه المذاهب.

الخلاصة:

- المظهر العقدي للإلحاد هو إنكار وجود الله ﷻ، والمظهر السلوكي له هو النظرة الإباحية على الحياة ومتاعها، وهو يروج لنفسه على المنهج العلمي ويحث على إعماله.
- الجهل بالحقائق الدينية الكبرى هو ما هياً للمدّ الإلحادي المناخ الملائم للانتشار والرواج، ثم لحدوث نتائجه الطبيعية من الاضطراب النفسي والقلق والانتحار بعد ذلك.
- لا ينتشر الإلحاد إلا حيثما تغيب القيم الدينية عن الحياة، أو حيثما تكون هذه القيم في رتبة من الضعف والتهافت تجعلها قاصرة عن هداية الفرد أو توجيه المجتمع وجهة صالحة.



١. الرد على الدهريين، جمال الدين الأفغاني، ترجمة: محمد عبده، الإسلام العالمية، د. م، ١٩٨٣ م، ص ٧٢، ٧٣.

التفصيل:

أولاً. الحلول والاتحاد عقيدة وثنية أبطلها الإسلام:

الذهاب إلى تقديس أنواع من الجهاد أو الحيوان أو بعض البشر أو الكواكب والنجوم هو اعتقاد موروث عن المجتمعات البدائية التي لم يُهذبها التمدن والحضارة، في عبارات فلسفية هيأت له أن يشيع في المجتمعات التي عرفت طرفاً من المدنية والنظام، على نحو ما نرى في النصرانية من اعتقاد اجتماع اللاهوت والناسوت في شخص المسيح عليه السلام، وما ظهر في الإسلام من مذاهب باطنية منحرفة ادعت حلول روح الله ﷻ في أشخاص بعينهم.

وفي العصور الأخيرة ظهرت مذاهب هي من جنس الباطنية^(١) القديمة، لكن كأنها تلكأت في الزمن فجاءت متأخرة بعد أن أدركت البشرية التقدم العلمي، وأصبح الاعتقاد بمثل هذا ضرباً من الجنون والخلل العقلي، وذلك كالبهائية^(٢) التي خلعت القداسة على مؤسسها البهاء وولده عبد البهاء عباس، وكأن ذلك كله ضرب من عبادة الشيطان الذي حذر القرآن منه

١. الباطنية: مصدر صناعي من باطن، وهي مجموعة فرقة إسلامية مبتدعة، تعتقد أن للدين ظاهراً وباطناً، وأن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً.

٢. البهائية: دعوة أسسها حسين علي نوري الميرزا، المعروف بالبهاء (١٨١٧ م - ١٨٩٢ م)، إيراني مستعرب، ويقال: أخذها عن علي بن محمد الشيرازي الملقب بـ "الباب"، ويقول بوحدة الله والكون، وأن لا أساء، ولا صفات، ولا أفعال له، والبهائية تنادي بوحدة كل الديانات، وتدافع عن الملكية الخاصة، وغايتها المعلنة السلام العالمي الذي يأتي عن طريق اعتناق الديانة البهائية التي ليس لها طقوس ولا رجال دين، من آثار البهاء ما سماه "الكتاب الأقدس" بالعربية، و "الإيقان" بالفارسية، و "الهيكل" أكثره بالعربية.

من قبل، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَئِءَ آدَمَ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٠) وَأَن أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (١١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (١٢) (يس).

إن الإله الحق لا يشبه الخلق، ولا الخلق يشبهونه، وهو غني عن الخلق، والخلق كلهم محتاجون إليه، وهو ﷻ ذو صفات وكمالات مطلقة لا حدود لها، ولا نهاية لها، وحقيقة لا يصل إليها الخلق مجتمعين، فكيف يُخل من هذا شأنه في كائن محدود في ذاته وصفاته وعمره وجميع شأنه؟!

كيف يحل اللامحدود في المحدود؟! إذا تنقلب الحقائق فيصير اللامحدود محدوداً، والمحدود لامحدوداً، وقلب الحقائق مستحيل عند جميع العقلاء.

ثانياً. الأدلة على بطلان القول بالحلول عقلاً ونقلاً:

ما ينبغي أن يحل الإله ﷻ في عبد من عباده - كما زعمت النصراني في المسيح - وهو سبحانه قد بين حقيقته البشرية، فقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ (النساء: ١٧١)، وقال ﷻ عنه وعن أمه: ﴿كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ (المائدة: ٧٥)، وهذا من أبين الأدلة النقليّة على أن المسيح بشر، وليس من صفات الله ﷻ مثل هذه الصفات التي من شأنها النقص، تعالى الله عما وصفه به هؤلاء الواصفون.

ولقد تناسوا أن العبد عبد، وأن الإله إله؛ والله ﷻ يقول: ﴿لَن يَسْتَكْفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَكْفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُ إِلَٰهُ جَمِيعًا﴾ (١٧٢) (النساء)، وغفلوا

عن أن العبادة توفيق وأن الهداية منحة، وأن العبد مهما أطاع واتقى متقلب في نعم الله التي لا تعد ولا تحصى، ولا يملك من أمر نفسه أو غيره شيئاً.

ومن قال عن نفسه: إنه الحق! أو: ما في الجبة إلا الله أو: أنلمنطهوى، ومن أهوى أنا، وكذلك من قال: لقد صار قلبي قابلاً كل صورة

فمرعى لغزلان وديرًا لرهبان وبيتًا لأوثان وكعبة طائف

وألواح توراة ومصحف قرآن أدين بدين الحب أنى توجهت

ركائبه، فالحب ديني وإيماني

كل هؤلاء إما مخبولون فقدوا وعيهم وزاغ منهم البصر، وإما منافقون يحملون وثنيات الأمم ويريدون أن يصدوا عن سبيل الله^(١).

وعقلاً: الإله الحق لا يشبه الخلق، ولا الخلق يشبهونه، وهو غني عن الخلق، والخلق كلهم فقراء إليه، وهو ذو صفات وكمالات مطلقة لا حدود لها، ولا نهاية لها، وحقيقة لا يصل إليها الخلق مجتمعين، فكيف يحل من هذا شأنه في كائن محدود في ذاته وصفاته، وعمره، وكل ما يتصل به؟

إذن تنقلب الموازين والحقائق، فيصير اللامحدود محدودًا، والمحدود لامحدودًا، وهذا قلب للحقائق، وقلب الحقائق مستحيل عند جميع العقلاء.

هذا موقف الإسلام من تلك العقيدة كما تظهره نصوصه، وهو كذلك موقف تؤيده الدلائل العقلية،

١. الإلهيات في العقيدة الإسلامية، د. محمد سيد أحمد المسير، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ٦٤.

والمعتقد النصراني إنما أقرّ مثل هذا بناءً على تصوره الخاص للمسيح عليه السلام؛ ولذلك فإن فكرة حلول الإله تبرير للإفك، لكنه تبرير له بإفك أفضع منه، وبما لا يقبله دين صحيح ولا عقل سليم، والقرآن الكريم لم يكن في آية من آياته مقرّاً لهذا الإفك بحالٍ من الأحوال، ولم تنص المواضع المشار إليها على ذلك الباطل البين.

والآيات تذكر أن الله تعالى نادى موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِياً ۝٥٢﴾ (مريم)، وقال: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ ۝﴾ (القصص: ٣٠).

ولم تقل الآيات إن الله ﷻ تجسّد في جماد، أو في شجرة.

إنه سمع النداء وألقى الله في قلبه هذا النداء، ولم تذكر الآيات أكثر من ذلك.

التجسّد: تجسّد الإله المنزّه عن الشبيه في بشر أو شجر، أمر غير مقبول لا عقلاً ولا شرعاً.

وقد ناقش علماء العقيدة المسلمون منذ القدم هذه الفكرة، فكرة حلوله ﷻ في بعض خلقه - وقد تقدم أنها لا تخص النصارى وحدهم، وأنها ظهرت عند طوائف من المنتسبين إلى الإسلام، ناقش المتكلمون ذلك كله وبينوا مجافاته للإدراك العقلي لا للنصوص الدينية وحدها.

وذلك أن المحلّ الذي يجوز هؤلاء أن ذاته ﷻ تحل فيه لا يتصور فيه أن يكون قديماً متى تقرّر أن الله ﷻ هو واجب الوجود القديم الذي لا ينازعه في القدم سواء، ولا يجوز - كذلك - أن يكون محلاً حادثاً؛ فإن الله ﷻ إن كان محتاجاً إليه كان ذلك نقصاً فيه، وإن لم يكن محتاجاً

الكائنات الحية التي بها حياة يحل فيها الإله، فهل حل الإله فيها جميعاً^(٣)؟!

وليس في هذه الآية ما يصلح شاهداً في قضية الحلول؛ فإن قصارى ما ترشد إليه الآية أن موسى عليه السلام قد سمع صوتاً آتياً من قبل الشجرة، لا أن الله حلَّ فيها، ولا أن كلامه ﷻ مخلوق في الشجرة، فذلك وهذا مما لا تفيدُه الآية، وهما كذلك مما يُنزّه الله ﷻ عنه.

الخلاصة:

- إن القول بالحلول أو الاتحاد وَهُم قديم كانت ذهبت إليه الوثنيات الأولى في صورة عبادة أصناف الجهاد أو الكائنات الحية، ثم تحول إلى العقائد السماوية بعد تبديلها في صورة عبارات مصقولة، لكنها عند التأمل لا تخفى حقيقتها.
- ولقد جاء الإسلام فهدم هذه العقيدة من أصولها، ثم تابع علماء العقيدة المسلمون تنفيذها بمسالك عقلية تظهر ما بها من ضعف وتهافت.
- إحياء الله تبارك وتعالى لأنبيائه لا يلزم عنه حلوله ﷻ أو جزء منه في ذات النبي، بل للوحي طرق أخرى كثيرة بيننا الله ﷻ في كتابه، وشوهدت في أحوال نبيه ﷺ.



إليه لم يكن القول بالحلول أولى من القول بعدمه.

ويضاف إلى ذلك أيضاً أن المحل المدعى إن كان قابلاً للانقسام فما حل فيه كان بمنزلته في التشكل والانقسام، وهو ما لا يليق بجلاله ﷻ وإن لم يكن قابلاً للقسمة فهو بمنزلة الجوهر^(١) الفرد في الصغر والضآلة، وذلك أيضاً لا يليق بصفاته ﷻ.

ثالثاً. طرق تلقي الأنبياء الوحي من الله ﷻ:

لا يتلقى الأنبياء الوحي من الله تعالى عن طريقة الحلول في النبي أو الرسول كما زعموا، بل كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحياً أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّبِينٍ﴾ (الشورى). وطرق الوحي إما الرؤية الصادقة، وإما الإلهام والقذف في القلب من غير رؤية، وإما أن يكلم الله نبيه بما يريد من وراء حجاب يقظة أو مناماً، وإما بإرسال الملك، والملك إما أن يتمثل في صورة رجل، أو في صورته التي خلقه الله عليها، أو يأتي على صورته الملائكية لكنه لا يُرى^(٢). ولا يتصور أن يحل الله ﷻ في نبي ليلغى وحيه، والله تعالى منزّه أن يحل في مخلوق، لا في نبي ولا في غيره.

والروح التي في الجسد، وتحل فيه ما هي إلا خلق من خلق الله، وليس حلولها يعني أن الله حل في إنسان، وإلا لكان الناس جميعاً حلت فيهم آلهة أو إله، بل كل

١. الجوهر: حقيقة الشيء وذاته، أو أصله ومادته، وهو ما قام بنفسه، ويقابله العَرَض وهو ما يقوم بغيره.

٢. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عباد السيد الشربيني، مطابع دار الصحافة، مصر، ط ١، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م، ص ٢٧١: ٢٧٨ بتصرف.

٣. انظر: البابية والبهاية في الميزان، مجموعة علماء الأزهر، مرجع سابق. الجواب الفسح لما لفقّه عبد المسيح، الألوسي، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، دار الجليل، بيروت، د. ت.

الشبهة الحادية والعشرون

ادعاء أن الله ﷻ كائنٌ في كل مكان بذاته (*)

مضمون الشبهة:

يعتقد بعض الطوائف أن الله ﷻ في كل مكان بذاته، على ما في ذلك من تمهيد للقول بالحلول واختلاطه ﷻ بمخلوقاته، وينكرون ما تواتر عن السلف والأئمة من إثبات استوائه ﷻ على عرشه وعلوه وفوقيته. وقد يستدلون على ذلك بظواهر بعض الآيات؛ كقوله ﷻ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ (الحديد: ٤).

وجها إبطال الشبهة:

(١) إثبات العلو والفوقية لله ﷻ عقيدة ثابتة لها دلائلها الكثيرة من نصوص القرآن، فضلاً عن دلالة الفطرة والعقول السويّة.

(٢) علوه ﷻ لا ينافي شمول علمه وإحاطته بالخلائق، وأنه أقرب إليهم من حبل الوريد.

التفصيل:

أولاً. إثبات العلو والفوقية لله ﷻ:

أخبرنا الله تبارك وتعالى أنه في السماء مستوي على عرشه، فقال: ﴿مَا أَمْنُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ (١٦) أَمْ أَمْنُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) (الملك)، وفي الحديث الصحيح: "أنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات، عبد الله عبد الفادي.

صباحًا ومساءً" (١).

وجاء في الصحيح أيضًا أن النبي ﷺ سأل جارية معاوية بن الحكم السلمي "أين الله؟ قالت: في السماء. قال: "من أنا؟ قالت أنت رسول الله، قال: "أعتقها فإنها مؤمنة" (٢).

معنى كونه ﷻ في السماء:

وليس المراد بأن الله ﷻ في السماء أَنَّ جُزْمَ (٣) السماء تحويه، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، بل المراد بالسماء: العلو والفوقية، فقد وصف نفسه ﷻ بأنه الأعلى، فقال: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) (الأعلى) وبأنه تبارك وتعالى العلي العظيم: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَهُوَ يُبْصِرُ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (٢٥٥) (البقرة).

معنى استوائه على عرشه:

قال ﷻ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٥) (طه). ومذهب أهل السنة وأصحاب الحديث أنهم يشبّهون استواءه على العرش، ولا ينفونه (٤)، ولا يكتفون (٥). قال داود بن علي الأصبهاني: كنت عند ابن الأعرابي، فأتاه رجل فقال ما معنى قوله ﷻ: ﴿الرَّحْمَنُ

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن (٤٠٩٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج (٢٥٠٠).
٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة (١٢٢٧).
٣. الجُزْم: النجم أو الكوكب.
٤. النفي: مذهب المُعْطَلَة، وهم الذين ينفون صفات الله تعالى، وينسبون إليه النقص.
٥. التكيف: هو تعين كُنه الصفة؛ يقال: كَيْفَ الشيء؛ أي: جَعَلَ له كَيْفِيَّةً معلومة.

عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى ﴿١﴾. فقال ابن الأعرابي: هو على عرشه كما أخبر، فقال: يا أبا عبد الله، إنما معناه استولى، فقال ابن الأعرابي: فما يدريك؟ العرب لا تقول استولى على الشيء حتى يكون له مضاد، فأيهما غلب فقد استولى عليه، أما سمعت قول النابغة:

إِلَّا لِيُثْلِكَ أَوْ مَنْ أَنْتَ سَابِقُهُ

سَبَقَ الْجَوَادُ إِذَا اسْتَوَى عَلَى الْأَمَدِ

وهذا النهج وهو معرفة معنى الاستواء وجهل الكيفية والنهي عن البحث فيها - هو منهج السلف الصالح، فعندما سئل الإمام مالك عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى﴾ ﴿٢﴾ كيف استوى؟! قال ما معناه: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة".

ويقول القرطبي: "كان السلف الأول ﴿٣﴾ لا يقولون بنفي الجهة، ولا ينطقون بذلك، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله ﴿٤﴾، كما نطق كتابه، وأخبرت رسله، ولم ينكر أحد أنه استوى على عرشه حقيقة، وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته، وإنها جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تعلم حقيقته" ﴿٥﴾.

والعلو والفوقية ثابتان بالكتاب والسنة وإجماع الملائكة والأنبياء والمرسلين - عليهم السلام - وأتباعهم - على الحقيقة - من أهل السنة والجماعة، وهو سبحانه وتعالى فوقهم مستويًا على عرشه عاليًا على خلقه بائنًا منهم، يعلم أعمالهم ويسمع أقوالهم ويرى

حركاتهم وسكناتهم، لا تخفى عليه منهم خافية، والفطرة السليمة والقلوب المستقيمة مجبولة ﴿٦﴾ على الإقرار بذلك ولا تنكره، فأسماءه الحسنى دالة على ثبوت جميع معاني العلو له تعالى كاسمه الأعلى، واسمه المتعالى، واسمه الظاهر وغيرها.

وهذه الأسماء تدل على ثبوت جميع معاني العلو لله تعالى ذاتًا وقهرًا وشأنًا، ومن ذلك التصريح بالاستواء على عرشه كما قال ﴿٧﴾: ﴿إِن رَّبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى أَيْلَ النَّهَارِ يَظْلُمُهُ حَيْثُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٨﴾ (الأعراف)، وقوله ﴿٩﴾: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ ﴿١٠﴾ (الرعد)، وفي حديث أنس في فضل الجمعة وتسميته في الآخرة "يوم المزيّد" يقول في آخره: "وهو اليوم الذي استوى فيه ربك على العرش" ﴿١١﴾.

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنها - قال: كانت زينب - رضي الله عنها - تفخر على أزواج النبي ﴿١٢﴾ وتقول: زَوَّجَكُنَّ أَهْلِيكُنَّ، وزوجني الله من فوق سبع سموات ﴿١٣﴾.

وعن جابر بن سليم قال: سمعت رسول الله ﴿١٤﴾

٢. المجبولة: المفطورة، المطبوعة.

٣. صحيح: أخرجه البيهقي في معرفة السنن والآثار (١٨٤١)، وصححه بمجموع الطرق في العلو (١/ ٣١).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ (هود: ٧) (٦٩٨٤).

١. العقيدة في الله، د. عمر سليمان عبد الله الأشقر، دار السلام، القاهرة، دار النفائس، الأردن، ط ١، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م، ص ٢٠٦.

يقول: "إن رجلاً من كان قبلكم لبس بُرْدَيْن فتبخرت، فظفر الله إليه من فوق عرشه فمَقَّتَه، فأمر الأرض فأخذته، فهو يتجلجل فيها"^(١).

وروى ابن أبي شيبة عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: لما قبض رسول الله ﷺ قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: "أيها الناس إن كان محمد إلهكم الذي تعبدونه فإن إلهكم قد مات، وإن كان إلهكم الله الذي في السماء فإن إلهكم لم يمت"، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران)^(٢).

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: لما لعن الله إبليس وأخرجه من جنته ومن سماواته وأخزاه قال: "رب أخزيتني ولعنتني وطردتني عن سماواتك وجوارك، فوعزت لك لأغوين خلقك ما دامت الأرواح في أجسادهم"، فأجابه الرب ﷻ فقال: "وعزتي وجلالي وارتفاعي على عرشي، لو أن عبيدي أذنب حتى ملأ السماوات والأرض خطايا، ثم لم يبق من عمره إلا نفس واحد، فندم على ذنوبه لغفرتها، وبدلت سيئاته كلها حسنات"^(٣).

١. صحيح: أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٧/ ٦٣) برقم (٦٣٨٤)، وصححه ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (٥٥).

٢. صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب المغازي، باب ما جاء في وفاة النبي ﷺ (٣٧٠٢١)، والبخاري في مسنده (١/ ٦١) برقم (١٠٣)، وصححه الذهبي في العلو (١/ ٦٢).

٣. انظر: معارج القبول بشرح سلم الوصول، حافظ بن أحمد حكيمي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط ١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ج ٢، ص ١٣١: ١٥٠.

ومن أقوال التابعين في مثل هذا ما روي عن كعب الأحبار رضي الله عنه أنه قال: قال الله ﷻ في التوراة: "أنا الله فوق عبادي، وعرشي فوق جميع خلقي، وأنا على عرشي أدبر أمور عبادي، ولا يخفى علي شيء في السماء ولا في الأرض" وعن مسروق أنه كان إذا حدث عن عائشة - رضي الله عنها - قال: حدثني الصديقة بنت الصديق حبيبة الله المبرأة من فوق سبع سماوات^(٤). وعن سفيان قال: كنت عند ربيعة بن أبي عبد الرحمن فسأله رجل فقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه)، كيف استوى؟ فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلىنا التصديق[®].

ثانياً. علو الله ﷻ لا ينافي قربهِ؛ فقد أحاط علمه وقدرته بكل شيء:

إن استواء الله ﷻ على عرشه وإثبات فوقيته في السماء لا ينافيه أنه ﷻ في كل مكان بعلمه وقدرته، فلا يعزب عن علمه شيء دق أو جل في السماوات ولا في الأرض، وعندما نقول هذا لا نعني أنه تعالى يشغل حيزاً مكانياً كسائر الأجسام، عندما نقول: إنه واحد أحد، فإننا نشير إلى جلاله وإلى عظمته، وعندما نقول: إنه معنا نقصد أنه معنا بعلمه وقدرته لا بذاته وهو بلا شبهة، تعالى أن يكون له شبهة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى).

٤. ذكره الذهبي في العلو للعلي الغفاري (٣١٧)، وقال: إسناده صحيح. [®] في "عقيدة السلف في تفسير استواء الله على العرش" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الخامسة والثلاثين، من هذا الجزء.

أي أن الله ﷻ على الرغم من أنه يحيط بنا بصفاته هذه، وأقرب إلينا من حبل الوريد، إلا أننا لا نملك الوصول إليه في عليائه ﷻ.

والمقصود ب: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ (الحديد: ٤)، أي: بعلمه؛ لأن الآية تتكلم عن سعة علم الله وإحاطته بكل شيء: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المجادلة).

إن نفوساً كثيرة من المؤمنين تستشعر معية ربها ﷻ ومراقبته وجلاله على وجه أجلى ممن ينظرون إليهم من الناس، ويدعوهم ذلك إلى ملازمة أوامره ومجانبة نواهيها.

إن الله ﷻ أمرنا أن ننظر إلى آثار رحمته، وأن نتفكر في خلقه، وليست عقولنا مؤهلة لأن تستوعب معية الله لنا أكثر من الاعتبار بآثار صفاته من علمه ورحمته، وتفضله وبره.

قال الإمام ابن تيمية في العقيدة الواسطية بعد أن سرد الآيات والأحاديث في الصفات: وقد دخل فيما ذكرنا من الإيمان بالله الإيمان بما أخبر به في كتابه وتواتر عن رسول الله ﷺ وأجمع عليه سلف الأمة من أنه ﷻ فوق سماواته على عرشه عَليّ على خلقه، وهو سبحانه معهم أينما كانوا، يعلم ما هم عاملون، كما جمع بين ذلك في قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الحديد)، وليس معنى قوله ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أنه مختلط بالخلق؛ فإن هذا لا توجهه اللغة، وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق، بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته، وهو موضوع في السماء، وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان، والله سبحانه فوق العرش، رقيب على خلقه، مهيمن عليهم، مطلع عليهم، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته.

وكل هذا الكلام الذي ذكر عن الله تعالى من أنه فوق العرش وأنه معنا حقاً على حقيقته لا يحتاج إلى تحريف، ولكن يُصان عن الظنون الكاذبة، مثل أن يُظن أن ظاهر قوله: "في السماء" أن السماء تُقْلَهُ أو تُظْلَهُ، وهذا باطل بإجماع أهل العلم؛ فإن الله قد وَسَّعَ كرسيه السماوات والأرض، وهو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره^(١).

وجاءت امرأة من "ترمذ" كانت تجالس جَهْمًا فدخلت الكوفة، فقيل لها: إن ههنا رجلاً قد نظر في المعقول، يقال له أبو حنيفة فأتيته، فأتته فقالت: أنت الذي تعلم الناس المسائل وقد تركت دينك، أين إلهك الذي تعبد؟ فسكت عنها سبعة أيام لا يجيبها، ثم خرج وقد وضع كتاباً سماه: "إن الله ﷻ في السماء دون الأرض". فقال له رجل: رأيت قول الله ﷻ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾؟ قال: هو كما تكتب إلى رجل: إني معك، وأنت غائب عنه.

١. انظر: معارج القبول بشرح سلم الوصول، حافظ بن أحمد حَكَمِي، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٣٠: ١٥٠.

الشبهة الثانية والعشرون

إنكار وجود الله تعالى (*)

مضمون الشبهة:

تنكر طائفة من الملحدين^(١) والماديين^(٢) وغيرهم أن يكون لهذا الكون إله خالق مدبر ميسر، ويزعمون أنه وجد صدفة، وأن الطبيعة بقوانينها هي التي تسير في حركة ذاتية يحكمها قانون التطور والارتقاء؛ فالعناصر والكائنات تتطور وترتقي من حالٍ إلى حال، ومن كونٍ إلى كون، فالقرد يتطور إنساناً، والإنسان ينتهي إلى تراب، ولا يوجد إله يخلقه، أو يحييه، أو يميتة.

وجوه إبطال الشبهة:

- (١) التدبر في نظام الكون وتناسقه يفضي بالضرورة إلى الإقرار بالألوهية والوحدانية جميعاً.
- (٢) إنكار وجود الله دعوى إلهادية لا دليل عليها، بل الأمر على عكس ذلك، فالأدلة قائمة على وجود الله تعالى في الكون والآفاق والأنفس، وحدوث الكون مصادفةً مستحيل من الناحية العلمية والعقلية، وقد نفى العلم الحديث نظرية التطور.
- (٣) الفطرة السوية تتجه إلى فاطرها وتؤمن بوجوده، وليس الإلحاد إلا انحرافاً عن الفطرة السليمة.

(*) نقد الثقافة الإلهادية، د. أحمد عبد الرحمن إبراهيم، مرجع سابق.

١. الملحّدون: جمع مُلحد، وهو الذي ينكر الألوهية ويرفض أدلتها.

٢. المادّيون: جمع مادي، وهو الذي يرجع كل شيء إلى المادة؛ أي: صاحب نظرة مادية للأُمور.

وسئل الإمام أحمد: الله فوق السماء السابعة على عرشه بائن من خلقه، وقدره وعلمه بكل مكان؟ قال: نعم، هو على عرشه، ولا يخلو شيء من علمه، وقيل له: ما معنى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾؟ قال: علمه محيط بالكل، وربنا على العرش بلا حد ولا صفة.

وقال أبو عمرو الطلمنكي: أجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ ونحو ذلك من القرآن أنه علمه، وأن الله ﷻ فوق السماوات بذاته، مستوٍ على عرشه، كما نطق به كتابه، وعلماء الأمة وأعيان الأئمة من السلف لم يختلفوا أن الله على عرشه فوق سماواته. وقال أبو نصر السجزي: "أئمتنا متفقون على أن الله ﷻ بذاته فوق العرش وعلمه بكل مكان".

الخلاصة:

- الله واحد أحد، في السماء مستوٍ على عرشه، وليس معنى كونه في السماء أن جُرم السماء تحويه؛ بل المراد بالسماء: العلو والفوقية، وليس معنى استوى على عرشه: استولى على عرشه، بل استواؤه سبحانه وتعالى معلوم بلا كيفية ولا تشبيه، ولا تعطيل ولا تمثيل، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى).

- علو الله تعالى لا ينافي قربه، فقد طال علمه وقدرته كل شيء، فهو معنا بقدرته وعلمه وجلاله وإرادته؛ وعليه، فعبارة "الله في كل مكان" خاطئة، إذا أراد بها قائلها أن الله كائن في كل مكان بذاته.



(٤) الآثار المروعة للثقافة الإلحادية تؤكد زيف أصحابها عن صراط الله المستقيم.

(٥) رجوع كثير من الملحدين واعترافهم بوجود الله بعد طول تدبر وإنعام نظر، وإعمال عقل في رحاب الله وخلقه.

التفصيل:

أولاً. نظام الكون وتناسقه شاهد على ألوهية الله ﷻ ووحدانيته:

كل هذه أسئلة حارت فيها العقول، وعجزت عن إجابتها الأفهام؛ لأنها اعتمدت على أفكار إلحادية مسبقة تنكر وجود الخالق ﷻ، تلك القيود التي كبلت العقول عن أن تنطلق في رحاب الخلق لتستدل به على الخالق، وطمست على الأفهام، فلم تتفتح لتدرك مظاهر القدرة ودلائل الإعجاز في بديع صنع الله في الآفاق وفي الأنفس، ولكن كما يخاطب القرآن الوجدان البشري ليوقظه إلى حقيقة الألوهية، فإنه كذلك يخاطب العقل البشري ليفكر ويتدبر، وينظر في آيات الله في الكون ليعرف دلالتها، وإليك نماذج من الأسئلة التي ترد على العقل ليتفكر ويتدبر.

- هل يمكن أن يوجد هذا الكون الهائل بغير خالق؟
- هل يمكن أن يدبر شئون هذا الكون الضخم إلا إله قادر عليم حكيم؟
- هل يمكن أن يكون لهذا الإله شريك في الملك، أو شريك في التدبير؟
- هل آيات القدرة المبثوثة^(١) في تضاعيف

الكون^(٢) تشير بأن هذا الإله يمكن أن يعجز عن أمر من أمور الخلق، أو التدبير، أو الرزق، أو الإحياء، أو الإماتة، أو البعث، أو الجزاء؟

وتلك كلها أمور سبق للقرآن أن خاطب فيها وجدان الإنسان وعقله؛ فكما عرض هذه الأمور كلها على الوجدان عرضاً مؤثراً ينتهي باقتناع الوجدان وإدراكه لحقيقة الألوهية، فكذلك يعرضها على العقل؛ يناقشه ويوقظه للتفكير المنطقي السليم، الذي يؤدي في النهاية إلى الغاية ذاتها، وهي إدراك حقيقة الألوهية، ومن ثم وجوب الإيمان بالله الواحد دون شريك.

والآيات التي تخاطب العقل وتدعو إلى التأمل والتدبر كثيرة في القرآن نجتزئ بذكر نماذج منها؛ كقوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ (الذاريات).

ولو تأمل الإنسان بعقله الآيات المبثوثة في الأرض، والآيات المبثوثة في النفس لأصابه العجب والذهول لكل آية من هذه الآيات المعجزة، التي ينم كل منها على وجود الخالق سبحانه، وعلى قدرته المعجزة التي لا تقف عند حد.

فالأرض جِرمٌ صغيرٌ بالنسبة للأجرام السماوية الضخمة التي يزخر بها هذا الكون، لا تعدو أن تكون كحبة الرمل بالنسبة للصحراء الواسعة التي لا يأتي البصر على آخرها. ومع ذلك ففيها - على ضآلتها - من آيات الله المعجزة ما يعجز الخيال عن تتبعه فضلاً عن إحصائه، وفيها من الخصائص التي أودعها الله بها ما يذهل العقول.

٢. تضاعيف الكون: نواحيه وأرجاؤه.

١. المبثوثة: المنتشرة.

فقد هياها الله - وحدها فيما نعلم حتى اليوم من الأجرام الأخرى - بخاصية الحياة، وجعل لها من الظروف ما يجعل الحياة عليها ممكنة الوجود والاستمرار، فكتلتها محسوبة بحساب رباني دقيق يجعل جاذبيتها تحتفظ حولها بغلاف جوي لا يتبدد، وفي هذا الغلاف يوجد الأكسجين^(١) المطلوب لتنفس الكائنات الحية، وبالقدر المطلوب لتنفس هذه الكائنات بلا زيادة فيه ولا نقصان؛ لأن الزيادة والنقصان هما معاً مما يضر هذه الأحياء! وحرارتها محسوبة بذلك الحساب الرباني الدقيق، بالصورة التي تحتملها الكائنات الحية فلا تموت من شدتها ولا من ضعفها!، والأقوات فيها محسوبة بحيث تفي بحاجة تلك الكائنات من الغذاء مع توازن دقيق بين كل هذه الكائنات وبين أقواتها:

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ (١٩) ﴿(الحجر)، وَقَدَرْنَا فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ (فصلت: ١٠).

وعلى ذكر التوازن في الأرض بين الكائنات الحية والتوازن في الأقوات، فقد ذكرت الأنباء أن الشيوعيين في الصين سولت لهم أنفسهم الشريرة أن يقتلوا جميع العصافير الموجودة في الصين بحجة أنها تأكل عشرة في المائة من مجموع الغلال التي يزرعونها! فجندوا في كل القرى والمدن فرقاً تتنابض الضرب على الدفوف وقطع الصفيح ليل نهار لمدة ثلاثة أيام، فكلما أرادت العصافير أن تأوى إلى عشوشها؛ لتنام أو تستريح أزعجها

١. الأكسجين: عنصر غازي من عناصر الهواء، عديم اللون والطعم والرائحة، يكونُ خمسُ الهواء الجوي، يعدُّ أساس التأكسد والاحتراق وضرورياً لتنفس الإنسان والحيوان.

الصوت فعادت إلى الطيران، حتى هلكت جميع العصافير من الجوع والعطش، والتعب وعدم النوم، وفرح الشريرين بأنهم قضوا على تلك المخلوقات الصغيرة اللطيفة، واطمأنوا إلى أن المحصول سيصل إليهم كاملاً غير منقوص! ولكن الله كان لهم بالمرصاد! فإن الحشرات الضارة التي كانت تلك العصافير تأكلها فتمنع أذاها عن الزرع بحكمة الله وتدبيره، انتشرت في الأرض بعد موت العصافير فأكلت خمسين في المائة من المحصول! وهكذا حين أراد هؤلاء أن يغيروا التوازن الذي أوجده الله في الأرض بحكمته أصابهم الجزاء الرادع من عند الله، وكانت هذه آية لهم لو كانوا يعتبرون!

وهكذا لو مضينا نتبع آيات الله في الأرض لوجدنا عجائب لا تنتهي: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّرَاتٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الرعد: ٤).

فالأرض فيها قطع متجاورات تختلف بنية كل منها عن الأخرى رغم تجاورها، بعضها ينبت الزرع وبعضها لا ينبت، وبعضها يصلح لأنواع معينة من الزرع دون غيرها، وتلك وحدها عجيبة.

ثم إن الأرض الواحدة تنبت أنواعاً شتى من الزروع والنخيل والأعشاب كلها يسقى بماء واحد، ولكن بعضها يختلف عن بعض، حتى النوع الواحد، كالنخيل تخرج منه النخلة المفردة والنخلة المزدوجة، وتلك عجيبة أخرى.

ثم إن هذه الزروع مختلفة الطعوم والمذاقات، يفضل

الناس في طعامهم بعضًا منها على بعض، وتلك عجيبة
ثالثة.

ثم إن الطعام الواحد قد يفضله إنسان ولا يفضل
إنسان آخر حسب ذوقه الخاص المركب في طبعه، وتلك
عجيبة رابعة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الرعد).

أما الآيات في الأنفس فإنها أعجب! فالخلية^(١)
الواحدة الملقحة التي يتكون منها الجنين تشتمل على كل
خصائص الجنس البشري، وهي لا تكاد ترى! فينمو
منها إنسان كامل فيه كل خصائص الإنسان!

ثم إنها تنقسم وتتخصص في أثناء نمو الجنين،
فيصبح جزء منها رأسًا، وجزء آخر يداً، وجزء ثالث
قدمًا، وهكذا. ثم إنها تحتوي كذلك على جزئيات تحمل
الخصائص الوراثية التي يرثها الجنين من الأب والأم أو
الأجداد، فقد يحمل الجنين صفة من الأب، كلون
الشعر مثلاً، وصفة من الأم كلون العينين وصفة من
أحد الجدود، كالطول أو القصر، أو شكل الأنف، أو
شكل الأذن. بل الأعجب من ذلك وراثه الصفات
النفسية والعقلية، كالكرم أو البخل، والشجاعة، أو
الجبين، والذكاء أو الغباء، والميل إلى العلوم أو الميل إلى
الآداب!

وهذه الصفات العقلية ذاتها: ما هي؟ كيف توجد؟
وأيّن توجد؟ كيف يفكر العقل؟ كيف يتذكر الإنسان
ما يتذكر؟

١. الخلية: وحدة بناء الأحياء من نبات أو حيوان، صغيرة الحجم
لا تُرى بالعين المجردة، وتتألف المادة الحية للخلية - وهي
البروتوبلازم - من النواة والسيتوبلازم وغشاء بلازمي يحيط بها،
ويحيط بالخلية النباتية كذلك جدار خلوي يتكون من السليولوز.

إن كل أبحاث العلم حتى هذه اللحظة قد عجزت
عن أن تقول لنا كيف يفكر العقل، وكيف يتذكر! وأيّن
تكون الأفكار، وأيّن تحتزن المعلومات، وكيف
يستدعيها الإنسان حين يريد استدعاءها، وكيف تخطر
على باله أحيانًا بغير استدعاء!

والصفات النفسية كذلك، ما هي؟ كيف توجد
وأيّن توجد؟ كيف تتكون في النفس صفة الكرم، أو
البخل، أو الشجاعة، أو الجبن؟ وفي أي مكان تكمن
هذه الصفة في الإنسان؟ في جسمه؟ أين؟ في مخه؟ أين؟
هل هي شيء معنوي أو مادي؟ وفي كلا الحالين كيف
تؤثر في تصرفات الإنسان وسلوكه؟

وأعجب من ذلك: كيف تورث؟!

ولو مضينا نتبع خصائص الإنسان، وآيات الله في
الأنفس، لما انتهينا من العجب لكل خصيصة وكل آية،
ولأدركنا أن هذا كله لا يمكن أن يحدث من تلقاء نفسه
بهذه الدقة المذهلة، لا بد له من مُوجد، ولا بد أن يكون
هذا الموجد حكيمًا وقادرًا إلى حدّ الإعجاز، وإلا ما
استطاع أن ينشئ هذا الخلق الدقيق المعجز، الذي
تحتوي كل جزئية منه على عجائب لا يحصرها العقل.

ومن أجل ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ
لِّلْمُوقِنِينَ ۖ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۚ ﴿٢١﴾﴾ (الذاريات)،
﴿أَمْ أَتَّخِذُوا إِلَهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۚ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ
فِيهِمَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ
﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ۚ ﴿٢٣﴾ أَمْ اتَّخِذُوا مِن
دُونِهِ إِلَهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَنْ مَّعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ۚ ﴿٢٤﴾﴾ (الأنبياء).

في هذه الآيات يخاطب القرآن العقل لكي يتدبر

الأمر ويستخلص نتيجة منطقية لما يرى حوله من الآيات، ويطلبه أن يأتي بالبرهان على ما يدعيه مخالفًا للحق الظاهر.

فالحق الظاهر أن هذا الكون متناسق إلى أبعد ما يتصور العقل من التناسق والتنظيم: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَإِنَّجِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ (٢) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَيْنٍ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ (الملك). فدورة الفلك المضبوطة التي لا تحتل قيد شعرة في هذا الكون العريض كله، ودورة الليل والنهار الناشئة من حركة الأفلاك، والتي تأتي في موعدها المضبوط بالدقيقة والثانية وأجزاء الثانية على مدار الفصول، وعلى مدار القرون والأجيال.

وخواص المادة التي أودعها الله فيها - لا تخطئ مرة واحدة على مر الزمن، ولا تختلف مرة عن مرة، فالحديد هو الحديد، والنحاس هو النحاس، والأكسجين هو الأكسجين، لا يتغير تركيبها ولا خواصها، ولا يتغير سلوكها إزاء الحرارة والبرودة، أو إزاء الضغط أو في تفاعلاتها الكيميائية مع غيرها من العناصر. لا يحدث مرة واحدة أن يتكون الماء إلا من ذرة الأكسجين وذرتين من الأيدروجين^(١)، ولا يحدث مرة أن يسخن الحديد فلا يتمدد، ولا يحدث مرة أن يطرق النحاس فلا ينطرق.

والذرة التي هي أبسط التكوينات التي أمكن للعلم حتى اليوم أن يكشف عنها في نظامها الدقيق العجيب

١. الأيدروجين أو الهيدروجين: غاز عديم اللون والطعم والرائحة، وهو أخف العناصر، يتحد مع الأكسجين بنسبة خاصة فيكون الماء.

المكون من نواة^(٢) - هي البروتون^(٣) - وأجسام صغيرة غاية في الدقة - هي الإلكترونات - تدور حولها في نظام دقيق، متجاذبة معها ومتعادلة في الشحنة الكهربائية في وضع يشبه الشمس ومن حولها الكواكب.

والخلية الحية وسلوكها العجيب في غذائها وإفرازها ونموها وتكاثرها، والكائنات الحية وخصائصها التي تميز كل جنس منها عن الآخر، وتميز كل نوع من أنواع الجنس عن الآخر، فلنبات عامة خصائصه، ولكل نوع من النبات خصائصه، وللحيوان خصائصه، ثم لكل نوع من أنواعه خصائصه.

ثم إن الإنسان أعقد الكائنات الحية وأرفعها، وكل جزء في تكوينه عجيبة في تناسقه وأداء وظيفته، هل يمكن مع ذلك كله إلا أن يكون في السماوات والأرض إله واحد مسيطر مدبر حكيم خبير هو الله ﷻ؟ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةُ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢).

أليس كل إله يخلق بمفرده كيف يشاء؟ فكيف يتطابق الخلق الصادر عن واحد من الآلهة مع الخلق الصادر عن إله غيره؟ كيف تكون الشجرة التي يخلقها واحد من الآلهة متطابقة تمامًا في كل أحوالها مع الشجرة التي يخلقها إله آخر؟ كيف يكون الماء الذي يخلقه أحد الآلهة هو الماء نفسه الذي يخلقه الإله الآخر من ذرة من الأكسجين وذرتين من الأيدروجين؟

كيف تنتظم دورة الفلك التي ينشئها إلهان مختلفان، ويشرف على شئونها أكثر من إله؟ هل يمكن أن تنتظم

٢. النواة: جزء الذرة الجوهري الذي تدور حوله الإلكترونات، ويتألف من بروتونات ونيوترونات، والجمع نويات ونوى.

٣. البروتون: أحد الجسيمات الأساسية التي تدخل في تركيب النواة، وشحنته موجبة.

برهان، فهاتوا برهانكم! هل تستطيعون أن تبرهنوا - والكون بهذا الاتساق المعجز - أن هناك إرادة أخرى تسيطر على الكون غير إرادة الله؟

فإن عجز العقل عن البرهان - وهو لا محالة عاجز - فليتدبر أمره، وليؤمن بالله الواحد الذي لا شريك له في الملك ولا في السلطان: ﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ إِذَا لَذَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (المؤمنون).

في مثل هذه المناقشة العقلية التي ذكرناها في الفقرة السابقة، يُجري السياق هنا مناقشة مع العقل البشري، يقدم لها بمجموعة من الآيات يلفت فيها العقل إلى بعض الحقائق المُسلم بها، التي لا يجادل فيها أحد ولا ينبغي أن يجادل فيها: ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿ ٨٥ ﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿ ٨٦ ﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِزُ ﴿ ٨٧ ﴾ قُلْ مَنْ يَدِيرُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿ ٨٨ ﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ ﴿ ٨٩ ﴾ بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿ ٩٠ ﴾ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ إِذَا لَذَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (المؤمنون).

فإذا سلم الإنسان ابتداءً بأن الأرض ومن فيها من صنع الله وإنشائه وهو مالكةا، وإذا سلم بأن السماوات السبع هي لله، هو منشيئها وهو ربها ورب العرش العظيم، وإذا سلم بأن ملكوت كل شيء لله، وهو المدبر فيه وحده، وهو الذي يجير بقوته ولا يجار عليه؛ لأنه صاحب العظمة والسلطان.. بدهيات لا يملك عقل أن

إذا تعددت الإرادة التي تهيمن عليها والسلطان الذي يُسيّرهما؟

ألا يحدث أن واحداً من الآلهة يريد الشمس أن تشرق من المشرق وآخر يريد لها أن تشرق من المغرب! وكيف يصير الأمر؟

ألا يحدث أن واحداً من الآلهة يريد للإنسان أن يستوي على قدميه ويسعى في الأرض يبتغي الرزق ويعمر الأرض، وآخر يريد له أن يمشي على أربع كالحيوان، أو يبقى لاصقاً بالطين على ساق واحدة كالنبات؟ فكيف يصير الأمر؟

ألا يحدث أن واحداً من الآلهة يريد للحديد أن يكون صلباً تصنع منه الأدوات الصلبة التي تعين الإنسان على عمارة الأرض وتعينه على صنع السلاح الذي يقاتل به لإعلاء كلمة الله، بينما إله آخر يريد أن يكون الحديد طرياً ليناً عديم الشكل؟ فكيف يصير الأمر؟

هل ينضبط شيء حينئذٍ في الكون كله؟ وهل يستقيم الأمر؟ أم يصبح الكون فوضى، تتصادم فيه الأفلاك وتتعارض، وتتصادم فيه الإرادات المشرفة عليه وتتعارض، ويصبح كالعقد المنفرط لا يجمعه نظام؟ من أجل ذلك يخاطب القرآن العقل فيقول له: ﴿ سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (الزخرف)، ثم يخاطبه مرة أخرى متحدياً بعد هذا البيان: ﴿ أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ (الأنبياء: ٢٤).

نعم! فليبحث العقل عن برهان! إن الأمر ليس فوضى، يقول فيه القائل بهواه! بل لا بد لكل قول من

بَعْضُ ﴿المؤمنون: ٩١﴾.

فإذا كان كل إله خلق جزءاً من الخلق فهل يُعقل أن يتنازل عن خلقه لإله آخر؟ أم المعقول والبدهي أن يتشبث بخلقه ويستحوذ عليهم، ويحاول أن تكون له السيطرة عليهم وحده؟ وعندئذٍ ماذا يحدث؟! يحدث نزاع بين الآلهة المزعومة على السيطرة! هذا يريد أن يسيطر وهذا يريد أن يسيطر! كل منهم يريد أن تكون له وحده الكلمة النافذة في الكون، ويكون أمره هو المطاع! هذا يصدر أمراً ويطلب تنفيذه، وذاك يصدر أمراً مضاداً ويطلب تنفيذه، وكلُّ يتشبث بكلمته زاعماً أنه هو الأعلى وهو الأحق بأن تُسمع كلمته وتُطاع!

فهل هذه الآلهة - المتوهمة - تستحق الاحترام وهي هكذا تتعامل مع بعضها البعض؟! وهل يستقر حال الكون وهي - في صراعها على السلطة - تصدر الأوامر المتباينة للكون، فيحار الكون لأي أمر يذعن ولأي أمر يطيع؟! كلا! ما كان حال الكون ليستقر لو أنها آلهة متعددة تتصارع فيما بينها وتتنازع، وما كان الكون ليبدو متناسق الحركة، متناسق الصنعة، متناسق التدبير.

والعقل البشري مكلف أن يفكر ويتدبر.. فما دام الإنسان قد سلم - أو ينبغي أن يسلم - بأن الأرض لله، والسموات السبع لله، والملكوت لله، والتدبير لله.. فماذا بقي - إذن - من عمل تقوم به تلك الآلهة الأخرى، المزعومة؟

وما دام الكون في سيره - دائماً - لا يبدو عليه الخلل والعشوائية والاضطراب، بل يظهر فيه الاتساق الكامل والانضباط، أفلا يدل ذلك على وحدة السيطرة التي تدبر شئونه وترعاه؟! قال تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ

ينكرها وإلا جابته هذا السؤال الوارد في سورة الطور: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَلِيقُونَ﴾ (الطور)، وهو سؤال مسكت ملجم يتحدى كل منكر.

إذا سلم الإنسان بكل هذا فقد لزمه - منطقياً - أن يسلم بالنتيجة التي تؤدي إليها هذه المقدمات، وهي أنه إله واحد لا شريك له، ولا يمكن أن يكون له شريك؛ لذلك يكرر السياق التذكير بعد كل مقدمة من المقدمات: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا نُنْقِوْنَ﴾، ﴿فَأَن تَشْعُرُونَ﴾، ولكن السياق هنا لا يكفي بالتذكير المصحوب بالتفريع^(١)، بل يمضي مع العقل البشري خطوة أخرى في المناقشة فيعرض أمامه هذه الحقيقة ليتدبرها:

لنفرض جدلاً أنه كان مع الله آلهة أخرى فكيف يكون الموقف؟ ﴿إِذَا لَدَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (المؤمنون: ٩١).

في الفقرة السابقة في آية سورة "الأنبياء" كان يعرض أمر الفساد الذي كان لا بد أن يحدث في السموات والأرض لو كان فيهما آلهة إلا الله ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢). وما دام هذا الفساد غير حادث، والكون منضبط في حركته كما نرى، فقد انتفى - إذاً - وجود آلهة غير الله.

وفي هذه الآية من سورة "المؤمنون" يعرض الأمر من الوجهة الأخرى، وجهة الآلهة ذاتهم - لو أنهم أكثر من إله واحد - وما كان لا بد أن يحدث بينهم من صراع ونزاع: ﴿إِذَا لَدَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ

١. التفريع: التعنيف والتوبيخ.

والسياق القرآني يبادر العقل بما يعينه على معرفة الإجابة الصحيحة، إن كان يجهلها لسبب من الأسباب، - فيقدم له أول المعينات في صورة سؤال آخر لو اهتدى لإجابته - وهي بدهية في الحقيقة - لا هتدى في الوقت ذاته لإجابة السؤال الأول الذي تصدر السياق، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

تسأل الآية الثانية في السياق: من الذي خلق السماوات والأرض؟ ومن الذي أنزل عليكم من السماء ماء فأنبئت به حقائق بهيجة المنظر، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها، لولا ما أنزل الله لكم من السماء من ماء، ولولا ما أودع فيها - هي ذاتها - من خاصية النمو حين ينزل عليها الماء؟

وقبل أن يجيب الإنسان الذي يُوجَّه إليه ذلك السؤال، يبادره السياق بسؤال ثالث يحمل في طياته إجابة السؤال السابق: يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ﴾.

وهكذا يحاصره السياق حصاراً كاملاً بحيث لا يجد مفرّاً من الإجابة الوحيدة التي يستقيم بها الأمر كله! ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ﴾؟ كلا! وإذا فالسؤال السابق ليست له إلا إجابة واحدة كذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ﴾. وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ (النمل: ٦٠)؟ هو الله تعالى!

ولقد كان يكفي العقل والوجدان معاً هذه الجولة لتقرّ النفس بالوهية الله الواحد بلا شريك، ولكن الله العليم الخبير يعلم من أحوال النفس البشرية أنها تحتاج إلى التذكرة مرّات ومرّات؛ ومن ثم يبدأ السياق على النسق ذاته جولة ثانية، وثالثة، ورابعة، وخامسة. ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ﴾

عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلْقَهَا أَنْهَدًا وَجَعَلَ لَهَا رَواسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ هُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ ۗ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ هُمْ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ هُمْ لَا يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ اللَّهَ قَلَّ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٣﴾ (النمل).

هنا في الحقيقة خطاب للوجدان والعقل في آن واحد، وقد أسلفنا القول بأن القرآن كثيراً ما يقرن خطاب الوجدان مع خطاب العقل في سياق واحد، ولكننا هنا سنركز تركيزاً أكبر على أدلة العقل وبراهينه، وفيما مضى من الحديث عن الوجدان في الفصل السابق ما فيه الكفاية.

يبدأ السياق بسؤال في الآية الأولى بعد حمد الله والسلام على عباده الذين اصطفاهم بالنبوة والرسالة، وهذا السؤال يواجه الإنسان بعامّة، وعقله بصفة خاصة: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

والإجابة عن السؤال تقتضي الموازنة - إن كان هناك مجال للموازنة - بين الله ﷻ وبين الآلهة المزعومة التي يعبدوها بعض الناس مع الله، أو من دون الله، ليتبين أيهما خير: الله أم تلك الآلهة المدعاة؟

جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ
وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بِلَا أَكْثَرُ لَهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ (النمل).

فإذا كانت الجولة الأولى مع خلق السماوات والأرض، ومع الماء النازل من السماء إلى الأرض، ومع الحدايق النابتة من نزول الماء، فهذه الجولة كلها في الأرض، تذكر جَعَلَ الأرض مستقرًا للإنسان يجد فيها رزقه ومعاشه ومتاعه المقدر له إلى حين، وتذكر جَعَلَ الأنهار خلال هذه الأرض، وجَعَلَ الرواسي لها لتكون سببًا في استقرارها، وجَعَلَ الماء العذب الذي أعده الله لشرب الكائنات الحية محجوزًا عن الماء المالح الذي تَعَجُّ به البحار والمحيطات. وكلها من آيات رحمة الله بالإنسان، كما أنها من آيات قدرته، فمن غير هذا الإله القادر يستطيع أن "يجعل" كل هذه الأشياء على صورتها التي هي عليها؟ وعندئذ يجيء التعقيب في مكانه: أإله مع الله؟ وإجابته قد تقررت منذ الجولة السابقة، ولكنه المزيد من التوكيد.

أما الجولة الثانية ففي محيط البشر، تذكرهم بما يقع لهم، ولكنهم ينسونه في غفلتهم: أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف ما به من سوء؟ ومن يجعلكم خلفاء الأرض جيلًا بعد جيل، ترثون الأرض بعد آبائكم وتتمكنون فيها وتسخرونها لمعايشكم؟ أيتّم ذلك من تلقاء نفسه؟ وكيف يتم إذا لم يخلقكم الله أصلًا من أصلاب آبائكم؟ وكيف يتم إذا لم يُبقِ الله الأرض لترثوها منهم؟! ثم يجيء التعقيب المكرر، ليزيد الأمر توكيدًا في النفس: أإله مع الله؟، والإجابة هي الإجابة بالنفي بكل تأكيد.

والجولة الثالثة مع البشر كذلك، ولكنها تذكر نعمًا أخرى من نعم الله على الإنسان، من يهديكم في ظلمات البر والبحر؟ فإذا كان ضوء الشمس يهديكم بالنهار ولكنكم تنسون النعمة وتغفلون عنها، فإنكم أولى أن تتذكروا الهداية في الليل والظلمة محيطة في البر وفي البحر، فهنا تتلمسون الهداية فلا تجدونها إلا بعون الله لكم، سواء بالنجوم تحدد لكم اتجاهكم، أو بالقمر يرسل نوره فيكشف جانبًا من الظلمة، أو فيما هداكم الله إلى عمله من المشاعر والمصايح التي تنير الظلام. ثم نعمة أخرى يُذكر الله بها الإنسان: ومن يرسل الرياح تبشر برحمة الله المتمثلة في السحاب والمطر ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾؟ ﴿كَلَّا! تَعْلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (النمل: ٦٣).

ونجىء الجولة الأخيرة كالأولى، تشمل السماوات والأرض، وتربط ما بين السماوات والأرض، وتزيد عليها ذكر البعث: من الذي يبدأ الخلق ثم يعيده؟ أهنالك غير الله من تبلغ قدرته أن يخلق من لا شيء؟ ومن يعيد الخلق حين يشاء؟ ومن يرسل لكم الرزق من السماء والأرض؟ ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾!

وحين يصل هذا السياق إلى غايته يكون الوجدان والعقل قد وصلا كذلك إلى غايتها من التمثل لهذه الحقيقة الكبرى: حقيقة وحدانية الله ﷻ بلا شريك فإذا جاء - بعد ذلك - التحدي الأخير: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، فليس له جواب إلا الاقتناع الكامل والتسليم: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ

والتدبر - أن يأخذ الأمور بالظن، دون تمحيص وبرهنة وإثبات، والظن لا يغني شيئاً من الحق، فعلى الذين يأخذون القضية بالظن أن يتخلوا عن هذا الطريق الخاطئ ويتبعوا الطريق الصحيح، طريق الدليل الصحيح والبرهان.

تبدأ الآية الأولى بسؤال حاسم: من يرزقكم من السماء والأرض؟ من يملك السمع والأبصار؟ من يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي؟ من يدبر الأمر؟ وهي لمحات سريعة في مجالات شتى في آن واحد، تحاصر العقل وتحصره في إجابة واحدة: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ (يونس: ٣١) وإذا كان الأمر كذلك "أفلا تتقون" وقد عرفتم الإجابة الصحيحة على السؤال!

﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَإِنِّي تُصْرِفُونَ﴾ (يونس)؟ الله الذي عرفتموه، وعرفتم أنه هو الذي يرزقكم من السماء والأرض، ويملك سمعكم وأبصاركم ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويدبر الأمر.. هو ربكم الحق، لا ربوبية لغيره، فكيف تتجهون إلى غيره؟ كيف تحيدون عن الحق الواضح فضلون؟ فإن من تجاوز الحق فليس أمامه سوى الضلال: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (غافر)؛ لأنهم يصرون على مجاوزة الحق فيقعون في الضلال.

ثم تجيء المناقشة التي أشرنا إليها: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَكْبَدُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ (يونس: ٣٤): فإذا كان الجواب بالنفي - كما لا بد أن يكون: ﴿قُلِ اللَّهُ يَكْبَدُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، فإذا

السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجِ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجِ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرِ الْأَمْرَ فَسِيقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَنفَقُونَ ﴿٣١﴾
فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَإِنِ
تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا
أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُ ۖ قُلِ اللَّهُ يَسْبُدُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَإِنِ تُوفَّكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ
شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَن يَهْدِيَ إِلَى
الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُنَبِّئَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ ۖ هَا يَهْدِي ۖ كَيْفَ
تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يُنَبِّئُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ
الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴿يونس﴾.

السياق هنا قريب من السياق السابق في آيات سورة
 "النمل" ولكنه يختلف عنه في أمرين:

الأول: أنه في السياق السابق كان يذكر آيات الله في السماوات والأرض والناس ثم يسألك: أإله مع الله؟ وتكون الإجابة الضمنية الطبيعية هي: لا! ليس مع الله إله. ليس لله شريك في الخلق، ولا في الملك ولا في التدبير.

أما هنا فالسياق يشير إلى الشركاء بالذات، ويركز عليهم، يركز عليهم لينفي وجودهم، ولكنه لا ينفيه نفياً مباشراً، إنما من خلال سؤال مكرر: هل من شركائكم - المزعومين بطبيعة الحال - من يفعل كذا أو كذا مما يفعله الله؟ فإذا كان الجواب بالنفي - ولا بد أن يكون بدهاة كذلك - فماذا يفعل الشركاء إذن؟ وإن لم يكن لهم عمل فما معنى وجودهم؟ إنهم إذن لا وجود لهم ما داموا لا يعملون شيئاً على الإطلاق!

والثاني: أنه ينبه العقل الغافل إلى طريق التفكير الصحيح. إنه لا يجوز للعقل - الذي خلقه الله للتفكير

اتضح هذا الأمر: أن الله يبدأ الخلق ثم يعيده، بينما الشركاء المزعومون لا يبدئون خلقاً ولا يعيدون: ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أتى تصرفون عن الحق وتتبعون الزور والإفك؟

ثم مناقشة أخرى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ (يونس: ٣٥)، والجواب - كالمرّة السابقة - بالنفي. فلم يؤثر عن أحد من أولئك الشركاء المزعومين أنه أنزل لهداية البشر كتاباً ولا أرسل رسولاً! فإذا كان الأمر كذلك: ﴿قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾، فيرسل الرسل وينزل الكتب ويدعو الناس إلى ما فيه صلاح الدنيا وصلاح الآخرة، ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (يونس).

ثم يمد السياق المناقشة خطوة أخرى: إذا كان الله يهدي للحق، والشركاء المزعومون لا يهدون إلى الحق، فمن أحق أن يتبع ويطاع: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي﴾، الله أحق أن يتبع أم أولئك الذين لا يهتدون من ذات أنفسهم ويحتاجون هم أنفسهم إلى من يهديهم؟ والإشارة هنا إلى الأصنام التي كان العرب يعبدونها في الجاهلية، ولكنها في الحقيقة تنطبق على كل من يتوجه إليه الناس في كل عصر، ممن لا يملكون لأنفسهم الهدى، ويتصدون لهداية الناس! فإلى أي شيء يهدونهم إلا إلى الضلال؟ ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟ أين عقولكم التي تفكرون بها؟ وكيف أدت بكم هذه العقول إلى هذا الحكم الفاسد الذي تحكمون به في القضية، فتقولون - بألسنتكم أو بأفعالكم -: إن هؤلاء الشركاء أولى بالاتباع من الله، وهم لا يملكون الهدى

لأنفسهم فضلاً عن هداية الناس؟

السبب هو أنهم لا يحكمون عقولهم في الحقيقة، ولو حكموها لحكمت بالصواب، فالأدلة قائمة، والبراهين موجودة، ولكنهم يتبعون الظن فيضلون عن الصواب: ﴿وَمَا يَنبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾، والله أعلم بهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾، ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَلْقُوتُ﴾ (الطور).

هذه الآية تحمل أكبر تحدٍّ للعقل البشري الضال خلال التاريخ.. وكأنها نزلت للضالين اليوم الذين ينكرون وجود الله ويلجئون في الغي والإلحاد. إن الذين يلجئون في الغواية إلى هذا الحد لا ينكرون وجود الله في الحقيقة، فلا يمكن للفطرة - مهما ضلت - أن تنكر وجود الله الخلاق، ولكنهم - لسبب من الأسباب - يكابرون ويتظاهرون بالإنكار.

وحتى أولئك الذين يعيشون في ظل الإلحاد، في الدول الشيوعية، ويُدرّس لهم الإلحاد في المدارس، ويتربون عليه، ويتلقونه في كل حصة من حصص الدراسة - حتى هؤلاء لا تقرّ نفوسهم بإنكار وجود الله إلا مجازاة للأوضاع، وخوفاً من سطوة الدولة هناك، وإليك مثلاً يثبت لك هذه الحقيقة.

حين صعد جاجارين رائد الفضاء الروسي الأول إلى الجو، أخذته روعة الكون وذهل لما رآه، لقد رأى الكون على صورة أخرى غير التي نراها ونحن على سطح الأرض مغلفين بالغلاف الجوي، لم ير السماء زرقاء كما نراها نحن، إنما رآها سوداء تماماً، ورأى الكواكب والنجوم في داخلها لامعة شديدة اللمعان، لقد كان المنظر - كما يصفه رواد الفضاء - يشبه قطعة من

المُخْمَل^(١) الأسود مرصعة بالجواهر اللامعة.

وفوجئ جاجارين بما رآه.. فوجئ بالتجربة الجديدة، والمشهد الجديد كما ذكرنا آنفاً يوقظ الحس من غفلته، ويوقظ المشاعر من سباتها، ويحلي الكون جديداً كأنها يواجهه الإنسان لأول مرة، فيدرك من دلائل إعجازه ما كان غافلاً عنه من قبل، ويحس بيد الله المبدعة وآثارها في تضاعيف هذا الكون.

وهذا هو الذي حدث لجاجارين، لقد نسي كل إلحاده الذي ربه المدرسة عليه.. نسي كل الدروس التي لُقّن فيها أنه لا وجود لله تبارك وتعالى.. وأخذ يحملق في الكون مدهوئاً من صنعة الله تعالى، مبهوراً بما رآه من إعجاز.

وحين هبط إلى الأرض كان أول تصريح أدلى به للصحفيين الذين استقبلوه: "حين صعدت إلى الجو أخذتني روعة الكون فمضيت أبحث عن الله!" وهكذا تنطق الفطرة حين تواجه الحقيقة! وهذا على الرغم من كل الإلحاد الذي لُقّن لجاجارين^(٢).

كلا! إن الفطرة لا يمكن أن تنكّل أبداً عن الشهادة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ۖ (الأعراف: ١٧٢)، إنما الذي يحدث أن الإنسان الضال يكابر في هذه الحقيقة؛ لأنه لا يريد أن يخضع لله، ولو أقرّ علانية بوجود الله للزمه أن يطيعه وأن يعبد، وهو - لأمر من الأمور - لا

١. المُخْمَل: القطيفة، نسيج له وبر.

٢. من طريف ما يروى أن الدولة غضبت على جاجارين بسبب هذا التصريح، وأمرته أن يضيف إليه ما ينفيه، فقال: "... فبحث عن الله فلم أجده!" ونشرت الصحف تصحيحه الثاني بعد الأول بساعات!!

يريد، وبدلاً من أن يبدو مقصراً وناكلاً^(٣) - باعترافه - فإنه يتفلسف فيدعي أنه لا يؤمن بوجود الله.

كيف تم من العدم بغير خالق؟ ثم كيف انتظم بعد أن تم؟ ثم كيف حافظ على نظامه كل تلك الملايين من السنين التي لا يحصيها العقل البشري دون أن يحدث في نظامه خلل أو اضطراب؟! هل يتم ذلك كله بغير خالق؟! هل يتقبل العقل هذا

القول، حتى إن ضل هذا العقل وسار في الظلمات؟ يقولون: إن الطبيعة هي الخالق! كذبوا! وما الطبيعة؟! يقولون: إن الطبيعة تخلق كل شيء ولا حدّ لقدرتها^(٤)، سبحان الله! أليس هذا هو الله؟ هو الذي يخلق كل شيء ولا حدّ لقدرته؟! فلماذا نسمي الله بالطبيعة؟ أي منطق في هذه التسمية العجيبة؟ ألا إنه الهوى، وليس العقل، وليست "الفلسفة"!

الهوى الذي يمنع الإنسان من الاعتراف بالحق مع أنه - في داخله - يعلم أنه الحق! ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَفِئْنَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا﴾ (النمل: ١٤).

ولكن القرآن يتحداهم، يتحداهم منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، وسيظل يتحداهم حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾، أما أنهم هم الخالقون فأمر لم يزعمه أحد من المضللين! بقي السؤال الأول بغير جواب: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾، وهو السؤال الملجم المسكت، الذي لا يملك أحد من المكابرين أن يرد عليه بالإيجاب.

٣. الناكل: الضعيف، الجبان.

٤. هكذا يقول دارون، فيقر بالقدرة الإلهية، ولكنه لا ينسبها إلى الله تعالى!

ولم يبق إلا أمر واحد، هو أن يكون هناك خالق، هو الذي خلق الخلق بقدرته، وهو الذي يدبر الأمر وحده بلا شريك... وذلك هو الأمر الذي لا تملك الفطرة أن تنكره وإن ضلت وإن أمعت في الضلال. إنما ينكره المكابرون باللسان لكبر في نفوسهم عن عبادة الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِيَلْفِغِيهِ فَاسْتَغِدَّ بِاللَّهِ إِنََّّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٥٦) (غافر).

ونستعبد بالله كما أمرنا الله، ونؤمن في الوقت ذاته بأن أولئك الجاحدين لا يحجدون الله في الحقيقة إنما هم فقط يتظاهرون، وحتى إن وصلت الغاشية بهم إلى أن تغشى قلوبهم وأرواحهم، وسمعهم وأبصارهم، فهم عرضة لأن يتقظوا حقيقة الألوهية كما تيقظ لها جاجارين^(١).

ثانيًا. إنكار وجود الخالق دعوى إلحادية لا دليل عليها، بل الأدلة قائمة على وجود الله تعالى^(٢):

سبق بيان الأدلة التي عرضها القرآن الكريم على وجود الله تعالى، وإذا كانت الأدلة على وجود الله واضحة في الكون والآفاق والأنفس وفي كل شيء، فإن علماء الكلام دافعوا قديمًا عن العقيدة الإسلامية، وصاغوا أدلة يدافعون بها عن وجود الله تبارك وتعالى

١. ركائز الإيمان، محمد قطب، مرجع سابق، ص ٤٣: ٥٨.

® في "طريقة القرآن في عرض العقيدة" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثالثة عشرة، من هذا الجزء.

٢. العقيدة الإسلامية في مواجهة التيارات الإلحادية، فرج الله عبد الباري، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٤م، ص ٥٠: ٥٣.

في وجه الملحددين.

يقول د. يحيى هاشم: "لقد أرغمت التحديات متكلمي الإسلام على توجيه أنظارهم إلى المباحث التي يدور فيها الاحتكاك بين الإسلام وتلك العقائد، لقد كان لهذا العلم في هذا المجال هدف جليل يتمثل في المحافظة على عقائد المسلمين وكان عليه أن يواجه أعتى أعداء الإسلام وأخطرهم وأقواهم سلاحًا وأشدهم تمكّنًا، وأكثرهم تحالفًا وأوسعهم تنوعًا".

وقد صاغ المتكلمون أدلتهم على وجود الله وأشهر ما يستدلون به:

• دليل الحدوث: يقول الإمام الأشعري: من قصد إلى برية لم يجد فيها قصرًا مبنياً فانتظر أن يتحول الطين من حالة الآجر ويتضد بعضه على بعض بغير صانع ولا بانٍ كان جاهلاً، وإذا كان تحول النُطفة^(٣) عَلاقة^(٤) ثم مُصعة^(٥)، ثم لحماً ودمًا وعظمًا أعظم في الأعجوبة كان أولى أن يدل على صانع النطفة ونقلها من حال إلى حال.

والإمام الباقلاني من المتكلمين يستدل بدليل الحدوث وتغير الموجودات من حال إلى حال، ويعزو هذا الاستدلال إلى الخليل إبراهيم عليه السلام في حجاجه مع قومه؛ ذلك بأنه لما رآها متغيرة من حال إلى حال علم أنها محدثة مفطورة مخلوقة لله تبارك وتعالى، وأن الله تعالى هو الذي خلقها فقال عند ذلك: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَافِئًا

٣. النُطفة: خلية جنسية ذكورية موجودة في المني.

٤. العَلاقة: قطعة من دم غليظ جامد.

٥. المُصعة: العلة التي خلق الإنسان منها إذا صارت قطعة لحم، قدر ما يمرض.

وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧١﴾ (الأنعام).

ويُعلق الباقلاني على قول رسول الله ﷺ الذي جاء عن عمران بن حصين رضي الله عنه، حيث قال: بينما أنا عند النبي ﷺ فدخل ناس من أهل اليمن فقال: "أقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم"، قالوا: قبلنا جئنا لتفقه في الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان.

قال: "كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء" ^(١).

يعلق الباقلاني على هذا الحديث بقوله: "قد بين نبينا ﷺ بأحسن بيان يتضمن أن جميع الموجودات سوى الله محدثة مخلوقة" ^(٢).

ويلاحظ أن الباقلاني يرجع إلى نصوص الكتاب الحكيم والسنة المطهرة في الاعتماد على حدوث العالم، وأن محدثه هو الله ﷻ.

يقول الشهرستاني: "وقد سلك المتكلمون طريقين في إثبات الصانع تعالى، وهو الاستدلال بالحوادث بإمكان الممكنات على مرجح لأحد طرفي الإمكان ويدعي كل واحد في جهة الاستدلال ضرورة وبديهية" ^(٣).

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ (الروم: ٢٧) (٣٠١٨)، وفي مواضع أخرى.

٢. الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، الباقلاني، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ٣٠، ٣١.

٣. نهاية الأقدام في علم الكلام، الشهرستاني، تحقيق: أحمد فريد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٤م، ص ١٢٤، ١٢٥.

ودليل الحدوث الذي يستدل به المتكلمون صياغته

كالآتي:

• العالم ينقسم إلى جواهر وأعراض، ولا يخرج عنهما.

• الأعراض حادثة، والدليل على حدوثها أننا نشاهدها موجودة بعد أن لم تكن، كحركة الجسم بعد سكونه فهذه الحركة ثابتة بالمشاهدة، وسكونه حادث؛ لأنه بمجيء الحركة قد انعدم، ولو كان قديماً لاستحال عليه العدم؛ لأن ما ثبت قديمه استحال عديمه.

• الجواهر ^(٤) كذلك حادثة؛ لأنها لا تخلو عن الحوادث، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، أما أنها لا تخلو عن الحوادث فلأنها لا تخلو عن الحركة والسكون، وهما حادثان، فالجواهر لا تخلو عن الحوادث ^(٥).

إذا ثبت هذا فكل حادث لا بد له من محدث، وهذا بالبداهة، ولا يصح أن يكون المحدث للعالم نفسه؛ إذ إنه يصبح - على هذه الحال - متقدماً على نفسه ومتأخراً عنها وهذا باطل؛ لأن كون الشيء الواحد متقدماً على نفسه ومتأخراً عنها في وقت واحد فاسد باطل بالبداهة.

هذا المحدث للعالم الموجد له لا بد أن يكون مغايراً له في صفاته؛ فلا يكون حادثاً بل يجب أن يكون قديماً، هذا المحدث للعالم هو الله تعالى.

والاستدلال بحدوث العالم على وجود الله تعالى،

٤. الجواهر: جمع الجوهر، وهو حقيقة الشيء وذاته، أو أصله ومادته، وهو ما قام بنفسه، ويقابله العرض، وهو: ما يقوم بغيره.

٥. الوجدانية، د. بركات دويدار، دار الآفاق، العربية، القاهرة، ط ١، د. ت، ص ٣٤٩، ٣٥٠.

أقسام منكري الألوهية:

ويمكن تقسيم المنكرين للألوهية إلى ثلاثة أقسام:

١. الذين يدعون أزلية الكون وصدوره عن المادة بدون خالق.
 ٢. الذين يقولون: إن الكون خلق بالصدفة.
 ٣. القائلون بالتطور.
- وهذه الأقسام الثلاثة تختلف في أشكالاتها وتتحد في مضمونها الذي ينتهي إلى إنكار وجود الخالق ﷻ، ونحن بهذا التقسيم نريد أن نحاصر الماديين في كل جزئية من الجزئيات التي زعموا أنها تؤيد إنكار وجود الله تعالى.

القسم الأول: أزلية الكون وقيامه بنفسه بدون خالق:

إن ادعاء قيام الكون بنفسه ووجوده منذ الأزل شبهة قال بها الماديون قديماً وحديثاً، فالقدماء زعموا أن العالم قديم، وأنه نشأ من عناصر مادية، على اختلاف فيما بينهم في تحديد هذه العناصر بين الماء والهواء والنار والتراب، أو هذه العناصر مجتمعة كما ذهب "أنبادوقليس" من فلاسفة اليونان، وانتقلت هذه الآراء إلى من عُرفوا بالدهرية^(٦) في المجتمع الإسلامي، الذين ذهبوا إلى القول: "بقدم العالم وأزليته وأنكروا العلة الفاعلية، وكانوا لا يقرون إلا بما أوجده العيان أو ما يجري مجرى العيان".

واستمرت هذه النزعة المادية التي تقول بقدم العالم واكتفائه بنفسه على نحو آلي بدون حاجته إلى إله،

٦. الدهرية: فرقة مادية ظهرت في العهد العباسي جحدت الصانع المدبر، وقالت بقدم الدهر، وبأن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه، كما أنكرت أي شيء لا يمكن إدراكه بالحواس.

اتفق المتكلمون عليه من مُعْتَزِلَة^(١) وأشاعرة^(٢)، وماتريدية^{(٣)(٤)}، على خلافات يسيرة في صياغة هذا الدليل فيما بينهم.

استدلال الفلاسفة الإسلاميين، على وجود الله "دليل الإمكان":

أما الفلاسفة الإسلاميون فقد ابتدءوا استدلالهم على وجود الله ﷻ بأن نظروا في مطلق الوجود، فوجدوا أن منه ما لا يتصور في العقل عدمه، وما لا يتصور في العقل وجوده وهو الممتنع المستحيل، ومنه ما يتصور فيه الوجود والعدم، وهذا الصنف الثالث هو عامة الموجودات، وهو ما تعارفوا على نعتة بالإمكان الذاتي، وهو معنى يحتاج إلى مخصص يرجح فيه جانب الوجود على جانب العدم، وهذا المخصص لا بد - وإن تسلسل - أن ينتهي إلى موجود واجب الوجود هو علة غيره، وليس هو علة لشيء غيره^(٥).

١. المُعْتَزِلَة: فرقة من الفلاسفة المسلمين، تعد أول مذهب في علم الكلام الإسلامي، اعتمدت على المنطق والقياس في مناقشة القضايا الكلامية، نشأت في البصرة في أواخر القرن الأول الهجري، ويرجع اسمها إلى اعتزال واصل بن عطاء حلقة شيخه الحسن البصري حينما سُئل الحسن عن مسألة مرتكب الكبيرة.

٢. الأشاعرة: فرقة من المتكلمين ينتسبون إلى مؤسسها أبي الحسن الأشعري، تقوم على أساس من التوسط بين السلف والمعتزلة، يخالفون المعتزلة في بعض آرائهم، ويقولون إن معرفة الله بالعقل تحصل، وبالسَّمْع تحب.

٣. الماتريدية: فرقة من فرق علم الكلام السُّنِّي، تنسب لشيخها أبي منصور الماتريدي، التزمت في ردها على المخالفين وعرضها للقضايا بمنهج التوسط بين العقل والنقل.

٤. انظر: الأسس المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية، د. يحيى هاشم، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٨م، ص ٣٥.

٥. العقيدة الإسلامية في مواجهة التيارات الإلحادية، د. فرج الله عبد الباري، مرجع سابق، ص ٥٣: ٥٥.

عادة للمادة، فالله أمره نافذ، وكذلك القوانين الآلية الميكانيكية.

ويمكن وضع تصور الماديين في نقاط محددة هي:

- العالم قديم أوجد نفسه بدون علة خارجية.
- لا وجود للإله.
- اعتبار أن المادة هي الله.

وهذه التصورات مفنّدة ومردود عليها بما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية وبما استنبطه علماء الإسلام من القرآن والسنة، وبما انتهى إليه العلم الحديث في شأن قدم المادة. لقد نزل القرآن بخطاب شامل للبشرية كلها، فكان يواجه المشرك كما كان يواجه المنكر للألوهية، وكان يواجه اليهود والنصارى.

وإذا كان وجود الله فطرة فُطر الناس عليها، فإن هناك بعض التراكبات على تلك الفطرة تحجب الإنسان عن معرفة الله رب العالمين، وكذلك فإن الأدلة القرآنية راعت - في المقام الأول - أن تزيل هذه التراكبات واستثارت ملكات الإنسان ووجهته نحو ربه ﷻ، ومع إثارة الفطرة اهتمت الأدلة القرآنية بلفت نظر الإنسان إلى الكون ونظامه ودقته وإبداعه، ومن هنا كانت أدلة القرآن الكريم هي جماع الأدلة وهي منبع الأدلة التي تمخضت عنها أقوال الحكماء في هذا الباب.

دلالة الاختراع:

وهذه الأدلة تعني إثبات أن الله ﷻ خلق الكون كله لا على مثال سابق، وتهدف هذه الأدلة إلى إثبات حدوث العالم والرد على القائلين بقدمه وأزليته، وهذه الأدلة على سبيل المثال لا الحصر، هي قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ

استمرت إلى العصر الحديث الذي دعمت التجارب العلمية فيه النزعة إلى المادية، وتساءل الطبيعيون^(١) لم لا نمد المادة نفسها إلى غير نهاية فنعتبرها الله؟ ولماذا نبحت للكون عن علة مفارقة له؟ وعبر أحد الماديين عن ذلك بقوله: "إن كل شيء يفسر بالمادة والحركة، وأنها أزليتان أبديتان، والعالم مدبر بقوانينهما وأن الكون ليس مُدبّرًا من إله".

وقامت فلسفات مادية، كالماركسية^(٢) التي تبنت قول الماديين الأوائل في نظرهم إلى الكون، وظهر هذا في تعليق "لينين" على عبارة "هيراكليطس": "هذا العالم الذي هو سواء بالنسبة للجميع لم يخلقه إله من الآلهة، ولا واحد من البشر، ولكنه كان دائمًا - كما هو اليوم، وسيستمر دائمًا - نازًا بمعايير لاندلاعها، ومعايير لخمودها.

يقول "لينين" تعليقًا على هذه العبارة "عرض ممتاز لمبادئ المادية الجدلية"، ووصل الأمر بالماديين إلى أن أنزلوا المادة مكان الله، وذهبوا إلى أن أهم الصفات التي يوصف بها الله وهي القِدَم والخلق وجدناها تضاف

١. الطبيعيون: هم قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة، وأكثروا الخوض في علم تشريح الحيوان، فرأوا فيها عجائب صنع الله تعالى، وبدائع حكمته مما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم، إلا أنهم لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم - لاعتدال المزاج - تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان به، فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضًا، وإنها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم، ثم إذا انعدم فلا يعقل إعادة المعدوم كما زعموا، فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود، فجحدوا الآخرة، وأنكروا الجنة والنار، والحشر والنشر، والقيامة والشواب، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب، ولا للمعصية عقاب.

٢. الماركسية: مذهب نظري يدعو إلى إلغاء حق الفرد في التملك ويدعو إلى الملكية العامة للشعب.

وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ (القصص).

وذلك لأن الله ﷻ فعَّال لما يريد، وهذا الخلق
والاختراع تم بالأمر "كن"، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا
قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٦٠﴾
(النحل).

هذه الآيات مجتمعة تقرر أن الحياة لم تكن، ثم كانت
بأمر الله في الوقت الذي أَراده، ولفظ (خلق) إشارة إلى
التكوين. ويقرر المفسرون في هذه الآيات أن السماوات
والأرض كانتا معدومتين فأوجدهما الله، والممكنات
باعتبار ذاتها وحدها تكون معدومة، واتصافها بالوجود
لا يكون إلا من واجب الوجود وهو الله تعالى.

والقرآن الكريم يؤكد الدلالة الضرورية من الخلق
على الخالق؛ لأن الشيء لا يمكن أن يوجد بدون علة،
ولا يمكن أيضًا أن يكون هو علة صياغة نفسه، ولذلك
ركَّز الله رب العالمين على خلقه للأشياء وإيجادها من
العدم، ولم يثبت أن أحداً ادعى أنه أوجدها، وهذه
الآيات التي تحدثت عن خلق السماوات والأرض من
لا شيء كانت هي المهمة لما صاغه علماء الإسلام من
الأدلة على وجود الله ﷻ.

يقول الأشعري: "إن سأل سائل فقال: ما الدليل
على أن للخلق صانعاً صنعه ومدبراً دبره؟ قيل له:
الدليل على ذلك أن الإنسان الذي هو في غاية الكمال
والتمام، كان نطفة ثم علقه، ثم لحماً ودماً وعظماً،
وعلمنا أنه لم ينقل نفسه من حال إلى حال، وإذا
كان تحول النطفة علقه ثم مضغة، ثم لحماً، ثم دماً
وعظماً، أعظم في الأعجوبة، كان أولى أن يدل على

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦١﴾ (البقرة). وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي
خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ
الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ
مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ
وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسْحَرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
لَا يَتَّبِعُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١١٦﴾ (البقرة). وقول الله تبارك وتعالى:
﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا
فَفَنَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَاهُمَا سَمَاءً وَآرْضًا وَكُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ
﴿٢٠﴾ (الأنبياء)، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ
اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ قُلْ سِيرُوا
فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ
الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ (العنكبوت).
وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا
بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ
وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ (السجدة). وقوله تعالى:
﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَكَ نُفُوسٌ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَجَعَلَ
لَهُ أَتَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رِوْسًا مِنْ فَوْقِهَا
وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ
أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا
قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ (فصلت). وقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا
مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يَؤْفِقُونَ ﴿٣٦﴾ (الطور). وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ
خَلَقْنَاهُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ ﴿٥٧﴾ (الواقعة).

إن هذه الآيات تقرر أن الكون لم يكن ثم كان بإرادة
الله ﷻ، وهذا الخلق تم بإرادته ومشيتته في الوقت الذي
حدده، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ

الدلالة بالخلق على وجود الله وتوحيده طريقة الأنبياء - عليهم السلام - وقد استدل بهذه الدلائل الخليل وموسى - عليهما السلام -، إذ إن العلم بافتقار المحدث أبين في العقل وأبده له.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ (الطور)، يقول جبير بن مطعم: لما سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها أحسست بفؤادي قد انصدع، إذ كان كل من القسمين: وهو كونهم خلقوا من غير خالق، وكونهم خلقوا أنفسهم معلوم الانتفاء بالضرورة، فإن الإنسان يعلم بالضرورة أنه لم يحدث من غير محدث، وأنه لم يحدث نفسه، فلما كان العلم بأنه لا بد له من محدث، وأن محدثه ليس إياه علماً ضرورياً، عَلمَ بالضرورة أن له محدثاً غيره، وكل ما يقدر فيه أنه مخلوق فهو كذلك، كالسماوات والأرض وغيرهما؛ لأن الخلق يتضمن الحدوث والتقدير، ففيه معنى الإبداع والتقدير.

وقد استدل العلماء بهذه الآيات في مناقشتهم للقائلين بقدَم العالم من الدهريين ببطلان الترجيح بلا مرجح، والدَّور^(١)، والتسلسل. وإذا ثبت بالقرآن الكريم والسنة أن العالم حادث، وأن الذي خلقه هو الله، فإن العلم الحديث يثبت هو الآخر أن الكون له بداية وله نهاية، وذلك عن طريق علم الفلك وعلم الفيزياء.

يقول أحد العلماء: "إن أهم اكتشاف علمي في القرن العشرين أن الكون أصبح قابلاً للبحث باستخدام عِلْمِي الفيزياء والفلك".

صانع صنع النطفة ونقلها من حال إلى حال، وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ (٥٨) ﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ (٥٩) (الواقعة)، فما استطاعوا أن يقولوا بحجة أنهم يخلقون ما يمتنون".

ويرد على القائلين بقدَم النطفة بناء على افتراض سؤالهم "فإن قالوا فما يؤمنكم أن تكون النطفة لم تنزل قديمة؟ قيل لهم: لو كان ذلك على ما ادعيتم لم يجوز أن يلحقها الاعتمال والتأثير، ولا الانقلاب والتغيير؛ لأن القديم لا يجوز انتقاله وتغيره".

فالأشعري قد استخدم دليل الحدوث والعناية للدلالة على أن كل ما سوى الله حادث، وليس بقديم. وابن رشد في كتابه "مناهج الأدلة" يبين أن الأدلة على وجود الله تعالى التي دعا إليها الشرع واعتمدها صحابة رسول الله ﷺ تنحصر في جنسين:

• دليل العناية: أي عناية الله بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجله.

• دليل الاختراع: أي اختراع الحياة في الجهاد، نجده في الأجنة وفي مثل فلق الحب، ومن الآيات التي تتحدث عن الاختراع خلق السماوات والأرض، وما بث فيهما من دابة.

والآيات التي أوردناها من هذا النوع، تقرر أن الكون مخلوق، وله بداية ونهاية، وأن مادته ليست أزلية، والله بدؤه من لا شيء، وفي هذه الآيات من الأسرار ما لا يحصى؛ لأن العقول لا تستطيع أن تدركها، إذ إن كيفية الخلق والإعادة من الأمور التي اختص بها الحق سبحانه، وقد أفرد لهذه الطريقة ابن تيمية - رحمه الله - صفحات كثيرة من مؤلفاته، يذكر أن

١. الدَّور: توقَّف كل من الشيئين على الآخر في المنطق.

○ دلالة علماء الفيزياء على حدوث العالم:

إن النظرة التي استند إليها الماديون في القول بأزلية المادة، وأن الكون قائم بنفسه بدون خالق له أصبحت بعد الاكتشافات العلمية المثيرة تسمى بالنظرة القديمة. أما النظرة الجديدة فإنها تثبت أن المادة ليست أزلية وأن الكون له بداية وعلة أولى نشأ عنها، يقول الفيزيائي آدموند ويتكر *Edmund whittaker*: "ليس هناك ما يدعو إلى أن نفترض أن المادة والطاقة كانتا موجودتين قبل الانفجار العظيم، وأنه حدث بينهما تفاعل فجائي، فما الذي يميز تلك اللحظة عن غيرها من اللحظات في الأزلية"^(١)؟ والأبسط أن نفترض خلقاً من العدم، أي إبداع الإرادة الإلهية للكون من العدم".

هذا هو العلم الذي يقرر أن الكون حادث، وأن وراءه إرادة أخرجته من العدم، وإن اكتشاف بعض القوانين العلمية الحديثة لينسف القول بأزلية المادة نسفاً، لإثبات حدوثها وصدورها عن إله حكيم.

من هذه القوانين ما يعرف بالقانون الثاني للديناميكا الحرارية، ومفاد هذا القانون أن المادة إذا ضغطت وسخت ارتفعت درجة تعادلها الحراري، وكلما ازداد عدد الانكماشات العظيمة للكون ازدادت حرارته ودرجة تعادله الحراري، وبما أن درجة حرارة الكون ودرجة تعادله الحراري محدودتان في الوقت الراهن فلا بد من أنه كانت له بداية، وإن مظاهر الكون المتمثلة في الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والأرض الغنية

بأنواع الحياة كلها دليل واضح على أن أصل الكون وأساسه يرتبطان بزمان بدأ من لحظة معينة، فهو إذاً حدث من الأحداث، ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلي ليس له بداية، فالقانون يثبت أن الكون ما دام فيه حرارة فلا يمكن أن يكون أزلياً؛ لأن الحرارة لا توجد بنفسها، ولو كان أزلياً لكان بارداً وكان قد استهلك طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط فيه.

ثم إن هناك مواد مشعة في الكون، وهي تفقد أجزاء منها في كل فترة زمنية بانتظام وتتحول إلى مواد أخرى غير مشعة، ولو أن الكون أزلي لكانت هذه المواد المشعة قد تحولت بكاملها.

ويؤكد هذا د. بول كلارنس أيرسولد أستاذ الطبيعة الحيوية ومدير قسم النظائر والطاقة الذرية، يقول: "إن الأمر الذي نستطيع أن نثق به كل الثقة هو أن الإنسان وهذا الوجود من حوله لم ينشأ نشأة ذاتية من العدم المطلق، بل إن لها بداية، ولا بد لكل بداية من مبدئ كما أننا نعرف أن هذا النظام الرائع المعقد الذي يسود هذا الكون يخضع لقوانين لم يخلقها الإنسان، وأن معجزة الحياة في حد ذاتها لها بداية، كما أن وراءها توجيهاً وتديراً خارج دائرة الإنسان، إنها بداية مقدسة، وتوجيه مقدس، وتدبير إلهي محكم". وذلك يثبت أن الكون ليس أزلياً، وأنه لم يخلق نفسه بنفسه.

○ دلالة علم الفلك على حدوث الكون:

إذا كان علم الفيزياء الحديثة قد أثبت عن طريق القوانين العلمية أن الكون له بداية، فإن علم الفلك يؤكد ذلك أيضاً.

١. الأزلية: مصدر صناعي من أزل: دوام لا بدء له، وأما أزلية العالم فهو مذهب فلسفي يقول بأن العالم لا علة لوجوده فهو قديم.

ذلك؛ لأن طبائع الأشياء لا تتغير، وإذا قدرت أن تبرزها قبل ذلك اليوم، فإنها قادرة أن تبرزها الآن، ولا يمكن أن توجد في وقت آخر، وذلك مقرر في مبادئ علوم الطبيعة^(١)، أما خلُّو المادة من الحياة بالفعل فشيء ثابت وظاهر؛ لأننا لم نَرِ مادة جامدة أنبتت حياة.

أما تناقض القول بأن الحياة تخرج من اللا حياة مع العلم فيرجع إلى أن "جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بخذلان وفشل ذريعين، ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر على أن مجرد تجمع بعض الذرات والجزيئات^(٢) يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة الموجودة في الخلايا الحية؛ لأن كل خلية من هذه الخلايا قد بلغت درجة من التعقيد يصعب على العلماء فهمها، وأن ملايين الملايين من الخلايا الحية على سطح الأرض تشهد بقدرة الله شهادة تقوم على الفكر والمنطق، وللشخص أن يقبل أن الحياة نشأت بدون إله، ولكنه حين يفعل ذلك فإنما يسلم بأمر أشد إعجازاً وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله الذي خلق الأشياء ودبرها".

ونحن قطعاً نسلم بداية بأن الكون مخلوق لله، وأن الحياة تخرج من اللا حياة بإرادة الله، ولكن إذا كان الذين يدينون بالعلم وقوانينهم هم الذين يردون على

يقرر الفلكي جاسترو *Robert Jasterow* "أن سلسلة الحوادث التي أدت إلى ظهور الإنسان بدأت فجأة وبعنف في لحظة معينة من الزمن، وفي ومضة ضوء وطاقة". ويقرر علم الفلك - أيضاً - أن الكون يتسع بالتسلسل الدائم، وأن كل مجاميع النجوم والأجرام تتباعد بسرعة مذهشة بعضها عن بعض، ولا يمكن تفسير هذه الحالة إلا بالتسليم بأن الكون له بداية، وكانت الأجزاء التركيبية مركزة ومجمتعة بعضها مع بعض، ثم بدأت الحركة والحرارة، والتسليم بهذه القوانين العلمية، ثم إنكار أن يكون لهذا الكون إله، كمن يدعي أن الأهرامات قامت بنفسها، مع تسليمه بأن الأهرامات بناها المصريون منذ أربعة آلاف سنة. إن كل هذه الدلائل تثبت حدوث العالم وأن الكون نشأ من عدم.

كيف تنشأ الحياة من المادة التي لا حياة فيها؟

إن الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنْتَ تُؤْفِكُونَ ۝١٥﴾ (الأنعام). هذا إعلان من الله أنه أخرج الحي من الميت، يجب التسليم به؛ لأنه لم يدع أحداً إلى الآن ذلك، وإن ادعاء خروج الحياة من اللا حياة بفعل الطبيعة أو بالتولد الذاتي قول يتناقض مع العقل ومع العلم في آن واحد، أما تناقضه مع العلم فلاستحالة كون المادة مصدر الحياة؛ لخلوها من الحياة، وما كان خالياً من شيء قوة وفعلاً لا يمكنه مطلقاً أن يكون مصدرًا له، والمادة خالية من الحياة بالقوة؛ لأنها لو قَدَّرت أن تُبرز الحياة ذات يوم لقدرت أن تبرزها قبل

١. علم الطبيعة: علم يبحث عن طبائع المادة وصورها، من حرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة، ومعرفة قوانين تبدلها من حيث الصلابة والسيولة والغازية.

٢. الجزيئات: جمع جُزَيء، وهو أصغر جزء مستقل من المادة يمكن أن يوجد منفرداً، وتظهر فيه خواص المادة وصفاتها، ويتركب من عدة ذرات.

المللحين بنفس منهجهم وطريقتهم، فإن المسلم عليه أن يستثمر تلك النقطة وأن يستأنس برود هؤلاء العلماء بعد أن بنى يقينه على العلم الصادر عن الله ﷻ.

ادعاء عدم وجود الله :

فإن الله ﷻ يكذب الذين يزعمون ذلك؛ لأنه تعالى قد فطرهم على معرفته ووجوده ووحدانيته، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ قُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَنْهَلِكُنَا إِنَّمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ (الأعراف)، وهذه الآيات الكريمة تبين أن الله ﷻ قد فطر الخلق على معرفته وتوحيده تبارك تعالى، ولذلك يقول: ﴿فَاقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَوِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الروم)، والمفسرون أكدوا أن هذه الآيات تبين أن الله فطر الناس على الإقرار بوجوده ووحدانيته، ولهذا كان أكثر الناس على أن الإقرار بالصانع ضروري فطري؛ لأن اضطراب النفوس إلى الله تعالى أعظم من اضطرابهم إلى ما لا تتعلق به حاجتهم، ألا ترى أن كل الناس يعرفون من أحوال من تتعلق بهم منافعهم ومضارهم، مثل: ولادة أمورهم، وأصدقائهم، وأعدائهم، ما لا يعلمونه من أحوال من لا يرجونهم ولا يخافونهم، ولذلك فإن احتياج المخلوق للمخلوق أبين وأوضح؛ لأنه هو الذي يأتهم بالمنافع ويدفع

عنهم المضار.

أما إنكار وجود الله فإنه لا يكون إلا بعد أن تغيرت الفطرة بفعل وساوس الإنس والجن، وفسدت مدارك السمع والبصر والعقل، وهناك آيات كثيرة تثبت عدم الانتفاع بنعم الله من الناحية الإيمانية، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الأنعام)، وهناك الكثير من الآيات التي تبين ذلك.

ولكن هذا الفساد يزول عن الإنسان ويرجع إلى ربه حين تصيبه البأساء والضراء، ففي ذلك الوقت تنقشع الغشاوة عن الفطرة، ويعود الإنسان إلى ربه، وقد صرح القرآن الكريم بذلك، يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكَ فِي أَلْبَاسٍ وَالْبَحْرُ حَتَّى إِذَا كُنْتَ فِي أَلْفَاكٍ وَجَرَيْنَ بِهِمُ يَرِيحٌ طَبَقٌ وَقَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ (يونس).

ويقول الله تبارك تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ (الإسراء). ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الَّذِينَ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا يَكُم مِّنْ تَعَمُّقٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ (النحل).

وهذه الآيات تبين أن الإنسان ساعة الضر وساعة الشدة لا يجد ملجأ ولا مفرًا إلا إلى الله، وللإنسان أن يتأمل التعبير القرآني في اللجوء إلى الله، والاستعانة به

والاستغاثة بقوته ورحمته، هذا التعبير: ﴿فَالْيَهُ تَجْعَلُون﴾ (النحل)، فإن الآية تظهر أن الإنسان يجأر؛ أي: يرفع صوته بالدعاء والتضرع والاستغاثة، وهذا يعني أن الدافع الفطري - والإحساس بأن الله هو المنقذ - عميق وقوي ومسيطر على النفس البشرية، ويظهر هذا الشعور حين يمس الإنسان أدنى بلاء.

ولذلك فإن الشهرستاني يعتبر أن أوضح الأدلة على وجود الله هو دليل الفطرة السليمة التي شهدت بضرورة فطرتها وبديهية فكرتها على صانع حكيم عالم قدير، والناس إن غفلوا عن الفطرة في حال السراء، فلا شك أنهم يلوذون به في حالة الضراء ويستشهد بالآيات السابق ذكرها.

والرسل إنما هم مبعوثون لتزكية الفطرة وتطهيرها عن تسويل الشيطان، فإنهم الباؤون على أصل الفطرة، وما كان له عليهم من سلطان؛ ولذلك قال: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ۙ سَيَذَكِّرْ مِنْ بَعْدِ ۚ﴾ (الأعلى)، ومن رحل إلى الله قربت مسافته حيث رجع إلى نفسه، فعرف احتياجه إليه في تكوينه وبقائه وتقلبه، وابن تيمية في "درء تعارض العقل والنقل" يولي كلام الشهرستاني اهتمامًا كبيرًا في الاستدلال على وجود الله.

ولا يقولن قائل: إننا نناقش قومًا كفروا بالله تعالى ورسله وكتبه، فكيف نستدل لهم بآيات من القرآن؟

والحق أن القرآن حين نبّه على الدلائل التي توصل إلى معرفته وخاصة دليل الفطرة لم يختص قومًا دون قوم ولم يخاطب نفسًا دون نفس، وإنما خاطب الناس كلهم؛ لأنه عالم بنفوسهم وتفكيرهم، يقول تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ

مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝﴾ (الملك)، وإذا لم يقتنع الإنسان - أيًا كان زمانه، ومكانه، وتفكيره - بكلام الله فهل يتصور أن يقتنع بغير كلام الله؟ الحق أن الله ﷻ بعد أن أودع القرآن الكريم الدلائل على وجوده ووحدانيته قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْلَوْهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ۝﴾ (الجناب)، أي: إذا لم يقتنع الملحد والكافر بآيات الله ودلائله فلن يؤمن بشيء آخر، ثم إن القرآن كان يخاطب أهل مكة، وهو يعلم أنهم على الكفر^(١).

ولكن لأن أدلة القرآن الكريم تنفذ إلى النفس البشرية وتغيرها كان خطاب الله لهؤلاء، وما على الذي يعرض كتاب الله إلا أن يتحلى باللغة المناسبة والفطرة التي نأخذ منها دليلًا على وجود الله من هذه الأدلة التي يتساوى جميع الناس فيها على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وتفكيرهم وفقيرهم وغناهم، يشير لهذا د. فاروق الدسوقي في كتابه "القضاء والقدر" فيذكر أن ملحدي العصر يعمدون إلى إنكار الغيبات لفقدهم الدليل المادي على وجودها فهم لا يؤمنون إلا بالمادة المحسوسة والمناهج التجريبية كوسائل للبحث، والقرآن الكريم يقدم لهؤلاء وسيلة تناسب ما يؤمنون به من الناحية الحسية، لا ليثبت لهم وجود الله، ولكن ليأخذ منهم اعترافًا صريحًا أن الله موجود في أعماق نفوسهم، فإذا أثبت أن الإيمان موجود في أعماقهم، فقد أثبت ما ينتهي إليه هذا الإيمان.

والمنهج الذي يقدمه القرآن لكشف حقيقة المنكرين

١. العقيدة الإسلامية في مواجهة التيارات الإلحادية، د. فرج الله عبد الباري، مرجع سابق، ص ٥٦: ٧٢.

له هو "المنهج النفسي التجريبي حيث يجري عليهم تجربة نفسية تتلخص في أن نأخذ بعض الملاحظة في قارب صغير في بحر لجِّي حيث يوشك القارب أن يغرق بهم بشرط أن تكون التجربة دون علم هؤلاء الملاحظة، ثم علينا بعد ذلك أن نسجل مشاهداتنا وملاحظاتنا عن سلوكهم حيال هذا الخطر على حياتهم، وسنرى هل سيتوجهون إلى الأرض أم السماء؟ وهل سيدعون البحر أم رب البحر وخالقه؟ وعلينا أن نسألهم بعد ذلك: من أين لهم هذا الإيمان دون مناظرة أو مجادلة؟ إن القرآن الكريم يخبرنا أنهم في تلك اللحظة لا يؤمنون فقط بوجود الله، ولكن بأنه الواحد الأحد القادر، ونحن نتحدى ملاحظة هذا العصر أن يقيموا هذه التجربة بشرط أن يتحلوا بالأمانة والحياد، والرغبة في الوصول إلى الحق والحقيقة"، وصدق الله العظيم حين قال: ﴿ضَلَّ مَنْ دَعَا إِلَىٰ آيَاتِهِ﴾ (الإسراء: ٦٧).

خلق صفات الله على المادة^(١):

الحق أن الماديين حين كفروا بالله آمنوا بالمادة وفعلوا مع المادة مثلما يفعل المؤمنون مع الله، فإذا كان المؤمن يؤمن بقوة غيبية لا ترى، هذه القوة هي قوة الله، فإن الماديين يؤمنون أيضًا بقوة غيبية لا ترى وهم مضطرون إلى ذلك، فما القانون العلمي والقوة والحركة والزمن والأزلي إلا مفاهيم لا تخضع للحس والمشاهدة، ومع ذلك لا يجرؤ أحد من الماديين أن ينكرها وإلا كان علمه ساذجًا واتهمه زملاؤه بالسطحية.

يقول وحيد الدين خان: "إن أي عالم من علماء

عصرنا لا يستطيع أن يخطو دون الاعتماد على ألفاظ مثل القوة: *Froce*، الطاقة: *Energy*، الطبيعة: *Nature*، وقانون الطبيعة: *low of nature*، وما إلى ذلك، ولكن هذا العالم لا يدري ما القوة والطاقة، والطبيعة وقانونها، فهو قد صاغ كلمات تعبر عن وقائع معلومة لكي يبين عللاً غير معلومة، وهذا العالم لا يقدر على تفسير هذه الألفاظ تمامًا كرجل الدين لا يستطيع تفسير صفات الإله، وكلاهما يؤمن بدوره بعقل غير معلومة". وإذا تتبعنا الماديين في كثير جدًا من المواقف نجد أنهم لا يختلفون عن المؤمنين في مواقفهم، فإن عندهم إيمانًا بل، وعندهم إلهام داخلي.

يقول د. كونانت: "أعظم الفروض التمهيدية الكبرى التي جاء بها تاريخ العلم نشأت نتيجة لعملية ذهنية يعبر عنها أحيانًا بأنها "مسمة من عبقرية" أو خاطرة ملهمة" أو "ومضة من خيال باهر"، وقلما يتبين فيها الناظر أنها كانت نتيجة لتمحيص النتائج كلها أو تحليل منطقي لها، أو محاولة منظمة لصياغتها أدت إلى ما انتهى إليه صاحبها".

ونستطيع أن نقول بدون تجاوز للحقيقة: إن المؤمن كما يعبد الله، ويتوجه إليه، فإن المادي يعبد المادة ويتوجه إليها؛ لا فرق بين القدامى والمحدثين، فإن الشهرستاني وصف المادة بأنها معبود الدهريين. وكما يعتقد المؤمن في الرسل فإن المادي يعتقد في الفلاسفة الماديين الذين صاغوا مذهبه، وكما أن المؤمن له كتاب مقدس فإن المادي له - أيضًا - كتب مقدسة تتمثل في المؤلفات المادية، وكما أن المسلم يصلي ويعبد الله، فإن الماديين يفعلون ذلك كما في معابدهم البشرية، وكما أن المسلم

يذهب إلى بيت الله الحرام، فإن الماديين يطوفون حول قبور زعمائهم كما يحدث في الاتحاد السوفيتي.

العبادة لله لا للمادة^(١):

يتفق المؤمنون والماديون، كل فيما يعتقد: أن ظواهر العالم متغيرة وأن كل متغير له أصل صدر عنه، وظواهر العالم لها أصل تتغير عنه وهذا متفق عليه، ولكن الكلام في هذا الأصل، هل وجوده لذاته أو لغيره؟ المؤمنون يقولون: إن أصل الكون وهو الله وجوده لذاته، والماديون يقولون: المادة التي صدر عنها الكون وجودها لذاتها، والمؤمنون يجمعون على أن الله ذو سلطان لا رادّ لأمره، تخضع له حركة الأشياء، والماديون يقولون ذلك - أيضًا - بالنسبة للمادة.

والسؤال الذي يطرح للمؤمن والمادي هو:

هل هذا الأصل من جنس العالم الذي نعرفه أم ليس من جنسه؟

الماديون يقولون: إنه من جنس هذا العالم؛ لأنهم لا يعترفون بغير المادة، والمؤمنون يقولون: إنه ليس من جنس هذا العالم: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى).

والماديون يقعون في التناقض حين يقولون: إن أصل العالم من جنس العالم؛ لما يأتي:

- لأن القول بأنه من جنس هذا العالم المادي يقتضي كونه جزءاً منه، والقول بأنه أصل العالم يقتضي كونه غيره، وهذا تناقض.

- ولأن القول بأنه من جنس هذا العالم يقتضي

كونه ذا بداية؛ لأن ما هو من جنس العالم له بداية كما أثبتت النظريات العلمية، وهم يقولون بأزليته.

- ولأن القول بأنه من جنس هذا العالم المادي يقتضي كونه فانيًا؛ لأن ما هو من هذا العالم يفنى، وهم قد قالوا بخلوده.

ولا يقال: إننا نريد بالأصل المادة من حيث هي مادة، وهي عندنا "أي الماديين" واجبة لا نهائية أبدية أزلية فلم نَقَع في التناقض.

ونحن نقول للماديين: إن ما تقولونه عن المادة المتصفة بما تقدم يخرجها عن كونها من جنس هذا العالم المادي الذي نعرفه؛ لأن ما نعرفه من هذا العالم المادي إنما هو أفراد؛ فنعرفه ممكن الوجود منتهيًا، له بداية وله نهاية، فما السبيل إلى معرفتكم المادة المطلقة التي وصفتموها بالأزلية والأبدية، وهي من جنس العالم المادي الذي نعرفه.

ولذلك فأنتم تقولون بشيء ليس من جنس العالم، وإن سميتموه مادة فهو خارج عنها غير متصف بصفاتها.

وبعد تلك المقارنة نخلص إلى أن المؤمنين يعبدون إلهًا حقًا متصفًا بصفات الجلال والكمال. أما الماديون فيشركون مع الله غيره حين يتخذون المادة إلهًا، وهم في ذلك إنما يعبدون هواهم، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَغَلَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٢) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُبْدِيكُمُ إِلَّا أَلْهَرُّ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) (الجنائنة).

إن القرآن الكريم يرسم صورة للنفس البشرية حين

تترك الأصل الذي يحركها وتشعر به وهو الله، ثم تتعبد للهوى وتخضع له وتقيمه إلهًا قاهرًا لها مستوليًا عليها. إن القرآن الكريم يعجب من هذا الذي اتخذ إلهه هواه بعد معرفته للحق الذي كان ينبغي أن يصده عما اتخذ من دون الله؛ ولكن لأنه لم يستجب لهدى الله فإنه استحق الإضلال من الله، وتركه في عمائه، ولذلك ختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة.

فمهما قدمت له الأدلة والبراهين فلن يهتدي؛ لأنه رفض هداية الله بداية فاستحق الجزاء على ذلك الرفض، وكأن تلك الآية يقرؤها الإنسان للمرة الأولى وهو يرى التطابق بين الفكر المادي وأصحابه والتوصيف الدقيق لهم من الله في هذه الآية الفريدة، ولا يملك الإنسان إلا أن يقول سبحان من أنزل القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين، وخسارًا وبعدًا للظالمين الذين حجبوا أنفسهم عن التعرض لهداية الله وتوفيقه.

القسم الثاني: القائلون بالصدفة في خلق العالم^(١):

لقد وجد قديمًا في فلاسفة اليونان من ذهب إلى أن الحياة نشأت اتفاقًا^(٢) دون أي علة غائية أو علة خارجية، وبُني العالم على الاتفاق والمصادفة.

وهذا ما وجد عند الدهريين الذين ذهبوا إلى أن العالم كان في الأزل أجزاء مبعثرة تتحرك على استقامة، فاصطكت اتفاقًا؛ فحصل عنها العالم الذي نراه!

وإذا كان القدامى من الماديين والدهريين قد ذهبوا إلى هذا القول فإن كثيرًا من الماديين المحدثين ذهبوا إلى القول بالصدفة لثلاثي يقرُّوا بوجود خالق، من هؤلاء:

١. المرجع السابق، ص ٧٧: ٩٦ بتصرف.

٢. اتفاقًا: مصادفة.

إنست هيكل الذي ذهب إلى أن المادة هي الموجد الضروري للحياة، وأن الحياة ترجع إلى أصل واحد هو "المونيرا" التي تركبت اتفاقًا من "الأزوت"^(٣) والهيدروجين والأكسجين" ومنها تكونت الحياة.

ووصل الثقة بالصدفة وما ينتج عنها إلى زعم هكسلي بأنه لو جلست ستة من القروء على آلات كاتبة وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير، فكذلك كل الكون الآن نتيجة لعمليات عمياء تدور في المادة لبلايين السنين.

بل وصل الأمر إلى أبعد من ذلك حين زعم هيكل عالم البيولوجيا^(٤) أنه قادر على خلق الإنسان، يقول: "أتوني بالهواء وبالماء وبالأجزاء الكيميائية وبالوقت وسأخلق الإنسان".

ويلخص الفيلسوف برتراند رسل تاريخ البشرية كلها في القول بالصدفة فيقول: "ليس وراء نشأة الإنسان غاية أو تدبير، إن نشأته وحياته، وآماله ومخاوفه وعواطفه، وعقائده - ليست إلا نتيجة اجتماع ذرات جسمه عن طريق المصادفة".

كانت هذه هي شبهة القائلين بالصدفة، وهذه الشبهة لا تخرج في مضمونها عن شبه الأولى اللهم إلا في الشكل فقط، ولكن المضمون واحد.

٣. الأزوت: غاز شفاف لا لون له ولا رائحة ولا طعم، يعتبر من أهم العناصر الطبيعية الحياتية، وهو أكثر غازات الهواء مقدارًا، يدخل في تركيب المواد البروتينية والأنسجة الحية الحيوانية والنباتية.

٤. البيولوجيا: علم عام يشمل علم الأحياء الحيوانية وعلم الأحياء النباتية.

وسنحاول أن نفند تلك الشبهات مرتكزين على القرآن الكريم، مستخرجين منه الأدلة الباهرة التي تبطل القول بالصدفة؛ عن طريق ما أودعه الله في الكون والإنسان والحيوان والنبات من قصد وتدبير، مستأنسين بمفهوم العلماء حول إبداع الله في هذه الأشياء، مستعينين في الوقت نفسه بما قرره العلماء المحدثين من نتائج العلم الحديث حول ما نستشهد به من نماذج.

إن القرآن الكريم فيه من الدلائل التي تضيف إلى الخلق والإبداع العناية والقصد في الكون بأسره، من شمس، وقمر، وجبال، وأنهار، وإنسان، وحيوان، ونبات؛ لأن كل مخلوق خلقه الله تعالى إنما خلقه لغاية وخلقه بقدر معلوم، وإن غاب عن المخلوقين فلا يغيب عن الخالق مصداقاً لقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر).

وسنحاول عرض نماذج من الآيات التي تتحدث عن الكون، وما فيه من ليل، ونهار، وشمس، وقمر، وكذلك الآيات التي تتحدث عن خلق الإنسان والعناية به، ثم خلق الحيوان، ثم خلق النبات.

الآيات الكونية:

ويعرف هذا الاستدلال بـ: دليل الآفاق:

• يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران).

• ويقول ﷺ: ﴿فَالْقُلُوبُ الْأَصْبَاحُ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (الأنعام).

• ويقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (يونس).

• ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (الرعد: ٢).

• ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (إبراهيم).

• ويقول تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَيْلٌ نَّسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُتْلِمُونَ﴾ (٢٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٢٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس).

هذه الآيات على سبيل المثال لا الحصر هي التي يستدل بها العلماء فيما يسمّى بـ: الدليل الغائي:

وقد قال بهذا علماء الإسلام وعلى رأسهم ابن رشد، وقال به الغربيون واعتبره "كانط" أوضح الأدلة كلها على وجود الله تبارك وتعالى، ولكن مع كل ما قاله العلماء تبقى آيات القرآن شاهدة على أن هذا الكون خلقه الله وأبدعه وسخره، وأي انحراف وخروج عن المسار الذي رسمه الله لمخلوقاته سيحيل العالم إلى فوضى واضطراب، ولن تعمر الأرض، بل لن تبقى.

والآيات التي عرضناها خير دليل على ذلك، فإن في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار لدلائل عظيمة شاهدة على الإبداع والعناية، ولذلك كانت من المعجزات التي أيد الله رسوله بها.

فغن ابن عباس قال: أتت قريش اليهود، فقالوا: ما جاءكم به موسى من الآيات؟ قالوا عصاه ويده بيضاء للناظرين، وأتوا النصارى، فقالوا: كيف كان عيسى فيكم؟ قالوا: كان يبرئ الأكمه، والأبرص، ويحيي الموتى، وأتوا النبي فقالوا: ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً، فدعا ربه فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران)، "فليتفكروا فيها" (١).

إن الشمس والقمر وسيرهما الدقيق لمن الدلائل على وجود الصانع تبارك وتعالى وعلمه وقدرته، وحكمته، ففلق ظلمة الليل بنور الصباح من أعظم النعم؛ لأن الأحوال الفلكية أعظم في القلوب وأكثر وقعاً في النفوس من الأحوال الأرضية، وإن الناظر إلى السماء وما فيها من كواكب تزينا ويهتدى بها في ظلمات الليل، ليتمكن أن يتدبر بهذه النجوم والأفلاك، ويستدل بها على اللطيف الخبير.

إلا أن الشيء الذي يلفت النظر ويثير الانتباه هو حركة الشمس والقمر، وسير كل منهما في فلك يسبحون، فهذا من أعظم الدلائل وأبينها على القصد والغاية، فضلاً عن أن العلماء المحدثين قد اكتشفوا أن أفضل تعبير عن حركة الشمس والقمر هو لفظ "السباحة".

يقول وحيد الدين خان: "كان الإنسان في العصر الغابر يشاهد النجوم تتحرك وتبتعد عن أماكنها بعد وقت معين، ولذلك لم يكن هذا التعبير القرآني موضع

دهشتهم واستغرابهم، ولكن البحوث الحديثة قد خلعت على هذه التعبيرات ثوباً جديداً فليس هناك تعبير أروع ولا أدق من "السباحة" لدوران الأجرام السماوية في الفضاء البسيط اللطيف.

فالشمس والقمر لا ينبغي لأحدهما أن يترك فلكه الذي حُدّد له لجريانه ودورانه، والمسافات التي جعلها الله بين مدارات الكواكب بعيدة شاسعة حتى لا تصطدم، وكلُّ مقدر له أن يسير في فلكه سباحاً فيه، كما عبّر القرآن الكريم.

ويأتي الإعجاز في وضع الشمس والقمر بالنسبة للأرض. إن الله ﷻ أتقن حركة الشمس والقمر، وقدر بُعدهما عن الأرض، فالشمس التي نعدّها اليوم وسيلة حياتنا تبلغ درجة حرارة سطحها اثني عشر ألف درجة فهرنهايت (٢) والمسافة بينها وبين الأرض تبلغ ما يقرب من ٩٣ مليون ميل، وهذا البعد الهائل لا يتغير أبداً بالزيادة أو النقصان، وفي ذلك عبرة وتقدير من العزيز العليم؛ لأن هذه المسافة لو نقصت واقتربت الشمس من الأرض فإن الحياة تصبح مستحيلة على الأرض، ولو أن هذه المسافة بعدت -أيضاً- فإن البرودة الشديدة التي تنجم عن هذا البعد سوف تقضي على الحياة على وجه الأرض، ولو حل محل الشمس نجم آخر، فإن الأرض ستصبح تنوراً (٣) رهيباً، لا حياة فيه لإنسان أو حيوان، أو نبات أو جماد.

هذا عن الشمس.. فماذا عن القمر؟

إن القمر قد جعل الله له مسافة معينة يبعد بها عن

٢. الفهرنهايت: مقياس لدرجة الحرارة.

٣. التنور: الفرن الذي يُخبز فيه.

١. أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٠ / ٢٣٤) برقم (٤٠٠٧).

الأرض، ومن هذه المسافة يُتَنَفَّعُ بالقمر، ويسير الناس في ضوئه ويتغنى الشعراء بطيفه، فماذا لو اختلف بعد هذه المسافة التي عليها الآن؟ إن المد^(١) في المحيطات والبحار الذي يرتبط بالقمر كان سيبلغ من القوة بحيث إن جميع الأراضي التي تحت منسوب الماء كانت ستُغمر مرتين في اليوم بماء متدفق يزيح بقوته الجبال نفسها وفي هذه الحالة ربما لم تكن لتوجد الآن القارات، ولكانت الكرة الأرضية من الممكن أن تتحطم من جراء هذه الاضطرابات وكان المد الذي في الهواء سيحدث أعاصير كل يوم.

من الذي قدر هذه الأمور كلها؟ الصدفة العمياء أم قدرة الله الواحد القهار؟

سنضرب مثلاً بسيطاً من الواقع العالمي:

إن الدول الكبرى الآن تتبارى^(٢) وتتباهى في إطلاق الأقمار الصناعية فهل إذا زعم أحد أن ألف قمر صناعي، أو مائة أو عشرة أو قمراً واحداً، خرج من الأرض، وأخذ يسير في مدار مرسوم متزن حول أرضنا نتيجة لتفاعلات كيميائية بين الأسلاك والحديد وبقية المواد المختلفة هل سيجد هذا الإنسان من يصدقه؟ إن الدنيا بأسرها ستسخر من هذا الإنسان؛ لأنه قد أنكر علم العلماء وتقنيات محطات الفضاء، ومهارة الفنيين والمدربين، قمر صغير لا يصدق أحد بأنه نشأ من تلقاء نفسه ويأتي من يزعم من الماديين أن هذا العالم وجد بالصدفة بما يحويه من ملايين من الأفلاك والنجوم

والمجرات^(٣) السابحة في مداراتها المنتظمة، التي يذهب علماء الفلك إلى أن مصادفة مرور نجمين متقاربين لدرجة تكفي لإحداث مدَّ خفَّاق هدام هي في نطاق الملايين، وأن مصادفة التصادم نادرة لدرجة وراء الحسبان.

إن هذا النظام العجيب والمحكوم القائم على التدبير والتنظيم هو الذي جعل أحد كبار الملحنين وهو "براتراند رسل" يقول: "إننا نجد حتى في مملكة الكواكب عمليات تنطوي على خصائص غائية لا تختلف اختلافاً جوهرياً عن ملامح السلوك الغرضي في الحيوانات العليا".

أين ذهبت المصادفة التي زعمها رسل وادعى أن تاريخ البشرية كلها قائم عليها؟ إن الإبداع والنظام والتقدير في الكون يجعل كبار الملحنين يعترفون بالقوة العليا المهيمنة والمديرة والمسيطرة، ولكن يمنعهم من الإيمان بها والدعوة إليها الاستكبار والهووى.

الإنسان:

إن الله ﷻ خلق الإنسان في أحسن تقويم، وسخر له الكائنات كلها، ولفى الله تعالى نظر الإنسان إلى نفسه، وطلب منه أن يتأملها ويتدبر ما فيها من لطيف الصنع وعظيم الغاية، وجاء ذلك في قوله ﷻ: ﴿سَرِّبَهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۚ﴾ (فصلت)، وفي قوله ﷻ: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢١)،

٣. المَجَرَّات: جمع مَجَرَّة، وهي مجموعة كبيرة من النجوم، بالإضافة إلى غازات وغبار، تترأى من الأرض كوشاح أبيض يعترض السماء.

١. المدُّ: ارتفاع ماء البحر على الشاطئ وامتداده إلى البر، عكسه الجَزْر.

٢. تتبارى: تتسابق.

ويمتن رب العزة تعالى على الإنسان فيقول: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ (١٧) ﴿مريم﴾.

ويذكر الإنسان بالنعم الظاهرة فيقول: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٢٣) ﴿الملك﴾. ويقول ﷺ: ﴿اللَّهُ يَجْعَلُ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ (٨) ﴿ولسنا وشفعتين﴾ (١) ﴿وهديته النجدين﴾ (١٠) ﴿(البلد)﴾.

وهذه الآيات في مجموعها تتحدث عن الإنسان وما أودع الله فيه من ملكات، وأعضاء، ويسمي العلماء هذا الدليل: الدليل النفسي.

والحق أن الذي يقرأ ما كتبه المفسرون، وعلماء الإسلام حول ذلك الدليل النفسي يرى أن العلماء لم يهتموا بالجانب الظاهري فقط من هذه النعم، وإنما التفتوا إلى الجانب الباطني في الإنسان، من إلهام وإدراك وشعور وفرح وحزن، وغير ذلك من المدارك والمشاعر التي لا تُرى ولا تُشاهد، وإن الآيات لتشير إلى ذلك في وضوح وجلاء.

ومن العلماء الذين اهتموا بالجانب النفسي في الإنسان من هداية ومعرفة بالله تبارك وتعالى ورجوع إليه الإمام الغزالي في "إحياء علوم الدين"، وهو يذكر أن من أهم نعم الله على الإنسان الأشياء الحاصلة للنفس، وهي من أخص النعم، كالفضائل النفسية التي يرجع حاصلها - مع تشعب أطرافها - إلى الإيمان وحسن الخلق، والإيمان يشمل علم المكاشفة وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله، ويشمل - أيضًا - علم المعاملة مع الخلق، وحسن الخلق الذي يشمل: ترك مقتضى الشهوات والغضب، ويسمى هذا

النوع بالعفة، ويشمل مراعاة العدل في الكف عن مقتضى الشهوات.

ويخلص إلى أن "الفضائل الخاصة بالنفس المقربة إلى الله تعالى أربعة: علم مكاشفة، وعلم معاملة، وعفة، وعدالة".

ولم يكتفِ الغزالي بلفت النظر إلى النعم النفسية التي في داخل الإنسان، ولكنه أوضح النعم الظاهرة التي أنعم الله بها على الإنسان، وأعظم تلك النعم نشأته التي يقف الخلق عاجزين أمام صنع الله فيها، وتكوينه من نقطة ثم علة ثم مضغة، والإنسان إذا فكر في عملية تكوينه في بطن أمه وجد آيات وآيات، ذلك الجزء الذي يصنع العين لماذا يصنع العين؟

والجنين لا حاجة له بالعين، وهو في بطن أمه من الذي نَظَّمَ للإنسان هذا الجهاز البصري ليرى به ما حوله بعد خروجه إلى الحياة؟ من الذي كَوَّنَ للعين أغشية بصرية رقيقة، وعدسة محكمة، وماء زجاجيًا مقدرًا، وشبكية^(١) تتكون إحدى طبقاتها من ثلاثين مليون عود بصري، وثلاثة ملايين مخروط بصري^(٢)؟

ومن الذي أخبر ذلك الجزء من النطفة أن ينشئ العصب البصري^(٣)، ويشق له فتحة بقدر محدد في الجمجمة، ويصنع مركزًا بصريًا في المخ، ويربط به ذلك العصب البصري.

١. الشَّبَكِيَّة: غشاء عَصَبِي مَبْطَّنٌ لِقَاعِ الْعَيْنِ، وَهُوَ الَّذِي يَسْتَقْبِلُ الْمُرَيَّاتِ.

٢. المخروط البصري: تركيب دقيق في الشبكية مسئول عن الضوء والرؤية.

٣. الْعَصَبُ الْبَصَرِيُّ: الْعَصَبُ الَّذِي يَنْقُلُ الْإِثَارَةَ الْبَصَرِيَّةَ مِنَ الْعَيْنِ إِلَى جَذَعِ الدِّمَاغِ.

فماذا قال التجريبيون^(٢)؟

• مخ الإنسان:

إن ملايين الأخبار تجري ليل نهار على جهازنا العصبي، وهذه الأخبار هي التي توجه القلب في تدفقه وفي حركاته، وتحكم في حركات الأعضاء المختلفة، وتحكم في الحركات الرئوية، ولو لم يكن هذا النظام موجوداً في أجسامنا لصارَت الأجسام تلفيقاً مبعثراً يسلك كل منها مسلكاً خاصاً. ومركز هذا النظام مخ الإنسان، وفيه يوجد ألف مليون خلية عصبية، ومن هذه الخلايا تخرج الأنسجة العصبية، ويجري في هذه الأنسجة نظام إرسال واستقبال للأخبار بسرعة سبعين ميلاً في الساعة، ومن خلال هذه الأنسجة نتذوق ونسمع، ونرى، ونباشر سائر أعمالنا.

• حاسة الذوق:

توجد ثلاثة آلاف من الشعيرات^(٣) المتذوقة، ولكل منها مسلك عصبي متصل بالمخ، وبواسطة هذه الشعيرات يحس الإنسان بالمذاقات المختلفة، ولولا هذه الشعيرات ما شعر الإنسان بطعم حلوة أو مرارة.

• حاسة الإبصار:

يوجد في كل عين مائة وثلاثون مليوناً من الخلايا الملتقطة للضوء تقوم بمهمة إرسال المجموعة التصويرية إلى المخ.

• حاسة السمع:

يوجد في الأذن عشرة آلاف خلية سمعية، ومن

وما يقال في العين يقال في الرئتين، إن الجنين لا حاجة له إلى الرئتين بل لو دخل قليل من الهواء إلى القرار المكين^(١) لأحدث فيه أضراراً بالغة، فلماذا يصنع إذن هذا الجهاز التنفسي لاستقبال الهواء؟ إن الذي صنع وإن الذي قدر هو العالم بما يحتاج إليه الجنين بعد خروجه إلى الحياة، ولا نملك إلا أن نقرأ قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ بِآجَتِهِ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ (النجم).

وما يُذكر عن الجنين في بطن أمه يُذكر عن الإنسان بعد أن يخرج إلى الحياة، وما فيه من نعم ظاهرة من يدين ورجلين، وسمع وبصر، وإدراك وإحساس، وعقل وإدراك ولقد عرض "الإمام الغزالي" هذه النعم الظاهرة في بيان رائع وأسلوب بديع مبيّناً الترابط الذي يأخذ بالألباب بين بعض أعضاء الإنسان وبعضها الآخر.

الإنسان وأعضاؤه في العلم التجريبي:

إذا كان المفسرون وعلماء الإسلام الكبار؛ أمثال الغزالي وابن الوزير وغيرهما الكثير قد لفتوا الأنظار إلى النعم الداخلية والخارجية للإنسان، ويبنوا بديع صنع الله فيه، فإن العلماء التجريبيين قد انكبوا على دراسة الإنسان من الناحية العضوية وخرجوا بنتائج لا يملك الإنسان إلا أن يقول: سبحان الله الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى، وفي الوقت ذاته لا يملك إلا أن يسخر من الماديين الذين يقولون بالصدفة،

٢. التجريبيون: جمع التجريبي، وهو من يقيم المعرفة على ما تدركه الحواس وحدها، وينكر وجود مبادئ فطرية في النفس وقوانين صادرة عن العقل، ويقابل تلك النظرة العقلانية. ٣. الشعيرات: قنوات صغيرة جداً تماثل الشعرة في دقتها.

خلال نظام معقد يسري من هذه الخلايا يسمع نحن.

• حاسة الإدراك والإحساس:

توجد أنسجة حسية على امتداد جلد الإنسان فإذا قربنا شيئاً حاراً فإن ثلاثين ألفاً من الخلايا الملتقطة للحرارة تحس بهذه العملية وترسلها إلى المخ، وإذا قربنا شيئاً بارداً إلى الجلد فإن ربع مليون من الخلايا يرسل هذا الإحساس إلى المخ فيرتعد عند ذلك الجسم، ثم تتسع الشرايين الجلدية فيسرع مزيد من الدم إليها وتزودها بالحرارة.

• النظام العصبي:

وهو في الإنسان يشتمل على عدة فروع منها الفرع المتحرك ذاتياً، ويقوم بأعمال الهضم والتنفس، وحركات القلب، وتحت هذا الفرع يوجد نظامان:

أحدهما: النظام الخالق للحركة. *Sympathetic*

system

الثاني: المانع للحركة. *Payasy Sympathetic*.

والنظام الثاني يقوم بعملية المقاومة والدفاع. والنظام الأول لو ترك الأمر له لزادت نبضات القلب زيادة يترتب عليها موت صاحبها، ولو ترك الأمر للنظام الثاني لتوقفت حركة القلب توقفاً تاماً، ولكن توزعت أعمال النظامين بدقة وعناية، فالنظام الثاني يسود عند النوم، فيسود السكون جميع الحركات الجسمية.

وبعد هذه الدلائل الكبرى التي أودعها الله في الإنسان يأتي هيكل ويقول: اتئوني بالماء والهواء وسأخلق الإنسان.. هنا يقول: إني سأخلق، فكأن الصنعة لا بد لها من صانع.

يقول كريس مويس: "إن هيكل يتجاهل في دعواه

الجينات الوراثية"^(١) فإن أول شيء سيحتاج إليه عند خلق الإنسان هو الذرات التي لا سبيل إلى مشاهدتها، ثم يخلق الجينات أو حملة الاستعدادات الوراثية بعد ترتيب هذه الذرات حتى يعطيها ثوب الحياة، وإن إمكان الخلق بعد هذه المحاولة لا تعدو أن تكون واحدة على عدة بلايين، ولو افترضنا أن هيكل نجح في محاولته فإنه لن يسميها "صدفة" بل سوف يقررها ويعدها نتيجة لعبقريته".

ومع هذا الادعاء فلم ينجح أحد إلى الآن في خلق نطفة أو خلية حية فضلاً عن الإنسان، وما زال التحدي قائماً وسيظل: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١١) (لقمان).

في الدواب:

إن نعم الله لا تحصى على الإنسان في الأنعام؛ فقد سخرها الله له، تحمله من بلد إلى بلد، ويلبس من أصوافها وأوبارها، ثم يأكل منها لحماً، ويشرب منها لبناً، ولقد وردت آيات في القرآن الكريم تتحدث عن القصد والعناية والغاية من خلق الدواب والأنعام، لا يمكن أن تكون إلا من فعل قادر حكيم عليم.

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (٢٨) (الأنعام). ويقول تعالى: ﴿ وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لَعِبْرَةٌ شَفِيعُكُمْ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ وَدَمْرُ لَبَنَاءَ ﴾

١. الجينات الوراثية: جزيئات مادّية دقيقة توجد في صبغيات الخلية وإليها تُعزى الصفات المميّزة للكائن الحي، وبها تفسّر قوانين مندل الوراثية.

خَالِصًا سَائِعًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ (النحل). ويقول سبحانه
عن النحل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا
وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي
سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ، فِيهِ
شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (النحل).

هذه الآيات يبين الله فيها أنه ما من دابة ولا طائر إلا
أمة مثل أمة الإنسان في كونها جماعات، وفي كونها
مخلوقات يشبه بعضها بعضًا، ويأنس بعضها ببعض
ويتزوج كل جنس مع جنسه، وأن الله دبّر أمرها
وخلقها، وهدها، وتكفل برزقها.

ولقد قام العلماء المحدثون بدراسة سلوك الحيوانات
في العقود الأخيرة، وانتهوا إلى وجود جماعات حيوانية
حقيقية، ولم يتم اكتشاف تفاصيل هذه التنظيمات إلا
منذ عهد قريب، وسوف ندرس بعض الإشارات التي
وردت في القرآن الكريم عن الحيوانات والطيور،
ومنافعها، وما ألهمه الله هذه الحيوانات والطيور، من
إبداع ودقة ونظام.

• الأنعام:

إن العبرة التي يلفت الله تعالى نظر الإنسان إليها هي
خروج اللبن ذي القيمة الغذائية العالية من بين قرث^(١)
ودم، وإذا كان القدامى من العلماء قد نظروا إلى الآية
على أنها من الناحية الظاهرية معجزة من أكبر النعم على
الإنسان، فإن العلم الحديث كشف دلالات ما كانت
لتخطر على بال أحد أودعها الله في تلك الآية.

ولقد لفت النظر إلى هذه الدلائل اللجينة التي
وضعت تفسير المنتخب الصادر عن المجلس الأعلى

١. القرث: بقايا الطعام في البطن.

للشئون الإسلامية، وأبرز هذه الدلائل ما أورده
موريس بوكاي في كتابه "الأسفار المقدسة في ضوء
المعارف الحديثة" يقول في تعليقه على هذه الآية: "تأتي
المواد الأساسية التي تتكفل بتغذية الجسم عامة من
تفاعلات كيميائية تحدث في القناة الهضمية^(٢)، وتأتي
هذه المواد من عناصر موجودة في محتوى الأمعاء،
وعندما تصل هذه المواد الموجودة بالأمعاء إلى المرحلة
المطلوبة في التفاعل الكيميائي فإنها تمر عبر جدار
الأمعاء نحو الدورة العامة، ويتم هذا الانتقال
بطريقتين: إما مباشرة، بواسطة ما يسمى بالأوعية
الليمفاوية، وإما بشكل غير مباشر، بواسطة الدودة
البابية التي تقود هذه المواد إلى الكبد حيث تقع عليها
بعض التعديلات، ثم تخرج من الكبد لتذهب أخيرًا
إلى الدورة الدموية^(٣) بهذا الشكل، إذ يمر كل شيء
بالدورة الدموية، والغدد الثديية^(٤) هي التي تفرز
مكونات اللبن وتتغذى هذه الغدد، إذا جاز القول،
بمنتجات هضم الأغذية التي تأتي بواسطة الدم
الدائر.

الدم إذن يلعب دور المحصل والناقل للمواد
المستخرجة من الأغذية، ويُغذي الغدد الثديية منتجة
اللبن مثلما يغذي أي عضو آخر، كل شيء يحدث هنا
ابتداءً من مواجهة محتوى الأمعاء مع الدم في الجدار

٢. القناة الهضمية: قناة في جوف الجسم تتصل بها أعضاء الجهاز
الهضمي، تبدأ بالفم وتنتهي بنهاية القولون النازل، وتضم
البلعوم والمريء والمعدة والأمعاء.

٣. الدورة الدموية: دوران الدم في الجسم من الأوردة إلى
الشرايين، ومن الشرايين إلى الأوردة.

٤. الغدد الثديية: غدد تفرز اللبن الذي يرضع منه الطفل.

الأمعائي نفسه، هذه المعلومة المحددة التي تُعدُّ اليوم من مكتسبات الكيمياء وفسولوجيا الهضم، كانت غير معروفة مطلقاً في عصر النبي ﷺ وإن معرفتها لترجع إلى العصر الحديث، وإنَّ تحدِّي الله للبشر ليظهر في هذه الآية فإن البشرية في أوج تقدمها لا تستطيع أن تخرج لبناً من بين فرثٍ ودم كما بينت الآية، بهذا الترتيب الدقيق المعجز.

• النحل والنمل:

إن النحل والنمل من عجائب المخلوقات، ولقد هداها الله ﷻ إلى أمور يعجز علماء العصر عن أن يرتبوا أو يخططوا لها على هذا النحو.

فالنحل لها مملكة خاصة بها، ولها ملكة تقوم على رعاية شئون المملكة وتدافع عنها، وإن البيت الذي تبنيه النحلة هو من أعجب العجب في شكله السداسي بالذات دون سائر الأشكال؛ لأن الشكل السداسي إذا انضمت بعض أشكاله إلى بعض صار شكلاً مستديراً كاستدارة الرحى، ولا يبقى فيه فروج ولا خلل، ويشد بعضه بعضاً حتى يصير طبقاً واحداً لا يدخل من بيوته رءوس الإبر، مما يعجز عن صنعه البشر، فمن الذي ألهمها ذلك، هل هي الصدفة العمياء أو العزيز العليم؟ ثم الإلهام لها من قِبَل الله أن تتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يعرشون، وهو الترتيب الذي يتناسب مع حياة الإنسان فقد ألهمها الله ﷻ أن تكون مستعدة لأن تحيا في الكهوف والجبال مع الإنسان في طوره الحجري يوم كان الإنسان يسكن الكهوف والمغارات، كما ألهمها أن تسكن الأشجار عندما انتقل الإنسان من حياة الرعي والتنقل إلى حياة الزراعة والاستقرار، ثم

ألهمها في النهاية أن ترحل إلى الخلية عندما يتعلم الإنسان الصناعة ويتحضر على فنونها.

فالمراحل الثلاث التي ذكرت في سياق الوحي للنحل هي أوامر إلهية لطبيعة النحل أن تستجيب لحاجات الإنسان كلما طوّر الإنسان حياته، ثم هناك الإلهام الذي يتخاطب النحل عن طريقه، وهو الرقص الذي تعرف بواسطته الاتجاه الذي يجب أن تتخذه، والمسافة التي توجد عليها الزهور التي سيُمتص رحيقها، وأخيراً العسل الذي يخرج من بطونها بما يحويه من شفاء للناس، وهذا ما قرره علماء العلم الحديث أخيراً، وصدق الله العظيم الذي قدر فهدى.

• النمل:

له شأن آخر في التنظيم والترتيب والهداية، من أول خروج النملة من بيتها للبحث عن الطعام إلى الحصول عليه والرجوع به إلى بيتها، ذلك بأنها تخرج للبحث عن رزقها، فإذا وجدته حملته، فإذا لم تستطع حمله استدعت زميلاتها فيتعاون جميعاً في حمله، وحين تُخزّنه تنظر إليه فإذا كان مما ينبت فلقتة فلقتين، فإذا كان في فلقتها إنباتان اثنان عمدت إلى كل فلقة ففلقتها اثنتين، فمن الذي أخبرها أن هذا النبات ينبت في فلقتين وهذا لا ينبت؟ إنه الله تعالى الذي رزقها حاسة شم قوية تدرك بها ما يدركه غيرها بالبصر أو السمع.

والأمثلة لا تحصى على هداية الله للكائنات التي خلقها، والمتأمل في سلوكها وما تقوم به من أفعال لا يمكن أن يقول إنها صادرة عن الصدفة العمياء، وما تفعله ثعابين البحر من هجرات طويلة وعودة صغارها إلى مواطن آبائها الأصلية إلا نموذج لتلك الهداية،

والشكل بالرغم من كون النباتات متجاورة متلاصقة، ومع ذلك ترى وهي تُسقى بباء واحد ومتعرضة لحرارة واحدة، بالرغم من ذلك كله يراها الإنسان متغايرة الثمر في الأشكال، والألوان، والطعوم والروائح، ومتفاضلة في الأكل، منها الحلو ومنها المر، فلو كانت الصدفة هي التي أنتجت هذه الأشياء هل كانت ستراعي هذا التفاضل؟ نقول: كلا وألف كلا، إن الذي خلقها "قادر مريد موقع لأفعاله على وجهه دون وجه".

الثاني: التناسل في النبات: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ (الذاريات: ٤٩)، وإن من عجائب صنع الله في النبات عملية التلقيح والتناسل بين النباتات بعضها بعضاً، لقد كشف العلم الحديث عن أن التناسل في النبات يتم بطريقتين:

١. جنسية: وهذه الطريقة هي التي تحدد العملية البيولوجية التي تهدف إلى إظهار فرد جديد مطابق لذلك الذي ولده، ويتم هذا التناسل الجنسي بواسطة تراوج عناصر ذكرية بعناصر أنثوية تنتهي إلى مكونات التجديد المجتمعة على نفس النبات أو المنفصلة عنه.

٢. لاجنسية: وهذه الطريقة يتم التكاثر فيها عن انقسام عضو يكتسب بانفصاله عن النبات الأصلي نمواً يجعله شبيهاً بذلك الذي خرج عنه.

ولكن كيف، ومتى بدأت هذه العمليات؟ لا يكفي أن يكون هنالك ضوء ومواد كيميائية وهواء لكي ينمو النبات، إن هنالك قوة داخل البذرة تنبثق في الظروف المناسبة تؤدي إلى قيام كثير من التفاعلات المتشابكة، إن تلك البذرة تتكون من أعداد لا حصر لها من العناصر

والأمثلة كثيرة في عالم الطيور والزواحف، والحيوانات، وجميعها أدلة تشهد بخالق بارئ مصور خَلَقَ كل شيء فقدره تقديراً.

النبات:

من الأدلة البليغة التي تثبت العناية، والقصد في النبات ما ذكره الله في الآيات التي تتحدث عن النبات وعجائب صنع الله فيه وتزاوجه، نذكر منها:

• قول الله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَةٌ وَجَعَلْنَا مِنْ أَغْطَبِ وَرَزَعٍ وَنَحِيلِ صِنَوَانٍ وَعَيْرِ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الرعد).

• وقول الله ﷻ: ﴿وَمَا ذَرَأَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَكِّرُونَ﴾ (النحل).

• وقول الله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَلَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهَيْجٍ﴾ (الحج).

• وقوله تبارك تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْفَلَقِ فِي الْأَرْضِ رَواسٍ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ كَرِيمٍ﴾ (لقمان).

• وقوله ﷻ: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يس).

هذه الآيات في مجموعها تقرر أمرين:

الأول: إعطاء كل نبات خاصية معينة في الطعم

والعمليات، وتكون نباتاً جديداً يكون له مثل صفات النبات الذي يخرج عنه بحيث لا تنتج حبة القمح إلا قمحاً، ولا بذرة البرتقال إلا برتقالاً، وعلى الرغم من التشابه القريب جداً بين أنواع النباتات إلا أن لكل نبات صفاته ومميزاته وخواصه، إن كل هذه الترتيبات تدل على نظام رائع، وجمال لا مثيل له ولا حدود له، كل هذه العجائب يراها الإنسان أينما اتجه في عالم النبات العجيب.

ونحن لا نملك إلا أن نردد قول الله ﷻ: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (النمل: ٨٨)، وقوله ﷻ: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾ (لقمان).

استحالة المصادفة من الناحية العملية:

يعد هذا التنوع من الدلائل التي تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن القول بالصدفة خرافة الماديين، فإننا نعتمد في هذه السطور لنأخذ من علم الحساب والإحصاء خطأ القول بالمصادفة من الناحية الرياضية، ولقد أورد كريسي موريسون رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك مثلاً يوضح ذلك، يقول: "لنفترض أن معك كيساً يحوي مائة قطعة من الرخام، تسع وتسعون منها سوداء، وواحدة بيضاء، والآن هز الكيس، وخذ منه واحدة: إن فرصة سحب القطعة البيضاء لا تزال بنسبة واحد إلى مائة غير أن فرصة سحب القطعة البيضاء مرتين متواليتين هي بنسبة واحد إلى عشرة آلاف، والآن جرب مرة ثالثة: إن فرصة سحب تلك القطعة البيضاء ثلاث مرات متوالية هي بنسبة مائة إلى عشرة آلاف مرة بنسبة واحدة من المليون ثم جرب مرة أخرى أو مرتين

تصبح الأرقام فلكية".

هذا مثال واقعي من الممكن أن يقوم به أي إنسان في بيته، فلننقل هذا المثال إلى خلق الكون بالمصادفة، ولنجرب عليه ما حدث في قطع الرخام، فسوف ينتج لنا ما لا يتصور بأي مقياس من المقاييس.

إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية تتكون من خمسة عناصر هي: الكربون^(١)، والأيسدروجين، والنيتروجين^(٢)، والأكسجين، والكبريت^(٣)، وعدد الذرات في الجزيء البروتيني الواحد ٤٠٠٠٠ ذرة، وعدد العناصر الكيميائية في الطبيعة ٩٢ عنصراً موزعة توزيعاً عشوائياً، واحتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكون جزيئاً من جزيئات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تُلخَط خلطاً مستمراً لكي تُولف هذا الجزيء، ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد.

ولم تقف محاولة العلماء عند حد، فقد قام العالم

١. الكربون: عنصر لا فلزي، أساسي في تكوين الفحم بجميع أنواعه، يوجد على صور مختلفة؛ بعضها متبلور كالفحم، وبعضها غير متبلور كالماس، ويدخل في تركيب جميع الكائنات الحية.

٢. النيتروجين: عنصر غازي، يشكل ما يُقارب خمس الهواء بالكتلة، لا لون له ولا رائحة، يدخل في العديد من المعادن وفي البروتينات، ويستخدم بشكل واسع في كثير من الصناعات المهمة؛ منها الأمونيا، وحمض النترت، والأسمدة.

٣. الكبريت: مادة معدنية لا فلزية، صفراء اللون، هشة، لا تنحل في الماء، عديمة الطعم والرائحة، شديدة الاشتعال، ذات لهب أزرق، توجد حول البراكين، تدخل في صناعة البارود الأسود، ومبيدات الحشرات، وتركيب بعض المستحضرات الصيدلانية؛ كالأدوية والمراهم، وفي صناعة الثَّقاب.

المحدثين، ولكن يعود القول بالتطور إلى الطبيعيين الأوائل في اليونان، فقد أشاروا عرضاً إلى التطور، وصرح به أنكسمندر في تفسيره لنشأة الكون، حيث زعم أن الأحياء تطورت بعد أن تولدت من التراب، والماء والهواء، فالكائنات كانت في الأصل سمكاً، ثم تطورت إلى الأنواع المختلفة التي نراها، والإنسان منحدر من حيوانات مائية مختلفة عنه بالنوع حملته في بطنها زمناً طويلاً.

وفي الفلسفة الحديثة عُرف القول بالتطور عند لامارك الفيلسوف الفرنسي ١٧٤٨ - ١٨٢٩ م، وعُرف كذلك عند ديدور ١٧١٣ - ١٧٨٤ م، ولكنه اشتهر وارتبط باسم الفيلسوف الإنجليزي تشارلز داروين ١٨٠٩ - ١٨٨٢ م، الذي ذهب إلى أن الباحث الطبيعي إذا تدبر أصل الأنواع وأنعم النظر فيما يقع بين الكائنات العضوية انتهى به البحث إلى أن الأنواع لم تُخلق مستقلة منذ البدء، بل نشأت من أنواع أخرى، وقد اعتمدت نظرية "داروين" في المقام الأول على مجموعة من الحفريات، ومجموعة من الأحياء البحرية، ومن هذه وتلك وُجدَ هناك تشابه عميق بين الأحياء بعضها وبعض، فخطر له فرض مؤقت هو تطور هذه الأنواع على الرغم من أن لها أصلاً واحداً أو بضعة أصول نمت وتكاثرت وتنوعت في زمن مديد بمقتضى قانون الانتخاب الطبيعي، هذا عن الكائنات الحية.

أما عن الإنسان فقد ترك داروين مسألة الإنسان معلقة، ولكنه عاد فرأى أن ليس هناك من موجب لاستثنائه من قانون التطور، وقد تبعه في هذه النظرية كثير من الفلاسفة الماديين منهم توماس هكسلي

الرياضي السويسري "تشارلز يوجيه جاي" بحساب هذه العوامل جميعها، فوجد أن الفرصة لا تنهياً عن طريق المصادفة لتكوين جزئي بروتيني واحد إلا بنسبة واحد إلى رقم عشرة مضرورياً في نفسه ١٦٠ مرة، وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات، وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة لإنتاج تكوين هذا الجُزء على سطح الأرض وحدها بطريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات قدّرها العالم السويسري بأنها عشرة مضرورية في نفسها ٢٤٣ مرة من السنين.

كم يحتاج خلق الإنسان؟ كم يحتاج خلق الحيوان؟ إذا كانت هذه الأرقام من أجل إنتاج خلية حية واحدة، ومن العجيب أن ينسب المادي الكون إلى المصادفة ولا ينسبه إلى الله، بالرغم من أن الإمكان الرياضي في توفر العلل اللازمة للخلق عن طريق الصدفة في نسبتها الصحيحة هو ما يقرب من لا شيء[®].

القسم الثالث: القائلون بالتطور^(١) :

وهذه الشبهة نتائجها متضمنة في الشبهتين السابقتين؛ إذ إنها في التحليل النهائي تهدف إلى أن الكون أزلي أبدي، وأنه وُجد بنفسه بدون خالق، وأن الأحياء تتطور من جماد إلى حيوان، ومن حيوان إلى إنسان.

والقول بالتطور ليس من مبتدعات الماديين

® في "تأكيد العلم الحديث مبدأ الغائية في الكون" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية والثلاثين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

١. العقيدة الإسلامية في مواجهة التيارات الإلحادية، فرج الله عبد الباري، مرجع سابق، ص ٩٧.

وأرنت هكل وذاعت هذه النظرية ذيوً كبيراً في الأوساط العلمية بالرغم من عدم علميتها.

الرد على التطورين:

١. من القرآن:

لقد عرضنا نماذج من الآيات القرآنية التي أوضحت أن الكون لم يكن شيئاً ثم كان بأمر الله، وأردفنا ذلك بمقررات العلم الحديث التي أثبتت عدم أزلية الكون واستحالة صدور الكون عن مادة لا حياة فيها، وهنا نؤكد أمرين:

الأول: أن الله ﷻ أعلن الإبداع في خلق الأشياء كلها في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات)، وهذه الآية وغيرها كثير من الآيات في القرآن ترد على الذين يقولون بالتطور من النبات إلى الحيوان، ومن الحيوان إلى الإنسان.

الثاني: أن الله ﷻ قد سخر من الذين يقولون ذلك ونفى عنهم العلم، يقول تعالى: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصِيداً﴾ (الكهف)، فالذين يتحدثون عن تطور الكائنات بعضها من بعض لم يشاهدوا خلق هذه الكائنات، ولو سألنا واحداً منهم هل شاهدت نباتاً تحول إلى حيوان؟ سيجيب بالنفي، ولو سألنا آخر هل شاهدت قرداً تحول إلى إنسان؟ سيجيب بالنفي.

وحينئذ يقعون في التناقض؛ لأن العلم الذي يبنون عليه إلحادهم، ويتبجحون بنتائجه، ويقوم على التجربة والحس والمشاهدة يتناقض مع ما يدعونه؛ لأنه يتنافى مع أبسط قواعد البحث العلمي وهو التحقق من صحة

الفروض، وهم لم يتحققوا بعد من فروضهم حول التطور، فكيف ينادون بنظرية التطور على أنها حقيقة؟

حقائق القرآن اليقينية عن خلق الإنسان:

إن أول ما نبدأ به حديثنا عن خلق الإنسان هو آدم ﷺ.

الله ﷻ يقرر أنه خلق آدم من تراب وقبل ذلك لم يك شيئاً، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِكَةِ إِنِّي خَلِيقُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ (٢٨) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٢٩) (الحجر)، وهذه الآية تبين أن آدم مخلوق بإرادة الله، ولم يتطور عن نبات أو حيوان، وبعد أن خلقه خلق زوجته حواء، على اختلاف بين المفسرين هل خلقت من ضلعه أو خلقت من جنسه، ومعرض اختلافهم حول تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ (١) (النساء).

فهل النفس هنا يقصد بها آدم أم أن النفس هنا بمعنى الجنس، أي من جنس واحد؟ ولن نعرض لاختلافهم، فالذي يهنا هو أن آدم وحواء هبطا من الجنة أسوياء مخلوقين لا متطورين عن شيء آخر، وهذا إن دل فإنما يدل على أن آدم ﷺ ظهر في أعلى مراحل النضج البشري، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣١) ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٢) ﴿قَالَ يَكَادُمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي

أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا بُدُونُ وَمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٢﴾ (البقرة).

وشيء آخر نضيفه قبل أن نترك آدم عليه السلام وهو أن إرادة الله لا تخضع لنواميس البشر ومقاييسهم، وإلا فماذا يقول التطوريون في خلق عيسى عليه السلام الذي شبهه الله بخلق آدم عليه السلام.

هذا ما يتعلق بخلق آدم وأنه مخلوق بداية ولم يتطور عن شيء. أما سائر البشر فإن الله قد أشار إلى خلقهم منذ أن كانوا نطفة إلى أن اكتملت صورتهم وحسن خلقهم، يقول الله تبارك تعالي: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ (المؤمنون).

هذه الآية وغيرها كثير من الآيات التي نتحدث عن الإنسان ومراحل خلقه المختلفة، منذ أن كان سائلًا منويًا إلى كمال تكوينه، توضح أن الإنسان مزود من قبل الله تعالى بخصائص معينة تظهره في أحسن صورة، ولا مجال للتداخل على الإطلاق بين الحيوان والإنسان؛ لأن كلاً منهما خلق مستقل عن الآخر، فلا يمكن للحيوان أن يتجاوز نوعه، ولا يمكن للإنسان أن يتجاوز نفسه، فهما خلقان، والإنسان مميز بالنفخة الإلهية التي صار بها إنسانًا مسخرًا، له ما في الأرض جميعًا، مجهزًا لحمل الأمانة التي كلفه الله بها، فالأطوار التي يمر بها الإنسان، سواء وهو في بطن أمه أم بعد خروجه للحياة، لا تمت للتطور الذي يتكلم عنه التطوريون بصلة، فهذه المراحل والأطوار لا تعدو أن تكون نموًا للإنسان من

النطفة إلى العلقة إلى المضغة، وكذلك من الطفولة إلى الصبا إلى الشباب إلى الكهولة إلى الشيخوخة، وهذه الأطوار لم تخرجه عن كونه إنسانًا فيه كل مقومات الإنسان، يشير إلى هذا موريس بوكاي في قوله: "إن مقولات القرآن عن التناسل البشري تعبر في ألفاظ بسيطة عن حقائق أولية أنفقت البشرية مئات السنين لمعرفتها".

أما ما يستند عليه التطوريون في دعواهم من وجود تشابه بين الإنسان والإنسان، وبينه وبين الحيوان، فلا ينهض دليلًا على التطور وإنما يستخدم شاهدًا على قدرة الله تعالى فإنه على الرغم من هذا التشابه؛ فإن لكل إنسان صورة تختلف عن صورة الآخر، هذا فضلًا عن أن البشرية كلها منذ خلقت إلى أن يفنى العالم لن يجد فيها العلماء بصمات إنسان مشابهة لبصمات إنسان آخر على امتداد تاريخ البشرية كلها، فمن الذي أوجد هذا الاختلاف؟ العناصر المتطورة التي لا تحس ولا تشعر أم الله الخالق البارئ المصور؟ إنه الله الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى.

إن دعاة التطور لا دليل لهم من عقل أو حس، يقول الأفغاني: "من واهياته ما كان يرويه دارون عن جماعة كانوا يقطعون أذنان كلابهم، فلما واطبوا على عملهم هذا قرونًا صارت الكلاب تولد بلا أذنان، كأنه يقول حيث لم تعد للذئب حاجة كفت الطبيعة عن هبته، وهل يُصمّ إذن هذا المسكين خبر العبرانيين والعرب، وما يقومون به من الختان لآلاف السنين وإلى الآن لم يولد واحد منهم مختونًا إلا لإعجاز".

وسوف يتضح لنا تهافت نظرية التطور من خلال

العلم الحديث عند عرضنا لنقد نظرية التطور.

٢. العلم الحديث ونقده لنظرية التطور:

بعد أن قدمنا وجهة النظر الإسلامية وهي من وجهة نظرنا كافية لإبطال نظرية التطور، إلا أننا نريد أن نتبع وجهة النظر القرآنية بما انتهى إليه العلم من نتائج حول التطور.

ونحن حين نعرض وجهة النظر الحديثة فإننا نعرضها لأمرين:

الأول: أن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها.

الثاني: هو كما يقول أستاذنا د. عبد الله الشاذلي: إن إبطال بعض الآراء العلمية بما يناقضها في نفس المجال وبنفس المنهج العلمي ذاته يجعلها تتناقض، ويترتب على ذلك أن تتأرجح وتسقط؛ ولأن بعض البشر يميلون إلى سماع آراء المعارضين، ومن ثم فإن سماع وجهة النظر الغربية في بطلان القول بالتطور لا يعد تدعيمًا لوجهة نظر القرآن، وإنما هو اعتراف بالحقيقة التي أقرها القرآن الكريم.

وتتلخص وجهة النظر الغربية في نقد التطور في الآتي:

١. إن هذه النظرية ظنية وليست قائمة على التجربة أو الملاحظة، ونظرية التطور لم يلاحظها أحد أو جربها في معمله؛ لأن ذلك ضرب من المستحيل، فهي نظرية معقدة فضلًا عن أنها تتعلق بماضيٍ سحيق جدًا موغل في القَدَم؛ ولذلك فإن أصحابها يتعاملون معها لا على أنها فرض علمي، أو تجربة علمية، ولكن على أنها عقيدة، يقول السير آرثر كيث: "إن نظرية الارتقاء

عقيدة أساسية في المذهب العقلي". وتعرف - أيضًا - في أحد المعاجم العلمية بأنها "نظرية قائمة على تفسير بلا برهان".

٢. لقد ألف مجموعة من العلماء كتابًا تحت عنوان "خلق لا تطور" وانتهوا فيه إلى ما يأتي:

• الجهاد غير قادر على تحسين نفسه، بل هو على الضد يميل إلى التجرد أو الاستقرار، ولا فائدة من الاعتماد على طول الزمن؛ لأن طول الزمن يؤدي إلى الانحلال والتفكك، وبسبب انقراض المعادن وتفتت الصخور، وعلى هذا فالزمن عامل رئيسي للهدم وليس للبناء، ومن ثم فالزمن هو العدو الأول للتطور، وليس سلاحًا يتسلح به التطور، وعلى عكس ما يزعم دعاة التطور.

• هناك إجماع من العلماء المشتغلين بالأحياء على أن الحياة لا بد أن تأتي من الحياة، وليس هذا فحسب، وإنما الإجماع منعقد على أن كل كائن حي يأتي بمثله، ولذلك فإن الاستدلال بقانون الانتخاب الطبيعي^(١) يفسر عملية بقاء الأصلح، ولا يمكن - أبدًا - أن يفسر حدوث هذا الأصلح، وهذا ما جعل العلماء يذهبون إلى أن التطور هو أحد السنن الكونية والذي يحتاج إلى من يبدعه، فهو - إذن - من خلق الله وصنعه.

إن كل ما يفعله الانتخاب الطبيعي هو أنه إحدى الطرق التي تسلكها بعض الكائنات في سبيل البقاء، أو الزوال عن طريق الحياة، والتكاثر بين الأنواع المختلفة أما الأنواع ذاتها التي يتم فيها الانتقاء فإنها تنشأ عن

١. الانتخاب الطبيعي: نظرية داروين القائلة بأن بقاء الأنواع الحيوانية والنباتية لأفضلها تكيفًا مع البيئة، ومنها نظرية تنازع البقاء.

خطوات تخضع لقوانين تسير بعناية وتدبير، ولا تخضع للصدفية العمياء.

الإصرار على الكفر هو سبب تمسك الماديين بنظرية التطور:

والسؤال الذي يطرح هنا إذا كانت نظرية التطور غير ثابتة علمياً فلماذا التمسك بها والإصرار عليها من جانب الماديين؟

وإن تعجب فعجب قولهم: إن العلماء الماديين يعترفون بأن النظرية ما هي إلا فروض لم تتحقق، ولكن التخلي عن نظرية التطور سيجعلهم يؤمنون بخالق للكون، وهم لا يريدون ذلك، ومن ثم فهم يفضلون اتباع الظن على اتباع الحق، هكذا يقولون.

يقول آرثر كيث: "إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علمياً ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان، ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخالق الخاص المباشر، وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه".

وهذه هي إرادة الإلحاد، وهذا هو الكبر والتعصب للباطل، فماذا يقال لهؤلاء من برهان وإقناع؟ ثم ماذا يناقشون وقد عرفوا الحق وأعرضوا عنه؟

ثالثاً. الفطرة تتجه إلى الخالق وتؤمن بوجود الله:

كل مولود يولد على الفطرة، والفطرة بذاتها تتجه إلى الله عالمة بوجوده ﷻ، ومؤمنة بأنه إله واحد لا يوجد في الكون كله سواه.

كيف تهتدي الفطرة إلى خالقها؟

إن الله ﷻ يخبرنا في كتابه أنه حين خلق الخلق عرّفهم بنفسه، وبأنه - جلّت قدرته - هو ربهم الذي خلقهم،

والذي ينبغي أن يدينوا له - سبحانه - بالعبودية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ (الأعراف).

والرسول الكريم ﷺ يخبرنا كذلك: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء، ثم يقول أبو هريرة - راوي الحديث: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ إِلَهِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لِي لَخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الْدِّينُ الْقَيُّمُ﴾ (الروم: ٣٠) (١).

والحقيقة أن الفطرة البشرية تتيقظ لوجود الخالق في سن مبكرة جداً، أصغر بكثير مما نظن!

فنحن نظن عادة أن الشخص الكبير وحده هو الذي يتفكر في وجود الله تبارك وتعالى وفي وحدانيته، ولكننا إذا لاحظنا حياة الطفل الصغير نجد أنه في مرحلة معينة من عمره يبدأ يسأل والديه أسئلة لا تنتهي:

من الذي عمل السماء؟ لماذا كانت السماء زرقاء؟ أين تذهب الشمس في الليل؟ لماذا لا تظهر الشمس لنا في الليل؟ أين يذهب النور حين يأتي الظلام؟ لماذا تلمع النجوم؟ أين تنتهي الأرض؟ لماذا كانت هذه الزهرة ذات رائحة والزهرة الأخرى ليس لها رائحة؟ من أين جئت؟ أين كنت قبل أن أجيء؟... إلخ.

فما معنى هذه الأسئلة في الحقيقة، وما دلالتها؟

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ (١٢٩٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٦٩٢٨).

إن دلالتها الحقيقية أن فطرة هذا الطفل قد بدأت تستيقظ، بدأت تتعرف على خالق السماوات والأرض من خلال مخلوقاته المشهودة المحسوسة، بدأت رويدًا رويدًا تتعرف على حقيقة الألوهية التي أشهداها الله عليها منذ خلقها، وبدأ إدراكها لها ينمو كما تنمو البذرة الكامنة في باطن الأرض، حتى تترعرع وتخصر^(١)®.

أصل قضية الإلحاد وكيف نشأت:

وفي كتابه "الإسلام والعقل" يعرض لنا د. عبد الحليم محمود مسألة الإيمان والإلحاد عرضًا رائعًا في الفصل السادس تحت عنوان "تأملات في الإيمان والإلحاد"^(٢).

يقول: يخلط كثير من الناس بين التوحيد وإثبات وجود الله، وهما أمران بان - في وضوح - اختلافهما واختلاف موقف الإسلام منهما، إذ إن الإسلام استفاض استفاضة كثيرة في إثبات التوحيد؛ وذلك لأنه حق لا مرية فيه، ويقين لا شك فيه، وقد عمي عنه الوسط الذي كان بجزيرة العرب فأشركوا بالله.

أما موقف الإسلام بالنسبة لإثبات وجود الله؛ فإنه مختلف اختلافًا كبيرًا عن موقفه بالنسبة لإثبات التوحيد.

إن القرآن لم يتحدث عن إثبات وجود الله: إن الله في العرف الإسلامي، وفي أعراف أصحاب الفِطَر السليمة موجود، ووجوده لا يتهارى فيه اثنان، ومع

١. ركائز الإيمان، محمد قطب، مرجع سابق، ص ١٤، ١٥.

® في "الأدلة على وجود الله" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

٢. الإسلام والعقل، د. عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص ٨٦: ١٠٤.

ذلك فإن الوضع الحالي في جميع الأجواء الشرقية والغربية، قد أُلِف نزعاً ترى أن إثبات وجود الله مسألة تحتاج إلى برهان، وهذه النزعة الناشئة عن التعود في حاجة ماسة إلى بيان الوضع الصحيح في هذا الموضوع الخطير، ومن أجل ذلك نرى من الواجب علينا معالجة هذا الموضوع في شيء من الاستفاضة.

يقول الله ﷻ عن جوهر رسالة نوح عليه السلام في

العقيدة: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ

مُبِينٌ ۝ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ

يَوْمِ أَلِيمٍ ۝﴾ (هود). ويقول ﷻ عن جوهر رسالة

صالح في العقيدة: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَهْلُ صَاحِقَاءَ قَالَ يَبْقَوْنَ

أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۝﴾ (هود: ٦١). وعن جوهر

رسالة شعيب في العقيدة: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَهْلُ صَاحِقَاءَ قَالَ يَبْقَوْنَ

أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۝﴾ (هود: ٨٤).

وهكذا في رسالة جميع الأنبياء إذ يقول الله تعالى في

تعميم مطلق: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا

نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ۝﴾ (الأنبياء).

إلام تشير هذه الآيات؟ إنها لا تتحدث عن إثبات

وجود الله، وإنما تتحدث عن الشرك، أي الاعتقاد في

آلهة كثيرة.

ولقد كانت الثورة ضد الشرك وتخطيم الأصنام من

المهام الكبرى في الرسالة الإسلامية، حتى إن العالم

الكبير أبا الريحان البيروني حينما أخذ يبين الطابع

الأصيل لكل دين قال عن الإسلام: "إن الطابع

الأصيل للإسلام إنما هو التوحيد".

وإذا كان البيروني حينما تحدث عن طابع كل دين،

الخامس، والرابع، والثالث قبل الميلاد على الخصوص - نشأت مجموعة من العباقرة لا تكاد تحصى، وكأن الساء في هذه الفترة تمطر عباقرة على تفاوت فيما بينهم في الاتجاه وفي المكانة.

هؤلاء العباقرة أكثرهم استقرار على رفض الشرك، أي رفض الدين الرسمي الشائع للدولة، ولو قدر الله لليونان إذ ذاك ديناً صادقاً لاستمسكوا به، وما تردت الإنسانية في الأخطاء الكثيرة التي نشأت عن الحضارة اليونانية في عالمها الفكري الذي انفصل عن الوحي لا من اختيار ورغبة، وإنما على أسف شديد لفقدان الوحي والرسالة الصادقة.

يدلنا على هذا الأسف، وعلى تقديرهم للوحي، قصة يرويها التاريخ حدثت في عهد سقراط، وهي قصة عميقة في مغزاها كل العمق: جلس سقراط ومعه اثنان من كبار فلاسفة المدرسة الفيثاغورية المشهورة التي أسسها فيثاغورس الفيلسوف الصوفي الكبير، جلس ثلاثتهم يبحثون في جد واهتمام موضوع مصير الروح بعد الموت: هل الموت هو الخطوة الأخيرة للإنسان ينتهي بعده روحاً وجسداً، أو إنه انتقال من حال إلى حال والروح باقية؟ هل الإنسان خالد بجوهره وهو الروح، أو إنه فانٍ جسماً وروحاً؟ وأجهدهم البحث، وانتهى بهم إلى عدة براهين تثبت خلود الروح، وأنها لا تفنى بفناء الجسم، وسكنوا يستريحون قليلاً، ولكنهم في فترة راحتهم أخذوا يتدبرون ما انتهوا إليه، ثم قال أحدهم - نتيجة لتأمله - ولكن المسألة ما زالت في حاجة إلى مزيد من اليقين.

ولقد كان ذلك هو ما انتهى إليه الآخرون في

إنها يتحدث عن طابع الأديان في وضعها الراهن، فإنه مما لا شك فيه أن الشرائع - على الرغم مما ذكره البيروني عن سماتها المختلفة - تشترك جميعها في مبدأ التوحيد.

وكل نبيٍّ بَشَّرَ بالتوحيد، ولكن الإنسانية كانت تنحرف بالعقيدة بعد موت الرسول من التوحيد إلى الشرك، والشرك إصراف خاطئ في الإيمان، وما كانت الإنسانية تنحرف قط من التوحيد إلى الإلحاد، وما كان للإلحاد وجود قط فيما قبل الحضارة اليونانية القديمة.

ونشأ الإلحاد - انحرافاً فطرياً ودينيّاً - مع الحضارة اليونانية القديمة، نشأ مجاور الشرك ويمجاور التوحيد، لقد كانت هذه الحضارة تشتمل - في العقيدة - على ثلاثة تيارات:

١. الشرك: وهو دين الدولة الشائع، وتقاليدها الراسخة، يتمثل في فنّها الذي يمثل الشرك في قوة، والذي أثار الإعجاب للإتقان الذي كان يتمثل فيه، والذي ما زال يثير الإعجاب إلى الآن، ويتمثل في أدبها الذي يعكس صورة لعقيدتها، وتاريخ اليونان الفكري والأدبي مليء بصور الشرك المختلفة، مفعم بالوثنية، ولكن الشرك في اليونان - كغيره من ألوان الشرك - أعطى للآلهة صورة غير كريمة تناسب مع مكانتها، بل لقد وصل بها - أحياناً - إلى صورة تنحط عن صورة البشرية الآثمة.

أرأيت الآلهة ترتشي وتظلم وتزني؟

لقد كانت هذه بعض صور الآلهة في اليونان القديمة، وهي صور أساغها الإلف والتكرار والعادة، وشب عليها الأطفال والشبان فلم تثر انتباههم أو توقظهم، وفي فترة من فترات هذه الحضارة - فترة القرن

تأملهم، وقال أحدهم معقبًا على ذلك: "ولكن هذا نهاية شوط العقل". وأسفوا جميعًا على أنه لم ينزل وحي، يفصل في هذا الموضوع.

ثم أخذ أحدهم يتحدث عن تشبيه دقيق يتعلق بوسيلة العبور في محيط ما وراء الطبيعة، والمحيط المادي إنما يتأتى في أعراف الناس عن طريقين:

أحدهما: السفينة يعبر بها الإنسان المحيط آمنًا مطمئنًا من شاطئ إلى شاطئ.

أما الثاني: فإنه لوح من خشب، مصير راحبه الغرق في أغلب الظن.

ووسيلة عبور محيط ما وراء الطبيعة هي الوحي، وهو السفينة الآمنة المتينة، أما فهو العقل وهو لوح الخشب الذي لا يصل في أغلب الظن إلا إلى غرق راحبه.

ولقد كان فلاسفة اليونان في لهفة على أن ينزل عليهم الوحي في جدته ونضرتة وصدقه، ولم يقدر لهم ذلك، ورفضوا الشرك، دينهم الرسمي، فما هو البديل؟ إنه لوح الخشب. وركبوه: ركه سقراط، وركبه أفلاطون، وركبه أرسطو، وركبه من قبلُ السوفسطائيون^(١)، وركبه من بعد أبيقور، وركبه الرواقيون^(٢)، إلام وصل بهم؟ لقد وصل بهم إلى:

١. السوفسطائيون: فرقة تنكر الحسيَّات والبدهيَّات وغيرها، وتُعنى بالجدل والتلاعب بالألفاظ بقصد الإقناع، وهي فرقة يونانية قديمة عارضها سقراط وكشف عن مغالطتها.

٢. الرواقيون: جمع رواق، وهو المنسوب إلى الرواقية، وهي صورة من صور مذهب وحدة الوجود، اشتهرت بأرائها الأخلاقية التي تخضع الخير الأسمى للعقل، وهم من أتباع زينون الفيلسوف اليوناني؛ لأنه كان يعلمهم في رُواق، وهم يرون أن السعادة في الفضيلة، وأن الحكيم لا يبالي لكَّة أو أَلْمًا.

٢. التوحيد: فيما رأى سقراط وأفلاطون وأرسطو وكثير غيرهم.. وهذا هو التيار الثاني الذي كان في اليونان في عصرها القديم، بيد أن توحيد هؤلاء ليس هو التوحيد كما نزل على لسان الصادقين المعصومين صلوات الله عليهم وسلامه، ولم يمثل توحيد المدرسة السقراطية في جزئياته وفي تفاصيله التوحيد الصادق.

٣. وأدى بهم في فريق آخر إلى الإلحاد، الإلحاد المطلق، الإنكار لما بعد الطبيعة وللبعث والرسالة، وكان ذلك على لسان "أبيقور" ومن لف لفه في اليونان، ومن قبله أو في زمنه، أو من بعده.

لقد فقدوا في منطقهم الميتافيزيقي^(٣) الاعتماد على الوحي الإلهي فقَّادهم ذلك إلى مسالك شتى، ولو كان هناك وحي لقادهم وقاد عقولهم إلى الشاطئ في أمن وسلام.

ومنذ هذه اللحظة دخل الإلحاد في العالم مبتدئًا من اليونان، وأصبحت مسألة التدين في الجو الفكري المتابع لهذا التيار اليوناني مسألة عقلية لا شأن لها بالوحي، وأخذت تسير في مجراها العقلي العادي.

المؤمنون يبرهنون عقليًا على إيمانهم، والملاحدون يزيفون المنطق برهنة على إلحادهم، لقد أخذت المسألة في هذا الطريق مع أنها شعور وفطرة وبداهة، وما من شك في أنه كان للمؤلفين منطق جميل في الإثبات، نذكر منه شيئًا من إثبات سقراط.

قال سقراط لصاحبه الذي ينكر وجود الله: أفي الناس من يعجبك براعته في الصنائع؟

٣. الميتافيزيقا: فرع من الفلسفة يبحث في الوجود الذي خرج من عالم الواقع إلى عالم المعقول.

وأعدت لقطع الأشياء فتلقيها إلى الأضراس فتدقها دقًا؟ فإذا تأملت في ترتيب ذلك، أيمنك أن تشك:

هل هي من فعل الإتقان أم من فعل العقل؟

قال أرسطو ديموس: نعم إذا تفكرنا في ذلك لا نشك في أنها من فعل صانع حكيم كثير العناية بمصنوعاته.

ومهما يكن في هذا الاستدلال من جمال، ومهما يكن في استدلال المؤهلين العقليين^(١)، أمثال أفلاطون وأرسطو وديكارت من قوة، فإن في المسألة مع ذلك انحرافًا مهدت له ظروف اليونان التي فقد فيها الوعي، وهذا الانحراف لم يجد من يصححه.

ما الوضع الطبيعي للمسألة؟

قص عليّ صاحب لي قصة هزت شعوري هزًا قويًا، وأخذت أفكر فيها عدة أيام، وما كنت أتخيل أن يصل صدق الإيمان إلى هذه الدرجة.

قال صديقي - وهو سوداني - يحتل مكانة مرموقة في العلم والإيمان: إن في أطراف السودان (قرية صغيرة) تكاد تكون منعزلة لا يكاد يطرق أبوابها غريب، ويسكن (بهذه القرية) رجل صالح يسير في حياته على تقوى من الله، وعلى بصيرة من دينه، عاش هذا الرجل وعالمه - كل عالمه - هو (هذه القرية) التي لم يفارقها قط.

لقد تعود فيها على (أناس معينين) وعلى (ألوان محددة)، و(ملابس) لا تكاد تختلف من فرد لآخر، إنه في تصويره الحسي محدود بهذه القرية.

١. العقليين: أنصار المذاهب الفلسفية التي تجعل للعقل الأولوية في تحصيل المعرفة، ومن هؤلاء: أفلاطون، ديكارت، ليبنتز، كانط، لكن الكلمة تطلق خاصة على فلاسفة القرن الثامن عشر الذين رفضوا إقامة المعرفة على الإيمان.

فقال: نعم، وسمّي من الشعراء والمصورين ممن كان يعده أبرع من غيره.

فقال سقراط: أيهما عندك أرفع شأنًا؟ أمن يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل، أو من يصور الأشباح الحية المتحركة؟

فقال: من يصنع الصور الحية، اللهم إلا إذا كانت تلك الصور من عمل المصادفة والإتقان، لا من عمل العقل.

قال سقراط: إذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها، وأشياء أخرى بينة القصد والمنفعة، فما قولك في تلك الأشياء؟ وما هي التي عندك من فعل العقل؟ وما هي التي عندك من فعل الإتقان؟

قال: لا شك أن ما ظهر قصده ومنفعته من فعل العقل.

قال سقراط: أولست ترى أن صانع الإنسان في أول نشأته جعل له آلات الحس لما في تلك الآلات من المنفعة الظاهرة؟ فأعطاه البصر والأذنين ليصير ويسمع ما يكون لعيشه صادقًا، وما فائدة الروائح لو لم تكن لنا الخياشيم؟ وكيف ندرك المطاعم ونفرق بين الحلو والمر ولو لم يكن لنا لسان نذوق به؟ إن بصرنا معرض للآفات.

أولست ترى كيف اعتنت القدرة الإلهية بذلك، فجعلت الأجفان كالأبواب لتمنع ما يصيب البصر، وجعلت الأهداب كالمناخل لتقيها من أضرار الرياح؟ وما قولك في آلة السمع، وهي تقبل جميع الأصوات ولا تمتلئ أبدًا؟

أما رأيت الحيوانات، كيف ربت أسنانها الأمامية،

والكافر بالله - فيما رأى صاحبنا - إنها هو مجموعة من (القاذورات المعنوية). لا تستحق إلا الاشمئزاز إلى درجة التقيؤ.

أما منطقة في هذا الاشمئزاز فهو أن المنكر للجميل تسمئ منه النفس، ويزداد هذا الاشمئزاز ويعظم كلما كان الجميل كبيراً وكان المنكر مُتَبَجِّحاً، وإننا إذا نظرنا إلى ما بنا من نعمة فإننا نجد أنها من الله: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (النحل: ٥٣)، وإذا نظرنا إلى كمية هذه النعم نجد أنها لا تحصى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (النحل: ١٨)، فمن أنكر هذه النعم وهي محيطة به، ووصل به إنكاره للجميل إلى درجة الكفر، فإنه يكون قد بلغ في إنكار الجميل منتهاه، فيبلغ الاشمئزاز منه منتهاه.

وما كان صاحبنا يفكر في منطق لشعوره، وإذا كنا نحن نلتمس المنطق لهذا الشعور، فإن هذه الظاهرة إنما تعبر أبلغ تعبير عن (صدق الإيمان)، و (صفاء الفطرة).

لقد فوجئت حقاً بهذه الدرجة من صدق الإيمان، وأخذت أربطها بما سبق أن قرأت من أفكار تتناسق معها، أفكار أثرت في نفسي كثيراً حينما قرأتها. إنها أفكار طائفة من (أعلام الفكر) لم يستعبدوا (الإلف الذهني)، ولا (العادات الفكرية) فيما يتعلق بمسألة الإلحاد والكفر.

إن خط (الإلف والعادة) في هذا الموضوع هو أن يذكر المؤمنون الأدلة على وجود الله التي ترجع إلى دلالة الأثر على المؤثر، وهي دلالة قوية، فيحاول (الملحدون) متعسفون الرد عليها.

وفي يوم من الأيام اقتضت الظروف - في صورة من الحتمية - أن يذهب إلى مدينة بعيدة.

وكان هذا في حياته حدثاً هائلاً، فإنه لا يعرف الطرق، ولا المسالك، ولا كيف يسير، ولا بد من السفر.. فاصطحب معه أحد أبناء القرية ممن لهم دراية بالأمور وسافرا، وعلى مشارف المدينة رأى الرجل الصالح منظرًا تعجب له، رأى (ضابطاً إنجليزياً)!!

ورؤية ضابط إنجليزي في السودان - إذ ذاك - كانت أمراً عادياً، ولكن صاحبنا لم ير هذه الصورة من قبل، وسار تفكيره على النسق التالي: ما لهذا (الكائن) قد (خلق لحيته) على هذه الصورة حتى لكأنه قد "سنقرها" إلى أن أصبحت وكأنها لم تكن.

وما له قد كتف نفسه في ملابسه على هذه الصورة، ثم ربط نفسه - أيضاً - بحزام في الوسط.

وما له.. وما له.. ثم سأل مرافقه: ما هذا؟ فقال مرافقه: هذا (خواجة). ولم تكن هذه الكلمة قد دخلت قاموسه اللغوي، فعاد يسأل: وما خواجة؟

فقال صاحبه: (يعني: كافر)، وكان هذا مبلغ علم مرافقه، فإذا بالرجل يرتجف قليلاً ويضطرب، ويسأل في اهتمام وقلق: (أهو كافر بالله؟). فقال رفيقه: "نعم كافر بالله" فإذا بالرجل الصالح يمتلى جسمه وشعوره (بالاشمئزاز) من هذا الكافر، فإذا بهذا (الاشمئزاز) يزداد شيئاً فشيئاً.

وفي سرعة سريعة، وصل الاشمئزاز إلى غايته (فتقياً).

وكما يحدث الاشمئزاز من (القاذورات المادية) فإنه يحدث من (القاذورات المعنوية مثل الكفر بالله).

الوصول إليه). وإلا (فمتى غاب) حتى يستدل عليه؟
(ومتى بعد) حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه؟
ويقول الإمام أبو الحسن الشاذلي - رحمه الله -:
"ومن أعجب العجب أن تكون الكائنات موصلة
إليه، فليت شعري! هل لها وجود معه حتى توصل إليه،
أو هل لها من الوضوح ما ليس له حتى تكون هي
المظهرة له؟"

ويقول: "كيف يُعرَف (بالمعارف) من به (عُرِفَت
المعارف)؟ أم كيف يُعرَف بشيء من سبق وجوده وجود
كل شيء؟"
ويقول أيضًا: "إننا ننظر إلى الله ببصائر الإيمان،
فأغناها ذلك عن الدليل والبرهان".

ويقول - رحمه الله: "وأرباب الدليل والبرهان عموم
عند أهل الشهود والعيان؛ لأن أهل الشهود والعيان
قدسوا الحق في ظهوره عن أن يحتاج إلى دليل يدل عليه.
وكيف يحتاج إلى الدليل من نصَّب الدليل؟ وكيف
يكون معروفًا به وهو المعروف عنه؟"

إن محاولة الاستدلال على وجود الله محاولة خاطئة،
والسير على النحو الموجود الآن من الجدل في هذا
الموضوع "سير منحرف عن الطريق الصواب".

**رابعاً. الآثار المروعة للثقافة الإلحادية تؤكد انحرافها
عن صراط الله المستقيم:**

إننا حين نشعر في عملية المسح لمظاهر الإخفاق
الاجتماعي والفردية للثقافة الأوروبية، نريد أن نتأكد من
الرابطة السببية بين هذه المظاهر - كنتيجة - والثقافة
كسبب.

هل للثقافة صلة بظواهر مثل: إدمان الخمر،

كلا أيها المؤمنون! إن المسألة (أقدس) من أن توضع
هذا الوضع، (وأوضح) من أن تحتاج إلى (برهان).
يقول الإمام الحجة ابن عطاء الله - رحمه الله -:
"وإذا كان (الكائن) من الكائنات من هو غني
بوضوحه عن إقامة دليل، (فالمكوّن) أولى بغناه عن
الدليل منها".
ويقول:

- كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر
إليك؟
- أليكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى
يكون هو المظهر لك؟

- متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟
- ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل
إليك؟

- كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الذي أظهر
كل شيء؟
- كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الظاهر قبل
وجود كل شيء؟

- كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو أظهر من كل
شيء؟

- كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو أقرب إليك
من كل شيء؟

- كيف يتصور أن يحجبه شيء، ولولاه ما كان
وجود شيء؟

شتان بين من يستدلُّ به أو يستدلُّ عليه.
والمستدل به عرف الحق (لأصله)؛ فأثبت الأمر من
(وجود أصله)، و (الاستدلال عليه) من (عدم

الإلهية التي لا يفلت منها طاغية، أو ظالم، أو مختل، وهو الإيمان بأن العبد ليس وحيداً في هذه الحياة، وإنما معه ربه الرحمن الرحيم.

والإلحاد الذي أنتجته الفلسفة الحسية المادية النفعية يحرم الإنسان من كل هذه النعم، ويدعه بلا أمل ولا أمن، ويقبل الإنسان على الدنيا فيصطدم بالآخرين ويستخدم الصراع، ويتردد الإنسان بين الملل والألم كما يقول شوبنهور - الملل إذا فاز في الصراع وأشبع بطنه وفرجه، والألم من الحرمان إذا انهزم ولم يشبع حاجاته، فالإلحاد يهدم الدين، ولا يعطي الناس شيئاً بديلاً.

ولعل هذا هو ما يفسر لنا مظاهر التعاسة والجريمة، وإدمان الخمر، والانتحار، وطغيان الشعور بالملل والقلق، والغربة النفسية في المجتمعات الملحدة.

يقول سبيرو *Spiro*: "في ظني أن كل حضارة تخلق ضغوطاً وأزمات، بعضها عام وبعضها فريد، لا بد للشخصية أن تواجهها، وأن التراث الاجتماعي يزود الإنسان إلى حد كبير أو صغير بأساليب منظمة اجتماعياً للتخفيف من حدتها إن لم يكن حلها أو التخلص منها، وأن معدل انتشار الباثولوجيا السيكلوجية (أي: الأمراض النفسية) في أي مجتمع هو محصلة لا للضغوط التي يخلقها المجتمع فحسب، وإنما للوسائل المنظمة اجتماعياً التي يقدمها التراث الاجتماعي لحل هذه الضغوط والتخلص منها، وأن أولئك الأفراد الذين يعجزون - لسبب من الأسباب - عن حل الضغوط (التي تخلقها الحضارة) بالوسائل (التي تقدمها هذه الحضارة لحلها) يقومون بحلها بأساليب غريبة من

والجذام الجنسي، والأمراض العقلية، والجريمة، والقلق، والملل، والاغتراب^(١) أو الغربة التي تعاني منها المجتمعات الأوروبية والأمريكية؟

ماذا يقول فلاسفة أوروبا ومفكروها في هذه المسألة (مسألة الإلحاد)؟

يقول يونج *C. g. Jung* العالم النفسي الشهير (١٨٧٥ - ١٩٦١م): "طلب مني أناس كثيرون، من جميع الدول المتحضرة، مشورة لأمرضهم النفسية، في السنوات الثلاثين الأخيرة، ولم تكن مشكلة أحد من هؤلاء المرضى - الذين جاوزوا النصف الأول من حياتهم، وهو ما بعد ٣٥ سنة - إلا الحرمان من العقيدة الدينية.

ويمكن أن يقال: إن مرضهم لم يكن إلا أنهم فقدوا الشيء الذي تعطيه الأديان الحاضرة للمؤمنين بها في كل عصر، ولم يُشفَ أحدٌ من هؤلاء المرضى إلا عندما استرجع فكرته الدينية".

فما هذا الشيء الذي فقدوه ولم يشرحه يونج؟ الشيء الذي فقدوه، ولم يبينه "يونج" هو الإيمان بوجود الله تعالى القوي القادر الذي يتضرع إليه الإنسان في السراء والضراء، ويستصرخه ساعة المحنة، وهو الإيمان بحياة أخرى باقية، يلقي الإنسان فيها الجزاء العادل، ويفوز بالنعيم جزاء عمله الحسن، وإن لم يعترف له الناس في هذه الحياة بإحسانه له، أو إتيانه إياه، أو إخلاصه فيه، وهو الأمل في سيادة العدالة

١. الاغتراب لغة، يعني: ترك العشيرة والوطن، ومصدر الكلمة لاتيني، وهو يعني فقدان الجوهر أو السقوط في التبعية أو فقدان الذات المميزة، أو فقدان التواصل مع المجتمع.

وتجنب الفحشاء، وكل ما من شأنه أن يؤدي إليها؛ وهذا المطلب الخلقي يمثل ضغطاً على الأفراد، لكن الإسلام يقدم للمسلم الوسائل الخلقية المشروعة لتمكينه من النهوض بواجبات العفة، فهو يبني مجتمعاً خالياً من المثيرات الجنسية كالتبرج، كما أنه يحث على الزواج، ويسمح بتعدد الزوجات، ويبيح الطلاق؛ وهكذا ييسر للمسلم التزام العفة، دون أن يدفع ثمن ذلك أمراضاً نفسية وعقلية.

ونأخذ مثلاً آخر من الثقافة الأوروبية، وهو النزعة "الليبرالية"^(٣) المتطرفة. لقد أدت فكرة الحرية الفردية، دون ضوابط أخلاقية أو دينية، إلى ذبوع الإباحية والزنا، وتفكك الأسر، وكثرة الأطفال اللقطاء بكل ما تعنيه هذه الظواهر من ضغوط، دون أن تقدم الثقافة الأوروبية الوسائل التي تمكن الفرد من مواجهة هذه الضغوط؛ ولهذا انتشرت الوسائل المرضية الشاذة في مواجهتها - أعني بذلك: العصاب والذهان.

ويؤكد علماء الإيكولوجيا^(٤) على وجود هذه العلاقة السببية بين "الثقافة" ومظاهر النجاح أو الإخفاق الفردي والجماعي "فإن الثقافة جزء من عموم البيئة، كأشعة الشمس، والحرارة، والمطر، والتضاريس. إن المعتقدات الدينية والفلسفية، والتقاليد الاجتماعية، والمؤسسات السياسية، هي بعض العوامل الكثيرة - غير البيئة المادية والاقتصادية - التي تحدد

العصاب^(١) أو الذهان^(٢)، وأنه بقدر ما تخلق الحضارات المختلفة من أنماط مختلفة من الضغوط نجد أن الأساليب الغربية لحل هذه الضغوط - من العصاب أو الذهان - تعكس اختلالات حضارية".

فكل الحضارات تفرز ضغوطاً على الأفراد، وبعض هذه الضغوط مشترك أو متشابه في كل الحضارات، وبعضها نوعي يخص حضارة بعينها أو ثقافة بعينها، والثقافة السائدة في أي مجتمع تقدم للفرد وسائل مشروعة، كالقيم الخلقية والنظم التشريعية، لكي يواجه بها هذه الضغوط، وبقدر نجاح هذه الوسائل وفعاليتها يكون انحسار المرض النفسي والمرض العقلي، والعكس صحيح أيضاً؛ وعلى هذا يصح المبدأ القائل بأن تفشي هذه الأمراض دليل على الإخفاق الثقافي.

ومعنى هذا أن العلاقة السببية بين الثقافة والأمراض العقلية إنما هي حقيقة علمية.

ويؤكد لوبشر Laubscher صحة الرابطة السببية بين الثقافة وظاهرة الانتحار، إذ وجد أن:

• نسبة الانتحار بين الإفريقيين في جنوب إفريقيا ١ - ١٠٠,٠٠٠.

• وبين البريطانيين ١٠ - ١٠٠,٠٠٠.

• وبين الأمريكيين ١١ - ١٠٠,٠٠٠.

(سبب تباين النسبة هو تباين الثقافة).

ولكي نزيد هذه الحقيقة وضوحاً نأخذ مثلاً من الحياة الإسلامية، إن الإسلام يحتم على المسلمين العفة

١. العصاب: مرض يتميز باضطرابات انفعالية وعاطفية.

٢. الذهان: اختلال شديد في القوى العقلية، يؤدي إلى اختلال جميع وسائل التكيف والتوافق العقلي والاجتماعي والمهني والديني، مع فقد القدرة على الاستبصار.

٣. الليبرالية: مذهب يقوم على الاعتقاد في أهمية حرية الفرد ورفاهيته، وإمكانية التقدم الاجتماعي من خلال تغيير التنظيم الاجتماعي وتجديده.

٤. الإيكولوجيا: علم البيئة، فرع من الأحياء يدرس العلاقات بين الكائنات الحية وبيئتها.

مصير بني الإنسان؛ فهي تؤثر بطريقة غير مباشرة، ولكنها فعالة وقوية، إنها تسيطر على أسلوب الحياة، وعلى المظهر المادي فيها، وتنعكس على أنماط السلوك، وعبر هذه التأثيرات، وكثير غيرها، يُفَرَّضُ الطابع الخاص لكل ثقافة معينة".

وهناك أبحاث ودراسات تخصصية تؤكد العلاقة السببية بين الثقافة وإدمان الخمر مثلاً؛ ففي مؤتمر جامعة "بات" - في إنجلترا عام ١٩٨٠م أشار أحد البحوث إلى أن المذاهب الاعتقادية *Belief systems* هي أول أسباب الإدمان.

وربط مارسيليو ديديه في بحث آخر قُدِّمَ للمؤتمر نفسه بين الإدمان والثقافة تحت عنوان "وصفة ثقافية للإدمان" وصرَّح بيتر شيلر بأن الإدمان يمكن أن يعالج بمنهج ثقافي، وقال: ريتشارد سوين: "الظاهر أن العامل الهام هو مبلغ اندماج تناول الخمر - بصورة رسمية - في الحضارة".

والدليل على ذلك انحسار تعاطي الخمر لدى اليهود، لمعاداة القيم اليهودية للإدمان، ونظافة المجتمعات الإسلامية منه بسبب تحريم الإسلام له. وقد أدرك الإسلاميون هذه العلاقة السببية بين الثقافة من جهة، وبين صحة الفرد والمجتمع وسلامته نفسياً وروحياً - من جهة أخرى.

يقول الشيخ محمد عبده في معرض حديثه عن الأنبياء ورسالاتهم: "والدليل على سلامة شهودهم، وصحة ما يحدثون عنه، أن أمراض القلوب تُشْفَى بدوائهم، وأن ضعف العزائم والعقول يتبدل قوة في أمهم التي تأخذ بمقاهم، ومن المنكر في البديهة أن

يصدر الصحيح عن معتل، ويستقيم النظام بمختل".
فصحة الفرد والجماعة، وسعادتها، وقوتها، دليل صدق الرسالات التي جاء الرسل بها، كما أن اختلال الفرد والجماعة وتعاستهما - كما هو الحال في أوربا اليوم - دليل على عَطَبٍ^(١) المبادئ الإلحادية التي تمثل جوهر الثقافة الحسية المادية السائدة فيها.

ويكشف المودودي عن الخدعة التي تحجب العلاقة السببية بين الثقافة والإخفاق الفردي والاجتماعي، فيقول: إن العالم المعاصر يشبه الطفل الذي يثق بالمشاهدة الحسية، فيحسب النار لعبة جميلة، وجل ما بينهما من الفرق أن خطأ هذه المشاهدة لا يلبث أن يظهر جلياً بالتجربة؛ لأن النار التي يحسبها لعبة ويشعر في اللعب بها تكون ذات لهب، ولا تلبث أن تدل الذي يتناولها بيده أنها ليست بلعبة.

وبالعكس من ذلك، فإن خطأ المشاهدة في هذا الطريق - أي المنهج المادي الأوربي - لا يبدو في عشية أو ضحاها، وربما لا يظهر لكثير من الناس طوال حياتهم؛ لأن النار التي يلعبون بها في هذه الحياة الدنيا ليست بحامية، ولا تصيب الذي يلمسها بيده بضرر عاجل، بل يصطي بها البشر آماداً بعيدة وأحقاباً طويلة، وهم لا يحسون بلظاها.

إن النتائج السلبية الضارة للإلحاد لا بد أن تُحَقِّق^(٢) بالمجتمعات الملحدة مثلما أن الحرق لا بد أن ينتج عن ملامسة النار، والفارق الوحيد هو تأخر النتائج في الظهور في حالة الإلحاد، وحدوثها الآني في حالة النار.

١. العَطَب: الفساد.

٢. تحييق: تلحق.

للاتجاه الصحيح^(١).

خامساً. رجوع كثير من الملحدين واعترافهم بوجود الله بعد طول تأمل وثاقب نظر:

نتيجة للآثار السلبية المدمرة للكفر والإلحاد، وبعد التفكير العميق والتأمل الطويل، رجع كثير من الماديين إلى فطرته الأصلية واعترف بوجود الله، وأدركوا أن الوجود لا يمكن أن يقتصر على المادة، وأن المعرفة لها مصادر وموضوعات غير حسية وغير مادية، وأن الأخلاق لا يمكن أن تخضع لمعايير المنفعة المادية وحدها؛ ففي عصرنا هذا حاول إدмонند هسرل (١٨٥٩ - ١٩٣٨ م) إثبات ضرب آخر من الوجود غير الوجود الحسي وغير الوجود الذهني أسماه "الوجود الماهوي"، وتابع نيكولاي مارتن (١٨٨٢ م - ١٩٥٠ م) فلسفة "هسرل" مؤكداً استقلال "الوجود الماهوي" عن الوجود المادي وعن الوجود الذاتي، مع إنكار لوجود الله!! وقوام "الوجود الماهوي" أو "الوجود المثالي" عند هسرل وهارتمن، الحقائق المنطقية والرياضية والقيم الخلقية، فهذه الحقائق والقيم "موجودات مثالية" - لا مادية ولا ذاتية.

إن هذه الحقائق وهذه القيم لا تخضع لإرادة الإنسان، إنها تقف في وجه هذه الإرادة وتتمرد عليها، وهذا هو الدليل على وجودها المستقل، أي أن دليل الوجود عند هذه المدرسة هو التمرد على إرادة الإنسان، أو بعبارة أخرى: الموضوعية التي تتسم بها المبادئ العلمية والقيم الخلقية.

١. نقد الثقافة الإلحادية، د. أحمد عبد الرحمن إبراهيم، مرجع سابق، ص ٣٧: ٤٣.

ولربما أضفنا إلى ذلك فارقاً آخر هو أن رفع اليد عن النار يوقف الحرق في الحال، وإن استمر الألم بضعة أيام، أما في حالة الإلحاد أو الاختلالات الثقافية بصفة عامة، فمن المستحيل القضاء على السبب بالسرعة نفسها، كما أن من المستحيل تجنب الأضرار والنتائج السلبية لعشرات السنين.

فالأخطاء الاعتقادية، مثل الأخطاء العلمية والرياضية، لا بد أن تفضي بالحياة المبنية عليها إلى البوار والإخفاق، ولا بد أن تنتقم الحقيقة لنفسها من كل من يغفلها أو يستهين بها ويسلك في هذه الحياة طريقاً مناقضاً لمقتضياتها، وإن تأخر الانتقام في حالات وعاجل الناس في حالات أخرى.

وهذه أوروبا يشهد فلاسفتها ومفكروها بأن السعادة قد ضاعت منها. يقول برتراند راسل: "إن حيوانات عالمنا يغمرها السرور والفرح، على حين كان الناس أجدر من الحيوان بهذه السعادة، ولكنهم محرومون من نعمتها في عالمنا الحديث" ولقد: "أصبح من المستحيل الحصول على هذه النعمة، أي: السعادة".

لقد ضاعت السعادة، وهي الهدف الأقصى للحياة الأوربية وللأخلاق الأوربية، وذلك على الرغم من كل مظاهر التقدم المادي، لقد ضاع - إذن - كل شيء!

فهل بعد هذا إخفاق؟ وهل بعد هذا قنوط؟ وهل فوق هذا انتقام؟ لا أظن.

ومن العجيب حقاً أن محاولات الإصلاح في الغرب لم تتجه إلى إجراءات ثانوية لا تمس المصدر الثقافي لهذه الاختلالات أو الإخفاقات وذلك على الرغم من كشف عدد من العلماء والفلاسفة

يحاول فهم الإنسان أو المصدر الغيبي غير المنظور لهذا العالم. ولا يلجأ كاريل إلى إيراد البراهين العقلية على وجود الله، ويقول: إن "الشخص المتجرد من حب متاع الدنيا يمكنه أن يشعر بوجود الله كما يشعر بحرارة الشمس، أو بعطف أحد الأصدقاء عليه".

ويؤمن كاريل بأن عبادة الله يمكن أن تشفي المرضى على نحو معجز، ويذكر أن دراسات عن الشفاء الإعجازي عن طريق الصلاة قد بدأت في الولايات المتحدة، وإن كانت الصلاة أسمى من أن يفهمها الفلاسفة والعلماء؛ لأنها: "سمو لا يدركه العقل، إنها استغراق الشعور في تأمله لمبدأ يخترق عالمنا، ويسمو عليه".

ويؤيد كاريل الاتجاهات المعاصرة لدراسة ما وراء الطبيعة، أو الميتافيزيقا، أو الوجود غير المادي، ويعيد إلى الميتافيزيقا الثقة حين يقرر أنها مثل الفسيولوجيا^(١) وعلم النفس، وإن كانت مجالاً لتعدد الآراء والمذاهب. وهو بهذا يتصدى لمزاعم كثيرة روجت لها الفلسفات المادية والوضعية والعقلانية^(٢).

والملاحظ أنه كلما اتسع نطاق العلوم وانكشفت دقائق الطبيعة وأسرارها فقدت فلسفة الماديين والملاحدين مكانتها، وها هم كبار رجال العلم على مستوى العالم يعتقدون جميعاً، ويؤمنون بقوة خارقة مدركة متعالية عن إدراك البشر، أو يعتقدون أن للخلق سرّاً لا يمكنهم إدراكه.

وبوسعنا أن نضيف إلى هذا برهان ديكارت الوجودي وبراهين كانط المستندة إلى الأخلاق أو الفروض الأخلاقية الأساسية التي أثبتنا بها وجود الله. بل إن الفلسفة الوجودية المشهورة بإلحادها لم تحل من التيار الديني؛ فاتجاه كركجارد وكارل ياسبرز الديني معروف في تاريخ الفلسفة المعاصرة، فكلاهما يُبقي على الديانة النصرانية وسط ضجيج المادية والإلحاد.

وفضلاً عن هذا فإن مقاومة النزعة المادية جاءت - أيضاً - من بعض رواد العلم التجريبي نفسه؛ فالعلماء التجريبيون، في مجالات الفيزياء والكيمياء والأحياء، وغيرها، انقسموا من حيث مذهبهم الوجودي إلى ماديين وغير ماديين، وإن كانت الأغلبية الساحقة تتبع المادية الحسية، وتصر على رفض كل شيء لا يخضع للتجربة والملاحظة، بما في ذلك الإيمان بالله.

فهذا ألكسيس كاريل يقرر بوضوح أن النزعة المادية هي سبب الشر والخطأ والقصور في الثقافة الأوروبية، وأن الخلاص من المادية هو الطريق القويم لتصحيح كل الأخطاء والانحرافات، وإحداث التغييرات الجذرية الكبرى المطلوبة في الحياة الأوروبية، ويدرك كاريل أن المادية المسيطرة سوف تقاوم اتجاهه بكل قوة، فيقول: "ولما كان من الواضح أن تحرير الإنسان من المذهب المادي سوف يقلب أغلب جوانب حياتنا، فإن المجتمع العصري (المادي) سوف يعارض بكل قوته هذا التقدم في آرائنا".

ويدعو كاريل إلى أن يسير الإنسان قُدماً في طريق الدين، وأن يحاول أن يعرف الله، أو بتعبيره هو، أن

١. الفسيولوجيا: علم وظائف الأعضاء في الحيوان والنبات.

٢. نقد الثقافة الإلحادية، د. أحمد عبد الرحمن إبراهيم، مرجع سابق، ص ٢١: ٢٣.

ومن هؤلاء: نيوتن، وهو من كبار علماء الفلك والرياضيات، وباستير، عالم الطب ومنشئ علم البكتريولوجيا^(١)، ولاباس، أحد كبار الرياضيين والفلكيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

يقول أحد العلماء، وهو كميل فلاماريون في كتابه "الله في الطبيعة":

إذا انتقلنا من ساحة المحسوسات إلى الروحانيات، فإن الله يتجلى لنا بمفهوم روح دائم موجود في حقيقة كل شيء، ليس سلطاناً يحكم من فوق السماوات، بل هو نظام مستتر مهيمن على كافة الموجودات، وليس مقيماً في جنة مكتظة بالصلحاء والملائكة، بل إن الفضاء اللانهائي مملوء به، فهو موجود مستقر في كل نقطة من الفضاء، وفي كل لحظة من الزمان.

وبتعبير أصح هو قيوم لانهائي منزّه عن المكان والزمان، والتسلسل والتعاقب. وهذا من النتائج القاطعة التي استنبطت من تلك القواعد الثابتة للعلم كنسبية الحركة وقدم القوانين.

إن النظام العام الحاكم في الطبيعة يدل على أن القدرة المطلقة الإلهية هي الحافظة المسترة للكون، وهي النظام الحقيقي، هي المصدر الأصلي لكافة القوانين الطبيعية وأشكالها ومظاهرها.

أما لابلاس فبعد أن درس المجموعة الشمسية يقول: "إن النظام المحير للعقول المشاهد في حركات الأجرام التي تتألف منها المجموعة الشمسية لا يمكن أن يُحمل على التصادف، بل التصادف كلمة لا يصح

النطق بها في لغة العلم.

إن التصادف معدوم ومحال في هذا العالم الذي نرى فيه كل شيء خاضعاً لقوانين الموازنة وقوانين الحساب التي عينتها إرادة غيبية وحكمة بالغة^(٢).

إن مجموعة كبيرة من العلماء والأدباء، والفلاسفة الأوربيين، وغير الأوربيين، تحذر من مغبة السير على الخطوط الثقافية الأوربية وتنقد أصول هذه الثقافة وفروعها، وتبذل قصارى جهدها للكشف عن أفكار ومبادئ ثقافية جديدة. ونريد الآن أن نعرض نماذج من آراء هؤلاء الغربيين وتحذيراتهم فهذه التحذيرات تمثل تقويماً إجمالياً لثقافتهم.

ونبدأ برأي جون ستيوارت مل (١٨٠٦م - ١٨٧٣م) الفيلسوف الإنجليزي المشهور، صاحب المذهب النفعي في الأخلاق، وأحد أنصار النزعة الليبرالية الكبار، يأخذ مل على النظريات الأوربية في الإنسان ضيق أفقها الذي أفضى بها إلى: "فهم جزء من الحقيقة على أنه الحقيقة كلها".

ويقول مل في نقده لهذه النظريات: "إنها كانت مصيبة في ما أثبتت، مخطئة في ما أنكرت". يريد أنها حين اعترفت بالجانب المادي، أو الاقتصادي، أو الاجتماعي في حياة الإنسان، كانت على حق، ولكن إنكار الجوانب الأخرى، لحساب جانب واحد كان خطأ.

وهذا هو أحد العيوب الأساسية في الفلسفات الأوربية الحديثة والمعاصرة، أعني: عجزها عن النظر إلى الحياة الإنسانية نظرة شاملة لكل جوانبها، فرغمت

٢. عرفت الله، محمد إبراهيم، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط ١، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م، ص ٩، ١٠.

١. البكتريولوجيا: علم الجراثيم، وله أهميته في الطب في مكافحة الأمراض الميكروبية.

أيديولوجية^(١) فرويد - مثلاً - أن السعادة الإنسانية ترتهن بالحياة الجنسية الخالية من الكبت، في حين اقتنع ماركس بأن الاقتصاد هو مركز الوجود.

هذه النزعة التجزيئية المتطرفة هي الخاصية المشتركة للفلسفة الحديثة.

إن جانباً واحداً من جوانب الحياة الإنسانية ينتزع من سياقه الصحيح، ويبالغ في أهميته مبالغة تتجاوز كل الحدود المعقولة، فهم - بعبارة أخرى: يتصورون الجزء - خطأ - على أنه الكل".

وهكذا نرى أن الخلل الأساسي في الموقف الأوروبي هو خلل ثقافي، بل في قلب الثقافة وجوهرها، ألا وهو النظرة في الإنسان، ويقول بيتريم سوروكين *Pitirim A. Sorokin*^(٢): "إن كل جانب من حياة المجتمع الأوروبي مريض وعقله مريض، ولا تكاد توجد نقطة صغيرة واحدة على جسده إلا ويعتورها الألم، ولقد اضطرب جهازه العصبي بجميع أليافه العصبية، فلم يعد قادراً على أداء عمله على النحو السديد. ويبدو أننا نعيش بين عهدين: عهد ثقافتنا الحسية المحتضرة - ثقافة ماضينا المجيد، وعهد الثقافة المثالية المقبلة في الغد الخلاق؛ إننا نعيش ونفكر، ونعمل في اللحظات الأخيرة من عهد حسي مشرق امتد ستمائة عام، ولا

تزال أشعة الشمس المائلة تبرز أعجاد عهدنا الماضي، ولكن الضياء يذوى، وفي الظلام المتكاثف يعسر أن نرى بوضوح، وأن نقود أنفسنا في أمان عبر لحظات الاضطراب عند الغسق.

إن ليل فترة الانتقال بدأ يلوح أمام أعيننا تصحبه كوابيسه المزعجة، وظلامه المخيف، ورعبه الذي يزلزل القلوب، وعلى الرغم من ذلك يلوح لنا - من وراء ذلك الليل - فجر ثقافة مثالية جديدة عظيمة، ربما يتلبث هناك لكي يُحيي إنسان المستقبل".

فالمجتمع الغربي في أزمة شاملة، والمرض تفشى في جسده وعقله، في حضارته وثقافته، في سلوكه وفي فكره، إن ثقافته الحسية تختصر وتموت، والأمل يراود سوروكين في بزوغ فجر ثقافة "مثالية" جديدة، وتعيش أوروبا اليوم في عتمة، وتضطرب خطواتها، ويحل عليها ليل فترة الانتقال "من ثقافة الحس إلى ثقافة الفكر" بظلامه وكوابيسه المزعجة.

ويرى هارولد تيتوس *Harold H. Titus* أن نظرة الأوروبيين إلى الإنسان تنطوي على خطأ قاتل، والدليل على ذلك هو مسيرة الأحداث في العقود الأخيرة من هذا القرن: "لقد فاز الإنسان بقوى جديدة كبرى، في مجالات العلم والتكنولوجيا، غير أن هذه القوى استخدمت لأغراض التدمير بكثرة زائدة، ولقد مدد الإنسان بسرعة نطاق معرفته وجوّد نوعيتها، غير أنه لم يتقدم نحو السعادة وخفض العيش إلا قليلاً، هذا إذا كان قد تقدم في هذا الاتجاه على الإطلاق، ولقد صمم الإنسان المخططات، وأنشأ المؤسسات العديدة ليفوز بمزيد من الأمن والراحة، ومع ذلك فهو يعاني

١. الأيديولوجية: عبارة عن مجموعة الآراء والأفكار والمعتقدات والفلسفات التي يؤمن بها شعب أو أمة أو حزب أو جماعة.

٢. سوروكين "بيتريم ألكسندرفيتش": عالم اجتماع أمريكي من أصل روسي، ولد سنة ١٨٨٩م، كان أستاذاً في جامعة ليننجراد، هاجر إلى الولايات المتحدة سنة ١٩٢٣م، والتحق بجامعة منيوسوتا سنة ١٩٢٤م، ثم في هارفارد سنة ١٩٣١م، وله مؤلفات كبيرة وعديدة، توفي سنة ١٩٦٨م.

يشير بذلك إلى الحقيقة القائلة بأن تاريخ التطور العلمي والحضاري في أوربا هو في الوقت نفسه تاريخ تطور القدرة على التدمير والتخريب والإفناء، والعلّة من وراء هذا التناقض في عالمنا المعاصر - وهو عالم أوربي غربي أو مغرب - تتمثل في عطب أصاب الثقافة الأوربية، فهي قد ركزت جهودها للكشف عن مصادر القوة، دون أن تعنى بإيجاد الضوابط أو الكوابح الأخلاقية التي تضمن إخضاعها للأهداف الإنسانية.

وأما برتراند رسل (١٨٧٢ م - ١٩٧٠ م) الفيلسوف والرياضي الإنجليزي فقد أفرغته إلى أبعد الحدود مظاهر التدمير والتخريب والقتل التي عمّرت بها الحرب العالمية الثانية، وما أحدثه هتلر وموسوليني فيها من أساليب وحشية، فقال رسل: "إن وصف الإنسان بأنه وحش ظلم للوحوش، إن مركباً من الذكاء العلمي، شر إبليس هو الذي تمثل في قادة الدولتين الأوربيتين ألمانيا وإيطاليا، ملأ أوربا بالرعب والفرع والخوف الذي لا نظير له، ولقد تخيل الإنسان جهنم في الماضي، ولكنه جسد ذلك الخيال في وقائع في أوربا في العصر الحديث".

فهذا هو الإنسان وهذه هي الإنسانية التي أنضجتها الثقافة الأوربية، لقد تحول الإنسان الأوربي إلى وحش، وليس في الحرب فقط، كما ذكر برتراند رسل، "ولكن في الاستعمار، ومعاملة الشعوب الملونة، في آسيا وإفريقيا وأمريكا، ولا يزال إلى اليوم عاجزاً عن الكف عن استغلالها وظلمها ونهبها.

ويدعو ألكسيس كاريل (١٨٧٣ م - ١٩٤٤ م) إلى إحداث تغييرات جذرية في المبادئ والاهتمامات

من الخوف العقلي والوجداني، فيما يتصل بمعنى الحياة وطبيعة العالم الذي يعيش فيه، ونوع الحياة التي يريد أن يحياها مع إخوته من بني البشر".

فثمة إذن خطأ جسيم في بناء الثقافة الأوربية ألا وهو نظرتها إلى الإنسان وحياته، ومكانته في هذا العالم، والأحداث الواقعية في الحياة الأوربية والأمريكية تبرهن على وجود هذا الخطأ المميت. فقوة العلم تستخدم لإبادة البشر "٦٠ مليون قتيل في الحرب العالمية الثانية" وتدمير المدن، والتقدم العقلي والعلمي والصناعي لم يقرب الأوربيين من مثلهم الأعلى وهو السعادة، وإذا كانت الراحة البدنية قد تحققت فإن خوف الأوربيين من أن يكونوا قد فهموا معنى الحياة خطأ هو خوف ملازم لعقولهم، إنهم ليسوا على يقين من صحة مفاهيمهم، وهذا هو الخلل الجذري في موقفهم الراهن تجاه الإنسان والحياة الإنسانية، وهو خلل ثقافي دون ريب.

صفوة القول إذن أن قوة العلم قد سخرت لإبادة الإنسان نفسه، ومعرفته المتنامية أبعدته عن السعادة وعن فهم نفسه وحياته، وهذا هو التناقض عينه، ويقرر العالم البيولوجي كونكلين *E. g-Conklin* في كتابه "*Man, Real and Ideal*" الإنسان، الواقع والمثال أن "الجنس البشري الآن في أشد أزمة مرّ بها في تاريخه الطويل".

ويقول نوثرروب *F. S. C. Nothrop* - وهو عالم اجتماع: "إن عالمنا هذا عالم متناقض، فالمنجزات التي تمثل أمجاده هي التي تهدده بالدمار، ويبدو أننا كلما تقدمنا في الحضارة، فقدنا القدرة على الحفاظ عليها".

والاتجاهات الأساسية للثقافة الأوروبية المعاصرة، بحيث تمتد اهتماماتها العلمية والفكرية لتشمل الإنسان من جميع جوانبه، بدلاً من التركيز على جسمه وإهمال روحه وأخلاقه، أو الانصراف إلى علوم الجهاد والحيوان على حساب علوم الإنسان الروحية والعقلية، والأخلاقية والجمالية.

وينادي كاريل بضرورة: "قلب الحضارة الصناعية، وظهور فكرة أخرى للتقدم البشري". ويقول: "إن من الواجب أن يحول اهتمام البشرية من الآلات وعالم الجهاد إلى جسم الإنسان وروحه، إلى العمليات العقلية والعضوية التي ابتدعت الآلات، وابتدعت دنيا نيوتن وآينشتين".

ويتهم كاريل النزعة المادية، والصناعية الطاغية في الثقافة الغربية بتحطيم "الثقافة والجمال والأخلاق"، كما يتهم التعليم العلمي التجريبي بأنه السبب في ذبوع الغباء وبلادة الذهن، ويصور كاريل الأصدقاء الاجتماعية للانحراف الثقافي، فيقول: "إن الشرطة في المجتمعات الغربية أصبحت هي التي تحمي المجرمين، وأصبح الأثرياء يعمون بكل الحقوق، ويستطيعون اقتراح كل الرذائل الخلقية دون أن يفقدوا احترام الناس.

وكلنا يعلم أن كتاب كاريل: "الإنسان ذلك المجهول" إنما هو حملة علمية ضد التوجهات الثقافية والاجتماعية والفلسفية الأوروبية، ودعوة قوية إلى إحداث تغيرات أساسية، وقلب الأوضاع الخاطئة، وإيجاد ثقافة جديدة أو فكر جديد، وأهداف وغايات إنسانية جديدة لأوروبا وأمريكا.

وتردد أصداء هذه الصرخة على لسان عالم آخر أمريكي من أصل فرنسي أيضًا، مثل كاريل تمامًا، وهو حائز على جائزة نوبل في العلوم لعام ١٩٧٦م، بالاشتراك مع عالم آخر، هذا العالم هو رينيه دوبو الذي نادى بثورة فكرية وشعورية، يكون هدفها إنشاء معتقدات إيجابية جديدة وأخلاق اجتماعية جديدة، ودين جديد، ويرى أن هذا العمل يحتاج إلى جهد جماعي وإيمان موحد، لكن هذا الإيمان غير موجود، ولهذا فإنه يرى أن أهم الواجبات الملقة على الأمريكيين والأوروبيين اليوم هو: البحث عن معنى لحياتهم. أي عن الإيمان بهدف كبير لحياتهم يجعل لهذه الحياة معنى.

ويرجع دوبو القول بأن البشرية سوف تدمر نفسها بنفسها، والترسانات النووية جاهزة لدى المعسكرين المتناحرين لإنجاز هذا الهدف على أكمل وجه، وحتى لو لم يقع الدمار الشامل فإن دوبو يرجح تحلل البشرية عن قيم المدنية الغربية؛ إن الوجود الإنساني مهدد بالأسلحة النووية، وتلوث البيئة، ونفاد الطاقة وما يعنيه من انعدام التيار الكهربائي، ثم فساد الأخلاق والآداب، وهناك تهديد آخر يتمثل في نمو التشديد في القوانين الخانقة للمجتمع الإنساني، وضياع حرمة المنزل الأمر الذي قد يؤدي إلى استحالة الحياة المتحضرة.

ويعدد دوبو مظاهر الإخفاق في الحياة الأمريكية والأوروبية فيذكر ضمن قائمة المشكلات الطويلة: المشكلة العنصرية، والعزلة، والقلق، والغربة النفسية، وقبح المدن والخواضر الكبرى، وألوان المظالم الفردية والطبقية والدولية، والجنون العام الذي يسبب تهديدًا

دائمًا بالحرب النووية.

ويضيف إلى ذلك: اضطراب وسائل النقل والتركيز الزائد على الراحة البدنية والمادية، وذيوع الأنانية، وافتقاد السلوك الاجتماعي والتضحية "بالكيف" في مجالات التربية والإنتاج، وذيوع الرغبة في امتلاك القوة عن طريق العدوان، وجمع المال بالطرق العدوانية وغير المشروعة، وتدمير الجمال الطبيعي، واغتصاب البيئة "كأننا الجيل الأخير الذي يعيش على ظهر هذه الأرض"، هكذا يقول دوبو في حسرة وألم.

وأما المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي فيبدو متحفظًا كطابع قومه "الأنجلو ساكسون" كما يتحلى كلامه بنبرة من التفاؤل حين يتعرض لتقويم الثقافة الغربية، فهو يرى أن قصور الطاقة الإبداعية لدى الأقلية الزائدة هو سبب انهيار الحضارات، ويقول: إن أوروبا لا تزال تملك هذه الطاقة الإبداعية، ومن ثم الأمل في استمرار الحضارة الغربية.

وعلى الرغم من نبرة التفاؤل هذه فإن توينبي يقرر أن عصر اضطرابات الحضارة الغربية قد أُنِخ^(١) - بلا مرأى - بكلِّكَلِه^(٢) على الغربيين، وعصر الاضطرابات بحسب نظرية توينبي هو المرحلة الأولى لانهيار الحضارة، ثم تتلوها مرحلة الدولة العالمية، ثم الانهيار. ومعنى هذا أن الحضارة الغربية لا تزال تأمل في الحياة بضعة قرون.

و توينبي - مع ذلك - لا يستطيع أن يخفي سخطه وحمقه على الفراغ الروحي: "الذي خلقناه بأيدينا، فراغ

يتمثل في ترحيبنا بروح إفريقيا الاستوائية في الموسيقى والرقص، وفي إبرام مخالفة - غير مقدسة - بين فن النحت وبين روح بيزنطية كاذبة يبدو أثرها في التصوير والنقش البارز، وقد حطت تلك التأثيرات على بيت ألفتة خاليًا ومزينا". (يعني أوروبا).

ولا تمت مظاهر هذا الانحدار - في جوهرها - إلى الفن لكنها روحانية الطابع؛ فإحلال الفنون الإفريقية محل الفنون الأوروبية - في أوروبا نفسها - إنما هو في رأيه: "نتيجة نوع من الانهيار الروحاني في حضارتنا الغربية". أي في الثقافة الأوروبية نفسها "فكلمة حضارة هنا لا يمكن أن تعني إلا الثقافة" إذن أوروبا تعاني من الفراغ الروحي أو الانهيار الروحي، الأمر الذي حمل الأوروبيين على اقتباس الفنون الإفريقية، فنون المستعمرات الأوروبية السابقة، فنون الزنوج الذين يصنّفون طبقًا للعنصرية الأمريكية والأوروبية في أدنى درجات البشر.

وهذا رجاء جارودي، الذي وجد خلاصه الروحي في اعتناق الإسلام، يقرر أن "الحضارة الغربية تمضي بالعالم إلى الهاوية بما أنتجت من آلات واختراعات تملأ حياتنا وتغزوننا من كل جانب وتشوش تصوراتنا"، ويضيف: "لا بد من تأمل مستقل في المسار التاريخي لتطور الحضارة الغربية، وما آلت إليه"، والهدف من وراء ذلك بطبيعة الحال هو تغيير مسارها الخطر إلى أهداف إنسانية صحيحة.

إن العلوم الأوروبية أدت إلى تدمير ستين مليون إنسان منذ الحرب العالمية الثانية وقنبلة هيروشيما؛ وإذا استمرت الأوضاع على ما هي عليه فإننا سنواجه

١. أناخ عليه: نُقِلَ عليه وضغط.

٢. الكلِّكل: الصدر، أو هو ما بين الترقوتين.

أضعاف أضعاف ما عشناه من ويلات وكوارث".

ولا تنزال الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ودول أوروبا الغنية تنفق بسرّف وبذخ على التسليح في حين تضمن بمعوناتهما على الأطفال الجياع في العالم، بل إن الولايات المتحدة تلقي بالكثير من إنتاجها الزراعي في البحر، وتشجع المزارعين على عدم زراعة أراضيهم، في حين يخيم شبح الجوع على ربع أطفال العالم النامي، ويموت بسبب الجوع وسوء التغذية والعلاج أربعون ألف طفل كل يوم، في عالم يملك وسائل إيقاف ذلك، وهذه وصمة عار للثقافة السائدة.

ويقول مكتب الأمم المتحدة للأطفال: إن ٢٦٠ مليون نسمة في ٢٤ دولة يعانون آلام الجوع، وإن ١٠٠ مليون طفل ينامون جائعين كل ليلة. والدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية مسئولة مسئولية مباشرة عن هذه المصائب؛ لأنها هي السبب في التوتر الدولي وإشعال الحروب والنزاعات الإقليمية؛ من أجل تسويق السلاح وتوسيع مناطق النفوذ، ثم إنها هي السبب في فقر الكثير من دول إفريقيا وآسيا التي نهبتها أيام الاستعمار لصالح تنمية الدول الأوروبية، ولصالح إعمار القارة الأمريكية بسواعد العبيد المجلوبين من إفريقيا.

الخلاصة:

• إذا لم يكن لهذا الكون إله، فكيف خُلق؟ ولماذا خُلق وكيف يدبر أمره؟ وما مصيره؟ كل هذه أسئلة حارت فيها عقول المنكرين، ولم يجدوا لها جواباً شافياً، وكان الجواب في الدين.

• إن إنكار وجود الله دعوى إلحادية لا دليل

عليها، بل الأدلة العلمية والعقلية تناقضها، وتقضي بوجود الخالق ﷻ.

• دائماً ما تتجه فطرة الإنسان إلى الخالق وتؤمن بوجوده؛ لأنها مفطورة على ذلك، ولكن الإنسان هو الذي طمس على هذه الفطرة بجهوده ونكرانه.

• إن نشأة الإلحاد تُعدُّ انحرافاً طارئاً على الفطرة السليمة التي توقن بوجود الله؛ لذلك فهو انحرافٌ عن المسار الصحيح للإنسان.

• إن مما يؤكد زيغ الإلحاد عن صراط الله المستقيم، تلك الآثار المروعة الناتجة عن الثقافة الإلحادية، وما الأمراض النفسية والعقلية وذيوع الجرائم. وتفشي الإدمان والشذوذ والانتحار إلا أمثلة لهذه الآثار المروعة.

• إن رجوع كثير من الملحدين واعترافهم بوجود الله بعد طول تأمل ونظرٍ ثاقب يعد دليلاً جلياً يشهد بأن الفطرة السليمة تتجه إلى الله تعالى وتؤمن بوجوده.

• ولا تنس أن علماء أوروبا وفلاسفتها قد حذروا المجتمعات والحكومات من عواقب ما أنتجته الثقافة الإلحادية من ظواهر تحمل بين طياتها^(١) عوامل انهيارها وسقوط حضارتها عاجلاً أو آجلاً؛ بسبب الفساد العقدي الذي تنطوي عليه.



١. تحمل بين طياتها: تتضمن.

الشبهة الثالثة والعشرون

ادعاء قديم العالم (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن العالم قديم قديم قديم الخالق، وأنه نشأ من عناصر مادية، كالماء والهواء، والنار، والتراب، ويستدلون على ذلك بقولهم: إن كل شيء يفسر بالمادة والحركة، وأنها عنصران أزليان أبديان، والعالم مدبر مسير بقوانينها.

وجها إبطال الشبهة:

- (١) العلم الحديث أثبت حدوث العالم من العدم.
- (٢) النقل والعقل يدلان على حدوث العالم من العدم.

التفصيل:

أولاً. العلم الحديث أثبت حدوث العالم من العدم:

العالم حادث من العدم بدليل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَاهُمَا مَاءً كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠)، وقد أثبت العلم الفيزيائي أن الكون - السماء والأرض - كان كتلة ضئيلة، فانفتقت بانفجار حراري عظيم، منذ خمسة عشر بليون سنة، وذلك قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ (فصلت: ١١) بعد أن خلق الأرض من الكتلة الدخانية في يومين: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ (فصلت: ٩).

(*) الباية والبهائية في الميزان، مجموعة من علماء الأزهر، مرجع سابق.

وأكد كثير من علماء الكون أنه باستعلام قوانين الفيزياء لاستنباط الكيفية التي كان الكون عليها حين نشأته وبداية تكوينه، تبين أن الكون كان في بدايته حاراً وكثيفاً، وكان غازياً وكانت مادته وإشعاعه ممتزجين معاً امتزاجاً يختلف فيه تماماً عما نعرفه عنهما، من حيث تميزهما الواضح عن بعضهما.

فالإشعاع والمادة في بداية نشأة الكون سلكا سلوكاً لا يكاد يميز أحدهما عن الآخر، وهم يعتقدون أن درجة حرارته كانت عالية جداً مما أدى إلى الانفجار العظيم. وبعد اكتشاف القانون الثاني للحرارة الديناميكية، ثبت أن هذا العالم وجد بعد عدم، وبالتالي فهو محدث وليس قديماً.

وهذا القانون الذي نسميه "قانون الطاقة المتاحة"، أو "ضبط التغير" يثبت أنه لا يمكن أن يكون وجود الكون أزلياً، فهو يصف لنا أن الحرارة تنتقل دائماً من وجود حراري إلى عدم حراري، والعكس غير ممكن، وهو أن تنتقل دائماً هذه الحرارة من وجود حراري قليل، أو عدم وجود حراري، إلى وجود حراري أكثر، فإن ضابط التغير هو: التناسب بين الطاقة المتاحة والطاقة غير المتاحة.

وانطلاقاً من هذه الحقيقة القائلة بأن العمليات الكيميائية والطبيعية جارية، وأن الحياة قائمة، يثبت لدينا قطعاً أن الكون ليس بأزلي؛ إذ لو كان أزلياً لكان من اللازم أن يفقد طاقته منذ زمن بعيد، بناء على هذا القانون، ولما بقي في الكون بصيص^(١) من الحياة.

يذكر هذا التحقيق العلمي الحديث عالم أمريكي في

١. بصيص: أثر خفيف.

ثانيًا. النقل والعقل يدلان على حدوث العالم من العدم:

قد تضافرت الأدلة على حدوث العالم، وقد ثبت علمياً صدق كثير من هذه الأدلة، وقد ذكرنا بعضها في الفكرة الأولى، وأما في هذه الفكرة فسندلّل بالنقل والعقل، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾ (السجدة). وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ (العنكبوت)، وقوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَلْفُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (الطور).

وهذه الآيات مجتمعة تقرر أن الحياة لم تكن كائنة، ثم كانت بأمر الله، أوجدها الله في الوقت الذي أَرادَه، ولفظه "خلق" إشارة إلى التكوين، ويقرر المفسرون في هذه الآيات أن السماوات والأرض كانتا معدومتين، فأوجدهما الله، والممكنات باعتبار ذاتها وحدها تكون معدومة، وأتصافها بالوجود لا يكون إلا من واجب الوجود وهو الله تعالى.

يقول الأشعري: "إن سأل سائل فقال: ما الدليل على أن للكون صانعاً صنعه ومدبراً دبره؟ قلنا: الدليل على ذلك الإنسان، فالإنسان الذي هو غاية الكمال والتمام، كان نطفة ثم تحولت إلى علقة ثم إلى لحم، ودم وعظم، وعلمنا أنه لم ينقل نفسه من حال إلى حال، وإذا كان تحول النطفة علقة، ثم مُضْغَةً، ثم لحماً، أعظم في

علم الحيوان هو (إدوارد ثوركسيل) فيقول: وهكذا أثبتت البحوث العلمية - دون قصد - أن لهذا الكون بداية، فأثبت تلقائياً وجود الإله؛ لأن لكل شيء بداية لا يمكن أن يبتدئ بذاته، ولا أن يحتاج إلى المحرك الأول - الخالق الإله - وقد قال نفس الكلام السير جيمس: تؤمن العلوم الحديثة بأن عملية تغير الحرارة سوف تستمر حتى تنتهي طاقاتها كلية، ولم تصل هذه العملية حتى الآن إلى آخر درجاتها؛ لأنه لو حدث لما كنا الآن موجودين على ظهر الأرض حتى نفكر فيها.

إن هذه العملية تتقدم بسرعة مع الزمن، ومن ثم لا بد لها من بداية، ولا بد أنه قد حدثت عملية في الكون يمكن أن نسميها "خُلُقًا" في وقت ما، حيث لا يمكن أن يكون هذا الكون أزلياً، وهناك شواهد طبيعية كثيرة أثبتت أن الكون لم يكن موجوداً منذ الأزل، وأن له عمراً محدوداً، وعلى سبيل المثال نجد علم الفلك يقرر أن الكون يتسع بالتسلسل الدائم، وأن كل مجاميع النجوم والأجرام والأجسام الفلكية تتباعد بسرعة مدهشة، بعضها عن بعض، ويمكن أن نفسر هذه الحالة تفسيراً جيداً إذا نحن سلمنا بوقت للبدء كانت فيه الأجرام التركيبية مركزة ومجتمعة بعضها مع بعض، ثم بدأت الحركة والحرارة، ويقدر العلماء أن هذا الكون قد وجد نتيجة الانفجار فوق العادة منذ ٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة، فالإيمان بهذا الكشف العلمي، وهو أن للكون عمراً محدوداً يتعارض مع إنكار وجوده^(١).

١. الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، تعريب: ظفر الإسلام خان، مراجعة: د. عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢٢، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠١م، ص ٧٤، ٧٥.

الأعجوبة كان أولى أن يدل على صانع صنع النطفة، ونقلها من حال إلى حال، وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ (الواقعة)، فلم يستطيعوا أن يقولوا بحجة أنهم يخلقون ما يمتنون. فإن قالوا: فما يدريكم أن تكون النطفة لم تنزل قديمة؟ قلنا لهم: وأين كانت قبل مجيء صاحبها، أو قبل وصوله إلى مرحلة البلوغ والرشد؟ ولو كان ذلك - القدم - جائزاً لم يجوز أن يلحقها الاعتقال والتأثير، ولا الانقلاب والتغيير، ولا الموت؛ لأن القديم لا يجوز تغييره وانتقاله.

حقاً، فقد كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء، كما قال النبي ﷺ، فالنبي ﷺ قد بين بأوجز كلام، وأحسنه بياناً ما يتضمن أن جميع الموجودات سوى الله محدثة مخلوقة: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ (الحديد: ٣).

وصحيح الدلالة العقلية يثبت أن العالم حادث من العدم؛ إذ إن العالم مخلوق ولا بد لكل مخلوق من خالق، ولا يجوز عقلاً أن يوجد المخلوق والخالق في آن واحد، فالصانع لا بد أن يكون سابقاً للصنعة.

والخالق أزلي الوجود؛ إذ لو كان مسبوقاً بالعدم لكان لا بد من مؤثر في إيجاده، ومحال أن يكون مع ذلك إلهاً؛ فلا بد أن يكون الإله هو السابق عليه والموجد له، فيكون هو القديم إذاً، وهذا هو المطلوب بيانه.

أو أن يكون ذلك السابق أيضاً مسبوقاً بعدم، وأن موجوداً قد أثر فيه فأوجدته، وهكذا، فيستلزم ذلك فرض التسلسل، وهو باطل بالبرهان العلمي.

فلا بد إذاً أن تكون الموجودات كلها مستندة في وجودها إلى ذات واجبة الوجود؛ ولا تكون هذه الذات واجبة الوجود إلا إذا كانت مؤثرة في غيرها غير متأثرة بسواها، وذلك يستلزم أن تكون متصفة بالقدم.

وإنما يستشكل العقل - بعد هذا - تصوّر حقيقة هذه الذات واجبة الوجود، وتصور ماهية فعلها في الكون، وكيف اتجهت إلى العدم المحض فأحدثت عنه وجوداً هو ذلك الكون ممدود الأطراف والنواحي؟! والعجز في مثل هذا ليس طعناً في العقل وقدرته على الإدراك؛ فحسبه أن يرى آثار الصفات الإلهية في الكون، وأن يتدبر فعله ﷻ فيما يولد أو يموت، أو ما يحدث أو يزول، وما يسكن أو يضطرب في ذلك الكون الشاسع. إن العقل وقف عن إدراك الروح، فالعقل لم يدرك الروح، ولم يعرف حقيقتها، منذ الأزل وحتى الآن، فهو واقف أمام أمرها - وهي متوغلة فيه - يقول: "لا نعرف شيئاً من أمر الروح" وإذا كانت الروح مخلوقاً من مخلوقات الله تعالى، وعجز الإنسان عن إدراكها، فكيف يدرك خالقها تبارك وتعالى؟ ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام)، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ (٣)﴾ (الإخلاص).

الخلاصة:

- إن الفكرة القائلة بقدم العالم مثل خلقه فكرة باطلة، ويستدل القرآن على بطلانها عقلاً بأن الذي يُخلق لا يكون خالقاً، ولا بد أن يسبق الخالق خلقه في الوجود، إن الصنعة لا يمكن أن تصاحب صانعها في

بدء الوجود، بل لا بد أن تتأخر عنه.

• إن قانون "الطاقة المتاحة" أو "ضابط التغيير" يثبت أن الحرارة تنتقل دائماً من وجود حراري إلى عدم حراري، والعكس غير ممكن. وعليه، فجريان الحياة وقيامها يثبت أن الكون ليس أزلياً؛ إذ لو كان أزلياً لكان من اللازم أن يفقد طاقته منذ زمن بعيد.



الشبهة الرابعة والعشرون

إنكار ثبوت عقيدة التوحيد في الشرائع السماوية^(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المغالطين ثبوت عقيدة التوحيد في الشرائع السماوية، ويدّعون أنها أقرت عقيدة التثليث، مستدلين على ذلك ببعض شعائر المسلمين؛ كقولهم في الأذان: الله أكبر؛ فاستخدام صيغة أفعل تدل على أن هناك أكثر من إله، هذا أكبرهم. وكذلك قول المسلمين: بسم الله الرحمن الرحيم؛ كما يقول النصارى: بسم الآب والابن والروح القدس، كما يستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿قَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(١٤) ﴿المؤمنون﴾ حيث تدل صفة أفعل (أحسن) أيضاً على وجود أكثر من خالق، هذا أحسنهم، ويتساءلون: كيف بعد هذا يدّعى أن الإيمان في الإسلام مؤسس على التوحيد؟

(*) هذا هو الحق: رد على مفتريات كاهن الكنيسة، ابن الخطيب، المطبعة المصرية، القاهرة، ١٩٧٩م. الجذور التاريخية والجسور الحضارية بين الإسلام والغرب، د. محمد محمد أبو ليلة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

وجوه إبطال الشبهة:

- (١) الحقيقة الواضحة في القرآن هي التوحيد الخالص، ونفي ألوهية غير الله، ونبد الشرك، وهذا هو الأساس الذي تصح معه جميع الأعمال.
- (٢) التوحيد هو أصل جميع الشرائع، والأنبياء دينهم واحد وإلههم واحد.
- (٣) ليس في القرآن الكريم ما يسوغ أن يكون إشارة إلى إقرار التثليث ونحوه من صور التعدد.

التفصيل:

أولاً. التوحيد الخالص في القرآن الكريم:

إن التوحيد هو الأساس الذي تقوم عليه العقيدة الصحيحة في الإسلام، وتصح معه جميع الأعمال، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(١١) ﴿الكهف﴾، ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١٥) ﴿الزمر﴾، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾^(٢) ﴿الَّذِينَ خَالَصُوا﴾^(١٦) ﴿الزمر﴾.

فدلت هذه الآيات، وما جاء بمعناها على أن الأعمال لا تقبل إلا إذا كانت خالصة من الشرك، والتوحيد ثلاثة أنواع:

توحيد الربوبية^(١):

وهو الذي أقر به الكفار على زمن رسول الله ﷺ ولم

١. توحيد الربوبية: الاعتقاد الجازم بأن الله ﷻ رب كل شيء، ولا رب غيره، أو بعبارة أخرى: الإقرار بأن الله هو الخالق لكل شيء، وهو المدبر، وهو الذي يعطي ويمنع، ويحيي ويميت، لا يشاركه أحد في فعله ﷻ.

وأصل العبادة تجريد الإخلاص لله تعالى وحده،
وتجريد المتابعة للرسول ﷺ قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ
لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (١٨) (الجن)، وقال تعالى: ﴿وَمَا
أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥) (الأنبياء)، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿لَهُ
دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا
كِبْسُطُ كَفْتِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِيَبْلُغُهُ وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا
فِي ضَلَالٍ﴾ (١٦) (الرعد)، وقال تبارك وتعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ
اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ
الْكَبِيرُ﴾ (٣٠) (لقمان).

توحيد الذات والأسماء والصفات:

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) الله الصَّكْدُ
(٢) لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا
أَحَدٌ (٤) (الإخلاص)، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ
الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ
سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٨) (الأعراف)، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ
شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١١) (الشورى) (٢).

مما سبق يتبين أن التوحيد هو أساس العقيدة
الصحيحة، ولأهميته كان اهتمام الرسل - عليهم
السلام - بإصلاح العقيدة أولاً ودعوة الناس إلى توحيد
الله ﷻ وترك عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ

يدخلهم في الإسلام، وقاتلهم رسول الله ﷺ، واستحل
دماءهم وأموالهم، وهو توحيد بفعله تعالى، والدليل
قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ
يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ
الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا
تُنْقُذُونَ﴾ (٣١) (يونس)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ
وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ
الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَنْقُذُونَ
(٨٧) قُلْ مَنْ مِنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا
يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ
فَأَن تَسْحَرُون (٨٩) (المؤمنون).

والآيات على هذا كثيرة جداً، أكثر من أن تحصر،
وأشهر من أن تذكر (١) ®.

توحيد الألوهية:

وهو التوحيد الذي وقع فيه النزاع في قديم الدهر
وحديثه، وهو: توحيد الله بأفعال العباد؛ كالدعاء
والنذر، والنحر، والرجاء، والخوف، والتوكل، والرغبة
والرهبة، والإنابة.

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي
أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ
جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (٦٠) (غافر)، وكل نوع من هذه
الأنواع عليها دليل من القرآن.

٢. مجموعة التوحيد: الرسالة الأولى، محمد بن عبد الوهاب،
مرجع سابق، ص ٤، ٥.

® في "تعدد الصفات الإلهية دليل على كمال الله" طالع: الوجه
الأول، من الشبهة الثامنة والثلاثين، من هذا الجزء. وفي "طريقة
السلف في إثبات الصفات الإلهية" طالع: الوجه الأول، من
الشبهة الخامسة والثلاثين، من هذا الجزء.

١. مجموعة التوحيد: الرسالة الأولى، محمد بن عبد الوهاب، دار
الفكر، بيروت، د. ت، ص ٣، ٤.
® في "إقرار بني آدم بربوبية الله في عالم الذر" طالع: الشبهة
الرابعة، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

فَاتَّبِعُونَهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴿١٥٣﴾
(الأنعام: ١٥٣).

والإسلام دين جميع المسلمين، قال نوح عليه السلام:
﴿فَإِنْ قَوْلَيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ آجِرٍ إِنْ آجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ
وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس)، وقال
الله حاكياً عن سحرة فرعون: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا
وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (الأعراف)، وقال حاكياً عن
فرعون: ﴿ءَاْمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاْمَنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَءِيلَ
وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس)، وقال الحواريون:
﴿أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران)، وقال
يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصِّلِحِينَ﴾ (يوسف)،
وقال موسى: ﴿يَقُومُ إِنْ كُنْتُمْ ءَاْمَنُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ
تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ (يونس)، وقالت بلقيس:
﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾ (النمل: ٤٤)، وقال عليه السلام عن التوراة: ﴿إِنَّا
أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ
أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّاتِينَ وَالْأَحْبَارَ﴾ (المائدة: ٤٤).

وقد وردت نصوص عديدة في التوراة تدعو إلى
التوحيد، وتحذر من صور الشرك، فقد جاء في سفر
الخروج: "أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض
مصر من بيت العبودية". (الخروج ٢٠: ٢)، وفي سفر
التثنية: "فتحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل
نفسك ومن كل قوتك، ولتكن هذه الكلمات التي أنا
أوصيك بها اليوم على قلبك، وقصّها على أولادك،
وتكلم بها حين تجلس في بيتك، وحين تمشي في الطريق،
وحين تنام وحين تقوم، واربطها علامة على يدك،

بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦)، وكل رسول يقول أول ما
يخاطب قومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾
(الأعراف: ٥٩)، قالها نوح، وهود، وصالح، وشعيب،
وسائر الأنبياء لأقوامهم.

وقد بقي رسول الله ﷺ في مكة بعد البعثة ثلاثة عشر
عامًا يدعو الناس إلى التوحيد، وإصلاح العقيدة؛ لأنها
الأساس الذي يقوم عليه بناء الدين^(١).
وقد تبين أن الإسلام نبذ الشرك ونفى تعدد الآلهة،
فليس في هذا الوجود من إله إلا الله ﷻ.

ثانيًا. التوحيد هو الأصل الذي دعت إليه جميع الشرائع، والأنبياء دينهم واحد واللهم واحد:

وهذا في القرآن مذكور في مواضع كثيرة، وكذلك في
الأحاديث الصحيحة مثل ما جاء، عن أبي هريرة رضي الله عنه
عن النبي ﷺ قال: "أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في
الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى
ودينهم واحد"^(٢)، ومثل صفته في التوراة: "لن أقبضه
حتى أقيم به الملة العوجاء، ففتح به أعينا عميًا، وآذانًا
صمًا، وقلوبًا غلفًا"، ولهذا وحّد الصراط والسبيل في
مثل قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١) صِرَاطَ الَّذِينَ
أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٥﴾
(الفاتحة)، ومثل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا

١. عقيدة التوحيد، د. صالح بن فوزان، مرجع سابق، ص ٦، ٧.
٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ﴿وَأَذْكُرْ
فِي الْكِتَابِ مَرْمِ إِذْ أَنْبَذْتَ مِنْ أَهْلِهَا﴾ (مريم: ١٦) (٣٢٥٩)،
ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام
(٦٢٨١).

ولتكن عصائب بين عينيك، واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك. ومتى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي حلف لأبائك إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يعطيك إلى مدن عظيمة جيدة لم تبناها، وبيوت مملوءة كل خير لم تملأها، وأبَار محفورة لم تحفرها، وكروم وزيتون لم تغرسها، وأكلت وشبعت، فاحترز لئلا تنسى الرب الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية. الرب إلهك تتقى، وإياه تعبد، وباسمه تحلف. لا تسيروا وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التي حولكم، لأن الرب إلهكم إله غيور في وسطكم، لئلا يحمي غضب الرب إلهكم عليكم فيبيدكم عن وجه الأرض". (التثنية ٦ : ٥ - ١٥)، وكما نهوا عن عبادة الأوثان نهوا عن عبادة النجوم وغيرها، كما جاء: "ولئلا ترفع عينيك إلى السماء، وتنظر الشمس والقمر والنجوم، كل جند السماء التي قسمها الرب إلهك لجميع الشعوب التي تحت كل السماء، فتغتر وتسجد لها وتعبدها". (التثنية ٤ : ١٩).

بل أمروا أن يعاملوا بالشدة جميع الأمم التي تدين بعبادة الأوثان؛ كقوله في سفر التثنية: "فإنك تحرمهم، لا تقطع لهم عهدًا، ولا تشفق عليهم، ولا تصاهرهم. بتك لا تعط لابنه، وبنته لا تأخذ لابنك؛ لأنه يرد ابنك من ورائي فيعبد آلهة أخرى، فيحمي غضب الرب عليكم ويهلككم سريعًا، ولكن هكذا تفعلون بهم: تهدمون مذابحهم، وتكسرون أنصابهم، وتقطعون سواريمهم، وتحرقون تماثيلهم بالنار". (التثنية ٧ : ٢ - ٥). وكما أمروا بالقسوة على الأمم الوثنية، أمروا بمثل ذلك في حق من يشرك منهم: فقد أمر موسى عليه السلام بني

لاوي - رهطه - بقتل عبدة العجل حين عبد العجل في غيبته، وفي سفر التثنية: "إذا قام في وسطك نبي أو حالم حلمًا، وأعطاك آية أو أعجوبة، ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التي كلمك عنها قائلًا: لنذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها ونعبدها، فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو الحالم ذلك الحلم؛ لأن الرب إلهكم يمتحنكم لكي يعلم هل تحبون الرب إلهكم من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم، وراء الرب إلهكم تسيرون، وإياه تتقون، ووصاياهم تحفظون، وصوته تسمعون، وإياه تعبدون، وبه تلتصقون، وذلك النبي أو الحالم ذلك الحلم يقتل، لأنه تكلم بالزيغ من وراء الرب إلهكم الذي أخرجكم من أرض مصر، وفداكم من بيت العبودية، لكي يطوحكم عن الطريق التي أمركم الرب إلهكم أن تسلكوا فيها، فتتزعجون الشر من بينكم، وإذا أغواك سرًا أخوك ابن أمك، أو ابنك أو ابنتك أو امرأة حضنك، أو صاحبك الذي مثل نفسك قائلًا: نذهب ونعبد آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آبائك من آلهة الشعوب الذين حولك، القريبين منك أو البعيدين عنك، من أقصاء الأرض إلى أقصائها، فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تشفق عينك عليه، ولا ترق له ولا تستره، بل قتلًا تقتله، يدك تكون عليه أو لا تقتله، ثم أيدي جميع الشعب أخيرًا، ترجمه بالحجارة حتى يموت". (التثنية ١٣ : ١ - ١٠).

وكما أمرت التوراة بعبادة الله وحده ونبذ الشرك وعبادة غير الله، كذلك وجد في الإنجيل ما يدل على أن الله واحد لا شريك له، وما ذهبوا إليه من التثليث وادعاء آلهة مع الله، هو وهم باطل لا دليل عليه من

كتابهم، وهذا التوحيد قد بيّنته نصوص من أناجيلهم على النحو التالي:

١. إنجيل متى: "وإذا واحد تقدم وقال له: أيها المعلم الصالح، أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية، فقال له: لماذا تدعوني صالحًا، ليس أحد صالحًا إلا واحد وهو الله". (متى ١٩: ١٦، ١٧). فهذا القول يقلع أصل التثليث، وما رضي تواضعًا أن يطلق عليه لفظ الصالح. أيضًا ولو كان إلهًا لما كان لقوله معنى، وكان عليه أن يبين، لا صالح إلا الآب وأنا وروح القدس، ولم يؤخر البيان عن وقت الحاجة. وإذا لم يرضَ بقوله "الصالح"، فكيف يرضى بأقوال أهل التثليث التي يتفوهون بها في أوقات صلاتهم: يا ربنا وإلهنا يسوع المسيح لا تضع من خلقت بيدك؟

وورد في قول إبليس للمسيح: "إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل، لأنه مكتوب: أنه يوصي ملائكته بك، فعلى أيادهم يحملونك، لكي لا تصدم بحجر رجلك، قال له يسوع: مكتوب أيضًا: لا تجرب الرب إلهك، ثم أخذه أيضًا إبليس إلى جبل عال جدًا، وأراه جميع ممالك العالم ومجدها، وقال له: أعطيك هذه جميعها إن خرت وسجدت لي، حينئذ قال له يسوع: اذهب يا شيطان! لأنه مكتوب: للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد". (متى ٤: ٦ - ١٠).

ويقول المسيح لتلاميذه: "متى صليتم فقولوا: أبانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء، كذلك على الأرض، خبزنا كفافنا وأعطنا اليوم، واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا، ولا تدخلنا في تجربة، لكن نجنا من

الشرير؛ لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد آمين". (متى ٦: ٩ - ١٣).

ويقول: "أفما قرأتم ما قيل لكم من قبل الله القائل: أنا إله إبراهيم، وإله إسحاق، وإله يعقوب، ليس الله إله أموات، بل إله أحياء". (متى ٢٢: ٣١، ٣٢).

٢. إنجيل مرقس: "فجاء واحد من الكتبة، وسمعهم يتحاورون، فلما رأى أنه أجابهم حسنًا سأله: أية وصية هي أول الكل، فأجابه يسوع: إن أول كل الوصايا: اسمع يا إسرائيل: الرب إلهنا رب واحد، وتحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، ومن كل قدرتك، هذه هي الوصية الأولى، وثانية مثلها هي أن تحب قريبك كنفسك، ليس وصية أخرى أعظم من هاتين". (مرقس ١٢: ٢٨ - ٣١).

٣. إنجيل يوحنا: قال عيسى عليه السلام في خطاب الله: "وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته". (يوحنا ١٧: ٣)، فبين عيسى عليه السلام أن الحياة الأبدية عبارة عن أن يعرف الناس أن الله واحد حقيقي، وأن عيسى عليه السلام رسوله. وما قال: إن الحياة الأبدية أن يعرفوا أن ذاتك ثلاثة أقانيم ممتازة بامتياز حقيقي. وأن عيسى إنسان وإله، أو أن عيسى إله مجسم، فلو كان اعتقاد التثليث مدار النجاة لبيّنه، وإذ ثبت أن الحياة الأبدية اعتقاد التوحيد الحقيقي لله واعتقاد الرسالة للمسيح، فضدها يكون موتًا أبديًا وضلالًا بينًا ألبته. والتوحيد الحقيقي ضد التثليث الحقيقي. وكون المسيح رسولًا ضد لكونه إلهًا؛ لأن التباين بين المرسل والمرسل ضروري.

وهذه النصوص السابقة تدل على أن المسيح عليه السلام

ثالثاً. تهافت المزارع عن إقرار الإسلام لبعض صور التثليث:

من العجيب - بعد كل ما تقدم - أن يلتبس أناسٌ إشارات إلى التثليث في القرآن الكريم وغيره من العبادات التي يرددها المسلمون في عباداتهم، ويقدمون هذا الفهم الخاطئ لهذه الإشارات التي يتوهمونها على الآيات الصريحة الكثيرة التي تشرح التوحيد خالصاً من شوائب الشرك.

ومن ذلك استدلالهم بما يقال في أول القرآن عند التسمية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ بأنه مثل ما جاء في الإنجيل عن عيسى عليه السلام: "فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس". (متى ٢٨: ١٩)، فالمسلمون بهذا في نظرهم يعتقدون بتثليثهم. والجواب: أن التثليث ليس من المسيحية التي أتى بها المسيح، فالمسيح جاء بالتوحيد الخالص الذي دعا إليه جميع الأنبياء، وقد تقدم بيان ذلك.

أما زعمهم أن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ هي مثل: الآب والابن والروح القدس، فهذا فهم خاطئ وتحريف؛ لأن الله تعالى في البسملة معناه: الذات الموصوفة بصفات الكمال، ونعوت الجلال، وصفات الله ﷻ باعتبار الخير والإحسان الصادقين عن قدرته (٢).

فهذا - إذن - ليس تثليثاً، والله ﷻ كما هو رحيم ورحيم، فهو - أيضاً - ملك وقُدوس، وسلام ومؤمن

٢. انظر: الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، القرافي، مرجع سابق.

دعا إلى عبادة الله وحده، ولم يدعُ أحداً إلى عبادته هو، والقرآن يشهد له أنه ما خالف الأنبياء والمرسلين في دعوة التوحيد، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ١٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ١٤﴾ (الزخرف).

ويذكر لنا القرآن صورة لما سيكون يوم القيامة، حين يسأل عيسى عليه السلام عما يقوله النصارى من أمرهم أن يتخذوه وأمه إلهين من دون الله، فيجيب على ذلك البهت بهذا الجواب المفحم: ﴿سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ١٣﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَّا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ١٤﴾ (المائدة). فتبين أن التوحيد هو أصل جميع الأديان، دعت إليه التوراة ودعا إليه الإنجيل، وإنما طرأت مزارع التعدد بالتثنية أو التثليث في هذه القصائد في طور متأخر من تاريخها، ولم تكن تعرفها النصوص الأولى التي لم تنزل - على رغم تبديلها - تحتفظ بما يشهد للاعتقاد الأول فيها، وهو التوحيد (١).

١. انظر: دعوة أهل الكتاب إلى دين رب العباد، د. سعيد عبد العظيم، مرجع سابق. إظهار الحق، رحمة الله بن خليل الهندي، مرجع سابق.

② في "الإشارات إلى التوحيد في الكتاب المقدس" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة السابعة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان). وفي "عقيدة التوحيد في التوراة" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الأولى، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

ومهيمن... إلخ، فأسماء الله وصفاته كثيرة، لا يعقل أن يقال إن الله يتعدد بتعدد صفاته وأسمائه[®].

وأما استدلالهم بقول الله تعالى: ﴿قَبَّارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون)، فهذا فهم خاطئ، فقوله في هذه الآية: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾؛ أي: المقدِّرين، والعرب تطلق الخلق وتريد التقدير، ومنه قول زهير:

ولأنت تَفْري ما خَلَقْتَ وبع

ضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثم لا يَفْري

فقوله: يخلق ثم لا يفرى؛ أي: يُقدِّر الأمر، ثم لا ينفذه لعجزه عنه كما هو معلوم^(١).

فكيف يزعمون ذلك والله تبارك وتعالى ينفي الخلق عن غيره، فيقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل)، ويثبت الخلق له وحده سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف)، أي: له الخلق وليس لغيره، ويتحدى الله تعالى أن يكون الشركاء الذين يُعبدون من دونه يَخْلُقُونَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ (الحج).

وأما زعمهم بأن قول المؤذن: "الله أكبر" يقتضي أن هناك مقارنة بين إلهين أكبر وأصغر، فهذا الفهم الفاسد يبرهن على فساده آيات كثيرة، جاءت صريحة قاطعة بأن

® في "موقف الإسلام من عقيدة التثليث" طالع: الوجه الأول، من الشبهة السابعة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).
١. أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ج ٥، ص ٧٨١.

لا إله إلا الله، حتى أصبحت حقيقة إسلامية يعرفها جميع الناس عن الإسلام دين التوحيد، الذي لا يؤمن فيه المؤمن بإله مع الله.

أما التكبير بهذه الصيغة في الأذان وفي الصلاة، وفي الذكر فهو تنبيه للعاقل بأنه مهما كَبُرَ عندك شيء فانتبه إلى أن الله أكبر منه؛ لترك كل ما في يده مهما كان شأنه عنده، ويُقبل على ربه ومناجاته، فليس هناك أكبر من الله تعالى. من هنا اقتضت الحكمة أن يُفْتَتَحَ بها الأذان ويُحْتَمَمَ، وتُفْتَتَحَ بها الإقامة للصلاة وتُحْتَمَمَ، وتُفْتَتَحَ بها الصلوات وتتخلل أفعالها، ليكون التكبير تنبيهًا متواليًا يرد المسلم إلى ربه كلما شرد به تفكيره إلى ما يهيمه من أمر دنياه.

ومن هنا كان التكبير شعار المجاهدين المتصرين الفاتحين، فهو مصدر إلهام لهم، وقوة إيمانية لهم، حيث لا يجدون فوق الله كبيرًا، وبهذا تتحطم على أيديهم قوى الطغيان والبطش مهما أوتيت، وكيف يكون التكبير اعترافًا ضمنيًا بإله مع الله، وإن كان أصغر، مع أن كل تكبير في أذان أو إقامة أو صلاة، أو ذكر يعقبه إعلان بأنه: لا إله إلا الله، لا إله غيره، لا إله معه، لا إله إلا هو سبحانه؟! سبحانه!

الخلاصة:

- إن توحيد الله ﷻ هو الحقيقة الواضحة الجليلة التي دعا إليها الإسلام، وتوحيد الله ﷻ ونفي ألوهية غير الله، ونبد الشرك، وتعدد الآلهة أمور يعلمها كل مسلم ولا تخفى على أحد؛ لأن الإسلام جعل التوحيد هو الأساس الذي تصح معه جميع الأعمال.
- والتوحيد هو دعوة جميع الأنبياء، وكذلك هو

يختلف مضمونها منذ بعثة سيدنا آدم ﷺ إلى بعثة خاتم النبيين محمد ﷺ وهي الإيمان بوجود الله ووحدانيته.

(٢) الصورة التي تقدمها الكتب المقدسة لغير المسلمين من اليهود والنصارى للألوهية فيها من التشويه وإثبات صفات النقص ما يتنزه جناب الألوهية عنه، وهو ما لا نجده في التصور الإسلامي عن الإله.

التفصيل:

أولاً. العقيدة الصحيحة التي بُعث بها الأنبياء عليهم السلام:

إن العقيدة الصحيحة لم يختلف مضمونها منذ بعثة آدم ﷺ إلى خاتم النبيين محمد ﷺ، ومضمونها الذي تعاقب الرسل والأنبياء على الدعوة إليه هو: الإيمان بوجود الله ووحدانيته، وتنزيهه عن كل ما لا يليق به من صفات النقص، والإيمان باليوم الآخر، والحساب، والجنة والنار، وما إلى ذلك.

فكان كل رسول يدعو قومه إلى الاعتقاد بهذه الأمور، وكان كل منهم يؤكد بذلك دعوة من بُعث قبله، ويُبشّر ببعثة من سيأتي بعده، وهذا وضحه الله ﷻ في كتابه المبين في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (١٥) (الأنبياء)، وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (١٢) (الشورى).

بل إن من يتتبع آيات القرآن الكريم، يلاحظ أن

أول ما بدأ به رسول الله ﷺ دعوته، وظل في مكة ثلاث عشرة سنة، يدعو إليه، والتوحيد دين جميع المرسلين، أقرته التوراة والإنجيل، على الرغم مما فيهما من أمور تتنافى مع العقيدة الصحيحة، كالقول بالتثليث.

• وما زعمه هؤلاء من إقرار الإسلام لصور من التثليث هو زعم طائش لا يستند إلى فهم سليم لهذه الإشارات والشواهد التي استدلووا بها، وهو يخالف ما يجعلونه أصل إيمانهم.



الشبهة الخامسة والعشرون

دعوى اختلاف تصور الإله عند المسلمين عنه لدى سائر الأنبياء (*)

مضمون الشبهة:

يدّعي بعض المغالطين أن الإله الذي يؤمن به المسلمون هو إله خاص بهم وحدهم، يختلف عن الإله الذي دعت إليه كل الرسالات وديانات كل الرسل من قبل؛ فليس هو إله إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، وموسى، وعيسى - عليهم السلام، ومتى تقرر أن وحي الله في جانب العقائد لا يتبدل كان ذلك بمجرد طعنا في الإسلام وعقيدته؛ بما أن تصوره عن الإله لا يكاد يُعرف عن أحد من الأنبياء السابقين.

وجهاً إبطال الشبهة:

(١) العقيدة في الله التي بُعث بها الأنبياء جميعهم لم

(*) قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية: نقد مطاعن رد شبهات، فضل حسن عباس، مرجع سابق.

اسم الإسلام كان هو الاسم القديم والدائم لهذه العقيدة، يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٧) ﴿آل عمران﴾، وفي قوله تعالى عن سحرة فرعون: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ (١٨) ﴿وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْتَ أَمَّا نَبَاتِثُ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (١٩) ﴿الأعراف﴾ وفي قوله تعالى عن حوارِّي عيسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٢٠) ﴿آل عمران﴾، ومن ذلك يتبين أن الدين الحق واحد لم يتعدد، وأن كلمة "الأديان السماوية" التي تتكرر على ألسنة عوام الناس كلمة خاطئة، فليس ثمة إلا دين حق سماوي واحد تعاقبت الأنبياء والرسل على الدعوة إليه، والبعثة به.

وكيف يمكن للدين الحق أو الاعتقاد الصحيح أن يتعدد أو يختلف على ألسنة الأنبياء والمرسلين، وأمور العقيدة تكون دائماً من قبيل الإخبار، والخبر الواحد لا يمكن أن ينقل على أشكال ووجوه عديدة متخالفة، ثم تكون كلها أخباراً صحيحة سماوية صادقة؟

إن الذي تطور وتغير مع الزمن، وعن طريق بعثة الرسل والأنبياء، إنما هو التشريع على اختلافه، من عبادات ومعاملات... وغير ذلك. والحكمة في ذلك أن التشريع إنما هو إقامة الأحكام التي يتوخى منها تنظيم حياة المجتمع والفرد، وبدهي أن يكون للتطور الزمني واختلاف الأمم والأقوام أثر في تطور شرائعهم، ففكرة التشريع - إذاً - قائمة على ما تقتضيه مصالح العباد في دنياهم وآخرتهم، وهذه المصالح كثيراً ما تختلف

باختلاف الأزمنة والأمكنة، فقد بُعث موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل، وكان الشأن يقضي - بالنسبة لحال بني إسرائيل إذ ذاك - أن تكون شريعتهم شديدة وقائمة في مجموعها على أساس العزائم لا الرخص، ولما مرت أزمنة وُبعث فيهم سيدنا عيسى عليه السلام جاءهم بشريعة أسهل وأيسر، وانظر إلى قول الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام وهو يخاطب بني إسرائيل: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجَنِّتُكُمْ بَيْنَايَ مِنْ زَيْكُم فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (٢١) ﴿آل عمران﴾، فقد بين لهم أنه فيما يتعلق بأمور العقيدة، مصدق لما جاء في التوراة، ومؤكد له ومجدد للدعوة إليه، أما بالنسبة للتشريع وأحكام الحلال والحرام، فقد كُلف ببعض التغييرات وإيجاد بعض التسهيلات؛ فعملُ الرسول بالنسبة للعقيدة ليس سوى تأكيد نفس العقيدة التي بعث بها من قبله دون أي مخالفة أو تغيير.

والذي يدرس شؤون العقيدة وبراهينها، إنما يدرس تلك الحقائق التي ألزم الله عباده بالإيمان والاعتقاد بها منذ بعثة آدم عليه السلام إلى أن يرث الأرض ومن عليها، وتلك هي العلاقة بين العقيدة الإسلامية وكل ما جاء به الأنبياء والرسل - عليهم السلام -، وأهل الكتاب يعلمون هذه العلاقة، ويعلمون وحدة الدين، ويعلمون أن الأنبياء إنما جاءوا ليُصدِّق كل منهم الآخر فيما بُعث به، وما كانوا ليتفرقوا إلى عقائد متباينة مختلفة، ولكنهم اختلفوا وتفرقوا فيما بينهم، واختلقوا على الأنبياء ما لم يقولوه على الرغم مما جاءهم من العلم في ذلك، بغياً بينهم، وصدق الله إذ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ

بقايا النظرة الصحيحة للإله كإله واحد مستحق للعبودية، طغت طبيعة اليهود الحسية على هذا التوحيد الخالص، وألبست الإله ثوب الخصوصية لهذا الشعب.

فإله اليهود ليس عالمًا بكل شيء، كما أنه ليس معصومًا من الخطأ. ويوهه إله اليهود يأكل ويشرب ويأمر بالسرقة، يوهه إله قاس ومدمر، متعصب لشعبه، ليس إله كل الشعوب، بل إله بني إسرائيل فقط، وهو بهذا عدو للآلهة الآخرين، كما أن شعبه عدو للشعوب الأخرى، وقد قسم لهم الشعوب قسمين: أما قريبة، وهؤلاء جزأؤهم التحريم والقتل، وأما الأُمم البعيدة فقد جاء النصُّ عليهم بما يلي: "حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستبعد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربًا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكروها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك". (الثنائية ٢٠: ١٠ - ١٤).

ولا يمكن أن يقبل عاقل أن تكون هذه الدعوة دعوة رب إله، وإن شاءوا أن يعرفوا دعوة الإله لعبيده فليقرءوا ما خاطب به الإسلام شعوب الأرض إبان الفتوحات الإسلامية[®].

الإله عند النصارى:

المسيح - كما يدعي المسيحيون - إله النصارى، فإله

اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ أَوَّلُهُمْ بَقِيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ يَأْتِ اللَّهَ فَاِتَّ اللَّهُ سَرِيعَ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ (آل عمران) (١).

ثانيًا. أهل الكتاب حرقوا كتبهم وغيروا عقيدتهم، أما العقيدة الإسلامية فبقيت على الأصل الصحيح:

جاء الإسلام بالعقيدة الصحيحة المؤكدة لما أرسل الله به رسله من قبل بصورة متكاملة ونظرة متوازنة توافق الفطرة الإنسانية، ويستسيغها العقل البشري، على النقيض من تلك الصورة التي عرضتها اليهودية والنصرانية المحرّفتين للإله، فالإله الذي تؤمن به وندين بشرعه هو إله واحد لا شريك له، متصف بصفات الكمال، ووضوح هذا التصور يقابله وضوح هذه الشريعة الإسلامية وكمالها ومواءمتها لأحوال الناس، وتميز العقيدة يدل دلالة يقينية على تميز الشريعة، فإن الإله الذي له حق العبودية هو وحده الذي له حق التوجه والعبادة، وهو وحده الذي له حق التشريع.

وإليك تصور الإله عند اليهود والنصارى؛ لتعلم الفرق بين العقيدة الصحيحة التي تتفق مع الفهم الفطري السليم، وبين هذا الانحطاط والسقوط:

الإله عند اليهود:

اتصف اليهود بالطبيعة المادّية، فقد كانوا دائميًا مائلين إلى تشبيه الإله وتجسيمهم كما قال القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾ (البقرة)، وعلى الرغم من

® في "مقام الألوهية في التوراة" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

١. كبرى اليقينيات الكونية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مرجع سابق، ص ٧٤.

عندهم هو الذي نزل وظهر كإنسان، وصُلب وصعد إلى السماء، فهو ذو طبيعة واحدة، كما يرى الأرثوذكس^(١)، أو هو إله ذو طبائع ثلاث فهو آب وابن وروح قدس، وكل واحد، منهم متفرد عن الآخر، ولكنهم ليسوا ثلاثة، بل إله واحد وهو ليس واحدًا بسيطًا، ولكنه آلهة ثلاثة، والعقلية التي تؤمن وتعتقد هذه العقيدة لا يمكن أن تكون سوية، وما يقال عن النصرانية يقال عن اليهودية من سفاهة العقيدة في الإله، وغباوة التصور العنصري، الذي يرى الإله إلهًا خاصًا لشعب خاص، وباقي شعوب الأرض خلقوا من طينة مختلفة.

العقيدة الإسلامية في الله :

هذه العقيدة يصورها أدق تصوير قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ (٣)﴾ (الإخلاص)، إنها أحدية الوجود، فليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده، وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية، وهي من ثم أحدية الفاعلية، فليس سواه فاعلاً في شيء من هذا الوجود أصلاً، وإذا استقر هذا التفسير ووضح هذا التصور خلص القلب

١. الأرثوذكس: هي إحدى الكنائس الرئيسة في النصرانية، وقد انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية الغربية، وتمثلت في عدة كنائس مستقلة ولا تعترف بسيادة روما عليها، ويجمعهم الإيمان بأن الروح القدس منبثقة عن الأب وحده، وعلى خلاف بينهم في طبيعة المسيح، وتدعى "أرثوذكسية" بمعنى مستقيمة المعتقد مقابل الكنائس الأخرى، ويتركز أتباعها في المشرق؛ ولذلك يطلق عليها "الكنيسة الشرقية".

من كل غاشية، ومن كل شائبة، ومن كل تعلق بغير هذه الذات الواحدة المنفردة بحقيقة الوجود وحقيقة الفاعلية، فعندئذ يتحرر العبد من جميع القيود، ويتحرر من الرغبة في غير الله، والرغبة من غير الله، وهو لا يفقد شيئاً متى وجد الله، ومن ذا يُرهب ولا وجود لفاعلية إلا الله؟!!

يلي هذه الدرجة درجة يرى فيها القلب يد الله في كل شيء ووراؤها الدرجة التي لا يرى فيها شيئاً في الكون إلا الله، ويصحب هذا نفي فاعلية الأسباب ورد كل شيء وكل حدث وكل حركة إلى السبب الأول الذي منه صدرت، وبه تأثرت، قال تعالى:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ (١٧)﴾ (الأنفال)، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَلْتَصَّرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ (١٣٦)﴾ (آل عمران)، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ (٣٠)﴾ (الإنسان).

ومن هنا ينبثق منهج متكامل للحياة: منهج لعبادة الله وحده الذي لا حقيقة لوجود إلا وجوده، ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعليته، ولا أثر لإرادة إلا إرادته، ومنهج للاتجاه إلى الله وحده في الرغبة والرغبة، وإلا فما جدوى التوجه لمن لا حقيقة لوجوده، ولا حقيقة لفاعليته؟ إنه منهج للتلقي عن الله وحده، لتلقي العقيدة والتصور والقيم والموازين، والشرائع والقوانين والأوضاع والنظم، والآداب والتقاليد، فالتلقي لا يكون إلا عن الوجود الواحد والحقيقة المفردة في الواقع وفي الضمير، ومنهج للتحرك والعمل لله وحده ابتغاء القرب من

الأنبياء والمرسلين من آدم ﷺ إلى محمد ﷺ، وبهذا البيان بطل الزعم القائل: إن الإله الذي يعبد المسلمون يختلف عن إله الديانات السماوية الأخرى.



الشبهة السادسة والعشرون

زعم منافاة العدل الإلهي لمغفرة ذنوب الصائمين (*)®

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن الفضل الذي رتبّه الإسلام على صوم رمضان من غفران للذنوب والخطايا ينافي ما هو معروف من عدله تبارك وتعالى، وهو العدل الذي تجلّى في النصرانية التي تُقرّ أن المسيح عُدّب وصُلب من أجل ذلك الغفران، لا أنه صام ليلة خيرًا من ألف شهر، فإن هذا ونحوه - في زعمهم - مما لا يستحق ذلك الجزاء، بل يوشك أن يكون فتحًا لباب المعصية والجرأة عليها.

وجوه إبطال الشبهة:

- (١) لا بد من مكفرات للذنوب؛ حتى لا يُغلق باب التوبة فيُقنَط من رحمة الله ﷻ، وتزداد الشرور والفساد.
- (٢) تكفير الذنوب - الكبائر والصغائر - مقيّد بشروط لا بد من تحققها.
- (٣) العقل يقبل غفران الذنوب بالاستغفار

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات، عبد الله عبد الفادي.

الحقيقة، ومنهج يربط مع هذا بين القلب البشري وبين كل موجود برابط الحب والأنس والتعاطف والتجاوب^(١). هذه العقيدة الصافية هي التي ترتاح إليها الفطر السويّة، وتقبلها العقول السليمة، وهي العقيدة التي جاء بها الرسل جميعًا.

الخلاصة:

• العقيدة الصحيحة لم يختلف مضمونها منذ بعثة آدم ﷺ إلى بعثة خاتم النبيين محمد ﷺ، وهو الإيمان بوجود الله ووحدانيته وتنزيهه عن كل ما لا يليق به من صفات النقص، والإيمان باليوم الآخر والحساب والجنة والنار.

• ليس هناك إلاد دين حق سماوي واحد تعاقبت الأنبياء والرسل على الدعوة إليه والبعثة به، وعمل الرسول بالنسبة للعقيدة ليس سوى تأكيد لنفس العقيدة التي بُعث بها مَنْ قبله دون أي تحالف أو تغير.

• جاء الإسلام بالعقيدة الصحيحة الواضحة بصورة متكاملة ومتوازنة للإله، توافق الفطرة الإنسانية ويستسيغها العقل البشري، ففي حين اتصف اليهود بالطبيعة المادية التي تميل إلى تشبيه الإله وتجسيمه، وزعم النصراني أن المسيح هو الله جاء الإسلام ليقر عقيدة الوحدانية واتصافه ﷻ بالكمال والجلال، وتنزيهه عن كل ما لا يليق بجانب الألوهية، هذه هي العقيدة النقية، وهي التي ترتاح إليها الفطرة السوية، وتقبلها العقول السليمة، وهي العقيدة التي جاء بها كل

١. شبهات المستشرقين حول العبادات في الإسلام، ناصر محمد السيد، مركز التنوير الإسلامي، القاهرة، ط ١، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٦ م، ص ١٠٠: ١٠٧.

والصوم والتوبة ونحوها في الإسلام، بينما يرفض عقيدة الفداء من أجل الخلاص.

التفصيل:

أولاً. أثر تكفير الذنوب في إخلاص العبادة لله:

إن فتح باب التوبة أمام الإنسان له مقصد عظيم من قبل الخالق تعالى، فقد شرعها - أي: التوبة - لعباده؛ حتى لا يتوجهوا لغيره ولا يتعلقوا إلا به، ولا يقنطوا من رحمته، كما أنها تعمل على الحد من انتشار الشرور والآثام وشيوع الفساد في الأرض، فالإنسان متى علم أن ذنبه لن يُغفر أبداً، وأن باب التوبة موصد أمامه، وأنه بذلك إلى الهلاك صائر لا محالة، فإنه سيقنط ويأس من الرحمة؛ ويؤدي به ذلك إلى التماادي في الشر والفساد، فأيهما أفضل عقلاً: أن يقع الإنسان في الذنب مرة واحدة ثم يجد باب التوبة أمامه مفتوحاً فيتوب ويكفر عن ذنبه؟ أم أن يجد باب التوبة موصداً ولا مخرج له فيتمادى في الشرور؟ لأنه يئس من غفرانه وغسله ومحوه عنه، وبذلك ينتشر الفساد في الأرض وتعم الشرور؛ فمن قتل نفساً سوف يستمر في ذلك فيقتل مائة نفس، ومن سرق مرة سوف يستمر في السرقة ويسرق آلاف المرات، ومن تعدى وظلم الآخرين سوف يستمر في عدوانه وظلمه.. وما إلى ذلك من ضروب الفساد بسبب القنوط واليأس من المغفرة والرحمة.

نقول: إن الصوم مكفر من بين مكفريات الذنوب الكثيرة، فالذنوب أمراض متنوعة، والأمراض تحتاج إلى أدوية متنوعة، بل إننا نجد المرض الواحد يحتاج إلى أدوية متنوعة، وإذا نظرنا نظرة إجمالية إلى مكفريات

الذنوب الكثيرة التي جاءت في ديننا الحنيف وجدناها في جملتها تقود العبد إلى هجر المعاصي؛ ومن هنا نفهم كيف تأتي هذه المكفريات ماحية للذنوب.

وصوم رمضان ليس مجرد جوع وعطش، بل تراه يتمثل في تقوى الصائم لربه، واستشعاره وهو صائم أنه يمثل أمر الله تعالى ونهيه، وبالتالي فالامتثال والطاعة لا يتجزأ، وقد جاء في الحديث: "رُب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش" (١).

وتشريع الصوم محاط بزواجر عن الأخطاء وترغيب في الخيرات، بحيث لو امتثلها الصائم كان نموذجاً طيباً للطهر والنقاء، فيكون خالياً من الخطايا؛ فثبت بذلك أن الصوم - بحق - من بين مكفريات الخطايا، وهذا هو عين عدل الله وفضله وإحسانه.

على أن التكفير عن الخطايا والذنوب ليس قصراً على باب الصوم وحده؛ فقد رتب الله ﷻ على بعض الذنوب مكفريات حتى يتهيأ للمذنب غفران ذنبه والعودة إلى الله ﷻ، وأمثلة ذلك:

• ما رتبّه على المُظَاهِر (٢) من عتق الرقبة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً. هذا ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ (٨٨٤٣)، وابن خزيمة في صحيحه، كتاب الصيام، باب نفي ثواب الصوم عن المسك عن الطعام والشراب (١٩٩٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٩٠).

٢. المظاهر، من: ظاهر الرجل امرأته يظاهرها ظهراً، والظهار هو: تشبيه الرجل زوجته أو جزءاً سائغاً منها، أو جزءاً يعبر به عنها بامرأة محرمة عليه تحريمًا مؤبداً، أو بجزء منها يحرم عليه النظر إليه؛ كالظهر والبطن والفخذ... إلخ.

فيها مخرجاً لعباده؛ ليتوبوا إليه ويرجعوا، ولا يتمادوا في الباطل والغي، وهذا محض تفضل من الله تعالى وعدل.

ثانياً. الكبائر من الذنوب لا يغفرها إلا التوبة منها بشروطها:

وهنا تأتي الإجابة عن السؤال: هل مجرد الصوم يؤدي إلى الخلاص وغفران الخطايا؟ وهل يتنافى ذلك مع عدل الله ورحمته؟

فنقول: إن الصيام والصلاة والحج والزكاة وكل أعمال الطاعات وفعل القربات؛ من صيام النوافل، وقيام الليل، ومساعدة المساكين والمحتاجين، وغيرها - كل ذلك يكفر ذنباً كثيرة عن الإنسان، لكن هناك الذنوب الكبائر التي لا يكفرها ولا يغفرها إلا التوبة إلى الله تعالى بشروطها، وهي: الإقلاع عن الذنب، والندم على ارتكابه - وهو حزن القلب كلها تذكره وبُغض المعصية - والعزم الأكيد على عدم العودة إليه، ورد الحقوق أو المظالم لأهلها فلا يدعي إنسان أنه تاب من هذا الجرم وهو مستمر عليه، وغير نادم على فعله السابق، وإلا فلا تقبل توبته؛ لأن عزمه على عدم الرجوع إليه ضعيف، كما لا تقبل التوبة من إنسان لم يرد المظالم والحقوق لأهلها، فكيف يدعي أنه تاب وهو مُعتدٍ ظالم لغيره.

وهذه الكبائر مثل: القتل، الزنا، الربا، السرقة، وغيرها، كلها شرور عظيمة ومفاسد فادحة، إذا انتشرت في المجتمع أهلكته ودمرتة؛ لذلك لا بد من الانتهاء عنها حتى تُغفر الذنوب، والقيام بكفارة كل ذنب على حدة، كما هو مفصل لدى الفقهاء والعلماء في

يُظهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ ذَلِكَ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ (المجادلة).

• ما رتبته لقبوله توبة قاتل النفس المؤمنة خطأً من كفارة الصيام ودفع الدية^(١)، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنَ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٢﴾ (النساء).

• ما رتبته تبارك وتعالى لتوبة قاذف المحصنات المؤمنات الغافلات، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُنَّ مِائَتَ جَلْدَةٍ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُنَّ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ (النور).

• ما رتبته لتوبة الزاني في قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عَدَاهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٤﴾ (النور).

إلى غير ذلك من أنواع الكفارات التي جعل الله ﷻ

١. الدية لغة: مصدر ودَى القاتل القَتِيلَ يَدِيهِ دِيَةً إذا أعطى وَلِيَّهِ المال الذي هو بدل النفس، واصطلاحاً: مال يجب بقتل آدمي حُرٍّ عوضاً عن دمه.

الشريعة، وهذا ما يوضحه الحديث الصحيح "الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنب الكبائر"^(١).

فالشروط التي ينبغي توافرها حتى يكفر الصيام والصلاة وغيرهما الذنوب هو اجتناب الكبائر، وكذلك التوبة منها إن وقع فيها، والتوبة منها بشروطها الخاصة كل ذنب له توبته؛ فمثلاً: لا ينتظر إنسان أن يغفر له صيام رمضان ذنوبه وهو معتد وظالم للآخرين، فلا بد حتى يغفر له أن يرجع عن ذلك، بل يرد المظالم لأهلها.

ثالثاً. موقف العقل من تكفير الذنوب في الإسلام وعقيدة الفداء النصرانية:

في العقيدة الإسلامية إذا ارتكب الإنسان ذنباً فهو الذي يتحملة ويتحمل مسئولية نفسه ولا يتحملة عنه غيره: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾ (المدثر: ٣٨). والقانون العام في الإسلام، وهو كذلك قانون العدل الإلهي: ﴿الْأَنْزُرُ وَأَزِرُّ وَزَرَ أُخْرَى﴾ (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١) (النجم)، وعليه فعلى الإنسان الذي اقترف ذنباً أو خطيئة أن يتوب سريعاً منها ويكفر عنها حتى تغفر له؛ فلا يتحمل أحد عنه ذنوبه، وإنما المسئولية والمساءلة تقع على عاتق صاحبها، وعليه هو - لا غيره - أن يتخلص ويتطهر من ذنوبه وأوزاره بتحملة وقيامه وحده بالسبل والوسائل التي من شأنها أن تخلصه، وكل هذا يقبله العقل ويستسيغه؛ بل إن الفلاسفة - في طائفة عظيمة

منهم - يقولون: الإنسان حر وحرية تستلزم مسئولية عن قراره وهو معنى يشبه أن يكون متفقاً عليه والعقول السليمة، وهو الذي أقره الإسلام في جلاء وحسم، أما التجسد والخلاص عن طريق صلب المسيح عليه السلام والإيمان به في العقيدة المسيحية التي يتغنى بها هؤلاء، فأين هو من عدل الله وقداسته؟ وأين العدل الإلهي في أن تتحمل البشرية خطيئة لم ترتكبها ويولد كل إنسان مخطئاً دون أن يرتكب شيئاً؟ أم من العدل الإلهي أن يصلب أو يقتل واحد ليُغفر للناس جميعاً ذنب لم يرتكبه؟ إنها معادلة متناقضة تتحير العقول في فهمها، بل لا تستطيع أن تقبلها أبداً؛ مما يضطر الإنسان إلى رفضها رفضاً قطعياً.

وهل من قداسة الله تبارك وتعالى - التي تعني تنزهه عن الشبيه والمماثل - أن يتجسد في شخص إنسان؟ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، فهذه الأسطورة أسطورة ابن الله الفادي أو المخلص لأبناء آدم من خطيئة أبيهم، هذه المقولة غير المعقولة لا تصلح أساساً للتعامل البشري؛ إذ إنها تنفي المسئولية الشخصية فكيف ارتضاها الله سبحانه لكي تكون سنته في التعامل مع البشر؟

وإذا افترضنا أن واحداً من البشر ذهب إلى المحكمة متلبساً بجريمة قتل، يده ملوثة بالدم وثبتت إدانته من كل وجه، أيجز له أو لمحاميهِ أن يدافع قائلاً: أنا قُتلت، ولكن زيدا من الناس سيتحمل عني هذه المسئولية فحاكموه هو؟

فإذا كان هذا لا يجوز في عرف البشر ومنطقهم، فكيف يصح أمام عدالة الله القائل: ﴿الْأَنْزُرُ وَأَزِرُّ وَزَرَ﴾

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر (٥٧٤).

العقول السليمة حينما تسمع ذلك تضطر إلى أن ترفضه بل أن تستهجنه.



الشبهة السابعة والعشرون

الزعم أن تعذيب العصاة يوم القيامة ينافي الرحمة الإلهية(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أن ما قرّره الإسلام في أمر العصاة من عذاب يوم القيامة إنما يتنافى مع ما يتصور في جناب الألوهية من رحمة ورأفة، وأن ترتيب عذاب الخلد للكافرين على ذنب محدود الزمان في الدنيا هو أدنى إلى التساؤل عن رحمة الله ﷻ بعباده.

وجها إبطال الشبهة:

(١) لا يدخل أحد الجنة بعمله، بل بفضل من الله ﷻ، ولا يدخل أحد النار إلا بعمله وجزاء ما كسبت يده في الدنيا.

(٢) مبدأ الثواب والعقاب عامٌّ في التصورات الدينية، وعامٌّ كذلك في النظم التربوية والاجتماعية.

التفصيل:

أولاً. فضل الله ﷻ في الجزاء على العمل:

إن الله خلق الإنسان لعبادته ﷻ وخلق للإنسان كل شيء، فلا ينبغي للإنسان أن يشغل بها خلق له عما خلق

أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) (النجم).

والتوراة التي توجد بين يدي القوم تؤكد ذلك قائلة: "لا يقتل الآباء عن الأولاد، ولا يقتل الأولاد عن الآباء، كل إنسان بخطئه يقتل"؛ وبناء عليه، ففضية فداء المسيح - المدعو إلهاً سنة ٣٢٥ م - للبشرية قضية كاذبة خاطئة لا يرضى بها الواقع ولا يقبلها العقل السليم، بل رفضها الدين الصحيح (الإسلام) (١).

الخلاصة:

• لا بد من مكفرات الذنوب حتى لا يُغلق باب التوبة في وجه الناس فيقنطوا من رحمة الله ويأسوا منه، ويؤدي بهم ذلك إلى التماهي في الذنوب، فتزداد الشرور ويعم الفساد.

• الكبائر من الذنوب لا يكفرها إلا التوبة بشروطها، وهي: الإقلاع عنها، والندم عليها، والعزم على عدم الرجوع إليها، ورد المظالم لأهلها، كما أن الإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة من الكبائر، كما روي: لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار.

• العقل يستسيغ طريقة الإسلام في تكفير الذنوب، وهي أن يتحمل الإنسان جريرته، وعليه وحده كفارتها حتى تُغفر ذنوبه، بينما لا يقبل العقل السليم عقيدة الفداء في المسيحية والتي تقوم على منظومة متناقضة لا عدل فيها ولا رحمة، وهي أن يولد الإنسان مخطئاً ويتحمل جرماً لم يرتكبه، ثم يقتل أفضل الناس وأبرّهم؛ ليُغفر للناس خطأً لم يرتكبوه، إن

١. المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، د. عبد المنعم فؤاد، مرجع سابق، ص ١٨٥.

(*) النظر في الأدلة العقلية حول إثبات الذات الإلهية.

من أجله، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) (الذاريات).

فمهمة الإنسان وغاية وجوده عبادة الله ﷻ، فإن تشاغل الإنسان عنها حقَّ عليه العذاب.

ونعيم المتقين في الجنة فضل من الله ﷻ وليس حقاً عليه، ولا بسبب أعمالهم، روى أبو هريرة ؓ عن النبي ﷺ أنه قال: "لن يدخل أحداً عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: لا، ولا أنا. إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة فسدّدوا وقاربوا"^(١).

حتى الرسول ﷺ لن يدخل الجنة بعمله، إلا أن يتغمده الله برحمته، فالنعيم من الله فضل، والعذاب منه عدل، والإنسان ملك لله تعالى فإن شاء عذبه، وإن شاء رحمه.

وليس معنى ذلك اتصاف الله بالعبثية، فقد أرسل إلى البشر الأنبياء والمرسلين؛ ليوضحوا لهم طريق الهداية: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (النساء: ١٦٥)، وذلك بعد أخذ الميثاق الأول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ (الأعراف: ١٧٢).

فمن زاغ عن السبيل الصحيحة الواضحة، أو عاند واستكبر كان العذاب له حقاً، وكانت النار له عدلاً، ومبدأ الثواب والعقاب مبدأ طبيعي للغاية، أليست الدولة تضع ذلك المبدأ لمواطنيها؟ أليست الأم تضع

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب نهي غني المريض الموت (٥٣٤٩)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى (٧٢٩١).

عقاباً لأبنائها الصغار حتى يفرقوا بين الصواب والخطأ؟ إذن فوجود المبدأ - الثواب والعقاب - في حد ذاته ضمان لعدم انحراف حرية الاختيار، ولهذا لا يمكن أن نجد ثواباً وعقاباً على أمرٍ لا اختيار فيه، وما دام الإنسان مختاراً فلا بد أن يتحمل نتيجة اختياره.

إذن، فوجود مبدأ الثواب والعقاب أمر ضروري للغاية مع وجود الاختيار، ما دام الإنسان مختاراً لأن يفعل أو لا يفعل، فلا بد إذن من وجود الثواب والعقاب، وإلا فسدت حرية الفعل.

ثانياً. العدالة الحقّة تقتضي أن يكون هناك حساب وجزاء:

والمراد بالحساب والجزاء، أن يقف كل إنسان منا أمام الحق ﷻ فيعرفه بأعماله التي عملها، وأقواله التي قالها، وما كان عليه في حياته الدنيا من إيمان أو كفر، واستقامة أو انحراف، وطاعة أو عصيان، وما يستحقه على ما قدّم من إثابة وعقوبة، وأخذٍ للكتاب باليمين، إن كان صالحاً، بالشمال إن غلبت عليه شقوته.

إن العدالة الحقّة لا تكون في هذه الدنيا، فكيف يأخذ الضعيف حقه؟

إن الإنسان المستقيم في حياته، كأنه في سجنٍ مظلم، والإنسان المجرم يفسق ويعربد في هذه الحياة، ويتلذذ ويتمتع، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ (محمد)، ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان).

فأين تكون متعة المستقيم؟ إن الآخرة تصويب للأوضاع، ورد للاعتبار، وتحقيق للعدالة، والله ﷻ

الإسلامي الحق؟

إن الله قد جعل الدنيا دار عمل وابتلاء، والآخرة دار حساب وجزاء؛ فمن عمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن عمل مثقال ذرة من شر سيجده.

هذا ما يحكم به المنطق والعدل والحق، فلماذا تعجبون أيها المتوهمون، من تعذيب الكافرين أو المجرمين بالنار؟ إن هذا ما جنوه لأنفسهم: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (الحج). وقد أخبر الله عن عدله المطلق؛ فلا تظلم نفس شيئاً، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الأنبياء).

وأما أهل التوحيد والإيمان الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فإن عدل الله يقتضي أن يعذبهم بمقدار ذنوبهم، ثم يثول أمرهم إلى النعيم المقيم، جزاء إيمانهم وطاعتهم وعملهم الصالح، ومع ذلك فأمرهم مفوض إلى الله تعالى، فقد يخفف عنهم العذاب، وقد يتجاوز عنهم فلا يعذبهم: ﴿وَأَخْرُونا عَنْ دُؤُنُوبِهِمْ حَاطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَأَخْرَسَيْنَا عَنَّا اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ (التوبة: ١٠٢)، ذلك ومن أراد الدنيا أعطاه الله تعالى منها ما أراد له، ومن أراد الآخرة، وسعى لها سعيها، وهو

مؤمن، فأولئك كان سعيهم مشكوراً: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا﴾ (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا

يختبر الناس بتأخير الفصل بينهم، والعَبْنُ جزء من نظام الدنيا، وهو من امتحاناتها الصعبة، ولا بد من أخذه في الاعتبار، ولذلك جاء في الحديث القدسي، في إجابة دعوة المظلوم: "وعزتي لأنصرك ولو بعد حين" (١). فبارك الله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك: ٢).

إن العبد الذي سعى لتحقيق الغاية التي خلق من أجلها - عبادة الله - لا يستوي، ولا ينبغي أن يستوي، مع العبد الذي أفرط على نفسه في العصيان، فضلاً عن أن يتساوى مع المجرم الذي أنكر وجود الله أو أشرك مع الله غيره، أو جحد فرضاً من فروض الله تعالى.

ولذا فإن الله تعالى قال في الحديث القدسي: "وعزتي، لا أجمع على عبيد خوفين ولا أمنين، إذا خافني في الدنيا أمنت يوم القيامة، وإذا أمني في الدنيا أخفته يوم القيامة" (٢). ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١)﴾ (النازعات). فمن خاف الله في الدنيا، فامتثل أوامر وأجتنب نواهيه كان من الأمنين يوم القيامة، ومن عصى الله وأمن عقابه في الدنيا خوَّفه الله يوم القيامة.

فأين العدل؟ هل هو في تصوركم أم في التصور

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة (٨٠٣٠)، وصححه الأرئوط في تعليقه على المسند.

٢. صحيح: أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الرقاق، باب حسن الظن بالله تعالى (٦٤٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٤٨٢) برقم (٧٧٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٦٦٦).

كَانَ عَطَاءُ رَيْكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴿الإسراء﴾[®].

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر) وإذا كانت

الخلاصة:

- الله أرحم بالناس من الأم بولدها، ولكنه يعذب من استحق العذاب حتى لا تتحول الدنيا إلى غابة للوحوش، يأكل القوي فيها الضعيف.
- إنه لا يدخل الجنة أحد بعمله، فالنعيم فضل من الله يمتن به على المؤمنين، والعذاب عدل من الله يعاقب به الظالمين العاشمين.

- من أشد أنواع الظلم ظلم النفس، ومنه الشرك بالله: ﴿يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان) ومن الظلم الرغبة عن دين الله، كما فعلت قريش مع الرسول ﷺ، أو التبديل والتحريف في كتبه ﷺ المنزل، كما فعلت اليهود والنصارى.

- الحياة الدنيا ليست محلاً للعدل والجزاء، فلا بد من الآخرة لتصحيح الأوضاع وتحقيق العدل والجزاء.



الشبهة الثامنة والعشرون

الزعم أن التوبة والغفران لا قيمة لهما إذا كانت

جهنم موعداً للناس أجمعين^(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أنه لا قيمة للتوبة والغفران ما دام مصير الناس إلى جهنم، كما ورد في القرآن:

® في "عدالة مبدأ الثواب والعقاب" طالع: الوجه الأول، من الشبهة العاشرة، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).
(*) هل القرآن معصوم؟ عبد الله عبد القادي، موقع إسلاميات.

وجوه إبطال الشبهة:

- (١) من مقررات العقيدة الإسلامية أن النار إنما هي مثنوى وجزاء للكافرين وحدهم، لا يخلد فيها غيرهم.
- (٢) الآيات والأحاديث التي تعلق بها هؤلاء لا تشهد لدعواهم، والتفسير الصحيح يصوب أغاليطهم في ذلك.
- (٣) طريقة القرآن في الوعد والوعيد تحدث توازناً في نفسية المسلم، فلا تذهب إلى إفراط أو تغليب للخوف أو للرجاء.

التفصيل:

أولاً. النار مثنوى للكافرين:

إن النار مثنوى الأشرار من الكفار، وليست مثنوى كل الناس كما توهم هؤلاء، فهي دار الذين عصوا ربهم بعدما أمرهم بطاعته، ولم يتوبوا إليه ويستغفروه، قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا

الآيات التي وردت في هذا الباب - ورود النار - ما احتجوا بها لو كانوا يعقلون، وعلى فرض صحة ما ادّعوه وما فهموه؛ فإن ذلك يكون على سبيل الخوف والرجاء، من العبد لربه، وقد غيرت هذه الآية أحوال الصالحين، فأسهرت ليلهم وعكّرت عليهم صفو العيش، وحرمتهم الضحك والتمتع بالشهوات^(٢).

وما فعلوا ذلك إلا لأنهم أساءوا الظن بالنفس حتى تأتي ما هو خير، وتترك ما هو شر، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾^(٦١) ثم نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا^(٦٢) (مريم)، وهذا معناه أن ورود جميع الناس النار لا يعني تعذيبهم فيها، وإنما معناه: مرورهم على الصراط الممدود على ظهر جهنم، فيقع فيها الظالمون حين يمرون على الصراط، وينجو المتقون - حسب أعمالهم - ويجوزون على الصراط، منهم من يمر كالبرق الخاطف، ومنهم من يمر كالريح العاصف، ومنهم كالفراس، وهكذا كل حسب عمله^(٣).

وفي مرور المتقين على النار دون عذاب، ثم نجاتهم منها فيه معرفة مقدار رحمة الله بهم وتفضله عليهم، فقد رأوا العذاب بأعينهم ونجاهم الله منه، ثم أدخلهم جنته، فالنجاهة من العذاب نعمة ورحمة، والدخول في الجنة نعمة ورحمة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ الْجُؤَرَ كَمْ يَوْمَ الْفَيْكَةِ فَمَنْ رُحِّحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ (آل عمران: ١٨٥).

رَجِيمًا^(٦٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا^(٦١) (الفرقان). وهي دار أعداء الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾^(٦٢) (فصلت)، وتنكيلاً بهم يحشرون إلى نار جهنم على وجوههم: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(٦٣) (الفرقان).

ويزاد التنكيل بهم فيحشرون عمياً لا يرون، وبكماً لا يتكلمون، وضماً لا يسمعون: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمياً وَبُكماً وَضَمّاً مَا وَلَّهُمْ جَهَنَّمَ كَلَمًا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعيراً﴾^(٦٤) (الإسراء)، ويزيد بلاؤهم فيحشرون مع آلهتهم الباطلة وأعوانهم وأتباعهم قال تبارك وتعالى: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾^(٦٥) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْحَنِيمِ^(٦٦) (الصفات)، والنار مثوى المتكبرين: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾^(٦٧) (النحل)، ومن تمام عدل الله، وحكمته ﷻ أنه لا يأخذ أحداً جزافاً من هذه الجموع التي لا تحصى، والتي أحصاها الله فرداً فرداً، وإنما يعلم من هم أولى بها صلياً، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾^(٦٨) (مريم)^(١).

ثانياً. المفهوم الصحيح للآيات التي استدلووا بها:

إن مفهوم الآيات ليس كما زعموا، ولو تدبروا

٢. المرجع السابق، ص ٢٦١.

٣. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ج ٣، ص ١٣٢.

١. القيامة الكبرى، د. عمر سليمان الأشقر، دار السلام، مصر، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م، ص ٢٥٩، ٢٦٠.

وفي الصحيح أنه ﷺ قال: "لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد! الذين بايعوا تحتها قالت: بلى، يا رسول الله، فانتهرها، فقالت: حفصة: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ (مريم: ٧١)؟ فقال النبي ﷺ: قد قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ (٧٢) (مريم: ١)، وأشار ﷺ إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله، بل تستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه أعداؤه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه يقال: نجاه الله منهم.

ولهذا قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا﴾ (هود: ٦٦)، ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ (هود: ٩٥)، ولم يكن العذاب أصابهم ولكن أصاب غيرهم، ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة لأصابهم ما أصاب أولئك، وكذلك حال الواردين على النار، يمرون فوقها على الصراط ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيًا.

صفوة القول: أن الورد على النار ورودان:

الأول: ورود الكفار أهل النار، فهذا ورود دخول لا شك فيه، كما قال الله تبارك وتعالى في شأن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَبْسُ الْوُرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ (٩٨) (هود)، أي: بئس المدخل المدخول.

الثاني: ورود الموحدين، أي مرورهم على الصراط^(٣).

وأما آية الحجر التي استدل بها الكاتب على أن جميع الناس يدخلون جهنم أبرارهم وأشرارهم فلا تدل - كما فهم - على ذلك، بل الضمير في قوله: ﴿لَمَوْعِدُهُمْ﴾ (الحجر: ٤٣) يعود على الغاوين الذين تبعوا إبليس. وهم المذكورون في الآية التي قبلها: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الحجر: ٤٢) ثم قال سبحانه: ﴿وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر: ٤٣) أي: موعد هؤلاء الغاوين أجمعين، بدليل أنه قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٤٥) ادخلوها يسلمهم ءَامِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُنْقَلَبِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ (٤٨) (الحجر).

وأما الحديث الذي أشار إليه الكاتب من أن طائفة واحدة من المسلمين هي التي تنجو من النار، وبقية طوائف المسلمين في النار، وأن ذلك مما يبعث على الخوف في نظره، وهو قوله ﷺ: "افتترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة"^(٣).

فالحديث ضَعَفَهُ بعض أهل العلم وصححه آخرون، وعلى فرض صحته، فإن الحديث ينبئ إلى أن أصحاب الأهواء سيُدْسُون في هذه الأمة فيفترقونها، كما حدث في الأمم السابقة، بل ما سيحدث في هذه الأمة

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ (٨٣٧٧)، وأبو داود في سننه، كتاب السنة، باب شرح السنة (٤٥٩٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٣).

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان ﷺ (٦٥٦٠).
٢. القيامة الكبرى، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق، ص ٢٦٨.

- وما أكثرها في القرآن ، وعلى لسان الرسول ﷺ -
خوف ولا حيرة كما يزعم المدعون^(١).

الفرق بين حياة المسلم وحياة غير المسلم:

حياة المسلم - وإن قُدِّرَ عليه في الدنيا أن يكون أقل
الناس عبادة لله - هي خير وأعظم من حياة أحسن
الناس في غير الإسلام؛ لأن بالإسلام والقرآن تطمئن
النفس، ويهدأ البال، ويرضى كل واحد بما قسمه الله له،
والحياة بعيداً عن الإسلام كلها نكد وكدر، وهذا ما
يفسره لنا كثرة الانتحار في الحضارة الغربية المادية،
فهؤلاء قد يئسوا من حياتهم، وليس لهم غاية يرجونها
إلا التمتع بالدنيا، وحياة المسلم كلها خير، فإن أصابه
خير شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان
خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن، كما قال النبي ﷺ
وسرُّ سعادة المسلم أنه يؤمن بإله واحد - وهو الله ﷻ
وأنه الذي خلقه، وأنه المستحق للعبادة وحده .

وإن القرآن ليرسم صورة فائتة للكون كله، فيها كل
شيء عابد، وكل كائن خاشع وقانت، وهو بذلك
يستميل الإنسان للتجاوب مع الكون، وهذا الشعور
وحده يكسب في النفس طمأنينة وسكينة لا تحس بها
نفس الكافر الذي يبدو كأنه نشاز في كون متناسق، أو
نبت مقطوع الأصول لا امتداد له ولا ثبات^(٢).

١. مقدمة الفرق بين الفرق، محيي الدين عبد الحميد، وذكرت
بعض هذه الروايات في: الفرق بين الفرق، عبد القاهر بن طاهر
البغدادى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ /
١٩٨٥م، ص ٢١: ٢٣.

② في "أثر الإيمان الصحيح في استقامة الحياة" طالع: الوجه
الثالث، من الشبهة الثالثة، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).
وفي "حقيقة الإيمان وأثره في النفس والحياة" طالع: الشبهة
الأولى، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

من التفرق أكثر؛ نظراً لعمومها جميع الأمم والشعوب
وخلودها على مر الزمن، فالتفرق واتباع الأهواء في
داخلها كثير.

فالحديث الشريف ينبه إلى المنجى والمخرج من هذه
الأهواء ويدل عليه، ألا وهو اتباع نهج النبي ﷺ
وأصحابه ﷺ، وفي ذلك توعية وحض لها على التمسك
بسنة رسول الله ﷺ وأصحابه؛ ففيهما النجاة في الدنيا
والآخرة.

ثالثاً. الإسلام يبشر أهله ومتبعيه بالجنة وحسن المآب دائماً:

إن الإسلام لا يُقنط أهله من رحمة الله، وهو وإن
خوفهم من النار وما فيها فإنما يريد أن يسلك بهم براً
آمناً وطريقاً غير طريق النار، وهذه رحمة أخرى، فله
الحمد على نعمة الإسلام، وكفى بها نعمة.

والآيات التي تدل على ذلك أكثر من أن تُحصى، من
ذلك قوله تبارك تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا
يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي
الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِكَامِلِ اللَّهِ ذَلِكَ ۚ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ
۝﴾ (يونس). وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ
قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۝﴾ (يونس: ٢٢)، وقوله الله ﷻ: ﴿إِنَّ
الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ
الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي
كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۝﴾ نحن أولياؤكم في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا دَشْتُمُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا
مَا تَدْعُونَ ۝﴾ ﴿تُزَلَّ مِنْ غَمُورٍ رَحِيمٍ ۝﴾ (فصلت).

فليس في حياة المسلم بعد هذه البشريات

الخلاصة:

• القرآن الكريم حافل بالآيات التي تُعِدُّ المؤمنين الجنة وتُوعِد الكافرين بالنار، ولا يذهب أحد من المسلمين إلى تسوية المؤمن بالكافر في هذا، ومرجع هذا الزعم الفهم الخاطئ لطائفة من الآيات أفاض مفسرو المسلمين في شرحها وبيان حقيقة معناها.

• حديث النبي ﷺ في نجاة فرقة واحدة لا يفيد أن سواها خالد في النار، بل هم كسائر من يخالفون سنته ﷺ يعذبون بمقدار مخالفتهم، ثم يدخلون الجنة، على أن تنويه النبي ﷺ بذلك إنما هو هداية وإرشاد، ومن كمال تبليغه ﷺ.

• فكرة الإسلام عن الوعد والوعيد، والموازنة القرآنية المترددة في شأن نعيم الأبرار وعذاب الفجار، كل ذلك مما ينعكس في حياة المسلم هدوءًا واستقرارًا، وينعكس في حياة غيره ضنكًا وشقاءً يظهران في شعوره بالقلق والاضطراب النفسي، وفي الجرائم والشذوذ والإدمان، على نحو ما يُرى في المجتمعات الغربية.



الشبهة التاسعة والعشرون

الزعم أن القرآن مخلوق (*)

مضمون الشبهة:

تزعم طائفة من المغالطين أن القرآن الكريم مخلوق خلقه الله ﷻ، وأن القول بقدومه يفضي إلى القول بتعدد القدماء، وهو ما ينافي الوحداية، وهم بذلك يذهبون

(*) هل القرآن معصوم؟ عبد الله عبد القادي، موقع إسلاميات.

إلى ما قال به النصارى في عيسى عليه السلام أنه كلمة الله على الوجه الذي يفسرونها به. ويستدلون على ذلك بأن القرآن شيء "والله خالق كل شيء"، وأنه ﷻ وصفه بالحدث في قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٢) (الأنبياء)، والمحدث مخلوق كائن بعد أن لم يكن.

وجوه إبطال الشبهة:

(١) القرآن الكريم نفسه يصرِّح في كثير من آياته أنه كلام الله غير مخلوق.

(٢) قدَّم أئمة المسلمين إبان المناظرات القديمة حول هذه المسألة الأدلة العقلية على تهافت القول بخلق القرآن.

(٣) إثبات الصفات لله ﷻ لا يعني إثبات قدماء مع الله يشاركونه في ملكه وتديره، فإن الله بمجموع صفاته قديم، ولا يعقل إثبات ذات في الخارج مجردة من الصفات.

(٤) لم يحدث القول بخلق القرآن عن تدبر في نصوص الإسلام ذاتها، بل التزمه بعض المسلمين تحلُّصًا من إلزامات النصارى في مجالس الجدل والمناظرة.

التفصيل:

أولاً. دلالة القرآن نفسه على أنه غير مخلوق:

لو كان القرآن مخلوقاً لفني كما تفنى المخلوقات، ولكنه باقٍ بعد فناء كل شيء؛ إذ يقول تعالى حين يفنى كل شيء: ﴿لَمِنَ الْمَلَكُ الْيَوْمَ﴾ (غافر: ١٦)، ويحيب ﷻ: ﴿لِلَّهِ الْوَحْدُ الْقَهَّارُ﴾ (غافر)، وهذا من القرآن،

فكيف يكون القرآن مخلوقاً؟!

مختلفين لا يدعها مرسلين حتى يفصل بينهما. من ذلك قوله: ﴿يَأْتِيهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ (يوسف: ٧٨)، فهذا شيء واحد سماه بثلاثة أسماء وهو مرسل، ولم يقل إن له أباً وشيخاً وكبيراً، وقال: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنَاطَاتٍ تَزِينْنَ عِيدَاتٍ سَيَّحَتِ ثِيَابَهُنَّ وَأَنْكَرْنَ﴾ (التحریم)، فلما كانت البكر غير الثيب، لم يدع الكلام مرسلًا حتى فصل بينهما بالواو العاطفة.

ومن ذلك قوله ﷺ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ (فاطر: ١٩)، فلما كان البصير غير الأعمى فصل بينهما، ثم قال: ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ (٢٠) وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ (٢١) (فاطر)، فلما كان كل واحد من هذا الشيء غير الشيء الآخر فصل بينهما. ثم قال تبارك وتعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٣) (الحشر)، فهذا كله شيء واحد، فهو مرسل ليس بمنفصل. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ (الأعراف: ٥٤)؛ وذلك لأن الخلق غير الأمر فهو منفصل (٣). من هذا يثبت أن القرآن غير مخلوق.

ثانياً. الدلالة العقلية على أن القرآن غير مخلوق:

ولو افترضنا جدلاً أنه غير الله - كما يزعمون - أي:

لقد اشتمل القرآن الكريم على براهين تدل على أنه كلام الله وغير مخلوق، قال الشيخ الإمام الحافظ اللالكائي: سأل رجل أبا الهذيل العلاف المعتزلي البصري عن القرآن، فقال: مخلوق، فقال له: مخلوق يموت أو يخلد. قال: لا بل يموت. قال: فمتى يموت القرآن؟ قال: إذا مات من يتلوه فهو موته. قال: فقد مات من يتلوه، وقد ذهبت الدنيا وتصرمت، وقال الله ﷻ: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾، فهذا القرآن، وقد مات الناس. فقال: ما أدري!

كما أن القرآن من أمر الله، وقد قال تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ (الروم: ٤)، فإذا قيل: قبل مطلقاً وبعد مطلقاً، كان المراد به الأزل والأبد، والله ﷻ أطلق القول فيه، فقال: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾، ويقضي أن يكون الأمر أزلياً، ولا يزال وما يوجد أزلاً ولا يزال، فهو قديم، وأنه قبل الأشياء كلها وبعد الأشياء كلها، كما قال ﷻ، وما كان قبل الأشياء كلها وبعدها فلا يكون محدثاً؛ لأن المحدث ما كان له أول في الابتداء وآخر في الانتهاء (١)؛ وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٥٤) (الأعراف)، فأخبر أن الأمر غير الخلق (٢).

فإن الله ﷻ إذا سمى الشيء الواحد باسمين أو ثلاثة فهو مرسل غير منفصل، وإذا سمى شيئين

١. الإباضية، عامر النجار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ١٠٦.

٢. تاريخ المذاهب الإسلامية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٤٨٧.

٣. الرد على الجهمية والزندقة، الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق وتعليق: عبد الرحمن عميرة، دار اللواء للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ١١٣.

خلقه الله قائماً بذاته ونفسه - فهذا محال؛ إذ لا يكون الكلام إلا من متكلم، كما لا تكون الإرادة إلا من مريد، ولا العلم إلا من عالم، ولا يعقل كلام قائم بنفسه يتكلم بذاته.

فإذا علمنا بطلان زعمهم أن القرآن "غير الله" علمنا أنه لا يمكن أن يكون مخلوقاً، وإنما هو صفة من صفاته جل في علاه.

ولقد ألزم الإمام عبد العزيز المكي بشرًا المريسي بين يدي المأمون بعد أن تكلم معه ملتزمًا ألا يخرج عن نص التنزيل في الحجة، فقال بشر: يا أمير المؤمنين، ليدع مطالبتي بنص التنزيل، ويناظرني بغيره، فإن لم يدع قوله، ويرجع عنه ويقر بخلق القرآن الساعة، وإلا فدمي حلال.

قال عبد العزيز: تسألني أم أسألك؟

فقال بشر: أسأل أنت.

فقلت له: يلزمك واحدة من ثلاث لا بد منها: إما أن تقول: إن الله خلق القرآن - وهو عندي أنا كلامه - في نفسه، أو خلقه قائماً بذاته ونفسه، أو خلقه في غيره؟ قال: أقول خلقه كما خلق الأشياء كلها، وحاد عن الجواب.

فقال المأمون: اشرح أنت هذه المسألة، ودع بشرًا فقد انقطع.

فقال عبد العزيز: إن قال خلق كلامه في نفسه فهذا محال؛ لأن الله لا يكون محلاً للحوادث المخلوقة، لا يكون منه شيء مخلوقاً.

وإن قال: خلقه في غيره، فيلزم في النظر والقياس، أن كل كلام خلقه الله في غيره، فهو كلامه، فهو محال

أيضاً؛ لأنه يلزم قائله أن يجعل كل كلام خلقه الله في غيره هو كلام الله.

وإن قال: قائماً بنفسه وذاته، فهذا محال؛ فلا يكون الكلام إلا من متكلم - كما لا تكون الإرادة إلا من مريد، ولا العلم إلا من عالم، ولا يعقل كلام قائم بنفسه يتكلم بذاته، فلما استحال من هذه الجهات أن يكون مخلوقاً. علم أنه صفة لله.

والحق أن القرآن الكريم ينظر إليه من زاويتين:

إحدهما: من حيث مصدره، وهو أن الله تعالى متصف بالكلام ﷻ.

ثانيهما: من حيث هذه الحروف المصورة بالمداد في المصاحف والنطق بها، فهذا محدث لأنه عمل من أعمال القارئ، وأعماله محدثة بلا شك.

ولقد رأينا مثيري هذه الشبهة ينكرون أن يتصف الله بالكلام لما علموا أن هذا يؤدي بهم إلى كون القرآن غير مخلوق، فراحوا يعللون ما أسند إليه سبحانه أنه تكلم به بأنه ﷻ خلق الكلام في الموضع الذي صدر عنه الكلام، فكلامه لموسى بخلقه الكلام في الشجرة^(١). وقلنا إن هذا باطل؛ إذ لو أن كلامه ﷻ يخلقه في غيره، لكان كل كلام في الدنيا كلامه سبحانه؛ لأن الله خلق كلام زيد في زيد، وخلق كلام عمرو في عمرو، وخلق كلام بكر في بكر، وكل إنسان يتكلم فإن الله هو الذي خلق كلامه فيه!! فإذا كان كلام الله هو ما خلقه في غيره فكل متكلم إنما يتكلم بكلام الله!! ولا فرق حينئذ بين القرآن وبين أي هديان.

١. تاريخ المذاهب الإسلامية، محمد أبوزهرة، مرجع سابق، ص ١٥٧.

غيره لم يفصل بينها قال ﷺ: ﴿أَسَلَّمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ (الحشر: ٢٤).
وبدا بذلك أن كون القرآن غير مخلوق لا يؤدي إلى وجود قديم غير الله، ولا يؤدي إلى تعدد القدماء؛ إذ ليس في قدرة العقل أن يتصور ذاتًا مجردة عن صفاتها في الخارج، ومن أنكر ذلك فقد كابر وأحال.

وإن الله تعالى في القرآن لم يسم كلامه شيئًا، إنما الذي سُمِّيَ شيئًا الذي كان بقوله، ألم تسمع قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾ (النحل: ٤٠)، فالشيء ليس قوله، إنما الشيء الذي كان بقوله، وفي آية أخرى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾ (يس: ٨٢)، فالشيء ليس هو أمره، إنما الشيء الذي كان بأمره.

ومن الأعلام والدلالات أنه لا يعني كلامه مع الأشياء المخلوقة، قال الله للريح التي أرسلها على عاد: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ (الأحقاق: ٢٥)، وقد أتت تلك الريح على أشياء لم تدمرها، منازلهم ومسكنهم والجبال، التي بحضرتهم، فأنت عليها تلك الريح ولم تدمرها، وقال: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

فكذلك إذا قال: ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الرعد: ١٦) لا يعني نفسه ولا عمله ولا كلامه مع الأشياء المخلوقة، وقال للملكة سبأ: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (النمل)، وقد كان ملك سليمان شيئًا، ولم تؤتّه، وقال الله تبارك وتعالى لنبيه موسى ﷺ: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (طه)، ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ (آل عمران: ٢٨)، ﴿تَعْلَمُ مَا فِي رُبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةِ﴾ (الأنعام: ٥٤)، ﴿تَعْلَمُ مَا فِي

فهؤلاء أغفلوا الزاوية التي ينظر منها إلى مصدر القرآن، وأن الله متصف بالكلام، وأخذوا يلبسون على الناس من الزاوية الأخرى "من حيث الحروف المصورة بالمداد في المصاحف والنطق بها"، وقد انكشف مكرهم وبطل افتراءهم عن مصدر القرآن، وأن الله متصف بالكلام بكون القرآن غير مخلوق، ولم ننكر عليهم أن الحروف المصورة بالمداد والنطق بها محدثة فهذا بالطبع من عمل القارئ وأعماله محدثة بلا شك.

ثالثًا. قَدَمُ صِفَاتِهِ ﷻ لَا يَعْنِي اثْبَاتُ قَدَمَاءٍ مَعَ اللَّهِ :

وقَدَمُ صفات الله لا يعني تعدد القدماء؛ إذ لا انفصام بين الشيء وصفاته؛ فإذا قلنا: إن صفات الله قديمة، فهذا أمر طبيعي؛ إذ كان الله بصفاته ولا شيء معه، وهذا لا يؤدي إلى تعدد القدماء - كما يتوهم البعض - إذ لا يمكن لعاقل أن ينظر إلى صفات شخص ما على أنها أشخاص آخرون يشاركونه فيما يملك، ويكون لها من القدرة ما له، فتعمل كما يعمل وكأنها أشخاص مستقلة عنه، والله المثل الأعلى فلا يمكن لعاقل كذلك أن ينظر إلى صفات الله على أنها آلهة أخرى مستقلة عنه تشاركه في ملكه. فالشيء وصفاته شيء واحد ولا انفصام بينهما.

ولعلك تدرك هذا حينما تقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ (يوسف: ٧٨)، فهذا شيء واحد سماه ثلاثة أسماء؛ لذا لم يفصل بينها، بعكس لو كان كل اسم أو صفة تطلق على شيء مختلف عن الآخر، فإنه يفصل بينها، كما في قوله تعالى: ﴿ثَبِثَتْ وَأَبْكَارًا﴾ (التحریم: ٥٠)، وقد تقدم ذلك قريبًا.

ولما كانت أسماء الله وصفاته تطلق على واحد لا إله

نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴿المائدة: ١١٦﴾.

فقد عرف من عقل عن الله أنه لا يعني نفسه مع الأنفس التي تذوق الموت، وقد ذكر الله ﷻ كل نفس، فكذلك إذا قال: ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ لا يعني نفسه، ولا علمه، ولا كلامه مع الأشياء المخلوقة. وقد ذكر الله كلامه في غير موضع من القرآن، فسماه كلامًا، ولم يسمه خلقًا؛ كقوله: ﴿فَلَقَّ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ (البقرة: ٣٧)، وقوله: ﴿وَقَدْ كَانَ قَرِيْقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ (البقرة: ٧٥)، وقوله ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ (الأعراف: ١٤٣)، وقوله ﷻ: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتَكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَتِي﴾ (الأعراف: ١٤٤)، وكلم الله موسى تكليمًا ﴿النساء: ١٦١﴾.

واعلم أن الشيتين إذا اجتماعا في اسم يجمعهما وكان أحدهما أعلى من الآخر، ثم جرى عليه اسم مدح، كان أعلاهما أولى بالمدح وأغلب عليه، وإن جرى عليه اسم ذم، فأدناهما أولى به، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة)، ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ (الإنسان: ٦)، يعني: الأبرار دون الفجار، فإذا اجتمعوا في اسم الإنسان واسم العباد فالمعني به في قول الله تعالى: ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ (الإنسان: ٦): الأبرار دون الفجار؛ لقوله إذا انفرد الأبرار: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (الإنفطار)، وإذا انفرد الفجار: ﴿وَلِئِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ (الإنفطار). وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ

١. الرد على الجهمية والزنادقة، الإمام أحمد بن حنبل، مرجع سابق، ص ١١٥: ١١٧.

لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿البقرة﴾، فالؤمن أولى به وإن اجتمعا في اسم الناس؛ لأن المؤمن إذا انفرد أعطي الرحمة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (الأحزاب)، فلما قال الله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ﴾ (الأنبياء: ٢)، جمع بين ذكرين: ذكر الله وذكر نبيه، فأما ذكر الله إذا انفرد لم يجر عليه اسم الحدث، ألم تسمع إلى قوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (العنكبوت: ٤٥)، وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ﴾ (الأنبياء: ٥٠).

وإذا انفرد ذكر النبي ﷺ فإنه جرى عليه اسم الحدث، ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصفات). فذكر النبي ﷺ له عمل، والله له خالق محدث، والدلالة على أنه جمع بين ذكرين لقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا أَصْغَوْهُ وَمِنْ بَلَغُوا إِتْيَانَهُ يَأْتَانَا، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَأْتِينَا إِلَّا بِالْإِنْبَاءِ، مَبْلُغًا وَمَذْكُرًا، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَذَكَّرَ فَإِنَّ الذِّكْرَ لَنَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات)، ﴿فَذَكَّرْ إِنَّ نَفْعَ الذِّكْرِ﴾ (الأعلى)، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (الغاشية).

فلما اجتماعا في اسم الذكر جرى عليها اسم الحدث، وذكر النبي إذا انفرد وقع عليه اسم الخلق، وكان أولى بالحدث من ذكر الله الذي إذا انفرد لم يقع عليه اسم خلق ولا حدث، فوجدنا دلالة من قول الله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ﴾ (الأنبياء: ٢) إلى النبي ﷺ؛ لأن النبي ﷺ كان لا يعلم فعله الله، فلما

علمه الله كان ذلك محدثاً إلى النبي ﷺ^(١).

رابعاً. منشأ القول بخلق القرآن:

إن قضية خلق القرآن لم تنبع عن اعتقاد صحيح موحي به من عند الله، وإنما كانت ردّاً على النصارى الذين أرادوا أن يفسدوا على المسلمين عقيدتهم، ولكن كان الرد عليهم متسرعاً، فلم يستوعب معنى "كلمة الله"، و"روح منه" الوارد ذكرهما في الآية التي اتخذها اليهود والنصارى ذريعة للتشكيك في كتاب الله.

فالنصارى تعلم أن المسلمين لا يقولون: إن "كلمة الله" مخلوقة فيوصف القرآن بالتالي أنه مخلوق، لكنهم - على ذلك - كانوا يوجهون سؤالاً لبعض المسلمين مستغلين عدم وقوفهم على معنى الآية: ماذا تقولون في عيسى عليه السلام؟ فيجيب المسلمون بنص القرآن "كلمة الله" و"روح منه" فيوجهون سؤالاً آخر: "كلمة الله" مخلوقة أم غير مخلوقة؟ فإن قالوا: مخلوقة، قالوا: إن القرآن الكريم مخلوق، وإن قالوا: غير مخلوقة، قالوا: إذن المسيح عيسى عليه السلام قديم وإله وبذلك يبررون عبادتهم له.

فلكي تخرج هذه الطائفة من المسلمين^(٢) من هذا المأزق قالوا: إن القرآن مخلوق وهم بهذا الجواب ضلّوا الطريق المستقيم، وكان أولى بهم أن يبينوا أن "كلمة الله" في هذا المقام تعني أن الله خلق عيسى عليه السلام بمجرد كلمة "كن" فكان، أي أنه لم يخلق على مقتضى العادة في تكوين الأحياء، والله درّ الحافظ ابن كثير حين قال:

١. المرجع السابق، ص ١٢٠: ١٢٣.

٢. المقصود بهذه: الطائفة المعتزلة ومن تابعهم في القول بخلق القرآن.

ليست الكلمة صارت عيسى وإنما بالكلمة صار عيسى، كما أن معنى "روح منه" أي أن الله ﷻ أنشأ روح عيسى بأمر منه، لا بالأسباب التي تجري في خلق الأحياء، على أن "من" في مثل هذا لا تفيد التبعية، بل كل شيء هو من الله خلقاً وإيجاداً، كما قال ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الحج: ١٣)^(٣).

وعلى ما سبق يتضح لنا أن هذه الشبهة - قضية خلق القرآن - لم تنبع عن اعتقاد صحيح موحي به من عند الله، وإنما كانت نتيجة لجدال أهل الباطل، وقد وقف أهل الهدى في وجهها حتى أبطلوها، وبينوا وجه الصواب فيها.

الخلاصة:

القرآن كلام الله غير مخلوق بلا شك؛ لأدلة عقلية ونقلية واضحة منها:

- كل مخلوق يفنى ويموت، والقرآن لا يفنى ولا يموت.
- القرآن من أمر الله، وقد بين الله أن الأمر غير الخلق.
- كلام الله صفة من صفاته، وليس كما يزعمون أنه "غير الله".
- القرآن كلام الله من حيث مصدره واتصاف الله به ليس محدثاً ولا مخلوقاً، أما من حيث الحروف المصورة بالمداد والنطق بها فهي محدثة.
- قدم صفات الله لا يعني تعدد القدماء؛ إذ لا انفصام بين الشيء وصفاته، ولا أحد يعقل وجود ذات

٣. انظر: تاريخ المذاهب الإسلامية، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ص ١٥١ وما بعدها.

مجردة عن صفاتها.

هداية الدلالة والإرشاد، وهي التي تترتب عليها هداية التوفيق وشرح الصدر أو عدمها.

(٢) الآيات التي تنص على أن الله ﷻ يهدي من يشاء ويضل من يشاء لا تفيد - على التفسير الصحيح لها وللقضية بجملة جوانبها - انحصاراً ذمياً لبعض العباد على بعض.

التفصيل:

أولاً. إسناد الهداية والإضلال إلى الله ﷻ وحقيقتهما:

الله ﷻ حَكَمَ عدل، يأمر بالعدل، ويحكم بالعدل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ (النحل: ٩٠)، وحض على الحكم به: ﴿وَإِذَا حُكِمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء: ٥٨)، والعدل معناه: إعطاء كل أحد ما يستحقه^(١).

وهذه صفة حسنى لله ﷻ وهي صفة كمال، فهو لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون. وقد هدى الله ﷻ الناس جميعاً بمعنى: أنه جعلهم قابلين لفعل الخير، كما جعلهم قابلين لفعل الشر، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان)، وهداهم جميعاً بأن أرسل إليهم رسله ليدلوهم على ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، قال ﷻ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ (فصلت: ١٧).

والله ﷻ عندما نفى الهداية عن الكافرين والظالمين والفاستقين عبَّرَ عن كفرهم وظلمهم وفسقهم بصيغة

• إن الله في القرآن لم يسم كلامه شيئاً، وإنما سُمِّي شيئاً الذي كان بقوله، كما أنه ﷻ لا يعني كلامه مع الأشياء المخلوقة بدلالة كثير من آيات القرآن.

• قضية خلق القرآن لا أساس لها؛ إذ لم تنبع عن اعتقاد صحيح موحى به من عند الله ﷻ، بل ظهرت للملابسات تاريخية خاصة، وسرعان ما تبين وجه الحق فيها.



الشبهة الثلاثون

الفهم الخاطئ لنسبة الإضلال إلى الله تعالى (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن "الله" في الإسلام له سلطة الإضلال والهداية؛ فهو الذي يضل من يشاء، ويعينه على الضلال مستندين - خطأً - إلى قول الله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (إبراهيم: ٤). ويتساءلون: كيف يضل الله العباد وهو الذي أرسل الرسل وأنزل الكتب من أجل هداية البشر؟ أليس في هداية بعض الناس وإضلال بعضهم تحيزٌ لفريق دون فريق؟!

وجهاً لإبطال الشبهة:

(١) الله ﷻ هدى الناس جميعاً بمعنى أنه جعلهم قابلين لفعل الخير، كما جعلهم قابلين لفعل الشر، وهذه

(*) حتى الملائكة تسأل: رحلة إلى الإسلام في أمريكا، جيفري لانغ، مرجع سابق.

١. شرح العقيدة الواسطية، محمد صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، الرياض، ط ٣، ١٤١٦هـ، ج ١، ص ٢٢٩.

المنسوب إلى نفسه - أي: جعل الله الإضلال المنسوب إليه تعالى - للكافر والفاسق دون المؤمن، بل نفى عن نفسه تعالى إضلال المؤمن، فقال جل شأنه: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَهَ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتُهُمْ﴾ (التوبة: ١١٥)، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قِيلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَكَانَ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (١) ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُضِلُّهُم بِالْهَمِّ﴾ (محمد)، وقال في الكافر والفاسق: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (٢) (البقرة: ٢٧).

ثانياً. قوله: ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ليس معناه الانحياز إلى بعض عبادته دون بعض:

ليس معنى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (النور: ٤٦) الانحياز إلى بعض العباد دون بعض، وإن انحاز إلى قسم من عبادته فليس من حق أحد أن يقول لماذا فعلت هذا؟ لأن الله تعالى هو مالك الملك، هو المتصرف، ولا يملك أحد حقاً لأي ادعاء أو اعتراض عليه سبحانه، فهو سبحانه لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

إن الله تعالى يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وقد ذكر هذا في مواضع مختلفة، وبشكل متكرر في القرآن الكريم، فالمشيئة الإلهية هي الأساس الذي يجب الانتباه إليه، وهو أن الهداية والضلالة من خلق الله تعالى، ولكن السبب يعود إلى مباشرة العبد.

والله تعالى قد أرشد إلى ما يحبه، ودل على ما يرضيه قال ﷺ: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ

اسم الفاعل، بمعنى أنه أسند الكفر والفسق والظلم إليهم، فهم الذين امتنعوا بأفعالهم هذه عن قبول الهداية، فكيف يهدي الله تعالى من لم يقبل هدايته^(١)؟!

المفهوم الصحيح لإضلال الله تعالى للعباد:

وأما عن معنى الإضلال فيقول الراغب الأصفهاني في المفردات: "وإضلال الله تعالى للإنسان على أحد وجهين:

أحدهما: أن يكون سببه الضلال، وهو أن يضل الإنسان، فيحكم الله عليه بذلك في الدنيا، ويعدل به عن طريق الجنة إلى النار في الآخرة، وذلك الإضلال هو حق وعدل؛ فالحكم على الضال بضلاله، والعدول به عن طريق الجنة إلى النار عدل وحق.

ثانيهما: أن يكون الإضلال من الله، وهو أن الله تعالى وضع جِبِلَّةَ الإنسان على هيئة إذا راعى طريقاً محموداً كان أو مذموماً ألفه واستطابه، ولزمه وتعذر صرفه وانصرافه عنه، ويصير ذلك كالطبع الذي يأبى على الناقل؛ ولذلك قيل: العادة طبع ثان، وهذه القوة في الإنسان فعل إلهي، وإذا كان كذلك، وقد ذكر في غير هذا الموضع أن كل شيء يكون سبباً في وقوع فعل صح نسبة ذلك الفعل إليه، فصح أن ينسب ضلال العبد إلى الله من هذا الوجه.

فيقال: أضله الله، لا على الوجه الذي يتصوره الجهلة - وهو "أن الله تعالى أجبر الضالين على الضلال" - ولكن لما قلناه من أنه جعل الإضلال

١. المفيد في علم التوحيد، حبيب الله حسن أحمد، مجموعة محاضرات ألقى على طلاب كلية الدعوة، جامعة الأزهر، ص ٢٨٩.

٢. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، دار المعرفة، بيروت، د. ت، ص ٢٩٩.

الْكَفْرُ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴿٧﴾ (الزمر: ٧)، فهل شكر الناس وامتنعوا عن الكفر؟

وإذا لم يشكروا وكفروا، فهل يريدون هداية كغيرهم، أليس الله عدلاً؟ وعدله أن يزيد الذين اهتدوا هدى وهذا هو المعنى، ثم إن مشيئته المطلقة في أن يهدي من يشاء، ويضل من يشاء تفهم على ضوء حكمته المطلقة؛ وأنه لا يفعل عبثاً، وإنما على ضوء عدله المطلق، وأنه لا معقب لحكمه، والله تعالى عدل بين خلقه فلم يعدّهم، دون أن يرسل لهم رسله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (١٥) (الاسراء) .

الخلاصة:

• إن الله تعالى لا يظلم الناس شيئاً فهو الحكم العدل، فمن اهتدى زاده هدى، ومن ضل فإنما يضل على نفسه، والله ﷻ قد نسب إلى نفسه إضلال الكافرين والفاسقين والظالمين، ولم ينسب ذلك إلى نفسه في حق المؤمنين المهتدين، وذلك لعدة اعتبارات:

○ الأول: أن الله تعالى جعل قواهم مهياً لأن يوجهوها للكفر والعصيان، فوجهوها إلى ذلك باختيارهم، وليس لهم عذر في هذا، ولا حجة لهم على الله، فقد أعطاهم العقل المميز، ودلّهم على الطريق المستقيم عن طريق رسله.

○ الثاني: أنه حكم بضلالهم عندما اختاروا الضلال بأنفسهم.

○ الثالث: أن الضال وجد في نفسه معاني لم يصنعها بنفسه، وإن تسبب فيها عندما اختار الضلال، وهي ثمرة ضلاله وما يترتب على ذلك من الطّبع، والحتّم، والرّان.

• والله يضل من يشاء بما تقتضيه حكمته، وإذا كنتم تعترضون على مشيئة الله المطلقة، فهل تتصورون إنها يحدث في ملكه ما لا يشاؤه؟! فهل يصلح للألوهية إله يرغب على فعل لا يريد^(١)؟! لكن هذه مشيئة الله الكونية العامة التي قد لا توافق مشيئته الشرعية، فهو تعالى يشاء شرعاً ما لا يشاؤه قدرّاً، ويشاء قدرّاً ما لا يشاؤه شرعاً، وهي مسألة دقيقة زلت فيها أفهام كثيرة.



الشبهة الحادية والثلاثون

ادعاء أن إهمال الله ﷻ العصاة إغراء لهم بالمعصية^(*)

مضمون الشبهة:

يفهم بعض المغرضين خطأ أن إهمال الله ﷻ للعصاة في الدنيا، وعدم التعجيل بعقابهم إهمال وليس إهمالاً. ويتساءلون: أمن الحكمة أن تؤجل عقوبة المخطئ لأمد، أم يُعجل بها فيتعظ به الآخرون؟!

وجوه إبطال الشبهة:

(١) الدنيا دار عمل وابتلاء، وليست دار ثواب وعقاب.

(٢) إهمال الله ﷻ للعاصين وليس إهمالهم - سنة من سنن الله تعالى في خلقه، وله في ذلك الحكمة البالغة.

(٣) قد يعجل الله تعالى العقاب والأخذ لبعض

١. المفيد في علم التوحيد، د. حبيب الله حسن، مرجع سابق، ص ١٩١.

(*) بين الدين والحياة في رحلة قطار، د. عبد الحليم حفني، الهيئة العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٤ م.

فالدنيا دار امتحان للعباد، فأما من زكى نفسه وحضها على الطاعة ونهاها عن المعصية فقد فاز بالآخرة، وأما من أتبع نفسه هواها، وأعطاه كل ما تأمر به وتشتيه فقد خسر خسراناً مبيئاً.

ولقد أرسل الله الرسل للناس ليعلموهم الخير ويأمرهم به، وينهوهم عن الشر ويحذرونهم منه؛ حتى لا يأتي أحد يوم القيامة بحجة يحتج بها، وحتى يظهر الله تبارك وتعالى عدله أمام الخلق جميعاً، ولا يظلم ربك أحداً.

ثانياً. إمهال الله للعصاة من سنته في خلقه :

ولو شاء الله أن يهدي الناس جميعاً لفعل، ولو شاء أن يُنزل على كل عاص بمجرد معصيته صاعقة من السماء أو عذاباً يهلكه على الفور لفعل، ولكن الله تعالى لا يعجل بعجلة أحد؛ وعليه فقد ترك للإنسان التفكير في أمر نفسه بنفسه، بعد أن وفر له كل الوسائل التي تردعه عن المعصية؛ ليعود إلى رشده تاركاً المعصية عائداً إلى الطريق القويم باختياره.

فقد أعطاه العقل الذي يميز به بين الخير والشر، والنافع والضار، ولو تأمل الإنسان أمر المعاصي وعواقبها لعلم أنها ضارة له في دنياه فضلاً عن آخرته، ومع ذلك بعث الله ﷺ إليه الرسالات السماوية التي فيها الأمر بالطاعات، وأوضح له عواقب المعاصي في الغابرين كي يعتبر، ووعد بالجزاء ثواباً على الطاعة وعقاباً على المعصية، وأظهر له بعض حقائق ونماذج المثابين والمعاقبين ترغيباً وترهيباً.

فليس لأحد حجة - بعد ذلك - على الله، ثم هو فتح له باب التوبة، وقرب التائبين إليه، أما لو عاقب الله

العصاة، كما فعل في قوم عاد، وثمود وفرعون؛ ليكون فيهم عبرة وعظة لمن خلفهم.

(٤) من رحمته تعالى أن جعل هناك موانع تحول دون نزول عذابه وعقابه للخلق، أو ترفع ذلك العذاب إذا نزل.

التفصيل :

أولاً. الدنيا دار عمل وابتلاء، وليست دار ثواب وعقاب :

وهي لا تصلح أن تكون دار ثواب وعقاب؛ لأنها مخلوقة، ملعونة وملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالمًا أو متعلمًا كما أخبر النبي ﷺ^(١).

وقد أخذ الله على نفسه عهداً بأن يوم القيامة هو يوم الحساب، ومن أصدق من الله حديثاً؟

وقد حذرنا الله تعالى من الدنيا وذكر أنها لعب وهوى، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ (محمد: ٣٦)،

وقال ﷺ: ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ ﴾ (الحديد: ٢٠)، وفضل الله ﷻ الآخرة

وجعلها هي الباقية: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ ﴾ (١٦)

وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۖ ﴾ (الأعلى)، وقال ﷺ: "إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء"^(٢).

١. حسن: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا (٤١١٢)، والترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب هوان الدنيا على الله ﷻ (٢٣٢٢)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٧٤).

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء (٧١٢٤).

تعالى كل عاصٍ على معصيته لمنعهم من المعاصي ما ترك على ظهر الأرض من دابة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ۝١٥﴾ (فاطر)، وقال الله ﷻ: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيِلًا ۝٥٨﴾ (الكهف)، وفي سورة العنكبوت يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ (العنكبوت: ٥٣)، وقال ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ۝٤٢﴾ (إبراهيم).

ولقد أنظر الله تعالى إبليس، وهو أشد الخلق معصية لله تعالى، ومع ذلك لم يهلكه وهو قادر على أن يلقيه في النار دفعة واحدة.

يقول الشيخ الشعراوي - رحمه الله - في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ۝٣٦﴾ (الحجر): هنا تضاعف إبليس، ولو كان يملك من الأمر شيئاً لتصرف بذاتية قوته، ولكنه اتجه إلى الله يطلب منه أن يبقيه حتى يوم القيامة، إلى أن تقوم الساعة، ثم بعد ذلك يفعل به ما يشاء، وفي هذا نرى أن القوة لله جميعاً، وأن إبليس لا يستطيع أن يبقى نفسه يوماً واحداً على قيد الحياة، أو ينجي نفسه يوماً واحداً من العذاب^(١).

١. دائرة معارف الفقه والعلوم الإسلامية، محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، ط ١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م، ج ١٠، ص ٥١٣.

فمن حكمته سبحانه أن أنظر وأمهل إبليس إلى يوم القيامة ابتلاء واختباراً للعباد به، وأنظر العصاة ولم يأخذهم بغتة حتى يشهد عليهم البشر والشجر والحجر، ولا تكون لهم حجة أمام الله تعالى. وأنظر بعض خلقه وأمهلهم حتى يتوبوا إليه ويرجعوا عما هم عليه من الطغيان، وكم رأينا من هذا الصنف في زماننا، والله الحمد والمنة.

ثالثاً. تعجيل الله تعالى العذاب لبعض الأمم:

قد يعجل الله ﷻ العقاب والأخذ لبعض العصاة، كما فعل في قوم عاد وثمود وفرعون؛ ليكون فيهم عبرة وعظة لكل من خلفهم، وهذا من سنن الله تبارك تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (يوسف: ١١١). ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾ (هود).

ولقد أنزل الله تعالى بأسه بقوم فرعون لما طغوا وتجبروا، وكذبوا الرسل: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْدَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَعَوْا فِي آلِئَلْدِ ۝١١ فَأَكْرَمُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾ (الفجر). وقال ﷻ في شأن قوم ثمود وعاد: ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَينَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَفَرَّى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَارٌ نَحْلٌ خَاوِيَةٌ ۝٧ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ (الحاقة).

ولقد حضنا الله ﷻ على التفكير والتدبر في مصير الأمم الهالكة سلفاً، حتى لا نفع فيما وقعوا فيه، فيحل

ومن رحمته - أيضًا - أن شرع لنا صلاة الاستسقاء، حتى إذا أجذبت الأرض، وأوشكت الأنعام والحراث على الهلاك، خرج الناس إلى الخلاء متضرعين إلى الله تعالى أن يرفع هذا البلاء فينزل المطر بإذن الله، بفضل دعاء الناس، والتوبة والرجوع إليه سبحانه، والوعد المطلق بالإجابة في دعاء المؤمنين، ودعاؤهم لا يرد، فإما أن يعطوا ما سألوا، أو يدخر لهم خيرًا منه، أو يدفع عنهم من سوء بقدره (٣).

الخلاصة:

- إن إمهال الله ﷻ لعباده وعدم تعجيل العقوبة لهم إنما هو لحكمة إلهية؛ ففي الإمهال أمل في رجوع الظالم عن ظلمه، والطاغي عن طغيانه، وفيه أيضًا أنه سبحانه يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، وفيه استدراج للعصاة والمتجبرين وإقامة للحجة عليهم أمام الناس، حتى لا يكون لهم حجة عند الله يوم القيامة.
- الدنيا دار عمل لا دار جزاء، وقد عجل الله تبارك تعالى لبعض عباده العقوبة في الدنيا، كقوم عاد وثمود وفرعون وغيرهم ممن أهلكهم ﷻ، والنار تنتظرهم في الآخرة حيث دار الجزاء، وجعل في إهلاكهم عبرة لمن يأتي بعدهم، حتى يرجع الضال إلى صوابه، ويتنبه الغافل من غفلته، فجعل في قصصهم عبرة لأولي الألباب.

- ومع كل ذلك فقد جعل تبارك وتعالى، موانع تحول بين البلاء أو العذاب وبين نزوله على العباد، ويين ما يردده وما يجلب رحمته تعالى، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفُتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ

بنا ما حلَّ بهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ ۝١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۝١٦﴾ (القمر). وقال: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۝١٨ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَّحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنَزَّعُ النَّاسُ ظَنَنِهِمْ آعْجَازًا فُجِّلَ مُنْفَعِرٍ ۝٢٠ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۝٢١﴾ (القمر)، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ أَلَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥﴾ (الكهف).

فكل الأمم الهالكة، التي قصصها علينا القرآن الكريم، إنما أراد الله تعالى أن ينبهنا إلى شؤم المعاصي والتكذيب؛ رحمة منه بنا وحماية لنا من الهلاك، وهذا من تمام كرمه وفضله ورحمته بأمة الإسلام.

رابعًا. ما يرفع عقابه ﷻ أو يمنعه:

ومن رحمة الله ﷻ أن جعل هناك موانع تحول دون نزول العذاب والعقاب على الخلق.

فقد يرفع الله تعالى العقاب النازل على العباد بفضل دعاء عبد من عباده، وفي الأثر: إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل - أي من العقوبات - فعليكم عباد الله بالدعاء (١). وقال ﷻ: "لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر" (٢).

١. حسن: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ (٣٥٤٨)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٦٣٤).

٢. حسن: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب القدر، باب لا يرد القدر إلا الدعاء (٢١٣٩)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٣٦) برقم (٨٣٢)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٤).

٣. أضواء البيان، الشنقيطي، مرجع سابق، ج ١، ص ١٠٤.

الأرض وعمارها.

التفصيل:

أولاً. العقيدة الإسلامية مظهر للعدل الإلهي:

لله ﷻ وحده صفات الكمال ومن هذه الصفات العدل، فلا تجد كتاباً يصف الله تعالى بصفات الكمال والعدل مثل القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنعام)، وقال ﷻ: ﴿مَا يَدُلُّ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ (ق). وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (الكهف: ٤٩).

وفي الحديث القدسي: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا"^(١). ومن أسمائه الحسنی العدل والمقسط.

والحق أن المعتقد الإسلامي في ذلك بمنأى عما تورطت فيه العقائد الأخرى، ومنها ما له أصل سماوي، فإذا كانت التوراة تنسب إلى الله ﷻ أنه يمدُّ عذابه إلى الجيل الثالث والرابع، وكانت النصرانية إنما تقوم على فكرة الفداء، وأن الله - بزعمهم - قد أرسل على العالم ابنه الفادي ليتحمل عن بني آدم وزر خطيئة أبيهم الأولى، إذا كنا نجد ذلك وهذا في التوراة والإنجيل فلسنا واجدين من ذلك شيئاً فيما يأخذ به المسلمون من عقائد^(٢).

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٦٧٣٧).

② في "دفع التعارض بين العدل الإلهي والقدر" طالع: الوجه الخامس، من الشبهة الثانية والعشرين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

وَالْأَرْضِ ﴿ (الأعراف: ٩٦)، وذلك كالدعاء الذي يرفع به القضاء والعذاب قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: ١٨٦). وقال الرسول ﷺ: "لا يرد القضاء إلا الدعاء".



الشبهة الثانية والثلاثون

ادعاء أن خروج آدم من الجنة كان عقاباً لذريته^(*)

مضمون الشبهة:

يدّعي بعض المغالطين أن إخراج آدم ﷺ من الجنة إنما كان عقاباً لذريته من بعده، وقد تحملت هذه الذرية خطيئة أبيها القديم على غير جريرة^(١) منها. وكأن هؤلاء يرمون الفعل الإلهي بالظلم، أو يقاربون بين فكرة الإسلام عن هبوط آدم إلى الأرض، وفكرة الفداء عند النصرانية، بجمع اشتراك الذرية في الحاليين في تحمل وزر الخطيئة الأولى.

وجها إبطال الشبهة:

(١) القرآن الكريم يصف الله بالعدل، ويصفه بكل صفات الكمال.

(٢) إخراج آدم من الجنة، وذريته بالطبع ليس عقاباً لهم على معصية آدم، إنما مقصد خلق آدم هو خلافة

(*) حتى الملائكة تسأل: رحلة الإسلام إلى أمريكا، د. جيفري لانغ، مرجع سابق.

١. الجريرة: الجناية والذنب.

ثانياً. خروج آدم من الجنة له دلالة ومغزاه:

إن هذا الفهم فاسد لا وجود له في الإسلام؛ فليس في الإسلام خطيئة موروثية، بل الإنسان حرٌّ في اختياره، وهو وحده مسئول عن عمله، قال الله تعالى: ﴿أَلَا نَزَرُ وَأَزْرُهُ وَزَرَ آخَرَىٰ ۖ﴾ (٣٨) وَأَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْآوْفَىٰ (٤١) ﴿ (النجم)، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الإسراء: ١٥)، فعقيدة النصارى الفاسدة هي التي تقول بالخطيئة الموروثة.

والله ﷻ أيضًا يعامل خلقه بفضله وكرمه لا بعدله، فقد يُكرم الولد لصلاح أبيه أو جده في حين أنه لا يعذبه ويخزيه بذنب أبيه أو جده، وحسبنا في ذلك قول الله ﷻ: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ (الكهف: ٨٢).

والله ﷻ لم يظلم آدم ﷺ عندما أخرج من الجنة، ولكن آدم هو الذي ترك طاعة ربه بأكله من الشجرة، والذي كان سبباً لخروجه من الجنة وما ظلمه ربه، وهذا أمر قدّره الله تعالى عليه قبل أن يخلقه.

فقد أخبر الله ﷻ الملائكة قبل أن يخلق آدم قائلاً: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، ومن قال: إن الخير للإنسان أن يكون في الجنة من غير أن يسبق ذلك عمل يقدمه؛ ليشعر بقيمة ما بيده.

إننا إذا ذهبنا في الافتراضات؛ فإننا لا نجد أحكم ولا أعدل ولا أنسب من هذا الافتراض الذي كان، وهو أن الإنسان الحرَّ المختار قدّر الله أن يعيش على هذه الأرض كما يعيش عليها باقي أفراد جنسه من بني آدم

فيعمل ويعمل غيره فيتفاوتون في الأعمال، وينتج عن هذا التفاوت الجزاء يوم الجزاء. وهذا محض عدل إلهي محكم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال العقاد: "العقيدة الإلهية في الإسلام هي أكمل عقيدة في العقل، وهي أكمل عقيدة في الدين" (١).

"إن الخطيئة في التصور الإسلامي - خطيئة فردية والتوبة فردية، في تصور واضح بسيط لا تعقيد فيه ولا غموض، فليست هناك خطيئة مفروضة على الإنسان قبل مولده - كما تقول الكنيسة - وليس هناك تكفير لاهوتي؛ كالذي تقول الكنيسة به عن عبد الله ونبيه عيسى ﷺ - ابن الله بزعمهم - حيث تدّعي ظلمًا وزورًا أن الله قام بصلبه، تخليصًا لبني آدم من خطيئة آدم.. كلا!

فخطيئة آدم كانت خطيئته الشخصية، والخلاص منها كان بالتوبة المباشرة في يسر وبساطة وخطيئة كل ولد من أولاده خطيئة - كذلك - شخصية، والطريق مفتوح للتوبة في يسر وبساطة.. تصور مريح صريح يُحمّل كل إنسان وزره، ويُوحي إلى كل إنسان بالجهد والمحاولة وعدم اليأس والقنوط.. ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَجِيمٌ﴾ (الحجرات) (٢) ®.

الخلاصة:

- الإسلام لا يصف الله إلا بكل صفات الكمال،

١. الفلسفة القرآنية، عباس محمود العقاد، دار السلام، القاهرة، د. ت، ص ١٠٧، ١٠٨.

٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج ١، ص ٦١ بتصرف.

® في "العدل الإلهي وورثة خطيئة آدم" طالع: الوجه الخامس، من الشبهة الرابعة، من الجزء التاسع (الأنبياء والرسول).

مهذبة للوجدان عن أحد من متبعيها.

وجوه إبطال الشبهة:

(١) ثبت لله ﷻ جميع صفات الكمال، فهو غني عن خلقه، وهم فقراء إليه، لا تزيد عبادتهم في ملكه شيئاً، ولا تنقص معصيتهم منه شيئاً.

(٢) تصور صفات الأعراض البشرية لله تعالى تصور وثني ساذج للإله.

(٣) التناول على الله ﷻ برميه بالبخل قول ساذج لا يصدر عن عقل سليم.

التفصيل:

أولاً. ثبوت الكمال لله ﷻ وافتقار المخلوقات إليه :

إن أكمل عقيدة عرفها دين، وأكمل عقيدة عرفها عقل هي العقيدة الإسلامية في الله تعالى، فهو ﷻ منزّه عن مشابهة شيء من خلقه في ذاته وفي صفاته، فلا هو يشبه خلقه فيما يتصف به، ولا خلقه يشبهونه، والخلق كلهم محتاجون إليه، وهو غني عنهم جميعاً.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿الْضَّكُّمُ﴾ أي: الكامل في صفاته، الذي افتقرت إليه جميع مخلوقاته، فكلمة ﴿الضَّكُّمُ﴾ كلمة جامعة لجميع صفات الكمال لله ﷻ، وجامعة لجميع صفات النقص في المخلوقات، وأنها محتاجة إلى الله ﷻ^(١)، كما قال سبحانه: ﴿يَتَأَيَّأُ النَّاسُ أُنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر).

® في "تعدد الصفات الإلهية دليل على كمال الله" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثامنة والثلاثين، من هذا الجزء.

١. شرح العقيدة الواسطية، محمد صالح العثيمين، مرجع سابق، ج ١، ص ١٦١، ١٦٢.

ومنها صفة العدل، وقد دعا إلى العدل وأمر به قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ (النحل: ٩٠)، فكيف يأمر الله تعالى به ويصفه جاهل بالظلم، وكيف يحرم الظلم على نفسه وهو قد ظلم عباده؟ فقال: "إني حرّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا".

• وما صارت الأرض مستقرّاً لذرية آدم ﷺ من بعده إلا لحكمة الله ﷻ في جعل الأرض لهم مستقرّاً ومتاعاً إلى حين، يعمرونها ويكونون خلفاء عليها، ثم يجزي كل محسن بإحسانه وكل مسيء على إساءته يوم الجزاء.



الشبهة الثالثة والثلاثون

إسناد صفات النقص إلى الله ﷻ (*)

مضمون الشبهة:

قد جرى كثير من طوائف أهل الكتاب الدينية تبعاً لنصوص محرّفة يثبتونها على نسبة صفات مظاهر الضعف البشري من البكاء والندم والمرض إلى الله ﷻ، وحين دعا الإسلام إلى الصدقة؛ ابتغاء مرضاة الله سخرت اليهود وقالت: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ (آل عمران: ١٨١). وهذا التصور لصفات الإله ينحطّ بالعقيدة الدينية كلها عن أن تكون هادية للضمير أو

(*) حتى الملائكة تسأل: رحلة إلى الإسلام في أمريكا، جيفري لانغ، مرجع سابق. العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع، د. أحمد بن عبد الله بن إبراهيم الزغبى، مكتبة العبيكان، الرياض، ط ١، ١٩٩٨ م.

والله ﷻ ما أمر المكلفين بعبادته لحاجته إليهم، ولكنه أمرهم بعبادته لحاجتهم إليه، ولعلمه تعالى أنهم لو تركوا عبادته وطاعته سيضلون الطريق، وسيعبدون من دونه ما لا ينفع ولا يضر، وستشعب بهم طرق الضلالات، وهذا ما يشهد به الواقع ويؤيده التاريخ.

فالذين يتركون عبادة الله وطاعته ويعبدون إلهًا غيره أو معه، يعيشون في ظلمات الحيرة، ويتخبطون في دياجير^(١) التيه والضلال، وقد نفى الله حاجته إلى الخلق فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) (الذاريات).

يقول الله تعالى في الحديث القدسي: "يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا..." الحديث^(٢).

فالله تبارك وتعالى لا تنفعه طاعتنا، ولا تضره معصيتنا، قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ (الزمر: ٧). والله تبارك وتعالى لا يستفيد من عذابنا: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ (النساء: ١٤٧).

فإذا كان الله ﷻ غني عن عباده، لا تنفعه عبادتهم وطاعتهم، ولا تضره معصيتهم، فكيف نصف الله ﷻ

بما وصفه به هؤلاء من صفات النقص؟

إن بالإنسان حاجة إلى الاعتقاد، كجوع المعدة إلى الطعام، فإما أن يسد حاجته في اعتقاد صحيح عن طريق الإيمان بالله الواحد الذي يستحق وحده العبادة؛ لتفرد بالخلق والتدبير، وهو سبحانه بعبادة العباد له يعطيهم ولا يأخذ منهم، ويحررهم من عبادة غيره ممن سخره الله تعالى له، وهو عبد مربوب مثله، والإنسان بطبيعته إن لم يلجأ إلى الله ﷻ بالتوحيد والعبادة، فإنه يلجأ إلى سد حاجته من الاعتقاد في معبودات فاسدة ليست أهلًا لأن تعبد، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ (يونس: ١٨).

إن سجدة واحدة لله وحده تحرر صاحبها من آلاف السجادات لغيره، فالله وحده الذي يعبد؛ لأنه وحده - دون سواه - المستحق للعبادة، وطاعة غيره فيها نفع من المطيع للمطاع، وطاعته سبحانه وحده فيها النفع - كل النفع - للمطيع، فهي تنفعه في الدنيا والآخرة.

ثانيًا. تصور صفات الأعراض البشرية لله تعالى ما هو إلا تصور وثني ساذج للإله :

هذه النظرة لله تعالى تعتمد فيها الثقافة الغربية على روايات الكتاب المقدس، ففي أسفار العهد القديم تتكرر هذه الأوصاف للإله، بل إن هذه الأسفار - كما ينقل - صفات المخلوقين بكل ما فيها من نقائص إلى الإله؛ فإنها في المقابل لا تتورع عن أن تجعل من بعض الخلق آلهة، ولا مانع في هذه الأسفار من أن يكون الأنبياء صنًا لأصنام.

فهذا الخلط بين الإله وصفات الألوهية بكل كمالاتها وتماها، وبين الخلق وصفات المخلوقين بما فيها

١. الدياجير: جمع الديجور، وهو شدة الظلمة.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٦٧٣٧).

من نقائص انعكس على تصور المؤمنين بهذه الأسفار للإله الحق.

يضاف إلى ذلك عامل آخر، وهو إرث الحضارة الغربية من الثقافة اليونانية التي تمتلئ بالوثنية والتعدد في الآلهة، وأنهم أشبه ما يكونون بحكام المقاطعات الذين يتصارعون على التوسع، ويتنافسون على ابتلاع كل ما في يد الآخر.

وإذن فقد ورثت الثقافة الغربية في جانب الألوهية انحرافين كبيرين:

أحدهما: يعود إلى التصورات الإغريقية الشعبية عن الآلهة، أو هذه التصورات ذاتها بعد أن صقلت بعبارات فلسفية.

والثاني: تراث العهدين، القديم والجديد، والإله فيهما يتعب ويستريح، ولا يستأني في أوامره فتبدوله البدوات فيندم، ثم يبكي حتى ترمد عيناه، وتعوده الملائكة، وقد يصادفه بعض خلقه فيصرعه.

ثم جاءت النصرانية فتقربت - بعد اضطهاد طويل - إلى الوثنيين في رومة بضرب من المساهلات والمساخنة في جانب العقيدة، حتى لقد قيل: إن رومة لم تنتصر وإنما النصرانية تروّمت، أي هي التي ورثت عقائد رومة.

وهذا التراث المضطرب الذي ورثه الغربيون يمثل دافعاً قوياً لمذاهب الإلحاد والتنكر للقيم الدينية، وهو - كذلك - دافع قوي للمسلمين المعاصرين لأن يتقدموا بدينهم وتصورهم الاعتقادي بديلاً عن ذلك التراث الغربي، وهادياً للحضارة الحديثة[®].

® في "مقام الألوهية في التوراة" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

ثالثاً. إذا كان الله - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً - بخيلاً، فما هذا العيش الطيب الذي نحن فيه منذ خلق الله السماوات والأرض؟

ادعاء أن الله ﷻ بخيل قول قديم قالته اليهود لرسول الله ﷺ، ويظهر أنهم قالوه ساخرين من دعوة الإسلام على الصدقة، وإلا فلا يتصور أن يقال هذا على سبيل الجدِّ، وقد رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (المائدة: ٦٤)، والبسط ضده القبض، والبسط دلالة على الكرم، والله هو الواسع الفضل، الجزيل العطاء، الذي ما من نعمة بخلقه إلا منه وحده: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (النحل: ٥٣) الذي أوجد كل شيء مما يحتاج إليه خلقه في جميع الأحوال، قال ﷻ: ﴿وَأَنْتُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ (إبراهيم: ٣٤).

وإن تضيق الله ﷻ على بعض عباده ليس أمانة على مقتته وبغضه، وإنما هو ابتلاء وامتحان منه ﷻ لينظر عباده وكيف يصنعون، والنظر السديد على مثل هذا التضييق إنما يكون بملاحظة الفاعل الحكيم، وإذن لأدرك القلب حكمة ما هو فيه من رقة حال وطمأنينة. وهذا الاتهام لرب العالمين والتطاول عليه تعالى كما يُظهر جرأة صاحبه على خالقه، يظهر كذلك ضيق أفقه، وقلة عقله. فهل ضاق كرم الله تعالى بأحد من خلقه؟ إنسان، أو حيوان، أو نبات؟ فالشمس ترسل أشعتها للكون كله والهواء يستنشقه جميع خلقه، والماء في متناول الجميع لا تمطر السماء للأغنياء وترك الفقراء، وقُل ما شئت من مظاهر نعم الله على الخلق جميعاً، فإنك لن تصل إلى نهاية. فما أكثر عطاء الله تعالى لخلقته، وما

أسبغ نعمه عليهم، وما أضيق هذا التفكير الساذج[®].

الخلاصة:

• **الله** ﷻ كل صفات الكمال، ولا يوصف الله ﷻ بصفة نقص واحدة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى)، أمر عباده بطاعته وتوحيده، وهو غني عنهم، وسهل ومهد لهم الأرض، وأمرهم بالسعي فيها، وأسبغ عليهم نعمًا ظاهرة وباطنة، وترك لهم الخيار بين الشكر والكفر، والضلالة والهدى، ودعاهم إلى الهدى والشكر؛ حماية لأنفسهم ونفعًا لها، ونجاة لها من المهالك، فإنه لا تنفعه طاعة عباده، ولا تضره معصيتهم.

• ويده مَلَأَى سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أرأيت ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض؟ هل نقص ذلك مما عنده؟ فهو سبحانه لم يزل غنيًا عن خلقه، وخلقه دائمًا فقراء إليه: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر).



الشبهة الرابعة والثلاثون

ادِّعاء وصف الله تعالى بالمكر والخداع (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغرضين أن الله تعالى يتصف ببعض

® في "رد القرآن على اليهود في وصفهم الله بالبخل والفقير" طالع: الشبهة الثانية عشرة، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

(*) هل القرآن معصوم؟ عبد الله عبد الفادي، موقع إسلاميات.

صفات النقص البشرية، كالمكر والخداع، مستدلين على زعمهم هذا بقوله ﷻ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ

الْمَكْرِينَ﴾ (الأنفال)، وبقوله تعالى في المنافقين: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ (النساء: ١٤٢).

وجه إبطال الشبهة:

هذه الأفعال أطلقها الله تعالى على نفسه على سبيل الجزاء العدل، والمقابلة، وهي فيما سيق في مدح وكمال، لكن لا يجوز أن يشتق منها أسماء ولا تطلق عليه ﷻ في غير ما سيق له من آيات.

التفصيل:

لقد فهم البعض خطأ الآيات التي توهم وصف الله تعالى بصفات نقص:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ (الأنفال)، والمكر - في أصل معناه - هو نوع من الشجر، فروعه ملتفة بعضها حول بعض، بحيث لا تستطيع أن تنسب ورقة منها إلى أصلها من الفروع، من كثرة الالتفاف والكثافة، والمكر من الرجل يعني: المراوغة، والمكَّار: هو الرجل الذي يراوغك في معاملتك، فأما إذا كانت مراوغته ليعلم حقيقة من الحقائق، فهي الحيلة، وليست المكر؛ كالقاضي الذي يكثر من الأسئلة على المتهم ليصل إلى الحقيقة، وإن كانت المراوغة بقصد الضرر فهي المكر، وإن كانت لغير الضرر فهي الحيلة: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ (فاطر: ٤٣)، إذن فهناك مكر حسن، ومكر سيئ.

وقد يكون المكر مدحًا، كما أنه يكون ذمًا، فإن كان المكر في مقابلة من يمكر فهو مدح؛ لأنه يقتضي أنك

أنت أقوى منه، وإن كان في غير ذلك فهو ذم ويسمى خيانة.

فالمكر يكون من الضعيف؛ لإخفاء نيته، فقد يظهر الحب وهو مبغض، ويريد أن يزين لك عملاً ليمكر بك، فيزين لك - مثلاً - أن تخرج معه إلى مكان ما، ويزين لك محاسن المكان؛ ليشجعك على الخروج إليه، ومن ثم تقع في الفخ الذي نصبه لك.

والقوي حين يظفر بخصمه، فمن الممكن أن يطلقه؛ لأن قوته تستطيع اللحاق به في أي وقت، أما الضعيف فحين يملك قوياً فإنه يقول: هذه فرصة لا تتكرر، ولو لم يكن ضعيفاً لواجه خصمه دون مراوغة ومكر.

ومن يمكر يظن أن من أمامه لا يستطيع أن يمكر، فإن علم منه العقل والذكاء لم يمكر عليه، وما دامت المسألة تبييناً، فمعناه: أن تعلم شيئاً يخفى على الغير، فإذا أراد خصوم المنهج الإلهي أن يمكروا، فعلى من يمكرون؟ هل على الرسول وحده في المعركة، أم على الله ﷻ وهو القاهر فوق عباده: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾ (النساء: ٨١).

والله تعالى حين يبيت لهم شيئاً، فلن يستطيعوا أن يكشفوه: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ﴾ (آل عمران)، وإذا جاء الوصف بهذه الصياغة في هذا السياق، فاعلم أنه جاء للمشاكلة، فما دام هذا مكرًا وتبيينًا منكم، فالله تعالى يمكن أن يفعل ما تفعلونه دون أن تفتنوا إليه.

وأسماء الله ﷻ، توقيفية، فإذا وجدت فعلاً من أفعال الله تعالى في القرآن فليس بالضرورة أن يشتق منه صفة له تعالى، ودع الفعل يقابل الفعل من أفعال البشر.

فحين يقول الله ﷻ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ

خَيْرُ الْمَكْرِينِ﴾ (الأنفال) أو يقول في المنافقين: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ (النساء: ١٤٢)، فإياك أن تقول إن من أسماء الله تعالى الماكر، أو المخادع، فإذا رأيت فعلاً من الله جاء في مقابلة فعل من البشر؛ ليدلهم على قصور أفعالهم، بالنسبة لأفعاله، فاعلم أنه جاء للمشاكلة فقط، ليدلهم على أنهم لا يستطيعون أن يخدعوا الله ولا أن يمكروا به؛ لذا فلا يجوز أن نشق منه وصفاً، بل يظل الفعل فعلاً كما هو.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿خَيْرُ الْمَكْرِينِ﴾، أي: أقواهم في المكر، وأنفذهم للكيد، وأقدرهم على إيصال الضرر.

والآيات الدالة على المكر هي: قوله الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ﴾ (٥٤) ﴿آل عمران﴾، وقول الله تعالى: ﴿وَمَكُرُوا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٠) (النمل) وقوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ﴾ (٣٠) وهذه الآيات نزلت طمأنينة للمؤمنين، ودفعاً للمشركين والمنافقين واليهود، فالآية الأولى: نزلت لما اشتد مكر اليهود بعيسى ﷺ حين أرادوا قتله أو صلبه، فألقى الله شبه عيسى على الرجل اليهودي الذي دهم على مكانه؛ فصلبوه ظناً منهم أنه عيسى، وقد رفع الله تعالى عيسى إليه، وطهره من رجسهم، وهذا مكر لا غضاضة فيه: ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ﴾ (٥٤) ﴿آل عمران﴾.

والآية الثانية: قد نزلت في التسعة من أهل مدينة سيدنا صالح ﷺ الذين أرادوا أن يقتلوه ليلاً، فإذا

عنه، فهذه الأسماء ليست ممدوحة مطلقاً، بل تمدح في موضع وتذم في آخر، فينبغي - لذلك - أن تقيّد بمواضع ورودها في كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ.

الخلاصة:

- المكر من العباد مراوغة وخداع للوصول إلى أهدافهم الخبيثة، وأما المكر من الله فهو من باب المشاكلة والمقابلة؛ ليكشف لهؤلاء المعاندين ضعفهم وقصورهم في التدبير والمكر.

- قد يكون المكر مدحاً إذا كان من باب المقابلة والمشاكلة "الجزاء من جنس العمل"، وقد يكون ذمّاً إذا كان من باب المراوغة لإلحاق الضرر بالآخرين، ومكر الله ﷻ من باب المشاكلة والمقابلة.

- وهذه الأفعال مقيدة بمواضع ورودها في سياقاتها، ولا يشتق منها لله ﷻ أسماء، فلا يقال: ماكر، وناسٍ، ومخادع؛ إذا لم ينعت نفسه بذلك بإطلاق، بل ذلك مقيّد في حقه على سبيل المقابلة لأفعال بعض عباده جزاءً لهم.



الشبهة الخامسة والثلاثون

ادعاء نسبة صفات الحوادث إلى الله ﷻ (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن القول بأن الله في السماء مستوٍ على العرش، ينزل إلى السماء الدنيا - كما أخبر (*) هل القرآن معصوم، عبد الله عبد الفادي، موقع إسلاميات.

طلع النهار قالوا: ما شهدنا مهلك أهله، وخرجوا ليقتلوه ﷺ، ولما كانوا بالطريق لجئوا إلى غار ينتظرونه فيه بالليل، فانطبق عليهم، فهلكوا، ونبي الله تعالى صالح ﷺ وأهله لم يمسه أي سوء، ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ (النمل).

والآية الثالثة: نزلت في تدبير المشركين لسيدنا محمد ﷺ أو قتله أو إخراجه، فجاءهم إبليس في صورة رجل نجدي، فقال لهم: انتخبوا عشرة شبان من قبائل قريش، وأعطوا كل واحد منهم سيفاً، ثم ليعمدوا إلى بيت محمد ﷺ فيضربوه ضربة رجل واحد، فيضيع دمه بين القبائل فلا تستطيع بنو هاشم أخذ ثأره، ويقبلون الدية، وتسلمون منه. فقالوا: نعم هذا الرأي! وأجمعوا على ذلك.

فهم يمكرون، والله تبارك وتعالى يمكر بهم، وهو تعالى خير الماكرين: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ (الأنفال).

وقد تقدم أن هذه الأفعال هي فيما سقت فيه مدح وكمال، لكن لا يجوز أن يشتق لله ﷻ منها أسماء، ولا تطلق عليه في غير ما سقت فيه من آيات، منها: ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ (آل عمران)، وقول الله تبارك وتعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ (التوبة: ٦٧)، وقوله ﷻ: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ (البقرة: ١٥)، فلا يجوز أن يطلق على الله ﷻ لفظ ماكر، أو ناسٍ، أو مستهزئ، أو مخادع، أو نحو ذلك مما يتعالى الله

النبي ﷺ - يقتضي نسبة الجهة والإشارة إليه، وهي من صفات الحوادث.

وجوه إبطال الشبهة:

(١) الإيمان بصفات الله تعالى مؤسس على قواعد وأصول عامة مستنبطة من الكتاب والسنة.

(٢) حقيقة استوائه ﷻ على العرش معلومة من الكتاب والسنة، وهي أن العرش فوق السماء السابعة، والله فوق العرش.

(٣) الله ﷻ مُنَزَّهٌ عن الحوادث، وعن مشابهة الخلق، وعن أن يحصره مكان أو جهة.

التفصيل:

أولاً. قواعد الإيمان بصفات الله ﷻ:

١. تنزيه رب السماوات والأرض عن مشابهة الخلق، دل على ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (النورى: ١١)، وقوله ﷻ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ (مريم: ٦٥)، وقوله ﷻ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص).

٢. إثبات صفات الله تعالى ﷻ التي أثبتتها لنفسه وأثبتها له رسوله ﷺ، ودل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ بعد قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

٣. قطع الطمع عن إدراك حقيقة كيفية هذه الصفات؛ لقوله: ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ (طه).

قال نعيم بن حماد، شيخ البخاري: "من شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه أو

وصفه به رسوله كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله تشبيه ولا تمثيل" (١).

وقال الإمام الشافعي: "آمنت بالله، وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله" (٢).

قال الإمام ابن تيمية: مذهب السلف في هذا الباب واضح كغيره من الأبواب، وهو وسط بين التشبيه (٣) والتعطيل، وهو تسليم لله ورسوله وإيماناً بنصوص الصفات من الكتاب والسنة، وعدم التعرض لها بالتأويل بحيث تكون تلاوتها تفسيرها، ولا يحاولون إدراك حقيقتها؛ لأن ذلك علم استأثر الله به، ولا تؤهم عندهم تشبيهها ولا تجسيماً، بل هي تدل على الحقائق التي تليق بالله، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ (طه)، وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ (٢٥) (مريم).

كانوا ينزهون الله تعالى على ضوء هذه النصوص ولا يكادون يفهمون من الإثبات التشبيه، ولا من التنزيه التعطيل، هذه هي القاعدة عندهم، إثبات بلا تشبيه، وتنزيه بلا تعطيل. وإنما لجأ أهل الكلام إلى التعطيل (٤)

١. أخرجه الذهبي في العلو للعلي الغفار، ص ١٧٢، وصححه

الألباني في مختصر العلو، ص ٧٥.

٢. ذكره ابن قدامة في لمعة الاعتقاد، ص ٤.

٣. التشبيه: مذهب مَنْ يُثَبِّتُونَ لله الصفات، ويقولون: يجب أن تُثَبِّتَ لله الصفات؛ لأنه أثبتتها لنفسه، لكن يقولون: إنها مثل صفات المخلوقين.

٤. التَّعْطِيلُ: مذهب يُكْبِرُ أصحابه صفات الله ﷻ.

والتأويل^(١)؛ لأن قلوبهم قد فهمت الإثبات على أنه تشبيه لله ﷻ بخلقه فقالوا بالتعطيل والتأويل.

قال الأوزاعي: كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله ﷻ فوق العرش، ونؤمن بما وردت به السنة من الصفات"، وهذا التصريح من الأوزاعي يعني الإجماع (إجماع التابعين المبني على إجماع الصحابة المستند إلى صريح الكتاب والسنة)، والإمام الأوزاعي أحد الأئمة الأربعة الذين كانوا في عصر تابعي التابعين وهم مالك بن أنس بالحجاز، والأوزاعي بالشام، والليث بن سعد بمصر والثوري بالعراق، وذكر الأوزاعي ذلك عندما ظهر جهم بن صفوان منكراً كون الله تعالى فوق العرش، وناقياً لصفات الله تعالى.

وسئل الزُّهري ومكحول عن تفسير أحاديث الصفات فقالا: أمروها كما جاءت. وروى مثل هذا الجواب عن الإمام مالك والثوري والليث قالوا جميعاً في أحاديث الصفات: أمروها كما جاءت بلا كيف.

وقال: وجماع الأمر أن الأقسام الممكنة في آيات الصفات وأحاديثها ستة أقسام، كل قسم عليه طائفة من أهل القبلة:

• قسمان يقولان: تجري على ظاهرها.

١. التأويل: صَرَفَ اللفظ عن ظاهره، وعند المتكلمين عامة يقتضي اتخاذ العقل أصلاً في التفسير مقدماً على الشرع، فإذا ظهر تعارض بينهما فينبغي تأويل النصوص إلى ما يوافق العقل؛ كتأويل أدلة الرؤية، وأدلة العلو، وآيات الصفات، وباب التأويل واسع قد يؤول بصاحبه إلى اعتقاد الحرام حلالاً، والحلال حراماً، هذا إذا كان في أصله سائغاً، فكيف إذا كان غير سائغ، ولذا فأهل السلف يرفضون هذا النوع من التأويل ويخطئون القائل به، والتأويل الصحيح عندهم الذي يوافق ما دلَّت عليه النصوص، وجاءت به السنة.

• وقسمان يقولان: هي على خلاف ظاهرها.

• وقسمان: يسكتون.

أما الأولان فقسمان:

أحدهما: من يجريها على ظاهرها، ويجعل ظاهرها من جنس صفات المخلوقين، وهو مذهب باطل أنكره السلف.

والثاني: من يجريها على ظاهرها اللائق بجلال الله، كما يجري ظاهر اسم العليم والقدير والرب والإله والموجود والذات ونحو ذلك على ظاهرها اللائق بجلال الله، وهذا هو المذهب الذي حكاه الخطابي وغيره من السلف، وعليه يدل كلام جمهورهم وهو أمر واضح؛ فإن الصفات كالذات، فكما أن الذات ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس المخلوقات، فصفاته ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس المخلوقات، وما أحسن ما قال بعضهم: إذا قال لك الجهمي كيف استوى؟ أو كيف ينزل إلى السماء الدنيا ونحو ذلك، فقل له: كيف هو في ذاته؟ فإن قال لك: لا يعلم ما هو إلا هو، وكُنَّه الباري تعالى غير معلوم للبشر. فقل له: فالعلم بكيفية الصفة مستلزم للعلم بكيفية الموصوف، فكيف يمكن أن تعلم كيفية صفة لموصوف لم تعلم كيفيته؟ وإنما تعلم الذات والصفات من حيث الجملة على الوجه الذي ينبغي له ﷻ.

بل ما أودعه الله ﷻ جَنَّتْهُ من نعيم لعباده المؤمنين لا نعلم عن حقيقته شيئاً، هذا مع أن الله ﷻ أخبر عنه بأسماء نعرفها لأشياء في الحياة الدنيا، فقد ثبت عن ابن عباس أنه قال: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء وقد أخبر الله تعالى أنه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّنْ

قُرَّةُ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ (السجدة)، وأخبر النبي ﷺ: أن في الجنة "ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر" (١).

فإذا كان هذا نعيم الجنة، وهو خلق من خلق الله كذلك، فما ظنك بالخالق ﷻ؟!

وأما القسمان اللذان ينفيان ظاهرهما:

فقسم يتأولونها ويُعَيَّنُونَ المراد بمثل قولهم: استوى بمعنى استولى، أو بمعنى علو المكانة والقدر، أو بمعنى: ظهور نور العرش، أو بمعنى: انتهاء الخلق إليه، إلى غير ذلك من تأويل اليد بالقدرة أو النعمة، والعين بالرعاية، والنفس بالذات، وغير ذلك من معاني المتكلمين.

وقسمٌ يقولون: الله أعلم بما أراد بها، وهم أهل التفويض في الكيفية والمعنى، فلا يفهمون من آيات وأحاديث الصفات معنى محددًا، بل هي عندهم كالحروف المقطعة في أوائل السور (ألم، طس).

وأما القسمان الواقفان:

فقوم يقولون: يجوز أن يكون ظاهرها المراد اللائق بجلال الله، ويجوز ألا يكون المراد صفة الله ونحو ذلك، وهذه طريقة كثير من الفقهاء وغيرهم.

وقسم يمسكون عن هذا كله: ولا يزدون على تلاوة القرآن وقراءة الحديث، معرضين بقلوبهم وألسنتهم عن هذه التقديرات، فهذه الأقسام الستة لا يمكن أن يخرج الرجل عن قسم منها، والصواب في

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٠٧٢)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، أوائل كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٧٣١١).

كثير من آيات الصفات وأحاديثها القطع بالطريقة الثابتة للآيات والأحاديث الدالة على أن الله تبارك وتعالى فوق العرش، ويعلم طريقة الصواب في هذا وأمثاله بدلالة الكتاب والسنة والإجماع على ذلك دلالة لا تحتمل النقص. قال ابن القيم - رحمه الله - في الشافية الكافية:

لَسْنَا نُشَبِّهَ رَبَّنَا بِصِفَاتِنَا

إِنَّ الْمَشَبَّهَ عَابِدُ الْأَوْثَانِ

كَلَّا وَلَا نُخْلِيهِ مِنْ أَوْصَافِهِ

إِنَّ الْمُعْطَّلَ عَابِدُ الْبُهْتَانِ

مَنْ شَبَّهَ اللَّهَ الْعَظِيمَ بِخَلْقِهِ

فَهُوَ الشَّبِيهُ بِمُشْرِكٍ نَصْرَانِي

أَوْ عَطَّلَ الرَّحْمَنَ مِنْ أَوْصَافِهِ

فَهُوَ الْكَفُورُ وَلَيْسَ ذَا إِيمَانٍ

ثانيًا. حقيقة استواء الله تعالى على العرش معلومة من الكتاب والسنة:

وهي أن العرش فوق السماء السابعة، والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم؛ لذا فهو فوق سماواته مستوٍ على عرشه، وإليه نتجه في صلاتنا ودعائنا كما كان يفعل رسول الله ﷺ.

فقد كان يدعو ويرفع يديه إلى السماء، حتى يرى بياض إبطه. فقد ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قوله: رأيت رسول الله ﷺ يرفع يديه في الدعاء حتى يرى بياض إبطيه (٢).

وحديث الجارية لما سألتها ﷺ، فقال: أين الله؟ قالت

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة الاستسقاء، باب رفع اليدين بالدعاء في الاستسقاء (٢١١١).

بأنه ليس كمثله شيء في كل ما يتصل به تعالى من أحكام.

وقد تبين من جميع ما تقدم أن أحدًا من أئمة المسلمين الذين يثبتون صفات الله في غير تأويل لا يذهب إلى مشابهته تعالى للحوادث، ولا أن إثبات النزول والغضب والرضا ونحو ذلك مما يستلزم مشابهته لخلقه.

ومن المعلوم في تاريخ العقائد الإسلامية أن مسألة وقوع الحوادث في ذاته ﷻ إنما كانت مدخلًا لنفي أفعاله الاختيارية التي يحفل بإثباتها الكتاب والسنة، وافترض حالة من السكون الدائم يعتري الذات الإلهية، وذلك شيء آخر غير الذي يقوله القرآن والسنة عن الله ﷻ.

الخلاصة:

• إن الله تبارك وتعالى له الصفات العلى، وله الكمال المطلق، لا يشبه أحدًا من خلقه منزّه عن الشبيه والشريك، والصاحبة والولد تبارك الله وتعالى، فلاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة والإيمان به واجب، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

• إثبات العلو والفوقية لله ﷻ لا يفيد أنه محصور في السماء محاط به، كما أن إثبات الاستواء لا يعني أن العرش يحويه، كما يتوهم ذلك من يتوهمه ويرمي به عقائد المثبتين.



في السماء. قال من أنا؟ قالت أنت رسول الله، قال: أعتقها فإنها مؤمنة^(١).

ولا يصح بحال قول من قال: إن رسول الله ﷺ لم ينكر عليها لأنها جارية، وقد جاراها على قدر معرفتها. ترى هل يقر الرسول ﷺ جارية على الخطأ وهو في مقام التعليم والبيان في وقت الحاجة، وتأخيرها لا يجوز كما هو معروف في الأصول؟!

ولسنا نعتقد إلا أنه أقرها على الحق لما نطقت به، ولسنا ندري ما يقولون في حديث زينب زوج النبي ﷺ لما قالت لنساء النبي ﷺ: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سموات^(٢) .

ثالثًا. الله ﷻ منزّه عن الحوادث، وعن مشابهة خلقه:

وهذه عقيدة ثابتة، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وإن من يدعي أن الله استوى على العرش استواءً محسوسًا لا يعبر عن عقيدة الإسلام والقرآن، فالله ﷻ منزّه عن الحس؛ لأن الحس شأن المحسوسات وهي المخلوقات، والله تعالى أخبر عن نفسه أنه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وأنه تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

فالله ﷻ استوى على عرشه كما أخبرنا بالكيفية التي يعلمه تبارك وتعالى ولا يعلمها أحد إلا هو، مع الجزم

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب تحریم الكلام في الصلاة (١٢٢٧).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ (مرد: ٧) (٦٩٨٤).

® في "عقيدة السلف في تفسير استواء الله تعالى على العرش" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الحادية والعشرين، من هذا الجزء.

الشبهة السادسة والثلاثون

ادعاء أن تحويل القبلة دليل على التناقض

في فعل الله ﷻ (*) ®

مضمون الشبهة:

يدّعي بعض المغرضين أن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام دليل على اضطراب العبادة الإسلامية، ويرددون في هذا السياق كلامًا قديمًا كانت قد قالته اليهود والمنافقون يومئذٍ؛ من أن القبلة الحقّة إن كانت الكعبة فلم لم يوجه الله المسلمين إليها منذ بداية الدعوة؟ وإذا كانت قبلة بيت المقدس باطلة فلم توجه إليها المسلمون في البداية؟ ويتساءلون: ألا يدل ذلك على وقوع التناقض في فعل الذات الإلهية؟

وجها إبطال الشبهة:

(١) علم الله ﷻ الشامل المحيط يمنع من وقوع التناقض في أحكامه وشرعه.

(٢) ثمة مقاصد شرعية وحكم إلهية وراء تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى البيت الحرام، والله ﷻ أن يتبلي عباده بما شاء، وله في ذلك الحكمة البالغة.

التفصيل:

أولاً. لا تناقض في أفعال الله ﷻ:

من المقرّر في العقيدة الإسلامية أن البداء ممتنع على

(*) عقيدة أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، مرجع سابق.

® في "تحويل القبلة" طالع: الشبهة الرابعة، من الجزء الثالث عشر (العبادات والمعاملات الاقتصادية). وفي "رد القرآن على مستنكري تحويل القبلة" طالع: الشبهة الحادية والثلاثين، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

الله ﷻ، وهو أن يظهر شيء كان يجهله، أو تضيف له الوقائع علمًا لم يكن له، فذلك كله ينافي الألوهية وصفات الكمال الثابتة له.

ومتى ثبت ذلك علمنا أن النهي عما كان مباحًا أو إباحة ما كان منهيًا عنه إنما هو لحكم ومقاصد إلهية اقتضتها الملابسات والأحوال، والنهي والإباحة جميعًا كانا في علم الله السابق القديم الذي لا يعزب عنه شيء ولا يندُّ عنه مخلوق، وعن هذا العلم الشامل المحيط تأتي أحكام الله وأوامره، لا عن التفكير والتدبر وإجالة الخاطر، كما هي أحوال البشر، وتحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام هو مثال لهذا التغيير الذي تقف وراءه مقاصد وحكم إلهية.

وهذا التحويل لا يدل - بحال - على تناقض أفعاله سبحانه، إنما هي حكمة أرادها؛ ليعلم الذين صدقوا وليعلمن المنافقين، والله ﷻ أن يتبلي عباده بما شاء وقتما شاء ولا يسأل عن ذلك؛ لأنه خالقهم وهو أعلم بهم، وأعلم بما يصلحهم.

وقد أخبر الله ﷻ بما سيقوله اليهود في هذا التحويل، مع علمهم أن هذا سيكون، وفي كتبهم معلوم، وأن توجه النبي ﷺ إلى بيت المقدس لن يدوم، وقد ذكر الله تعالى موقفهم هذا، فقال: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ١٤٢﴾ (البقرة)، فقد أخبر الله تعالى بما سيقال، وعلم نبيه كيف يرد عليهم.

ما كان تحويل القبلة عبثًا، وإنما كان لحكمة إلهية، أرادها الله تعالى وأخبر بها في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ

مباشرة، المجرد من كل ملابسة تاريخية أو عنصرية أو أرضية على العموم.. فقد نزعهم نزعاً من الاتجاه إلى البيت الحرام، واختار لهم الاتجاه - فترة - إلى المسجد الأقصى؛ ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية، ومن كل ما كانت تتعلق به في الجاهلية، وليظهر من يتبع الرسول اتباعاً مجرداً من كل إجماع آخر، اتباع الطاعة الواثقة الراضية المستسلمة ممن ينقلب على عقبيه اعتزازاً بنعرة جاهلية تتعلق بالجنس والقوم والأرض والتاريخ، أو تتلبس بها في خفايا المشاعر وحنايا الضمير أي تلتبس من قريب أو من بعيد.

حتى إذا استسلم المسلمون واتجهوا إلى القلبة التي وجههم إليها الرسول ﷺ، وفي الوقت ذاته بدأ اليهود يتخذون من هذا الوضع حجة لهم، صدر الأمر الإلهي الكريم بالاتجاه إلى البيت الحرام..^(٢)

ثانياً. لله تعالى أن يبتلي من شاء من عباده بما يشاء من الأحوال:

لله تعالى أن يبتلي من شاء من عباده بما يشاء من الأحوال، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، فأما من كان من أهل الإيمان فسيقول: سمعنا وأطعنا، وأما أهل الزيف فسيقولون: سمعنا وعصينا.

وقد ابتلى الله ﷻ الأنبياء من قبل بأنواع مختلفة من الابتلاءات، ولم يقل أي واحد منهم: لِمَ؟ فكان هذا التحويل بلاء واختباراً ليميز الله المؤمنين المخلصين من

الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ ۚ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۚ (البقرة: ١٤٣).

لقد بيّن سبحانه أن هذا التحويل كان بلاء، واختباراً ليميز عند الناس المؤمنون المخلصون من الشاكّين المرتابين^(١).

ومن حكمة تحويل القلبة إثبات صدق نبوته ودعوته وفضله ﷺ. وتحويل القلبة جلّ الإيمان في نفوس المؤمنين، والنفاق والشرك في نفوس أصحابه. فالمؤمنون قالوا: سمعنا وأطعنا؛ كلٌّ من عند ربنا، أما اليهود، فقالوا: خالف قلبة الأنبياء، ولو كان نبياً لاستمر على قبلته، وأما المنافقون فقالوا: ما يدري محمد أين يتجه في صلاته، إن كانت الأولى حقاً فقد تركها، وإن كانت الثانية حقاً فقد كان على الباطل: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (الكهف).

ويقول سيد قطب: "لقد كان تحويل القلبة أوّلاً عن الكعبة إلى المسجد الأقصى لحكمة تربوية أشارت إليها آية: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ (البقرة: ١٤٣). فقد كان العرب يعظمون البيت الحرام في جاهليتهم، ويعدونه عنوان مجدهم، ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله، وتجريدها من التعلق بغيره، وتخليصها من كل نعرة وكل عصبية لغير المنهج الإسلامي المرتبط بالله

٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج ١، ص ١٢٦، ١٢٧.

② في "الحكمة من تحويل القلبة" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الرابعة، من الجزء الثالث عشر (العبادات والمعاملات الاقتصادية).

١. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط ٨، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م، ج ٢، ص ١٠٥.

الشاكين المرتابين، فقال الله ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عِبَادَهُ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة).

ولما كان نسخ القبله أول نسخ وقع في الإسلام،
وقارنه إرجاف اليهود والمنافقين، أكد الله سبحانه الأمر
بالتوجه إلى الكعبة الشريفة في ثلاثة مواضع متقاربة:
فقال المولى تبارك وتعالى: ﴿قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي
السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ (البقرة: ١٤٤). وقال
ثانياً: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ
(البقرة: ١٤٩)﴾ وقال ثالثاً: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ
شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ
شَطْرَهُ إِنَّهَا لَيَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِمَّتِ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٠).

وهذا التردد يظهر الشدة التي لقيها المؤمنون من هذا التحويل، وكذلك يظهر قوة إرجاف اليهود والمنافقين، وأن قلوبًا من المسلمين مالت إلى قولهم[®].

الخلاصة:

• إن تغيير القبلة وتحويلها من بيت المقدس إلى البيت الحرام في مكة لا يدل بحال على تناقض في أفعال الله ﷻ؛ لأن علم الله أزلّ شامل محيط لما كان وما

® في "ابتلاء الله لعباده لا يزيده علمًا بهم" طالع: الوجه الثاني،
من الشبهة السابعة والثلاثين، من هذا الجزء.

سيكون وما هو كائن، فلا تزيدہ الوقائع علمًا كما هي حال البشر.

• والله تبارك وتعالى يفعل ما يشاء وقت ما يشاء، ولا يسأل عما يفعل؛ لأنه هو الخالق والمُدبر، وليس هذا فحسب، بل يريد بذلك اختبار عباده وامتحانهم، ليعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه.

• والله أن يغير ما شاء من أحكامه وشرعه وقت ما يشاء؛ لأنه تعالى أعلم بالناس من أنفسهم ويعلم ما يصلحهم.



الشبهة السابعة والثلاثون

ادعاء نسبة الجهل إلى الله ﷻ في الإسلام (*)

مضمون الشبهة:

يَدَّعِي بَعْضُ الْمَغْرُضِينَ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ، وَيَسْتَدِلُّونَ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة)، ثم حدث بعد ذلك الإفساد وسفك الدماء، فهل الله تعالى لم يكن يعلم ما سيحدث بعد ذلك؟ وأنه لم يكن يعلم أن آدم قد أكل من الشجرة إلا عندما سأله؟ ويستدلون على ذلك بقول الله تعالى: ﴿لَيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ

(*) النظر في الأدلة العقلية حول إثبات الذات الإلهية.
nadyelfiker. net.

عَمَلًا ﴿٧﴾ (هود: ٧) على أن ابتلاءه لنا؛ لمعرفة الأحسن عملاً يدل على خفاء شيء عن علمه بالغيب.

وجوه إبطال الشبهة:

(١) علم الله محيط بكل شيء، وعلمه الغيب ثابت بما أخبر به ﷻ، وبما أخبرنا به نبيه ﷺ.

(٢) ابتلاء الله ﷻ لعباده لا يزيده علمًا بأحوالهم؛ فإن له العلم القديم الشامل الذي لا يتبدل.

(٣) سؤال الله ﷻ لآدم ليس للاستعلام، بل للتقرير.

التفصيل:

أولاً. شمول علم الله ﷻ وإحاطته:

فإن الله ﷻ لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فهو يعلم ما كان، وما سيكون، وهو عليم بذات الصدور، قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ (الفصص: ٦٩)، وقال: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ (البقرة: ٢٨٤)، وقال سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ (هود: ٦).

فعلم الله تعالى علم مطلق، وما أكثر الآيات القرآنية التي جاءت تتحدث عن علم الله ﷻ بكل شيء، إجمالاً كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور)، وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (الطلاق)، أو تفصيلاً؛ كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كَنْزٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام)، وكقوله

وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان)، وكقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (٨) عليم الغيب والشهادة الكبير المتعال (١) سواءً منكم من أسر القول ومن جهر به، ومن هو مستخف بالليل وسارٍ بالنهار (١٠) (الرعد).

وما أكثر الأسماء الحسنى التي تعبر بكل الوجوه عن علمه تعالى، مثل: العليم، والخبير، واللطيف، والشهيد، والرقيب، والمحصي، والمبدئ، وعالم الغيب والشهادة، وعلام الغيوب... إلخ الصفات الدالة على العلم والمعية والإحاطة.

وهذا الفهم السقيم الذي ذكره لا وجه له، أمام هذه النصوص القاطعة بعلمه تعالى بما كان وما سيكون، وعلمه السر وأخفى، وحدوث كل شيء تبعاً لعلمه سبحانه.

ثانياً. ابتلاؤه ﷻ لعباده لا يزيده علمًا بهم:

فإن الله ﷻ منزّه عن النقائص: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (النوري)، وإنما أراد أن يتليهم ليعظم لهم الأجر؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٥) (البقرة). والله ﷻ قد أدخلنا دار الابتلاء (الدنيا)؛ لئيلونا أننا أحسن عملاً، حتى لا يدعي أحد أن الله ﷻ ظلمه، وحتى لا يقولوا: إننا كنا عن هذا غافلين، أو يقولوا: إنما أشرك أبائنا وكنا ذرية من بعدهم نسير على دربهم.

فاختبار الله ﷻ لعباده إثبات للحجة عليهم، حتى

لا يدعي أحد أن الله ﷻ ظلمه، حتى إن أهل الفترة: (أي الذين يحتاجون يوم القيامة على الله بأنهم لم تبلغهم الرسالة) يعقد الله تبارك وتعالى يوم القيامة لهم امتحاناً حتى يعلم كل واحد منهم حقيقة نفسه لو كان في الدنيا وبلغته رسالة ربه أكان يصدق بها أم يكذب.

وإنما أراد الله ﷻ بذلك إقامة الحجة عليهم وهو أعلم بهم من أنفسهم، ويعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ١٧﴾ بَلْ بَدَأَهُمْ مَّا كَانُوا يُحْكُمُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ١٨﴾ (الأنعام).

والفهم الصواب للآيات: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وقول الله تعالى: ﴿وَلِيَبْلُوَكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَتَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ٣١﴾ (محمد) وأمثالها أن نقول:

• إن مثل هذا التعبير - عادة - ما يوجه لمن يجادل ويباري في علمك، فتتنزل معه ليتبين الطرفان أنت وهو من العالم فيكم؟ كأن يقول العالم: النار تحرق الحطب، ويقول الجاهل بل الحطب يحرق النار، فيقول العالم: سنأتي بحطب ونار لنعلم أيهما يحرق الآخر.

• إن معنى "حتى نعلم"؛ أو "ليعلم"؛ أو "لنعلم" الواردة في الآيات: أي: ليظهر متعلق علمه.

• أن اللام في "لنعلم" وأمثالها، للعاقبة والفائدة، والمعنى: إنا فعلنا ذلك فترتب عليه فوائد، ومصالح غير باعثة على الفعل "لنعلم" ولكنها مترتبة عليه، كما قال تعالى في حق فرعون وقومه مع موسى ﷺ: ﴿فَالنَّفْثَةُ ۖ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ

فِرْعَوْنَ وَهَمَجَنَ وَجُنُودُهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ٨﴾ (القصص)، أي: كانت العاقبة كذلك - ولم يكن التقاطهم لأجل أن يكون لهم عدوًّا^(١).

ومعرفة الحكمة من الخلق معرفة نهائية فوق طاقة البشر ومداركهم، ولكن يكفي أن يعلم العبد أن ربه خلقه لعبادته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾ (الذاريات).

وأنهم حين يعبدونه فهم المستفيدون لا هو سبحانه، وإن لم يعبدوه فهم المتضررون الأشقياء في دنياهم وأخراهم بانصرافهم عن طاعته قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنَىٰ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ٧﴾ (الزمر: ٧)، وقال الله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ١٤٧﴾ (النساء: ١٤٧).

ثالثاً. ليس سؤال الله ﷻ لآدم ﷺ للاستعلام، لكن للتقرير:

إن علم الله ﷻ قديم، وقد سبق الكلام عن هذه النقطة من قبل، ثم إن من الدليل على علم الله ﷻ بما سيقع من آدم ﷺ ما رواه الشيخان عن عمر بن الخطاب ؓ أنه قال: قال الرسول ﷺ: احتج آدم وموسى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ثم تلومني على أمرٍ قدّر على قبل أن أخلق فقال رسول الله ﷺ: فَحَجَّ

١. الأسماء والصفات، البيهقي، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٠م، ص ١٢٣. المفيد في علم التوحيد، حبيب الله حسن أحمد، مرجع سابق، ص ١٣٣، ١٣٤.

آدم موسى مرتين^(١).

والشاهد من الحديث: "ألم تجد أن الله ﷻ قدر معصيتي، وقدر خروجي قبل أن أخلق بأربعين سنة" فقد علم الله ما سيقع من آدم قبل خلقه، إذن لم يكن سؤال الله ﷻ لآدم على سبيل الاستعلام، إنما كان ليقرره بمعصيته؛ ليتوب ويتوب الله تعالى عليه، ﴿ثُمَّ أَجْبَنَهُ رَبُّهُ فَقَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ (طه).

واليهود الذين يصفون الله ﷻ بكل نقيصة كانوا يعلمون أن محمدًا هو النبي الذي كانوا ينتظرونه؛ لبشارة كتبهم به، ولكنه لما لم يكن من قومهم "بنو إسرائيل" كفروا به حسدًا، ونهوا قومهم أن يحدثوا المسلمين بهذا الأمر؛ لئلا يحاجوهم بذلك عند الله تعالى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّأَتِ اللَّهُ بِمَحْذُونٍ﴾ (الأنعام)، ولذلك رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (البقرة)^(٢).

أما قول الملائكة: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ (البقرة: ٣٠)، فإنه لا ينفي علم الله تعالى بها سيحدث، بل هذا يثبت أن الملائكة وإن علموا شيئًا مما أعلمهم الله ﷻ إياه فقد غاب عنهم من العلم ما تفرد به سبحانه، فهم لا يعلمون أن من سيجعل منه خليفة في الأرض سيكون مصلحًا فيها معمرًا لها مقيمًا

لشريعة الله التي تحكم الناس بالعدل وتنشر بينهم الخير، ولذلك رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة).

الخلاصة:

- إنه لا مجال للتشكيك في علم الله تعالى، وأن يزعم جاهل أن الله لا يعلم الغيب، فعلم الله تعالى محيط بكل شيء، لا يخفى عليه ﷻ شيء في ملكه، وقد أخبر بعض عباده ببعض الغيب، وقد وقع ما أخبروا به عن رب العزة تبارك وتعالى.

- وإن قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٠) يثبت أن الملائكة وإن علموا شيئًا مما أعلمهم الله تعالى به، فقد غاب عنهم من العلم ما تفرد به سبحانه، فهم لم يعلموا أن الله سيجعل من عباده مصلحين في الأرض ومعمرين لها.

- ما ابتلاء الله لعباده، إلا لإقامة الحجة عليهم ليس إلا؛ حتى لا يدَّعي أحد أن الله تعالى ظلمه، وكذلك يكون الابتلاء لرفع الدرجات التي لا تُبلغ إلا به؛ لقصور الأعمال الصالحة من العبد فهذا محض تفضل وإكرام من الله تعالى.

- وأما زعمهم بأن الله لم يكن يعلم أن آدم وزوجه أكلا من الشجرة إلا عندما سألهما فباطل؛ لقول آدم لموسى "أتلوني على أمر قدره الله ﷻ عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة".



١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب وفاة موسى (٣٢٢٨)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٦٩١٢).
٢. انظر: الأسماء والصفات، البيهقي، مرجع سابق. المفيد في علم التوحيد، حبيب الله حسن أحمد، مرجع سابق.

الشبهة الثامنة والثلاثون

ادعاء تناقض الصفات الإلهية في العقيدة الإسلامية (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن القرآن الكريم يتناقض بشأن صفات الله ﷻ؛ فكثيراً ما تجدد آيات تصفه بأنه رحمن رحيم، أو غفور ودود، في حين تصفه آيات أخرى بأنه جبار متكبر، وأن بطشه شديد!

وجها إبطال الشبهة:

- (١) تعدد الصفات الإلهية أدل على كمال الله ﷻ وعلى تنوع آثارها في حياة المؤمن.
- (٢) إذا كان الجمع بين الصفتين المتعارضتين جائز في حق البشر بلا خلاف، فكيف يجوز في حق المخلوقين ولا يجوز في حق الخالق؟

التفصيل:

أولاً. اختلاف صفات الله ﷻ وتعدد أدل على قدرته وعنايته بالخلق:

تنقسم الصفات إلى ثلاثة أقسام:

- صفة كمال مطلق.
- صفة كمال مقيد.
- صفة نقص مطلق.

أما صفة الكمال على الإطلاق؛ فهي ثابتة لله ﷻ، كالعلم، والقدرة، والحياة، ونحو ذلك.

وأما صفة الكمال بقيد، فهذه لا يوصف الله بها على

(*) الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، مرجع سابق.

الإطلاق إلا مقيداً، مثل: المكر والخداع، والاستهزاء، وما أشبه ذلك؛ فهذه صفات كمال بقيد؛ إذا كانت في مقابلة من يفعلون ذلك فهي كمال، وإن ذكرت مطلقة فلا تصح بالنسبة لله ﷻ، ولهذا لا يصح إطلاق وصفه بالماكر، أو المستهزئ، أو الخادع، بل تقيد، فنقول: ماكر بالماكرين، ومستهزئ بالمنافقين، خادع لمن يخادعون، كائد للكافرين، فتقيدها؛ لأنها لم تأت إلا مقيدة.

وأما صفة النقص على الإطلاق، فهذه لا يوصف الله بها بأي حال من الأحوال، كالعاجز والخائن، والأعمى، والأصم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً؛ لأنها نقص على الإطلاق، فلا يوصف الله بها، وانظر إلى الفرق بين خادع، وخائن؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ (النساء: ١٤٢)، فأثبت خداعه لمن خادعه، لكن قال في الخيانة: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ (الأنفال: ٧١)، ولم يقل: فخانهم؛ لأن الخيانة خداع في مقام الائتمان، والخداع في مقام الائتمان نقص، وليس فيه مدح أبداً، إذاً صفات النقص منفية عن الله مطلقاً^(١).

ليس عجيباً أن يتصف الله ﷻ بالعديد من الصفات كما أثبتته هو لنفسه ﷻ، فاختلاف صفات الله تعالى يدل على كمال قدرته، فهو الملك وحده، والمسيطر وحده، وهو الرحمن الرحيم الغفور، وهو - بعد ذلك كله - جبار شديد العقاب والعذاب، وبهذا الصنف من الصفات يطمئن العبد إلى قدرة مولاه ويحتمي به^(٢).

١. انظر: شرح العقيدة الواسطية، محمد العثيمين، مرجع سابق.
 (٢) في "كمال الله وافتقار الخلق إليه" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة والثلاثين، من هذا الجزء.

والتصور الإسلامي ينفرد وحده بهذا التكامل بعد ما أصاب العقائد السماوية عند أهل الكتاب ما أصابه من تبديل وتغيير؛ فإله التوراة ثائر غضوب يبادر بالبطش والتخريب، ثم يعود فيندم ويبكي، وإله الإنجيل مستضعف مسكين يعيش حياته في ضعف واستكانة، ثم يموت مصلوباً كذلك في ضعف واستكانة، وضمَّ هذين التصورين إلى جوار التصور الإسلامي يظهر ما فيه من شموخ وقوة، ومن عقلانية كذلك وصلاحية لهداية الضمير والوجدان.

وقد نسي أصحاب هذا الادعاء أن رحمة الله ﷻ تتعلق بالمؤمنين، وأنه تبارك وتعالى شديد العقاب لمن كابر على ذنبه، ولم يرجع عنه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأعراف). وقال ﷻ: ﴿كَذَابَ آلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (آل عمران).

فليفهم هؤلاء ما يرمي إليه القرآن الكريم من معان واضحة لألفاظه.

ثانياً. استعمال الصفات المختلفة في الأحوال المختلفة أمر يعهده البشر:

إن الصفات الإلهية متعددة؛ نتيجة لتعدد الأحوال الإلهية قال تعالى: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمن)، فالله جبار شديد العقاب؛ ليطمئن المستضعفون من عباده إلى قوته، وهو التواب الغفور؛ ليطمئن المسرفون على أنفسهم من عباده إلى سعة رحمته وشمولها لمن يُنِيب إليه ويرجع نادماً إلى حضرته، وهو ودود قريب يستميل عباده إليه بمحبته، لكنه - مع ذلك - حق عدل لا يطمع

مقصر في عفوه إلا بالتوبة إليه والبكاء بين يديه. والذي يقرأ هذه الصفات الإلهية، ثم يخرج فيقول للناس: إن صفات الله عند المسلمين متناقضة، فقد شهد على نفسه بضعف العقل والتمييز.

ذلك أنه لا يمكن أن يثبت عقل أن هناك تناقضاً بين صفات الله في القرآن، إلا إذا كان هذا العقل عقلاً مريضاً، فإن البشر أنفسهم اعتادوا أن يكون الإنسان - وهو خلق الله - رحيمًا، وفي الوقت ذاته يمكن أن يكون شديدًا جبارًا، فقد يكون الإنسان - وهو خلق ضعيف لله رب العالمين في الأرض - يجمع بين هاتين الصفتين المتعارضتين (الرحمة والشدّة).

ولا تناقض مع ذلك؛ لأنه يستعمل الشدّة في أمر، ويستعمل الرحمة في آخر، إذن فمن الأولى أن يكون من أوجد الإنسان رحيمًا وجبارًا في الوقت ذاته، فهذه صفات تتكامل ولا تتناقض، وبتعدد أثارها في الكون وفي أنفس الخلق على السواء.

الخلاصة:

• إثبات الصفات المختلفة لله ﷻ كما أثبتها هو لنفسه لا تحتل تناقضاً ولا نقصاً، بل هي أدل على قدرته ﷻ وعنايته بخلقه على اختلاف طرقها، فكيف يكون هناك تناقض بين صفتين تكمل إحداها الأخرى، ليس من المنطق أن يكون إلهًا جبارًا فقط كما أرادته اليهود، أو رحيمًا فقط كما أرادته النصارى حتى مع من لا يستحقون الرحمة ولا يردعهم سوى القوة والبطش، تعالى الله سبحانه عن ذلك فهو الملك وحده، المسيطر وحده، وهو الرحمن الرحيم.

• إذا كان استعمال الصفات المختلفة في أحوال

الحياة المختلفة أمر يعهده البشر فكيف برب البشر، ومصرف الأمور، ومدير الكون؟ له أن يستعمل الشدة سبحانه مع من يستحقها، والرحمة واللين في مقام آخر، وذلك مشاهد من آثار صفاته ﷻ في الكون.



الشبهة التاسعة والثلاثون

الزعم أن الأخلاق الإسلامية لا تكفي

لبناء مجتمع فاضل (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أن الأخلاق التي جاء بها الإسلام لا تكفي لبناء مجتمع فاضل، ويعتقدون أن هذه الأخلاق تقوم على الكراهية لا الحب للآخرين، وينظرون إلى الحرب في الإسلام على أنها حرب مقدسة، هدفها إراقة الدماء، وإكراه الناس على أن يكونوا مسلمين.

وجوه إبطال الشبهة:

(١) الحضارة التي أقامها المسلمون هي بذاتها دليل على أصالة الأخلاق الإسلامية وسمو مبادئها، ودليل كذلك على زيف ادعاء أنها تدعو إلى الكراهية والعداء.

(٢) تختلف الأخلاق الإسلامية عن الأخلاق الوضعية اختلافًا واسعًا من جهتي المصدر والغاية جميعًا، وقد أقرت طائفة من الغربيين بسبق الأخلاق

(*) قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية: نقد مطاعن ورد شبهات، د. فضل حسن عباس، مرجع سابق.

الإسلامية وتميزها بهذا الشأن.

(٣) اختلاف الأخلاق الإسلامية عن الأخلاق الوضعية من ناحية المصدر والهدف يعطي لأخلاق الإسلام خصوصية وتميز يضمن لها البقاء والدوام.

(٤) اعترافات الغربيين بتميز الحضارة الإسلامية في جانب الأخلاق أوضح دليل على صلاحيتها لكل زمان ومكان.

(٥) هناك نماذج عدّة من الأخلاق التي عمل الإسلام على نشرها بين المسلمين وبعضهم خاصة، وبين المسلمين وغيرهم عامة تؤكد سموّ أخلاق هذا الدين ونبل مقاصده.

(٦) حقيقة الحرب في الإسلام من خلال نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف تبرهن على أنها لا تحتمل أبدًا هذا الادعاء.

التفصيل:

إن الأخلاق بناء شيدّه الأنبياء - عليهم السلام - عن طريق التعاليم الإلهية والتكاليف الربانية، وبُعث النبي ﷺ ليتم هذا البناء ويكمل ما كان ناقصًا منه؛ لأن الدين من غير خُلُق كمحكمة من غير قاضٍ، والأخلاق من غير دين عبث، فكل منهما يكمل الآخر، وجاءت أخلاق الإسلام لتكون للناس كافة في كل زمان ومكان، ولا أساس لما يثار حولها من شبهات باطلة.

أولاً. سموّ الأخلاق الإسلامية وأصالتها يؤكدان جدارتها لبناء مجتمع فاضل:

إذا كانت الأخلاق الإسلامية - كما يدعي هؤلاء - لا تصلح لبناء مجتمع فاضل أساسه الحب والتعاون

تبين طريقة معاملة المسلمين لغير المسلمين وقت الحرب؟!!

وسنة النبي ﷺ حافلة بالأحاديث التي ترفض معاداة غير المسلمين والتنكيل بهم ما داموا على عهدهم مع المسلمين، وكان الرسول ﷺ يوصي المسلمين في كل غزوة وفي كل مجلس من مجالسه بالعديد من القيم الخلفية، التي يسرون عليها تجاه أهل الكتاب، فكان مما قاله ﷺ: "ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة"^(١).

وكان يأمر الجنود بعدم قتل الشيخ الكبير أو المرأة أو الطفل، وعدم قطع الشجر، وأن يعرضوا على أعدائهم الدخول في الإسلام، فإن رفضوا فالجزية، فإن رفضوا فالحرب، وإن جنح الأعداء للسلم فعلى القائد المسلم أن ينزل على رغبتهم؛ حفظاً للدماء من الإراقة، وغير هذا العديد من الأخلاق في جانب الحرب فقط، فأين الكراهية، التي اعتمد عليها المسلمون لنشر دينهم؟ وأين حب إراقة الدماء؟!

ثانياً. الاختلاف بين الأخلاق الإسلامية والوضعية، وشهادة الغربيين للأولى بالسبق والتميز:

من ينظر في الأخلاق الإسلامية والأخلاق الوضعية يجد فرقاً كبيراً بينهما؛ ذلك لأن أخلاق الإسلام تعتمد على أسس غير التي تعتمد عليها

١. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الخراج، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات (٣٠٥٤)، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب الجزية، باب لا يأخذ المسلمون من ثمار أهل الذمة ولا أموالهم شيئاً بغير أمرهم (١٨٥١١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٥٥).

والتقوى... إلخ، فأى أخلاق يمكن الاعتماد عليها لبناء هذا المجتمع؟ وكيف استطاع المسلمون في وقت قصير أن يشيدوا هذا البناء الشامخ الذي يطلق عليه حضارة الإسلام؟ ألم يعتمدوا على الأخلاق التي نزل القرآن الكريم لكي يؤكدوا ويحث الناس عليها؟ ألم يعتمدوا على أقوال الرسول ﷺ التي تبين لهم الطريق الصحيح؟!

إن تاريخ الفتوحات الإسلامية حافل بالعديد من قصص التمدن الأخلاقي والديني التي لا تستطيع أي حضارة - مهما كان قدرها - أن تجاريه في ذلك، كل هذا تم لأن هذه الفتوحات إنما اعتمدت على أخلاق ثابتة وواضحة يؤمن بها الفاتحون، ولا يحيدون عنها مهما كانت الظروف المحيطة بهم.

ويروج البعض لفكرة أن الأخلاق الإسلامية تعتمد على العنف والقسوة في التعامل مع الآخرين، وأنه لا مجال فيها للحب والسباحة، وهذا ادعاء باطل يرد عليه ما دونه التاريخ عن سلوك المسلمين مع غيرهم عندما تكون لهم الغلبة، عكس ما نشاهد اليوم من غير المسلمين تجاه المسلمين عندما انتقلت مقاليد الأمور إليهم.

ومن يقرأ آيات القرآن يجد فيها العديد من الآيات التي ترفض الكراهية، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، فالآية واضحة الدلالة ولا تخفى على أحد، وقال تبارك وتعالى:

﴿وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥)، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: ٤٦)، أليست هذه معاني خلقية سامية

الأخلاق الوضعية، ويمكن أن نرصد الفرق بينهما فيما يلي:

١. الأخلاق الإسلامية أخلاق عملية، هدفها التطبيق الواقعي، وبيان طرق التحلي بها، أما الأخلاق الوضعية فهي تركز على الجانب النظري فقط.

٢. مصدر الأخلاق الإسلامية هو الوحي؛ ولذلك فهي قيم ثابتة، ومثل عليا تصلح لكل إنسان بصرف النظر عن نوعه وجنسه وزمانه ومكانه، أما مصدر الأخلاق الوضعية فهو العقل البشري المحدود، أو ما يتفق عليه الناس فيما يسمى "العرف"؛ ولذلك فهي متغيرة من مجتمع لآخر ومن مفكر لآخر.

٣. مصدر الإلزام في الأخلاق الإسلامية هو شعور الإنسان بمراقبة الله ﷻ له، أما مصدر الإلزام في الأخلاق الوضعية فهو الضمير المجرد أو الإحساس بالواجب أو القوانين الملزمة.

ويمكن أن نرصد بعض الخصائص المتعلقة بالأخلاق الإسلامية، ونذكر منها ما يلي:

• واقعية التواءم بين الروح والجسد، فلا تصادر حاجة الجسد من الشهوات والرغبات بل تضعها في إطارها الشرعي، فرغبة البدن لا بد من إشباعها بضوابط شرعية، ولذلك فالقرآن عبّر عن مُصادرة رغبة البدن بأنها رهبانية مبتدعة: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ (الحديد: ٢٧)، ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (القصص: ٧٧)، ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف: ٣١)، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (الأعراف: ٣٢)، فالآيات توضح حق الإنسان في إشباع رغباته

بالبضوابط الشرعية مع إشباع الروح بالذكر، والطاعة، والعبادة، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ (الحشر: ١٩).

• عامة صالحة لكل إنسان، ولكل زمان ومكان، مع اتصافها بالسهولة واليسر، ورفع الحرج، يقول سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨)، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦).

• لا تحكم على الأفعال بظاهرها فقط ولكن تمتد إلى النيات، والمقاصد والبواعث التي تحرك هذه الأفعال الظاهرة، يقول ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات" (١).

• مبادئها تقنع العقل وترضي القلب والوجدان، فما من نهي شرعي إلا ومعه مسوغات ودوافع تحريمه يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٣٢)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (١١) (المائدة)، وكذلك الأخلاق الإسلامية تقبلها الفطرة السليمة، ولا يرفضها العقل الصحيح.

غاية الأخلاق الإسلامية:

نقصد بالغاية الهدف الأقصى للأخلاق الإسلامية، فلكل سلوك إنساني غاية، إلا أن الغاية العظمى للمؤمن هي تحقيق السعادة في الدنيا والآخرة، ولا

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: "إنما الأعمال بالنية" (١٩٠٧).

لأخلاق الإسلام بالتميز والخصوصية، وهذا أصدق دليل على صدق ما نقوله من صلاحية الأخلاق الإسلامية لبناء مجتمع فاضل كامل الأركان، ونقتصر في هذا الجانب على شهادة عالمين فقط من العلماء الغربيين، هما: ول ديورانت، وغوستاف لوبون.

يقول ول ديورانت: "والقرآن يشمل قواعد الآداب وصحة الجسم، والزواج والطلاق ومعاملة الأبناء والعبيد والحيوان، والتجارة والسياسة والربا والدين" والعقود والوصايا وشئون الصناعة والمال، والجريمة والعقاب والسلم والحرب ويمضي ديورانت في الحديث عن النبي ﷺ إلى أن يقول: "ولسنا نجد في التاريخ كله مُصلِحاً فرض على الأغنياء من الضرائب ما فرضه عليهم محمد لإعانة الفقراء، وقد كان هذا وحي الله الذي أوحاه لنبيه).

ثم يقول: تلك بلا مرء عقيدة نبيلة سامية ألفت بين الأمم المتباينة المنتشرة في قارات الأرض فجعلت منها شعباً واحداً، وهي لَعْمَرِي أعظم معجزة للمسيحية، والإسلام" وهو - وإن تعصب هنا للمسيحية - يخص الإسلام بقوله: "ويلوح لي أن الشجرة التي لا بد من وجودها بين النظريات المجردة والأفعال الواقعية كانت أضيق في الإسلام منها في سائر الأديان" ويقول: والذين يجهلون الإسلام هم وحدهم الذين يظنون أنه دين سهل من الوجهة الأخلاقية^(١).

ويقول غوستاف لوبون: تأثير دين محمد في النفوس أعظم من تأثير أي دين آخر، ولا تزال العروق المختلفة

تتحقق السعادة في الدنيا إلا بالإيمان وفعل الواجبات وترك المحرمات، عند ذلك يشعر العبد برضا ربه عليه، فليست السعادة في كثرة المال، ولا في الملك أو الشهرة والمكانة الاجتماعية أو الحالة الصحية، وإنما السعادة الحقيقية في رضا الله عن العبد.

أما في الآخرة فتتحقق السعادة للعبد في أسمى درجاتها بدخول الجنة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجْرَكَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ (آل عمران: ١٨٥)، ﴿فَمَنْ أَتَعَ هَدًى فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (طه)، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ (النحل).

وهكذا تتضافر الآيات لتوضح الغاية للمؤمن في الدنيا والآخرة، أما أصحاب الغايات الدنيوية فحالم كحال من يسعى وراء السراب، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، ووجد الله عنده فوفاه حسابه.

يقول ﷺ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ (طه). والسعادة هي الشعور بالارتياح، والأمن والسكينة، والطمأنينة والنعيم والرضا، وهذه السعادة تتفاوت في أصحابها على حسب ما يتوفر لهم من أسبابها.

شهادات غربية:

نحن لا نعتمد على نصوص القرآن الكريم والسنة الشريفة وسير الصحابة والتابعين فقط لكي نؤكد فكرة أن الأخلاق الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، بل نعتمد على أقوال بعض العلماء الغربيين الذين شهدوا

١. قصة الحضارة، ول ديورانت، مرجع سابق، ج ١٣، ص ٩٥، ٩٦ بتصرف.

نرصد بعض الأخلاق الإسلامية في هذا الموضع لكي نبين ما اشتملت عليه حضارة الإسلام من أخلاقيات ربانية سامية، لا تستطيع أي حضارة وضعية أن تأتي بمثلها، ويمكن أن نمثل لذلك بما يأتي:

العدل:

أقام الإسلام المجتمع على دعائم قوية ثابتة، منها العدل بين الناس على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم. والعدل صفة خلقية كريمة تعني التزام الحق في كل أمر من أمور الحياة، والبعد عن الظلم والبغي والعدوان، والعدل في الإسلام هو مما يكمل أخلاق المسلم؛ لما فيه من اعتدال واستقامة وحب للحق، وهو كذلك صفة خلقية محمودة تدل على شهامة ومروءة من يتحلّى بها، وعلى كرامته واستقامته، ورحمته وصفاء قلبه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النحل: ٩٠)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء: ٥٨).

والإسلام يربأ بالمسلم عن الوقوع في أي لون من ألوان الظلم؛ فالظالم مطرود من رحمة الله تعالى، ولقد أوعد الله ﷻ الظالمين بأشد العقوبات. قال تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (هود)، وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (إبراهيم)، كما تضمنت السنة النبوية الشريفة مجموعة من الأحاديث التي تقر العدل وتحرم الظلم منها:

• قوله ﷺ لأصحابه رضوان الله عليهم: "الظلم

التي اتخذت القرآن مرشداً لها تعمل بأحكامه كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرناً، ثم يقول: "وعلى من يرغب في فهم حقيقة أمة الشرق التي لم يدرك الأوروبيون أمرها إلا قليلاً، أن يتمثل سلطان الدين الكبير على أبنائها، والدين ذو التأثير الضئيل فينا له نفوذ عظيم فيهم، وبالدين يُؤثّر في نفوسهم" (١).

ويختم لوبون كتابه "حضارة العرب" بنتيجة النتائج كلها فيقول: لقد تم الكتاب، ولنلخصه في بضع كلمات فنقول: إن الأمم التي فاقت العرب تمدناً قليلة إلى الغاية، وإننا لا نذكر أمة كالعرب حققت من الابتكرات العظيمة في وقت قصير مثل ما حققوا، وإن العرب أقاموا ديناً من أقوى الأديان التي سادت العالم، أقاموا ديناً لا يزال تأثيره أشد حيوية مما لأي دين آخر، وإنهم أنشئوا من الناحية السياسية دولة من أعظم الدول التي عرفها التاريخ، وإنهم مدّنوا أوروبا ثقافة وأخلاقاً، فالعروق التي سمت سمو العرب، وهبطت هبوطهم نادرة، ولم يظهر كالعرب عرق يصلح أن يكون مثلاً بارزاً لتأثير العوامل التي تهيمن على قيام الدول وعظمتها وانحطاطها (٢).

ولو أننا أحصينا كل أقوال العلماء الغربيين في هذا الجانب، لما اتسع المجال لذلك، ولكننا اكتفينا فقط بشهادة هذين العالمين المعتدلين في فكرهم.

ثالثاً. نماذج من الأخلاق التي عني الإسلام بنشرها:

لكي يكون الأمر أكثر وضوحاً، كان يجب علينا أن

١. حضارة العرب، جوستاف لوبون، مرجع سابق، ص ٤١٧،

٤١٨ بتصرف.

٢. المرجع السابق، ص ٤١٧، ٤١٨ بتصرف.

ظلمات يوم القيامة" (١).

• وروى أبو ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا" (٢).

• ومن أجل إزالة الظلم وتوطيد العدل الكامل بين الناس، قيّد الله ﷻ حرية بني البشر ببعض القيود وهي الحدود الشرعية التي جعلها واجبة التنفيذ. قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة).

وقد طبق رسول الله ﷺ مضمون هذه الآية، وذلك لترسيخ مفهوم العدل، كما ثبت في المرأة المخزومية القرشية التي سرقت، وقرر رسول الله ﷺ تنفيذ الحد عليها، فعظم ذلك على رجال من قريش، فطلبوا من أسامة بن زيد رضي الله عنه أن يشفع لها عند رسول الله ﷺ فلما تحدث أسامة إليه في أمرها، غضب ﷺ وقال لأسامة مستنكراً: "أتشفع في حد من حدود الله، إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد"، ثم ختم حديثه بقوله ﷺ "وأيم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها" (٣).

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب الظلم ظلمات يوم القيامة (٢٣١٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٦٧٤٢).

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٦٧٣٧).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان (٦٤٠٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره (٤٥٠٥).

وقد أعلن الإسلام مبدأ العدل في العقيدة والشرعية والأسرة، والعهود والقضاء، وفي كل شؤون الحياة. ومن هنا صار العدل التزاماً للمسلم في كل ميادين حياته الروحية والمادية، ومناطاً للشواب على صالح الأعمال، فالعدل الحقيقي لا يكتمل بعيداً عن شريعة الله؛ لأن شريعة الله هي العدل، وبناء على هذا فقد حذر النبي ﷺ كل مسلم يحتكم إلى قاضٍ، وهو يعلم أنه ظالم لا مظلوم؛ فإن جزاءه النار.

ومن مجالات العدل في الإسلام العدل مع الأهل، وهو أن يحسن المسلم معاملة زوجته وأولاده، ويساوي بينهم في المعاملة والعطية، ولا يفضل بعضهم على بعض، فلقد جاء في الحديث عن النُّعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سَأَلْتُ أُمِّي أَبِي بِعِضِ الْمُوهَبَةِ لِي مِنْ مَالِهِ، ثُمَّ بَدَأَ لَهُ فَوَهَبَهَا لِي، فَقَالَتْ: لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهَدَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَخَذَ بِيَدِي وَأَنَا غُلَامٌ فَأَتَى بِي النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّ أُمَّهُ بِنْتُ رَوَاحَةَ سَأَلَتْنِي بِعِضِ الْمُوهَبَةِ لِهَذَا، قَالَ: "أَلَيْكَ وَلَدٌ سِوَاهُ؟" قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَأَرَاهُ قَالَ: "لَا تُشْهَدْنِي عَلَى جَوْرٍ" (٤).

إن في توطيد العدل ومحاربة الظلم والحيلولة دون وقوعه إقراراً للأمن وتحقيقاً للمساواة بين أفراد المجتمع، الأمر الذي يمكن كل فرد من الوصول إلى حقه دون مشقة أو تعب، وإذا فُقد العدل أكل الناس بعضهم بعضاً، وسادت الفتن، وكثرت الجرائم والمنكرات وأصبح كل فرد من أفراد المجتمع عرضة

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد (٢٥٠٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة (٤٢٦٩).

لاعتداء الأشرار وضعاف النفوس؛ فتفقد الحياة بهجتها وجمالها.

الحياء:

الحياء خلق نبيل يحول بين من يتمتع به وبين فعل المحرمات وإتيان المنكرات، ويصونه من الوقوع في الأوزار والآثام، وهو كذلك الامتناع عن فعل كل ما يستقبحه العقل، ولا يقبله الذوق السليم، والكف عن كل ما لا يرضى به الخالق والمخلوق، فإذا تحلى المسلم بهذا الخلق صحت سريره وعلاقته، وعامل الخلق بما يرضاه مولاه، وكذلك فإن المسلم الحي لا يقبل إلا الحلال من كل شيء، في المطعم والمشرب والملبس وغير ذلك، كما يعد الحياء دليلاً صادقاً على مقدار ما يتمتع به المرء من أدب وإيمان، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: "الحياء من الإيمان" (١).

ولقد حثت الشريعة الإسلامية المسلمين على التحلي بفضيلة الحياء، وبيّن النبي ﷺ أن هذا الخلق الشريف هو أبرز ما يتميز به الإسلام من فضائل، فقال ﷺ: "إن لكل دين خلقاً، وخلق الإسلام الحياء" (٢). وإذا استحكم خلق الحياء في نفس المسلم صدّه عن كل قبيح، وقاده إلى كل أمر حسن طيب، والحياء لا يأتي إلا بخير، أما إذا ضعف هذا الخلق فلن يحل محله إلا السفه والوقاحة والفحش، ويجد الإنسان نفسه أمام أبواب مفتوحة من السوء والمنكر فينزلق إليها؛ لذا قال ﷺ:

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحياء من الإيمان (٢٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان (١٦٣).
٢. حسن: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب الحياء (٤١٨٢)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢١٤٩).

"إذا لم تستح فاصنع ما شئت" (٣).

ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة في التمسك بخلق الحياء، فقد قال الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري رضي الله عنه واصفاً رسول الله: "كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه" (٤).

وإذا كان الحياء من الناس حسناً، فإن الأحسن منه كثيراً أن يكون الحياء من الله تعالى؛ لأنه يمنع الإنسان من المعاصي دائماً، وقد روى عن الرسول ﷺ أنه قال لأصحابه: "استحيوا من الله حق الحياء"، قال: قلنا: يا رسول الله، إنا نستحيي والحمد لله، قال: "ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، ولتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء" (٥).

وقد نقل عن الصديق رضي الله عنه: استحيوا من الله، فإني لأدخل الخلاء فأقنع رأسي حياء من الله تعالى (٦).

الحلم:

الحلم هو ضبط النفس عند الغضب، والصبر على

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت (٥٧٦٩).
٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب (٥٧٥١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه (٦١٧٦).
٥. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (٣٦٧١)، والترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٥٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٩٣٥).
٦. أخرجه هناد بن السري في الزهد (٢ / ٦٢٧) برقم (١٣٥٦).

وأعطي سائلهم، وأسعى في حوائجهم، فمن فعل منهم فعلى فهو مثلي، ومن جاوزني فهو أفضل مني، ومن قصر عني فأنا خير منه".

وإن الحلم فضيلة تقع بين رذيلتين متباعدتين، فمن وراء يمين الحلم، يأتي التباطؤ والكسل، والتواني والإهمال، وتبكد الطبع عند مثيرات الغضب، ومن وراء يسار الحلم يأتي التسرع في الأمور، واستعجال الأشياء قبل أوانها، والذي جعل الحلم فضيلة خلقية هو اعتداله، ومسايرته لمقتضى العقل السليم، والآثار النافعة المفيدة الخيرة التي تترتب عليه، ولقد ضرب رسول الله ﷺ أروع المثل للمسلمين في الحلم؛ فقد روى البخاري عن أبي هريرة قال: بال أعرابي في المسجد، فقام الناس ليقعوا فيه، فقال النبي ﷺ: "دعوه وأريقوا على بوله سجلاً من ماء، أو ذنوب من ماء، فإنها بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين" (٣).

فقد علم الرسول ﷺ في هذا أصحابه، كيف يكون الحلم بالجاهلين؟، وكيف يكون الرفق بهم؟ ومن حلم الرسول ﷺ عدم دعائه على الذين آذوه من قومه، وقد كان باستطاعته أن يدعو عليهم فيهلكهم الله، ولحلمه بهم غاية يهدف إليها؛ فهو يرحمهم لعلمهم بعد مدة يؤمنون فينجون من عذاب النار، فيحلم بهم رجاء إصلاحهم.

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء صلوات الله عليهم، ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه

الأذى، من غير ضعف ولا عجز ابتغاء وجه الله تعالى، وتتفاوت قدرات الناس في ضبط النفس والصبر على الأذى، فمنهم من يكون سريع الانفعال ويقابل الأذى دون النظر في العواقب، ومنهم من يتمالك نفسه، ويكبح جماح غضبه، ويتحلى بالصبر والحلم، ويتلمس الأعذار والمبررات لمن أساء إليه، وهذا هو الرجل الحليم، وقد كان رسول الله ﷺ يوصي أصحابه ﷺ بالتحلي بالحلم في تعاملهم، ويحثهم عليه بنفس القدر الذي يحثهم على طلب العلم، وكان مع ما أعطاه الله من خلق عظيم وصفات حميدة يدعو الله بأن يجعل الحلم زينة له فيقول: "اللهم أغني بالعلم، وزيني بالحلم، وأكرمني بالتقوى، وجملي بالعافية" كما يرفع الله تعالى منزلة الرجل الحليم، فإنه يناصره ويقف إلى جواره أمام من يعاديه، فقد روي أن رجلاً جاء إلى الرسول ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي قرابة أصْلُهُم يقطعوني، وأحسن إليهم ويسيتئون إليّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليّ، فقال له الرسول ﷺ: "لئن كنت كما قلت فكأنما تفسقهم المَلّ" (١)، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك" (٢).

يعد الحلم وسيلة إلى تبوء المراكز الهامة في المجتمع، وكانت العرب تقول في أمثالها: "من حلم ساد" ومن هؤلاء الذين تزعموا أقوامهم بسبب حلمهم عرابة بن أوس، والأحنف بن قيس، وروي أن معاوية بن أبي سفيان قال لعرابة بن أوس: بم سدت قومك يا عرابة؟ فقال عرابة: يا أمير المؤمنين، كنت أحلم عند جهلهم،

١. المَلّ: الجُمُر.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٦٦٨٩).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد (٢١٧).

ويقول: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" (١).

والغضب هو مفتاح الشر، فالشخص الذي يغضب سريعاً كثيراً ما تصدر عنه تصرفات خاطئة، لذا روي أن أبا الدرداء قال: يا رسول الله، دلني على عمل يدخلني الجنة، قال رسول الله ﷺ: "لا تغضب ولك الجنة" (٢). وقد مدح ﷺ شيخ عبد القيس فقال: "إن فيك خصلتين يجبهها الله: الحلم والأناة" (٣).

ويروى أن عمر بن عبد العزيز دخل المسجد في إحدى الليالي، وكان مظلمًا لا نور فيه فعثر برجل نائم، فرفع الرجل رأسه إليه وقال: أجنون أنت؟ فقال عمر بن عبد العزيز: لا، فهم الشرطي الذي كان يصحبه بضرب الرجل، فقال له عمر: "لا تفعل إنما سألتني أجنون أنا؟ فقلت: لا"، وكما رغب الإسلام بالحلم وحث عليه، حذر من الأخلاق المنافية له، وعمل على تربية المسلمين تربية عملية تأخذ بأيديهم حتى يكونوا حلما.

وإن الحلم لفضيلة حيوية للمسلمين، فهو يصون علاقاته مع أهله وجيرانه، وزملائه وشركائه، وكل من يتعامل معه، وكلما زادت سلطاته وقدراته ونفوذه، كان حلمه أنفع له ولمن يحلم بهم.

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ﴿أمر حَبِيبٌ أَنْ أَصْحَبَ الْكَهْفَ وَالرَّقِيمَ﴾ (الكهف: ٩) (٣٢٩٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد (٤٧٤٧).

٢. صحيح: أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٣/ ٢٥) برقم (٢٣٥٣)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٧٤٩).

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى (١٢٧).

رابعاً. حقيقة الحرب في الإسلام من خلال نصوص القرآن والحديث:

تعتبر قضية الحرب في الإسلام من أكثر القضايا التي اعتمد عليها أعداء الإسلام في إثبات عدم صلاحية الأخلاق الإسلامية لبناء مجتمع فاضل، وهذا الادعاء لا يثبت أمام النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، وأعمال الصحابة والتابعين، التي تدور حول الحروب الإسلامية، أو الفتوحات الإسلامية بالمعنى الدقيق.

إن آيات كثيرة من القرآن الكريم تدعو إلى إرساء السلام، ولا تسمح بالحرب إلا إذا كانت حرباً دفاعية، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ يَأْتَهُمْ ظُلُمًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج)، فالظلم واقع على المسلمين من قبل أعدائهم، وليس صادراً من المسلمين لمجرد إرهاب الناس، وإن وقعت الحرب بين المسلمين وغيرهم، فيجب ألا يعتدي المسلمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة).

وتنهي الآيات القرآنية عن حرب المسلمين من غير المسلمين، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُواكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمُ السَّلَامُ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (النساء)، وقال أيضاً: ﴿لَا يَهْذَبُ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنَّ تَبَرُّهُمُ وَقَسْطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ مُجِيبُ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المتحنة)، وعليه، فالسلام فرض أساسي في القرآن.

لا أحد ينكر الحروب البربرية لقهر العالم في التاريخ المسيحي، أما حروب الرسول ﷺ فكانت دفاعية أو

وقائية لمنع هجوم عليه أو على الإسلام، فلا خلاف على أن مكة بدأت بمعاداته واضطهاده ومحاولة استئصاله، وتبعتها قبائل الجزيرة العربية، ويمكن تلخيص قانون الإسلام الدفاعي فيما يأتي:

واجب الأمة الإسلامية أن تسلح نفسها في أوقات السلم لتردع أي هجوم عليها، وفي الآية الستين من سورة الأنفال، إذا دخلت دولة حليفة في حرب فعلى الدولة الإسلامية الالتزام بمعاهداتها حتى لو كانت مع دولة غير مسلمة، قال تبارك تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَنَّهُدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأَ وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجَرُوا وَإِنْ أَسْتَضَرُّوكُمْ فِي الَّذِينَ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الأنفال)، وهذا بمثابة تحول ثوري جاء به القرآن في العلاقات الدولية.

يجب على كل المسلمين الذكور الاشتراك في الحروب الدفاعية، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (١١٠) ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْتَنُوهُمْ وَآخِرُجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (١١١) ﴿فَإِنْ أَنهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة). ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ

وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١١٢) ﴿(البقرة). ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج)، ومن ثم فهم مطلوبون للخدمة العسكرية بصفة عامة.

الحرب محرمة تمامًا بين المسلمين؛ فذلك ما يخالف تمامًا الغرض الذي شرعت الحرب لأجله، ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أَنهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١١٣) ﴿(البقرة)، ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ (٦٠) ﴿(الحج).

ومن المعلوم أن الإسلام دين السلام، لا يأمر بالحرب إلا في الضرورة القصوى التي تستدعي الدفاع والجهاد في سبيل الله، ومع مشروعية الجهاد في سبيل الله دفاعاً عن الدين والعقيدة والأرض والعرض، فإن الحرب في الإسلام لها حدود وضوابط، وللمسلمين أخلاقهم التي يتخلقون بها، حتى في حربهم مع من يحاربهم من غير المسلمين، فأمر الإسلام بالحفاظ على أموال المخالفين، وبترك الرهبان في صوامعهم دون التعرض لهم، ونهى عن الخيانة والغدر والغلول، كما نهى عن التمثيل بالقتلى، وعن قتل الأطفال والنساء والشيوخ، وعن حرق النخيل والزروع وقطع الأشجار المثمرة، وأوصى أبو بكر رضي الله عنه أسامة بن زيد عندما وجهه إلى الشام بالوفاء بالعهد، وعدم الغدر أو التمثيل، وعاهد خالد بن الوليد أهل الحيرة ألا يهدم لهم بيعة، ولا كنيسة، ولا قصرًا، ولا يمنعهم من أن يدقوا نواقيسهم أو أن يخرجوا صلبانهم في أيام أعيادهم.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه رحيماً بغير المسلمين من أهل الكتاب، وكان ينصح سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه،

عندما أرسله في حرب الفرس، بأن يكون في حربه بعيداً عن أهل الذمة، وأوصاه ألا يأخذ منهم شيئاً؛ لأن لهم ذمة وعهداً، كما أعطى عمر رضي الله عنه أهل إيلياء أماناً في أموالهم وكنائسهم وصلبانهم، وحذر من هدم كنائسهم.

وأمر الإسلام بحسن معاملة الأسرى وإطعامهم، قال تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ وَشَكِيمًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (٨) (الإنسان)، بينما يعامل غير المسلمين أسرى المسلمين معاملة سيئة؛ فقد يقتلونهم، وقد يسترقونهم، أو يكلفونهم أشق الأعباء والأعمال، ولم يقبل الإسلام أن يمثل بالأعداء في الحروب مهما كان أمره، وعندما حقق الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أمنيته بفتح مكة المكرمة ودخلها فاتحاً منتصراً ظافراً لم ينتقم منهم واختار العفو عنهم.

الخلاصة:

• لو كانت الأخلاق الإسلامية لا تكفي لبناء مجتمع فاضل، فكيف استطاع المسلمون - في وقت قصير في عمر الحضارات - بناء حضارة هي أعظم حضارة عرفها البشر على مر العصور؟

• ادّعاء أن الأخلاق الإسلامية تقوم على الكراهية والبغض ادّعاء فاسد، ينافي الحقائق الواقعية في التاريخ، وينم عن جهل مدعيه بنصوص القرآن والسنة، وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين من بعده.

• تتميز الأخلاق الإسلامية عن الأخلاق الوضعية بمصدرها الإلهي، وبقيامها على الخوف من الله ومراقبته، وهذا ما يضمن لها البقاء والدوام.

• اعترافات الغربيين بتميز الحضارة الإسلامية في جانب الأخلاق، أوضح دليل على صلاحيتها لكل زمان ومكان.

• النصوص القرآنية والأحاديث النبوية تؤكدان أن الحرب في الإسلام لها أخلاق وضوابط، تنأى بها عن التعدي والجور.



المصادر والمراجع

- الإباضية، عامر النجار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- إبليس في التصور الإسلامي، إمام حنفي سيد عبد الله، دار الآفاق العربية، مصر، ط١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.
- الإتيقان في علوم القرآن الكريم، السيوطي، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، د. ت.
- آثار الحرب في الفقه الإسلامي، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م.
- الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، القرافي، تحقيق: بكر زكي عوض، دار ابن الجوزي، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين، عبد الرحمن الناصر بن سعدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- آراء يهدمها الإسلام، شوقي أبو خليل، دار الفكر، بيروت، ط٥، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- الإرشاد إلى مواضع الأدلة في أصول الاعتقاد، الجويني، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.
- أسئلة العصر المحيرة، محمد فتح الله كولن، ترجمة: أورهان محمد علي، دار النيل، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م.
- أساليب الغزو الفكري، د. علي محمد جريشة، د. محمد شريف الزبيق، دار الاعتصام، مصر، ١٩٧٨م.
- أسس الفلسفة، د. توفيق الطويل، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٥٥م.
- الأسس المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية، د. يحيى هاشم، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٨م.
- الإسلام دين الفطرة والحرية، عبد العزيز جاویش، دار الهلال، القاهرة، د. ت.
- الإسلام في تصورات الغرب، د. محمود حمدي زقزوق، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، ط٦، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
- الإسلام في معركتي البناء والنصر، محمد علم الدين، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، سلسلة دراسات في العقيدة، د. ت.
- الإسلام والعقل، د. عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٨٨م.
- الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، تعريب: ظفر الإسلام خان، مراجعة: د. عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢٢، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.
- الأسماء والصفات، البيهقي، تحقيق: محمد زاهر الكوثر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.
- أصول الدين، البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٠هـ / ١٩٨١م.
- أصول العقيدة الإسلامية: دراسات وبحوث، د. محمد سلامة أبو خليفة، دار الهاني، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

- إظهار الحق، رحمة الله بن خليل الهندي، دار الحرمين للطباعة، مصر، ط ٢، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.
- الاعتصام، الشاطبي، تحقيق: محمد طعيمة، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٤م.
- الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث: دراسة تاريخية، وتطبيقات معاصرة، مروان وحيد شعبان التفتازي، دار المعرفة، بيروت، ط ١، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.
- أعداء الحل الإسلامي، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م.
- أعلام النبوة، الماوردي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- أعلام النبوة، الماوردي، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٤م.
- إفريقيا تحت أضواء جديدة، بازل دافدنسن، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦١م.
- إفلاس الماركسية، أحمد حسين، دار الوفاء، المنصورة، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م.
- الاقتصاد في الاعتقاد، أبو حامد الغزالي، مكتبة الحسين التجارية، القاهرة، ط ١، د. ت.
- أقطاب العلمانية في العالم العربي والإسلامي، طارق منينة، دار الدعوة، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- الله في العقيدة الإسلامية، أحمد بهجت، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، د. ت.
- الإلهيات في العقيدة الإسلامية، د. محمد سيد أحمد المسير، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٩٩م.
- أمجاد الرسالة المحمدية، د. مصطفى الحديدي الطير، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٥م.
- الإنسان والداروينية، محمد صالح كريم خان، مطبعة الموصل، العراق، ١٩٧٦م.
- الإنسان والغيب، د. حبيب الرحمن، مجموعة محاضرات أُلقيت على طلبة كلية الدعوة، جامعة الأزهر، القاهرة.
- الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، أبو بكر الباقلائي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٣م.
- إنه الحق: محاوره علمية أجراها الشيخ عبد المجيد الزنداني، دار وحي القلم، بيروت، ط ١، ٢٠٠٤م.
- الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.
- البابية والبهاية في الميزان، مجموعة من علماء الأزهر، مطبوعات الأزهر، مصر، ١٩٨٥م.
- بحوث وفتاوى إسلامية من قضايا معاصرة، جاد الحق علي جاد الحق، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- البداية والنهاية، ابن كثير، دار الريان للتراث، القاهرة، ط ١، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
- البهاية في ميزان الشريعة، د. عمارة نجيب، د. محمود عثمان، وزارة الأوقاف، القاهرة، ١٤٠٥هـ.
- البيان في تحليل وتوجيه الإشكالات التي تثار حول قصص القرآن، د. عاطف المليجي، مكتبة اقرأ، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- البيان لما يشغل الأذهان، د. علي جمعة، المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة، د. ت.
- بين الدين والحياة في رحلة قطار، د. عبد الحليم حفني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٤م.

- تاريخ الطرق الإسلامية، د. محمود محمد مزرعة، دار المنار، القاهرة، د. ت.
- تاريخ المذاهب الإسلامية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٦ م.
- التسامح في الفكر الإسلامي، د. جعفر عبد السلام، سلسلة فكر المواجهة، رابطة الجامعات الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٥ م.
- التشريع الجنائي في الإسلام، عبد القادر عودة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٧، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م.
- تعالوا نعيد النظر فيما نعتقد، حسن يوسف، دار الشعب، القاهرة، د. ت.
- التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، محمد الغزالي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥ م.
- التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٣ م.
- تغيب الإسلام الحق، د. محمود توفيق محمد، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م.
- تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، القاهرة، ط ١، ١٩٩١ م.
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م.
- التفكير فريضة إسلامية، عباس محمود العقاد، دار القلم، القاهرة، ط ١، د. ت.
- تهافت العلمانية، د. عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م.
- توحيد الخالق والإعجاز العلمي في القرآن، عبد المجيد عبد العزيز الزنداني، دار السلام، القاهرة، ط ٥، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م.
- التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي، ترجمة: مجموعة من الدعاة، طبعة دار الكندي، بيروت.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، مكتبة الصفا، القاهرة، ط ١، ١٤٢٥ هـ.
- الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، د. شوكت محمد عليان، دار الشَّوَّاف، الرياض، ط ٢، ١٩٩٦ م.
- ثقافتنا في مواجهة العصر، د. زكي نجيب محمود، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ت.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.
- الجذور التاريخية والجسور الحضارية بين الإسلام والغرب، د. محمد محمد أبو ليلة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م.
- الجواب الفسيح لما لُفَّقه عبد المسيح، الألوسي، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، دار الجليل، بيروت، د. ت.
- حتى الملائكة تسأل، رحلة إلى الإسلام في أمريكا، جيفر لانغ، ترجمة: منذر العبسي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ٢٠٠١ م.
- حرية الاعتقاد في الشريعة الإسلامية، د. عبد الله ناصح علوان، دار السلام، القاهرة، ط ٤، ٢٠٠٤ م.
- حرية الاعتقاد في القرآن الكريم، عبد الرحمن حلي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط ١، ٢٠٠١ م.

- حرية الفكر في الإسلام، د. عبد المتعال الصعيدي، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ت.
- حضارة العرب، جوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، د. ت.
- حقائق إسلامية في مواجهة حملات التشكيك، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط ١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.
- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس محمود العقاد، مطبعة مصر، القاهرة، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م.
- حقيقة التوحيد، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٥، ١٩٩١م.
- حوارات مع أوريين غير مسلمين، د. عبد الله أحمد قادري الأهدل، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٩٩٠م.
- خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٣م.
- خصائص المصطفى بين الغلو والجفاء، د. الصادق بن محمد بن إبراهيم، دار المنهاج، الرياض، ط ١، ١٤٢٦هـ.
- خلق لا تطور، مجموعة من العلماء، ترجمة، د. إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٣م.
- دائرة معارف الفقه والعلوم الإسلامية، محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، ط ١، ٢٠٠١م.
- الدر المنثور في التفسير المأثور، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ط ٥، ١٩٨٣م.
- دراسات في العقيدة الإسلامية، د. عبد الحميد مدكور، دار الهاني، القاهرة، مجموعة محاضرات أُلقيت على طلاب كلية دار العلوم، جامعة القاهرة.
- دراسات في العقيدة الإسلامية، د. محمد أحمد الخطيب، د. محمد الهزايمة، دار عمار، عمان، ط ٥، ١٩٩٧م.
- دراسات في الفلسفة العربية، عبده الشامي، دار صادر، بيروت، ط ٥، د. ت.
- دراسات في القرآن الكريم، د. محمد عبد السلام، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٧م.
- دراسة إسلامية في العمل والعمال، لبيب السعيد، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٨٥م.
- دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، د. موريس بوكاي، دائرة المعارف الأمريكية، د. م. د. ت.
- دراسة نقدية في ضوء الإسلام، د. عبد الرحمن بن زيد الزبيدي، مكتبة المؤيد، الرياض، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
- دستور الأخلاق في القرآن، محمد عبد الله دراز، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، د. ت.
- دعوة أهل الكتاب إلى دين رب العباد، د. سعيد عبد العظيم، دار العقيدة، القاهرة، د. ت.
- دفاع عن السنة، د. محمد محمد أبو شعبة، مكتبة السنة، القاهرة، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.
- دقائق التفسير، ابن تيمية، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ١٩٨٤م.

- دلائل التوحيد، جمال الدين القاسمي، دار النفائس، بيروت، ط ١، ١٩٩١ م.
- ديكارت والعقلانية، جنيفاف روديس لويس، ترجمة: عبده الحلو، دار منشورات عويدات، بيروت، ط ٢، ١٩٧٧ م.
- الدين، د. محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، ط ٢، ١٣٩٠ هـ.
- الدين والحضارة الإنسانية، د. محمد البهي، مكتبة وهبة، القاهرة، د. ت.
- الدين والحياة، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، د. ت.
- رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد السيد الشربيني، مطابع دار الصحافة، مصر، ط ١، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م.
- الرد على الجهمية والزنادقة، الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق وتعليق: عبد الرحمن عميرة، دار اللواء للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٢ م.
- الرد على الدهريين، جمال الدين الأفغاني، ترجمة: الإمام محمد عبده، نشر الإسلام العالمية، د. م، ١٩٨٣ م.
- الرد على المنطقيين، ابن تيمية، طبعة معارف لاهور، باكستان، ط ٢، ١٣٩٦ هـ.
- رد مفتريات على الإسلام، د. عبد الجليل شلبي، دار القلم، الكويت، ط ١، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م.
- الرسالة والرسول في العقيدة الإسلامية، محمد سيد أحمد المسير، مكتبة الصفا، القاهرة، ط ١، ٢٠٠١ م.
- ركائز الإيمان، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط ١، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م.
- سلسلة القصص القرآني: آدم عليه السلام، د. حمزة النشري، مؤسسة الأهرام، القاهرة، د. ت.
- سماحة الإسلام، د. أحمد الحوفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧ م.
- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط ٨، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م.
- السيرة النبوية، ابن هشام، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.
- شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي، أنور الجندي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٧٨ م.
- شبهات المستشرقين حول العبادات في الإسلام، ناصر محمد السيد، مركز التنوير الإسلامي، القاهرة، ط ١، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٦ م.
- شبهات المعترضين ومفترياتهم حول صدق نبوة محمد ورسالته، ماهر عبد الوهاب محمد حجاج، الاتحاد الأخوي، القاهرة، ١٩٩٨ م.
- شبهات وردود حول العقيدة الربانية وأصل الإنسان، د. عبد الله علوان، دار السلام، القاهرة، ط ٨، ٢٠٠٧ م.
- شرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني، محمد الزرقاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦ م.
- شرح العقيدة الواسطية، محمد صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، الرياض، ط ٣، ١٤١٦ هـ.

- شرح المجيد في شرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن بن حسن النجدي، مكتبة المعارف، الرباط، ١٤١٩هـ.
- شرح المقاصد، التفتازاني، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.
- شرح النووي على مسلم، دار إحياء التراث، بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٢م.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت.
- شفاء العليل، ابن قيم الجوزية، مكتبة دار التراث، القاهرة، د. ت.
- الشفاعة: محاولة لفهم الخلاف القديم بين المؤيدين والمعارضين، د. مصطفى محمود، أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٩٩م.
- صراع مع الملاحدة حتى العظم، عبد الرحمن حسن الميداني، دار العلم، دمشق، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- صور من سماحة الإسلام، د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الربيع، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٠٨هـ.
- طريق المهجرتين وباب السعادتين، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م.
- عالم الجن والشياطين، د. عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥.
- العبادة في الإسلام، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢٤، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.
- العدالة الاجتماعية في الإسلام، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٦، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.
- عرف الله، محمد إبراهيم، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.
- العقائد الإسلامية، السيد سابق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.
- العقيدة الإسلامية في مواجهة التيارات الإلحادية، فرج الله عبد الباري، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.
- العقيدة الإسلامية وأثرها في حماية الفرد والمجتمع، د. فتحي إبراهيم منصور، دار البيان، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- العقيدة الإسلامية والأيدلوجيات المعاصرة، د. عبد الغني عبود، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٨٠م.
- عقيدة التوحيد، د. صالح بن فوزان، مؤسسة الحرمين الخيرية، الرياض، د. ت.
- عقيدة المؤمن، أبو بكر الجزائري، دار الكتب السلفية، القاهرة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- عقيدة المسلم، محمد الغزالي، دار الشروق، القاهرة، د. ت.
- عقيدة المسلمين والعقائد الباطلة، د. محمد عبد المنعم القيقي، رسالة الإمام، وزارة الأوقاف، العدد التاسع، رمضان ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- عقيدة أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، مكتبة فياض، المنصورة، ٢٠٠٥م.
- العقيدة في الله، د. عمر سليمان عبد الله الأشقر، دار السلام، القاهرة، دار النفائس، عمان، ط١، ٢٠٠٥م.

- عقيدتنا، د. محمد ربيع جوهري، طبعة خاصة، ط ٣، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
- العلم والدين في الفلسفة المعاصرة، إميل باترو، ترجمة: أحمد فؤاد الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م.
- العمل في الإسلام، د. محمد عبد الرحمن بيسار، مقال منشور بمجلة الوعي الإسلامي، الكويت، عدد شعبان ١٣٩٥هـ / أكتوبر ١٩٧٥م.
- العمل في رمضان، عبد الرحيم فودة، مجلة الأزهر، القاهرة، عدد رمضان ١٣٩٤هـ / ١٩٧٣م.
- العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع، د. أحمد بن عبد الله بن إبراهيم الزغبى، مكتبة العبيكان، الرياض، ط ١، ١٩٩٨م.
- الغارة على التراث الإسلامي، جمال سلطان، دار الجيل، بيروت، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب وآخرين، دار الريان للتراث، القاهرة، ط ١، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.
- فتح القدير، الشوكاني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣م.
- الفرق بين الفرق عبد القاهر بن طاهر البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- الفضائل الخلقية في الإسلام، مكتبة دار العلوم، الرياض، ١٤٠٢هـ.
- الفلسفة القرآنية، عباس محمود العقاد، دار السلام، القاهرة، د. ت.
- الفلسفة الماركسية اللينينية، ترجمة: لويس اسكاروس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨١م.
- فلسفة برتراند رسل، د. محمد مهران، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦م.
- في الطريق إلى الله: التوكل، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط ١٣، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- قرآن أمريكي ملفق "الفرقان الحق"، د. إبراهيم عوض، زهراء الشرق، مصر، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
- القرآن والرسول ومقولات ظالمة، د. عبد الصبور مرزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
- القرآن وصحوة العقل، د. محمد محمد داود، دار المنار، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل، بيروت، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.
- قصة الهداية، عبد الله ناصح علوان، دار السلام، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٥م.
- قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، دار القدس، القاهرة، ط ١، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٦م.
- قصص القرآن، محمد بكر إسماعيل، دار المنار، القاهرة، ط ١، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.

- القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة، د. عمر سليمان عبد الله الأشقر، دار السلام، القاهرة، دار النفائس، الأردن، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
- قضايا إسلامية: مناقشات وردود، د. محمد رجب البيومي، الوفاء للطباعة والنشر، مصر، ١٩٨٤م.
- قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، د. فضل حسن عباس، دار البشير، عمان، ط٢، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م.
- القيامة الكبرى، د. عمر سليمان الأشقر، دار السلام، القاهرة، دار النفائس، الأردن، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
- كُبرى اليقينات الكونية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط٢٥، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
- الكشاف، الزمخشري، المكتبة التجارية، مصر، ١٣٥٤هـ.
- كشف الخفا ومزيل الإلباس، محمد العجلوني، تحقيق: محمد الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.
- لا يأتيه الباطل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.
- لسان العرب، ابن منظور، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م.
- اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، الأشعري، تحقيق: حمودة عزابة، مطبعة القاهرة، مصر، ١٩٥٥م.
- المؤامرة الخفية ضد الإسلام والمسيحية، د. أحمد محمد عوف، الزهراء للإعلام العربي، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
- مؤثرات الثقافة الإسلامية، د. صلاح فضل، دار الشروق، القاهرة، د. ت.
- مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤م.
- مباحث في أصول الفقه، د. نادية محمد شريف العمري، دار هجر، القاهرة، ط١، ١٤١٠هـ.
- مجلة الزهراء، كلية الدراسات الإسلامية والعربية، فرع البنات جامعة الأزهر، العدد ٢٣، ٢٠٠٥م.
- مجلة منار الإسلام، الإمارات، جمادى الأولى ١٤١٨هـ.
- مجموعة التوحيد: الرسالة الأولى، محمد بن عبد الوهاب، دار الفكر، بيروت، د. ت.
- محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، د. ت.
- محاور الالتقاء ومحاور الافتراق بين المسيحية والإسلام، غسان سليم، دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.
- محمد ﷺ والخناسر المسمومة الموجهة إليه، د. نبيل لوقا بباوي، دار البباوي للنشر، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- مختصر موقف العلم والعقل والعالم من رب العالمين المسمى "القول الفصل"، مصطفى صبري، مكتبة النور، القاهرة، ١٩٨٦م.
- مدارج السالكين، ابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.
- المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مكتبة السنة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م.
- مدخل لمعرفة الإسلام: مقوماته.. خصائصه.. أهدافه.. مصادره، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٣، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

- المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها، د. عبد الرحمن عميرة، دار الجليل، بيروت، ط ٤، د. ت.
- المستصفى، أبو حامد الغزالي، المطبعة الأميرية، مصر، ١٣٢٢هـ.
- المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، د. عبد المنعم فؤاد، مكتبة العبيكان، الرياض، ط ١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.
- المسيحية: نشأتها وتطورها، شارل جينيير، ترجمة: د. عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، ط ٤، ١٩٩٦م.
- مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي: دراسة نقدية في ضوء الإسلام، د. عبد الرحمن بن زيد الزبيدي، مكتبة المؤيد، الرياض، ط ١، ١٤٢٤هـ / ١٩٩٢م.
- مع الطب في القرآن الكريم، عبد الرحمن دياب، أحمد حمدي قرقوز، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، د. ت.
- مع القرآن الكريم: رؤية مستنيرة لحقائق الإيمان والحياة، كتاب يصدر عن "المقاولون العرب"، القاهرة، ط ١، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
- معارج القبول بشرح سلم الوصول، حافظ بن أحمد حَكَمي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط ١، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط ٣، ١٩٨٥م.
- المغني في أبواب العدل والتوحيد، القاضي عبد الجبار المعتزلي، تحقيق: مجموعة من الأساتذة، إشراف د. طه حسين، مراجعة: د. إبراهيم مدكور، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٥م.
- مفاتيح الغيب، الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.
- مفاهيم ينبغي أن تصحح، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط ٩، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.
- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، دار المعرفة، بيروت، د. ت.
- مفهوم الشيطان في الفكر العربي، د. ناصر محمود وهدان، القاهرة، ١٩٩٩م.
- المفيد في علم التوحيد، حبيب الله حسن أحمد، مجموعة محاضرات أُلقيت على طلاب كلية الدعوة، جامعة الأزهر.
- المقاصد الحسنة، السخاوي، تحقيق: عبد الله الصديق وآخرين، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٩١م.
- من معالم الإسلام، محمد فريد وجدي، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مكتبة نزار، الرياض، ١٩٩٦م.
- المنتخب في التفسير، منشورات الدعوة الإسلامية العالمية، القاهرة، ١٩٧٢م.
- المنصفون للإسلام في الغرب، رجب البنا، دار المعارف، مصر، ٢٠٠٥م.

- منهاج الأدلة في عقائد الملة، ابن رشد، تحقيق: د. محمود قاسم، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٦٤م.
- منهج السلف بين العقل والتقليد، د. محمد السيد الجليلند، مكتبة العمرانية، القاهرة، ١٩٩٤م.
- مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢، ٢٠٠٥م.
- مواطنون لا ذميّون، فهمي هويدي، دار الشروق، القاهرة، ط ٤، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
- الموافقات، الشاطبي، تحقيق: عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ١٩٩٦م.
- موافقة صريح المعقول للمنقول، ابن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م.
- موجز دائرة المعارف، فريق من المستشرقين، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.
- الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ط ١، ١٤٠٨هـ.
- نظرات جديدة في القرآن المعجزة، محمد عادل القلقيلي، دار الجليل، بيروت، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
- نظرية القيم، د. حامد ربيع، نهضة الشرق، القاهرة، ١٩٧٤م.
- نظرية تقويم الفرد وتنظيم المجتمع في الإسلام، محمد موسى عثمان، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، سلسلة: البحوث الإسلامية، أغسطس ١٩٨٠.
- نقد الثقافة الإلحادية، د. أحمد عبد الرحمن إبراهيم، دار هجر، القاهرة، ط ١، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م.
- نهاية الإقدام في علم الكلام، الشهرستاني، تحقيق: أحمد فريد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٤م.
- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن قيم الجوزية، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.
- هذا هو الحق: رد على مفتريات كاهن الكنيسة، ابن الخطيب، المطبعة المصرية، القاهرة، ١٩٧٩م.
- الوحداية، بركات دويدار، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط ١، د. ت.
- الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، مكتبة القاهرة، القا، ط ٦، ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م.
- الوحي والملائكة في اليهودية والمسيحية والإسلام، لواء: أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٧٩م.
- وظيفة الدين في الحياة وحاجة الناس إليه، د. محمد الزحيلي، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، ط ٢، ١٤٢٨هـ / ١٩٩٩م.
- وظيفة المسلم في مجتمعه، أبو الوفا المراغي، مجلة الأزهر، القاهرة، عدد يناير ١٩٧٦م.
- وقاية الإنسان من الجن والشيطان، وحيد بن عبد السلام، دار ابن الهيثم، مصر، ط ١١، ١٤٢٢هـ.
- اليوم الآخر في الكتاب والسنة، د. عبد الباقي أحمد عطا الله، دار المنار، مصر، ١٩٨٨.



موسوعة

بيان الإسلام

الرد على الافتراءات والشبهات

القسم الأول : القرآن

المجلد الرابع

ج ٦

شبهات حول

العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد



العنوان:
موسوعة بيان الإسلام
الرد على الافتراءات والشبهات
القسم الأول: القرآن
المجلد الرابع (ج ٦، ج ٧)

إشراف عام:
داليا محمد إبراهيم

جميع الحقوق محفوظة © لدار نهضة مصر للنشر

يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين
أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية
أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

الترقيم الدولي: 977-14-4241-4

رقم الإيداع: 2010/10883

الطبعة الأولى: يناير 2011

تليفون: 33466434 - 02 33472864

فاكس: 02 33462576

خدمة العملاء: 16766

Website: www.nahdetmisr.com

E-mail: publishing@nahdetmisr.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة